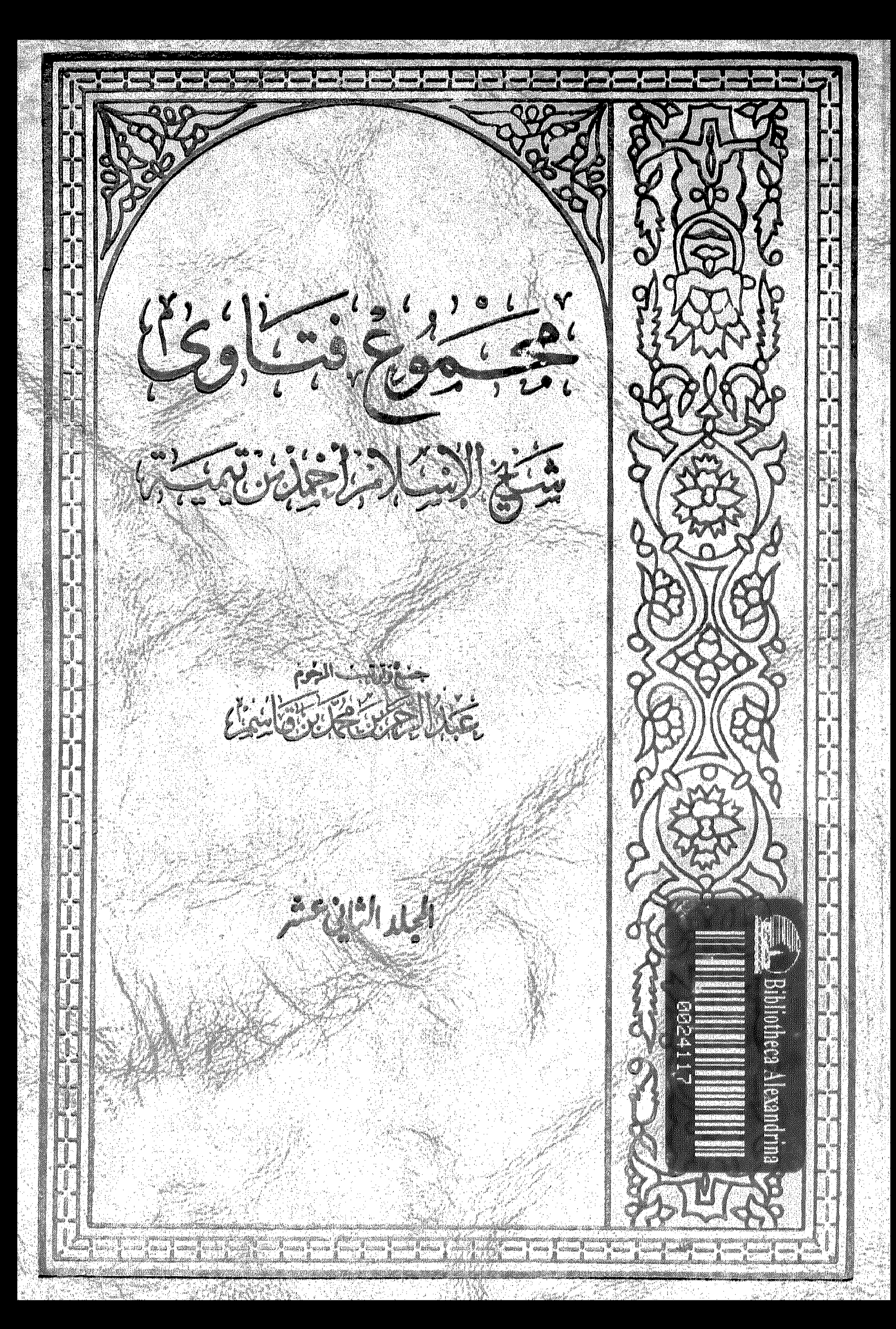

مجموع فتاوى
شيخ الإسلام أحمد بن تيمية
جمع وترتيب المرحوم
عبد الرحمن بن محمد بن قاسم
المجلد الثاني عشر

مجموع فتاوى

شيخ الإسلام أحمد بن تيمية

قدس الله روحه

جمع وترتيب المرحوم

عبد الرحمن بن محمد بن قاسم

بمساعدة ابنه محمد

المجلد الثاني عشر

كتابُ

القرآنُ

كلامُ اللهِ حقيقةً

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

قال الشيخ الامام ابو العباس

احمد بن تيمية رضى الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، واشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ ارسله بالهدى ودين الحق (ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً) صلى الله عليه وسلم تسليما .

قاعدة في القرآن وكلام الله

فان الأمة اضطربت فى هـذا اضطراباً عظيما ، وتفرقوا واختلفوا بالظنون والأهواء بعد مضي القرون الثلاثة ، لمـا حدثت فيهم الجهمية المشتقة من الصـابئة ، وقد قال الله تعالى : (وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفي شقاق بعيد) ، وقال تعـالى : (كان الناس أمة واحـدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وانزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيـه من الحق باذنه)

والاختلاف « نوعان » : اختلاف فى تنزيله واختلاف فى تأويله .

والمختلفون الذين ذمهم الله هم المختلفون فى الحق ، بأن ينكر هؤلاء الحق الذي مع هؤلاء ، أو بالعكس . فان الواجب الايمان بجميع الحق المنزل . فاما من آمن بذلك وكفر به غيره فهذا اختلاف يذم فيه أحد الصنفين كما قال تعالى : (تلك الرسل فضلنـا بعضهم على بعض) إلى قوله :

(ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر) والاختلاف فى تنزيله أعظم ، وهو الذي قصدنا هنا ، فنقول :

« الاختلاف فى تنزيله » هو بين المؤمنين والكافرين ، فان المؤمنين يؤمنون بما أنزل ، والكافرون كفروا بالكتاب وبما ارسل الله به رسله فسوف يعلمون . فالمؤمنون بجنس الكتاب والرسل من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين يؤمنون بذلك ، والكافرون بجنس الكتاب والرسل من المشركين والمجوس والصابئين يكفرون بذلك .

وذلك ان الله ارسل الرسل إلى الناس لتبلغهم كلام الله الذي انزله إليهم ، فمن آمن بالرسل آمن بما بلغوه عن الله ، ومن كذب بالرسل كذب بذلك . فالايمان بكلام الله داخل فى الايمان برسالة الله إلى عباده ، والكفر بذلك هو الكفر بهذا ، فتدبر هذا الأصل ، فانه فرقان هذا الاشتباه ؛ ولهذا كان من يكفر بالرسل : تارة يكفر بأن الله له كلام أنزله على بشر ، كما أنه قد يكفر برب العالمين : مثل فرعون وقومه ، قال الله تعالى : (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم ان انذر الناس) الآية ، وقال تعالى عن نوح وهود : (أوعجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) وقال (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما انزل الله على بشر من شيء) إلى آخر الكلام

فان فى هذه الآيات تقرير قواعد ، وقال عن الوحيد : (إن هـذا إلا قول البشر) .

ولهذا كان أصل « الايمان » الايمان بما أنزله . قال تعــالى : (الم ذلك الـكتاب لا ريب فيه هـــدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة) إلى قوله : (والذين يؤمنون بمــا أنزل إليك ومــا أنزل من قبلك) وفى وسط السورة : (قولوا آمنا بالله وما أنزل الينــا ، ومــا أنزل إلى إبراهيم) الآية . وفى آخرهــا : (آمــن الرسول بمــا أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) الآيتين . وفى السورة التى تليها : (الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، نزل عليك الـكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه ، وانزل التوراة والانجيل من قبل هــدى للناس ، وانزل الفرقان) . وذكر فى اثنــاء السورة الايمان بما انزل ، وكذلك فى آخرها : (ربنا اننا سمعنــا مناديا ينادي للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا) إلى قوله : (وإن من اهل الـكتاب لمن يؤمن بالله وما انزل إليــكم وما أنزل إليهم) الآية .

ولهذا عظم تقرير هذا الاصل فى القرآن . فتارة يفتتح به السورة إما اخباراً كقوله : (ذلك الكتاب) وقوله . (الر تلك آيات الكتاب الحكيم) وقوله : (الر ، كتاب احكمت آياته) الآية . وكذلك ال « طس » و ال « حم » . فعامة ال « الم » و ال « الر » ؛ و ال « طس » ، وال « حم » كذلك .

وإما ثناء بانزاله كقوله : (الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا) (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده) الآية .

واما فى اثناء السور فكثير جداً ، وثنى قصة موسى مع فرعون ؛ لأنهما فى طرفى نقيض فى الحق والباطل ، فان فرعون فى غاية الكفر والباطل حيث كفر بالربوبية وبالرسالة ، وموسى فى غاية الحق والايمان من جهة ان الله كلمه تكليما لم يجعل الله بينه وبينه واسطة من خلقه ، فهو مثبت لكمال الرسالة وكمال التكلم ، ومثبت لرب العالمين بما استحقه من النعوت ، وهذا بخلاف اكثر الأنبياء مع الكفار ، فان الكفار اكثرهم لا يجحدون وجود الله ولم يكن ايضاً للرسل من التكليم ما لموسى ؛ فصارت قصة موسى وفرعون اعظم القصص واعظمها اعتباراً لأهل الايمان ولأهل الكفر ؛ ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقص على امته عامة ليله عن بني اسرائيل ، وكان يتأسى بموسى فى أمور كثيرة ، ولما بشر بقتل ابي جهل يوم بدر قال هذا فرعون هذه الأمة ، وكان فرعون وقومه من الصابئة المشركين الكفار ؛ ولهذا كان يعبد الهة من دون الله ، كما اخبر الله عنه بقوله : (ويذرك وآلهتك) وان كان عالما بما جاء به موسى مستيقنا له ، لكنه كان جاحداً مثبوراً ، كما اخبر الله بذلك فى قوله : (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) الآية . وقال تعالى :

(ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) إلى قوله : (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) الآية .

والكفار بالرسل من قوم نوح وعاد ، وثمود وقوم لوط ، وشعيب وقوم ابراهيم ، وموسى ومشركي العرب ، والهند والروم والبربر ، والترك واليونان والكشدانيين ، وسائر الأمم المتقدمين والمستأخرين يتبعون ظنونهم واهواءهم ، ويعرضون عن ذكر الله ، الذي آتاهم من عنده ، كما قال لهم لما اهبط آدم من الجنة (فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك اصحاب النار هم فيها خالدون) وفي موضع آخر : (فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا) الآية . وفي أخرى (إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي) .

ثم انهم مع انهم ما نزل الله بما هم عليه من سلطان ، إن يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس : يزعمون أن لهم العقل والرأي والقياس العقلي والأمثال المضروبة ، ويسمون أنفسهم الحكماء والفلاسفة ، ويدعون الجدل والكلام ، والقوة والسلطان والمال ، ويصفون اتباع المرسلين بأنهم سفهاء ، واراذل وضلال ، ويسخرون منهم ، قال الله تعالى :

(فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون) وقال : (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) وقال تعالى : (ان الذين اجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون) إلى قوله (وما ارسلوا عليهم حافظين) وقال تعالى عن قوم نوح : (أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ؟) وقالوا : (ما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادي الراي) وقال :(زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا) وقال : (كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) بل هم يصفون الأنبياء بالجنون والسفه والضلال وغير ذلك ، كما قالوا عن نوح : (مجنون ، وازدجر) وقالوا : (انا لنراك فى ضلال مبين) ولهود : (انا لنراك في سفاهة) .

فصل

و « الايمان بالرسل » يجب أن يكون جامعاً عاما ، مؤتلفاً لا تفريق فيه ، ولا تبعيض ولا اختلاف ؛ بأن يؤمن بجميع الرسل وبجميع ما انزل اليهم . فمن آمن ببعض الرسل وكفر ببعض ، أو آمن ببعض ما أنزل الله وكفر ببعض فهو كافر ، وهذا حال من بدل وكفر من اليهود والنصارى والصابئين ؛ فان

هؤلاء فى أصلهم قد يؤمنون بالله واليـوم الآخر ويعملون صالحـاً ؛ فأولئك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . كما قال تعـالى : (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين ، من آمن بالله واليـوم الآخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ونحوه فى المائدة .

ومنهم مـن فرق فآمن ببعض وكفر ببعض ، كما قال تعـالى عن اليهود : (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله ، قالوا : نؤمن بما أنزل علينـا ويكفرون بما وراءه) الآيات وقال تعـالى : (إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسـله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ، أولئك هم الـكافرون حقاً) الآية . وقال تعالى : (قولوا آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى ابراهيم واسماعيل) الآيتين وقال عـن المؤمنين (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله) وقال : (شرع لـكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ؛ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) .

وذم الذين تفرقوا واختلفوا فى الكتب ، وهم الذين يؤمنون ببعض دون بعض ، فيكون مع هؤلاء بعض ومـع هؤلاء بعض ، كقوله :

(وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفي شقاق بعيد) وقوله : (وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم) وقوله : (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) وقال تعالى : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شيء) .

فصل

التفريق والتبعيض قد يكون فى القدر تارة ، وقد يكون فى الوصف : إما فى الكم وإما فى الكيف ، كما قد يكون فى التنزيل تارة ، وفى التأويل أخرى ؛ فان الموجود له حقيقة موصوفة ، وله مقدار محدود ، فما أنزل الله على رسله قد يقع التفريق والتبعيض فى قدره ، وقد يقع في وصفه .

فالأول مثل قول اليهود : نؤمن بما أنزل على موسى دون ما أنزل على عيسى ومحمد . وهكذا النصارى فى إيمانهم بالمسيح دون محمد . فمن آمن ببعض الرسل والكتب دون بعض فقد دخل في هذا ؛ فانه لم يؤمن بجميع المنزل ، وكذلك من كان من المنتسبين إلى هذه الأمة يؤمن

ببعض نصوص الكتاب والسنة دون بعض ؛ فان البدع مشتقة من الكفر .

واما « الوصف » فمثل اختلاف اليهود والنصارى فى المسيح : هؤلاء قالوا إنه عبد مخلوق ؛ لكن جحدوا نبوته وقدحوا في نسبه ، وهؤلاء أقروا بنبوته ورسالته ؛ ولكن قالوا هو الله ، فاختلف الطائفتان فى وصفه وصفته ، كل طائفة بحق وباطل .

ومثل « الصابئة الفلاسفة » الذين يصفون إنزال الله على رسله بوصف ، بعضه حق وبعضه باطل ؛ مثل أن يقولوا : ان الرسل تجب طاعتهم ، ويجوز أن يسمى ما أتوا به كلام الله ؛ لكنه إنما أنزل على قلوبهم من الروح الذي هو العقل الفعال فى السماء الدنيا لا من عند الله ، وهكذا ما ينزل على قلوب غيرهم هو أيضاً كذلك ، وليس بكلام الله فى الحقيقة ، وإنما هذا فى الحقيقة كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وانه سمى كلام الله مجازاً . فهؤلاء أيضاً مبعضين مفرقين ؛ حيث صدقوا ببعض صفات ما أنزل الله وبعض صفات رسله دون بعض ، وربما كان ما كفروا به من الصفات اكثر مما آمنوا به ، كما ان ما كفر به اليهود من الكتاب أكثر وأعظم مما آمنوا به ؛ لكن هؤلاء اكفر من اليهود من وجه ، وان كان اليهود أكفر منهم من وجه آخر .

فان من كان من هؤلاء يهودياً أو نصرانياً فهو كافر من الجهتين ، ومن كان منهم لا يوجب اتباع خاتم الرسل بل يجوز التدين باليهودية والنصرانية فهو أيضاً كافر من الجهتين ، فقد يكون أحدهم أكفر من اليهود والنصارى الكافرين بمحمد والقرآن ، وقد يكون اليهود والنصارى أكفر ممن آمن منهم بأكثر صفات ما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم ؛ لكنهم في الأصل أكفر من جنس اليهود والنصارى ، فان أولئك مقرون فى الأصل بكمال الرسالة والنبوة ، وهؤلاء ليسوا مقرين بكمال الرسالة والنبوة . كما أن من كان قديماً مؤمناً من اليهود والنصارى صالحاً فهو أفضل ممن كان منهم مؤمناً صالحاً ، وكذلك من كان من المنتسبين إلى الاسلام مؤمناً ببعض صفات القرآن ، وكلام الله وتنزيله على رسله ، وصفات رسله دون بعض ، فنسبته إلى هؤلاء كنسبة من آمن ببعض نصوص الكتاب والسنة دون بعض إلى اليهود والنصارى.

ومن هنا تتبين الضلالات المبتدعة في هذه الأمة ، حيث هي من الايمان ببعض ما جاء به الرسول دون بعض ، وإما ببعض صفات التكليم والرسالة والنبوة دون بعض ، وكلاهما إما فى التنزيل وإما فى التأويل .

فصــــــل

والسبب الذي أوقع هـؤلاء فى الكفر ببعض ما أنزله هو من جنس ما أوقع الأولين فى الكفر بجميع ما أنزل الله فى كثير من المواضع ، فان من تأمل وجد شبه اليهود والنصارى ومن تبعهم من الصابئين فى الكفر بما أنزل الله على محمد صـلى الله عليه وسلم هي مـن جنس شبه المشركـين والمجوس ، ومن معهم مـن الصابئين فى الـكفر بجنس الـكتاب ، وبمـا أنزل الله على رسله فى كثير مـن المواضع ؛ فانهـم يعترضون على آياته ، وعلى الـكتاب الذي أنزل معـه ، وعلى الشريعة التى بعث بها وعلى سيرته بنحو مما اعترض به على سائر الرسل : مثل موسى وعيسى ، كما قال الله تعـالى فى جميعهم : (ما يجادل فى آيات الله الا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البـلاد ، كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق) إلى قوله : (كذلك يضل الله مـن هو مسرف مرتاب : الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان آتاهم ، كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا) وفى الآية الأخرى : (ان فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله) إلى قوله : (ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون ؟! الذين كذبوا بالـكتاب وبمـا أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون) .

هذا مع أن السلطان الذي أيد الله به رسوله من أنواع الحجج المعجزات ، وأنواع القدر الباهرات ، أعظم مما أيد به غيره ، ونبوته هي التى طبق نورها مشارق الأرض ومغاربها ، وبه ثبتت نبوات من تقدمه ، وتبين الحق من الباطل ، والا فلولا رسالته لكان الناس فى ظلمات بعضها فوق بعض ، وأمر مريج ، يؤفك عنه من أفك : الكتابيون منهم والأميون ؛ ولهذا لما كان ما يقال له إلا ما قد قيل للرسل من قبله : أمره الله سبحانه باستشهاد أهل الكتاب على مثل ما جاء به .

وهذا من بعض حكمة إقرارهم بالجزية ، كقوله تعالى : (فان كنت فى شك مما أنزلنا اليك فاسئل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك) وقوله : (كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب) وقوله : (وما أرسلنا من قبلك الا رجالاً نوحي إليهم ، فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، بالبينات والزبر ، وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) وفى الآية الأخرى : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام) الآية . ومثل قوله : (قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله) .

وجماع شبه هؤلاء الكفار : أنهم قاسوا الرسول على من فرق الله بينه وبينه ، وكفروا بفضل الله الذي اختص به رسله ، فأتوا من

جهة القياس الفاسد . ولا بد في القياس من قدر مشترك بين المشبه والمشبه به : مثل جنس الوحي والتنزيل ؛ فان الشياطين ينزلون على أوليائهم ويوحون إليهم ، كقوله : (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم) وقال سبحانه : (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك اثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) .

وقال تعالى : فى ال « طس » وقد افتتح كلامهن بقصة موسى وتكليم الله إياه . وإرساله الى فرعون ، فانها أعظم القصص كما قدمناه ، فقال فى سورة الشعراء المحتوية على قصص المرسلين واحداً بعد واحد ، وهي « سبع » : قصة موسى وابراهيم ، ونوح وهود ، وصالح ولوط وشعيب ، ثم قال عن القرآن : (وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين) إلى قوله : (وأنهم يقولون ما لا يفعلون) فذكر الفرق بينه وبين من تنزل عليه الشياطين من الكهان والمتنبئين ونحوهم ، وبين الشعراء ؛ لأن الكاهن قد يخبر بغيب بكلام مسجوع ، والشاعر أيضاً يأتي بكلام منظوم يحرك به النفوس ، فان قرين الشيطان مادته من الشيطان ، ويعين الشيطان بكذبه وفجوره . والشاعر مادته من نفسه ، وربما أعانه الشيطان .

فأخبر أن الشياطين إنما تنزل على من يناسبها وهو : الكاذب في قوله ، الفاجر فى عمله ؛ بخلاف الصادق البر . وان الشعراء إنما يحركون

النفوس إلى أهوائهـا فيتبعهم الغاوون ، وهم الذين يتبعون الأهواء ، وشهوات الغي ، فنفى كلا منهما بانتفاء لازمـه ، وبين ما يجتمـع فيه شياطين الأنس والجن .

فصـــل

إذا تبين هذا الأصل ظهر به اشتقاق البدع من الكفر ، فنقول: كما أن الذين اثنى الله عليهم من الذين هادوا والنصارى كانوا مسلمين مؤمنين ، لم يبدلوا ما أنزل الله ، ولا كفروا بشيء مما أنزل الله ، وكان اليهود والنصارى صاروا كفاراً من جهة تبديلهم لما أنزل الله ، ومن جهة كفرهم بما أنزل على محمد ، فكذلك الصابئـة صاروا كفاراً مـن جهة تبديلهم لما أنزل الله ، ومن جهة كفرهم بمـا أنزل الله على محمد ، وان كانوا منافقين كما قد ينافق اليهودي والنصراني . وهؤلاء هم المستأخرون من اليهود والنصارى والصابئين .

وذلك ان متأخري الصابئين لم يؤمنوا ان لله كلاماً أو يتـكلم ، ويقول ، أو أنه ينزل من عنده كلاماً وذكراً على أحد من البشر ، أو انه يكلم أحداً مـن البشر ؛ بـل عندهم لا يوصف الله بصفة ثبوتية لا يقولون : إن له علماً ، ولا محبة ولا رحمة ، وينـكرون أن يكون

الله اتخذ ابراهيم خليلاً ، أو كلم موسى تكليماً ، وإنما يوصف عندهم بالسلب والنفي ، مثل قولهم ليس بجسم ، ولا جوهر ، ولا عرض ، ولا داخل العالم ولا خارجه ، أو باضافة ، مثل كونه مبدأ للعالم أو [العلة] الأولى ، أو بصفة مركبة من السلب والاضافة ؛ مثل كونه عاقلا ومعقولا وعقلا .

وعندهم أن الله لا يخص موسى بالتكليم دون غيره ، ولا يخص محمداً بارسال دون غيره ، فانهم لا يثبتون له علماً مفصلا للمعلومات فضلا عن إرادة تفصيلية ؛ بل يثبتون — إذا أثبتوا — له علماً جملياً كلياً ، وغاية جملية كلية ، ومن أثبت النبوة منهم قال : إنها فيض تفيض على نفس النبي من جنس ما يفيض على سائر النفوس ؛ لكن استعداد النبي صلى الله عليه وسلم اكمل ؛ بحيث يعلم ما لا يعلمه غيره ، ويسمع ما لا يسمع غيره ، ويبصر ما لا يبصر غيره ، وتقدر نفسه على ما لا تقدر عليه نفس غيره .

والكلام الذي تقوله الأنبياء هو كلامهم وقولهم ؛ وهؤلاء الذين يقولون عن القرآن (ان هذا الا قول البشر) فان « الوحيد » الذي هو الوليد بن المغيرة كان من جنسهم ؛ كان من المشركين الذين هم صابئون ايضاً ، فان الصابئين كأهل الكتاب تارة يجعلهم الله قسما من المشركين ، وتارة يجعلهم الله قسيما لهم ، كما قال تعالى : (لم يكن الذين

كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين) (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم) .

وكذلك لما ذكر الملل الست في الحج فقال : (ان الذين آمنوا والذين هادوا) الآية وقال تعالى (اتخذوا احبارهم ورهبانهم ارباباً من دون الله) الآية وهذا بعد قوله : (وقالت اليهود عزير بن الله ، وقالت النصارى المسيح بن الله) إلى قوله : (ولو كره الكافرون) وقال : (لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم) فاذا كان اليهود والنصارى قد يكونون مشركين فالصابئون أولى ، وذلك بعد تبديلهم ، فحيث وصفوا بالشرك فبعد التبديل ، وحيث جعلوا غير مشركين فلأن أصل دينهم الصحيح ليس فيه شرك ، فالشرك مبتدع عندهم ؛ فينبغي التفطن لهذه المعاني .

وكان الوحيد من ذوي الرأي والقياس والتدبير من العرب ، وهو معدود من حكمائهم وفلاسفتهم .

ولهذا اخبر الله عنه بمثل حال المتفلسفة فى قوله : (انه فكر وقدر فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم ادبر واستكبر ، فقال : إن هذا الا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر)

ثم إن هؤلاء فيما تقوله الأنبيـاء حيارى متهوكون ؛ فانـه بهرهم نور النبوة ، ولم تقع على أصولهم الفاسدة ، فصاروا على « انحاء » : منهم من لا يؤمن بكثير مما تقوله الأنبيـاء والمرسلون ؛ بل يعرض عنـه أو يشك فيـه أو يكذب به ، ومنهم من يقول : يجوز الكذب لمصلحـة راجحة ، والأنبياء فعلوا ذلك ، ومنهم من يقول : يجوز هذا لصالح العـامة دون الخاصـة ، وأمثلهم من يقول : بل هـذه تخيلات وأمثلة مضروبة لتقريب الحقـائق إلى قلوب العامة ، وهـذه طريقة الفارابي وابن سينا ؛ لكن ابن سينا أقرب إلى الايمان من بعض الوجوه ، وان لم يكن مؤمناً .

فمن ادركته رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وبهرته براهينها وانوارها ورأى ما فيها من أصناف العلوم النافعة ، والأعمـال الصالحة ـــ حتى قال ابن سينا : اتفق فلاسفة العالم على انه لم يطرق العالم ناموس أفضل من هذا الناموس ـــ فلا بد ان يتأول نصوص الكتاب والسنـة على عادة اخوانه في تحريف الكلم عن مواضعـه ، فيحرفون ما اخبرت به الرسل عن كلام الله ؛ تحريفاً يصيرون به كفاراً ببعض تأويل الكتاب في بعض صفات تنزيله .

فلما رأوا أن الرسل سمت هذا الكلام كلام الله ، واخبرت أنـه نزلت بـه ملائكة الله ، مثل الروح الأمين جبريل ، أطلقت هـذه

العبارة فى الظاهر ، وكفرت بمعناهـا في الباطن ، وردوهـا إلى اصلهم أصل الصابئين ، وصاروا منافقين فى المسلمين وفى غيرهم من أهل الملل .

فيقولون : هذا القرآن كلام الله ، وهذا الذي جاءت به الرسل كلام الله ، ولكن المعنى انه فاض على نفس النبي صلى الله عليـه وسلم من العقل الفعال ، وربما قالوا ان العقل هو جبريل . الذي ليس على الغيب بضنين أي بخيل ؛ لأنه فياض . ويقولون ان الله كلم موسى من سماء عقله ، وان اهل الرياضة والصفا يصلون إلى ان يسمعوا ما سمعه موسى كما سمعه موسى .

وقد ضل بكلامه كثير من المشهورين مثل « ابي حامـد الغزالي » ذكر هذا المعنى فى بعض كتبـه ، وصنفوا « رسائل اخوان الصفـا » وغيرها ، وجمعوا فيها على زعمهم بين مقالات الصابئة المتأخرين التى هي الفلسفة المبتدعة وبين ما جاءت به الرسل عن الله ، فأتوا بما زعموا انه معقول ولا دليل على كثير منه ، وربما ذكروا أنه منقول . وفيـه من الكذب والتحريف أمر عظيم ، وانما يضلون به كثيراً بما فيه من الأمور الطبيعية والرياضية ، التى لا تعلق لها بأمر النبوات والرسالة لا بنفي ولا باثبات ، ولكن ينتفع بهـا فى مصالح الدنيا : كالصنـاعات من الحراثـة والحياكة ، والبناية والخياطة ونحو ذلك .

فاذا عرف ان حقيقة قول هؤلاء المشركية الصابئة ، ان القرآن قول البشر كغيره ، لكنه أفضل من غيره ، كما أن بعض البشر أفضل من بعض ، وانه فاض على نفس النبي صلى الله عليه وسلم من المحل الأعلى كما تفيض سائر العلوم والمعارف على نفوس أهلها ، فاعلم ان هذا القول كثر فى كثير من المتأخرين المظهرين للاسلام ، وهم منافقون وزنادقة ، وان ادعوا كمال المعارف من المتفلسفة والمتكلمة ، والمتصوفة والمتفقهين ، حتى يقول احدهم — كالتلمساني — كلامنا يوصل إلى الله والقرآن يوصل إلى الجنة . وقد يقول بعضهم — كابن عربي — إن الولي يأخذ من حيث ما يأخذ الملك الذي يوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم . ويقول كثير منهم ان القرآن للعامة وكلامنا للخاصة .

فهؤلاء جعلوا القرآن عضين ، وضربوا له الأمثال : مثل ما فعل المشركون قبلهم ، كما فعلوا بالنبي صلى الله عليه وسلم . فان هؤلاء منهم من يفضل الولي الكامل والفيلسوف الكامل على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من يفضل بعض الأولياء على زعمه ، أو بعض الفلاسفة : — مثل نفسه أو شيخه أو متبوعه — على النبي صلى الله عليه وسلم . وربما قالوا هو افضل من وجه والنبي أفضل من وجه ، فلهم من الالحاد والافتراء فى رسل الله نظير مالهم من الالحاد والافتراء فى رسالات الله ، فيقيسون الكلام الذي بلغته الرسل عن الله بكلامهم ، ويقيسون رسل الله بأنفسهم . وقد بين الله حال هؤلاء فى مثل قوله : (وما قدروا

الله حق قدره إذ قالوا ما انزل الله على بشر من شيء) إلى ان قال : (ومـن اظلم ممن افترى على الله كذباً ، أو قال أوحى إلي ولم يوح إليـه شيء ، ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله) فذكر الله انزال الكتابين ، الذين لم ينزل من عند الله كتاب اهدى منهما ــ التوراة والقرآن ــ كما جمع بينهما فى قوله : (وقالوا سحران تظاهرا ، وقالوا : انا بكل كافرون . قل فأتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما اتبعه ان كنتم صادقين)

وكذلك الجن لمـا استمعت القرآن (قالوا : ياقومنا ! إنا سمعنـا كتاباً انزل من بعد موسى) الآية . وقال تعـالى : (قل أرأيتم ان كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهـد من بني اسرائيل على مثله فآمن) ولهذا قال النجاشي لما سمع القرآن : ان هـذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة .

ثم ذكر تعالى حال الكذاب والمتنبيء . فقال : (ومن أظـلم ممن افترى على الله كذبا ، أو قال : أوحى إلي ولم يوح إليه شيء ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) فجمع فى هذا بين من أضاف ما يفتريه إلى الله ، وبين من يزعم أنه يوحى إليه ولا يعين من أوحاه ، فان الذي يدعى الوحي لا يخرج عن هذين القسمين .

ويدخل في « القسم الثانى » من يُرِى عينيه فى المنام مالا تريا ،

ومن يقول : القى فى قلبي والهمت ونحو ذلك إذا كان كاذباً .

ويدخل في « القسم الأول » من يقول : قال الله لي أو أمرني الله أو وافقني أو قال لي ونحو ذلك ؛ بخيالات أو الهامات يجدها في نفسه ولا يعلم أنها من عند الله ، بل قد يعلم انها من الشيطان ، مثل مسيلمة الكذاب ونحوه . ثم قال تعالى : (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) فهذه حال من زعم ان البشر يمكنهم أن يأتوا بمثل كلام الله ، او ان هذا الكلام كلام البشر بفضيلة وقوة من صاحبه ، فاذا اجتهد المرء أمكن أن يأتى بمثله . وهذا يعم من قال انه يمكن معارضة القرآن ، كابن أبى سرح في حال ردته ، وطائفة متفرقين من الناس ، ويعم المتفلسفة الصابئة المنافقين والكافرين ؛ ممن يزعم أن رسالة الأنبيا كلام فاض عليهم قد يفيض على غيرهم مثله ، فيكون قد أنزل مثل ما أنزل الله فى دعوى الرسل ؛ لأن القائل سأنزل مثل ما أنزل الله قد يقوله غير معتقد أن الله أنزل شيئاً ؛ وقد يقوله معتقداً أن الله أنزل شيئا .

فصل

ولهذا كان أول من اظهر انكار التكليم والمخالة « الجعد بن درهم » فى أوائل المائة الثانية ، وأمر علماء الاسلام ــ كالحسن البصري وغيره ــ

بقتله ؛ فضحى به خالد بن عبد الله القسري أمير العراق بواسط . فقال أيها الناس ! ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فانى مضـح بالجعد بن درهم ، فانه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ، ولم يكلـم موسى تكليماً ! تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيراً . ثم نزل فذبحه . وأخذ ذلك عنه « الجهم بن صفوان » فأنـكر أن يكون الله يتكلم ، ثم نافق المسلمـين فأقر بلفظ الكلام ، وقال : كلامه يخلق في محل كالهواء وورق الشجر .

ودخل بعض أهل الـكلام والجدل من المنتسبين إلى الاسلام مـن المعتزلة ونحوهم الى بعض مقـالة الصابئة والمشركين ، متابعة للجعـد والجهم . وكان مبدأ ذلك أن الصابئة فى « الخلق » على قولين : منهم من يقول إن السموات مخلوقة بعد أن لم تكن ، كما أخبرت بذلك الرسل ، وكتب الله تعالى ، ومنهم من ابتدع فقال : بل هي قديمة أزلية ، لم تزل موجودة بوجود الأول ، واجب الوجود بنفسـه ، ومنهم من قد ينكر الصـانع بالـكلية ، ولهم مقالات كثـيرة الاضطراب فى الخلق والبعث ، والمبـدأ والمعاد ؛ لأنهم لم يكونوا معتصمين بحبل الله تعـالى فيجمعهم ، والظنون لا تجمع الناس فى مثل هذه الأمور التى تعجز الآراء عن إدراك حقائقها الا بوحي من الله تعالى .

وهم انما يناظر بعضهـم بعضاً بالقياس المأخوذ مقدماتـه من الأمور الطبيعية السفلية ، وقوى الطبائع الموجودة فى التراب والمـاء ، والهواء

والحيوان ، والمعدن والنبات ، ويريدون بهذه المقدمات السفلية ان ينالوا معرفة الله وعلم مافوق السموات ، وأول الأمر وآخره ؛ وهذا غلط بين اعترف به أساطينهم بأن هذا غير ممكن ، وانهم لاسبيل لهم الى ادراك اليقين ، وانهم ان يتبعون الا الظن .

فلما كان هذا حال هذه الصابئة المبتدعة الضالة ، ومن اضلوه من اليهود والنصارى ، وكان قد اتصل كلامهم ببعض من لم يهد بهدى الله ، الذي بعث به رسله ، من اهل الكلام والجدل ، صاروا يريدون ان يأخذوا مأخذهم ، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « لتأخذن مأخذ الأمم قبلكم شبراً بشبر وذراعا بذراع » قالوا يارسول الله ! فارس والروم ؟! قال : « ومن الناس إلا فارس والروم ؟ ! » فاحتجوا على حدوث العالم بنحو من مسالك هذه الصابئة ، وهو الكلام فى الأجسام والاعراض ، بأن تثبت الأعراض ثم يثبت لزومها للأجسام ثم حدوثها ، ثم يقال : مالا يسبق الحوادث فهو حادث ، واعتمد كثير من أهل الجدل على هذا في اثبات حدوث العالم . فلما رأوا أن الأعراض — التى هي الصفات — تدل عندهم على حدوث الموصوف الحامل للأعراض التزموا نفيها عن الله ؛ لأن ثبوتها مستلزم حدوثه . وبطلان دليل حدوث العالم — الذي اعتقدوا ان لا دليل سواه ، بل ربما اعتقدوا انه لا يصح إيمان أحد إلا به — معلوم بالاضطرار من دين الاسلام .

وهؤلاء يخالفون « الصابئة الفلاسفة » الذين يقولون بقدم العالم ، وبأن النبوة كمال تفيض على نفس النبي ؛ لأن هؤلاء المتكلمين أكثر حقاً ، واتبع للأدلة العقلية والسمعية لما تنورت به قلوبهم من نور الاسلام والقرآن ، وإن كانوا قد ضلوا فى كثير مما جاءت به الرسل ؛ لكن هم خير من أولئك من وجوه أخرى وافقوا فيها [أهل السنة] فوافقوا أولئك على ان الله لم يتكلم ، كما وافقوهم على أنه لا علم له ولا قدرة ولا صفة من الصفات ، ورأوا ان اثباته متكلما يقتضي أن يكون جسما ، والجسم حادث ؛ لأنه من الصفات الدالة على حدوث الموصوف، بل هو عندهم أدل على حدوث المتكلم من غيره ؛ بل الله يفتقر من الخارج إلى مالا يفتقر اليه غيره ؛ ولأن فيه من الترتيب والتقديم والتأخير ما ليس فى غيره ؛ ولما رأوا أن الرسل اتفقت على انه متكلم والقرآن مملوء باثبات ذلك صاروا تارة يقولون متكلم مجازاً لا حقيقة ، وهذا قولهم الاول لما كانوا فى بدعتهم على الفطرة ، قبل ان يدخلوا فى المعاندة والجحود .

ثم إنهم رأوا أن هذا شنيعاً ؛ فقالوا بل هو متكلم حقيقة ، وربما حكى بعض متكلميهم الاجماع وليس عندهم كذلك ، بل حقيقة قولهم واصله عند من عرفه وابتدعه ان الله ليس بمتكلم ، وقالوا المتكلم من فعل الكلام ولو فى محل منفصل عنه ؛ ففسروا المتكلم فى اللغة

بمعنى لا يعرف فى لغة العرب ولا غيرهم ؛ لا حقيقة ولا مجازاً ؛ وهـذا قول من يقول إن القرآن مخلوق ، وهو أحـد قولـي الصابئة الذين يوافقون الرسل فى حدوث العالم ، وهو وان كان كفراً بما جاءت بـه الرسل فليس هو فى الكفر مثل القول الأول ؛ لأن هؤلاء لا يقولون ان الله أراد أن يبعث رسولاً معيناً ، وان ينزل عليه هـذا الـكلام الذي خلقه ، وانكروا أن يكون متـكلما على الوجه الذي دلت عليـه الكتب الالهية ، واتفقت عليه أهل الفطرة السليمة .

ونشأ بين هؤلاء الذين هم فروع الصابئة وبين المؤمنين اتباع الرسل الخلاف ، فكفر هؤلاء ببعض ما جاءت به الرسل من وصف الله بالـكلام والتكليم ، واختلفوا في كتاب الله فآمنوا ببعض وكفروا ببعض .

واتبع المؤمنون ما انزل اليهم من ربهم من ان الله تكلم بالقرآن ، وانه كلم موسى تكليما ، وانه يتكلم ولم يحرفوا الكـلم عن مواضعه كما فعل الأولون ؛ بل ردوا تحريف أولئك ببصائر الايمان الذي علموا به مراد الرسل من إخبارهم برسالة الله وكلامـه ، واتبعوا هـذا القرآن والحديث واجماع السلف من الصحابة والتابعين وسائر اتباع الانبيـاء ، وعلموا ان قول هؤلاء اخبث من قول اليهود والنصارى ، حتى كان ابن المبارك ـــ امام المسلمين ـــ يقول : إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيـع ان نحكى كلام الجهمية .

وكان قد كثر ظهور هؤلاء الذين هم فروع المشركين ومن اتبعهم من مبدلة الصابئين ، ثم مبدلة اليهود والنصارى فى أوائل المائة الثانية ، وأوائل الثالثة فى إمارة أبى العباس الملقب « بالمأمون » : بسبب تعريب كتب الروم المشركين الصابئين ؛ الذين كانوا قبل النصارى ، ومن اشبههم من فارس والهند . وظهرت علوم الصابئين المنجمين ونحوهم .

وقدم تقدم ان أهل الكلام المبتدع فى الاسلام هم من فروع الصابئين ، كما يقال : المعتزلة مخانيث الفلاسفة . فظهرت هذه المقالة فى أهل العلم والكلام ، وفى أهل السيف والامارة ، وصار فى اهلها من الخلفاء والأمراء ، والوزراء والقضاة ، والفقهاء ما امتحنوا به المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، الذين اتبعوا ما انزل اليهم من ربهم ، ولم يبدلوا ولم يبتدعوا ، وذلك لقصور وتفريط من اكثرهم فى معرفة حقيقة ما جاء به الرسول واتباعه ، والا فلو كان ذلك كثيراً فيهم لم يتمكن أولئك المبتدعة لما يخالف دين الاسلام من التمكن منهم .

فصل

فجاء قوم من متكلمي الصفاتية الذين نصروا ان الله له علم وقدرة وبصر وحياة ، بالمقاييس العقلية المطابقة للنصوص النبوية ، وفرقوا بين الصفات القائمة بالجواهر فجعلوها اعراضاً ، وبين الصفات القائمة بالرب فلم يسموها اعراضاً ؛ لأن العرض مالا يدوم ولا يبقى ، أو ما يقوم بمتحيز أو

جسم ، فصفات الرب لازمة دائمة ليست من جنس الأعراض القائمة بالأجسام .

وهؤلاء أهل الكلام القياسي من الصفاتية فارقوا أولئك المبتدعة المعطلة الصابئة فى كثير من أمورهم ، واثبتوا الصفات التى قد يستدل بالقياس العقلي عليها ، كالصفات السبع وهي : الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والارادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام . ولهم نزاع فى السمع والبصر والكلام ، هل هو من الصفات العقلية أو الصفات النبوية الخبرية السمعية ، ولهم اختلاف فى البقاء والقدم ، وفى الادراك الذي هو ادراك المشمومات والمذوقات والملموسات ، ولهم ايضا اختلاف فى الصفات السمعية القرآنية الخبرية كالوجه واليد ، فاكثر متقدميهم أو كلهم يثبتها وكثير من متأخريهم لا يثبتها ، وأما ما لا يرد إلا فى الحديث فأكثرهم لا يثبتها . ثم منهم من يصرف النصوص عن دلالتها لأجل ماعرضها من القياس العقلي عنده ، ومنهم من يفوض معناها — وليس الغرض هنا تفصيل مقالات الناس فيما يتعلق بسائر الصفات .

وانما المقصود القول في « رسالة الله ، وكلامه » الذي بلغته رسله فكان هؤلاء بينهم وبين أهل الوراثة النبوية قدر مشترك بما سلكوه من الطرق الصابئة فى أمر الخالق ، واسمائه وصفاته ؛ فصار فى مذهبهم فى الرسالة تركيب من الوراثتين ، لبسوا حق ورثة الأنبياء بباطل ، ورثة اتباع الصابئة ، كما كان فى مذهب أهل الكلام المحض المبتدع : كالمعتزلة تركيب ، وليس بين الاثارة النبوية وبين الاثارة الصابئة ؛

لكن أولئك اشد اتباعا للاثارة النبوية ، وأقرب إلى مذهب اهل السنــة من المعتزلة ، ونحوهم من وجوه كثيرة .

ولهذا وافقهم في بعض ما ابتدعوه كثير من أهل الفقه ، والحديث والتصوف ؛ لوجوه :

« أحدهــا » كثرة الحــق الذي يقولونــه ، وظهور الاثــارة النبوية عندهم .

« الثاني » لبسهم ذلك بمقاييس عقلية بعضها موروث عن الصابئة ، وبعضها مما ابتدع فى الاسلام ، واستيلاء ما في ذلك من الشبهات عليهم ، وظنهم انه لم يمكن التمسك بالاثـارة النبوية من اهل العقل والعلم ، الا على هذا الوجه .

« الثالث » ضعف الأثارة النبوية الدافعة لهذه الشبهات ، والموضحة لسبيل الهدى عندهم .

« الرابع » العجز والتفريط الواقع في المنتسبين إلى السنة والحديث : تارة يروون ما لا يعلمــون صحتــه ، وتارة يــكونون كالأميين الذين لا يعلمون الكتاب الا أماني ، ويعرضون عن بيان دلالة الكتاب والسنة على حقائق الأمور .

فلما كان هذا « منهاجهم » وقالوا : إن القرآن غير مخلوق لما دل على ذلك من النصوص واجماع السلف ، ولما رأوا أنه مستقيم على الأصل الذي قرروه في الصفات ، ورأوا ان التوفيق بين النصوص النبوية السمعية ، وبين القياس العقلي لا يستقيم إلا ان يجعلوا القرآن معنى قائماً بنفس الله تعالى — كسائر الصفات ، كما جعله الأولون من باب المصنوعات المخلوقات ، لا قديماً كسائر الصفات — ورأوا انه ليس إلا مخلوق أو قديم ، فان إثبات قسم ثالث قائم بالله يقتضي حلول الحوادث بذاته ، وهو دليل على حدوث الموصوف ، ومبطل لدلالة حدوث العالم .

ثم رأوا أنه لا يجوز ان يكون معاني كثيرة ؛ بل إما معنى واحد عند طائفة ، أو معاني أربعة عند طائفة ، والتزموا على هذا أن حقيقة الكلام هي المعنى القائم بالنفس ، وأن الحروف والاصوات ليست من حقيقة الكلام ؛ بل دالة عليه فتسمى باسمه ؛ اما مجاز عند طائفة ، أو حقيقة بطريق الاشتراك عند طائفة ، وإما مجاز في كلام الله حقيقة في غيره عند طائفة .

وخالفهم الأولون وبعض من يتسنن ايضاً ، وقالوا : لا حقيقة للكلام إلا الحروف والاصوات ، وليس وراء ذلك معنى الا العلم ونوعه ، أو الارادة ونوعها ، فصار النزاع بين الطائفتين .

وأورد على هؤلاء أن الأمر والنهي والخبر صفات للكلام اضافية ليست أنواعاً له وأقساماً ، وأن كلام الله معنى واحد : إن عبر عنه بالعربية فهو قرآن ، وبالعبرية فهو توراة ، وبالسريانية فهو انجيل . وقال لهم أكثر الناس هذا معلوم الفساد بالضرورة ، كما قال الأولون انه خلق الكلام فى الهواء فصار متكلماً به ، وإن المتكلم من أحدث الكلام ولو فى ذات غير ذاته ؛ وقال لهم أكثر الناس : إن هذا معلوم الفساد بالضرورة .

وقال الجمهور من جميع الطوائف : إن الكلام إسم للفظ والمعنى جميعاً ، كما أن الانسان المتكلم إسم للروح والجسم جميعاً ، وأنه إذا أطلق على أحدهما فبقرينة ، وأن معانى الكلام متنوعة ليست منحصرة فى العلم والارادة ، كتنوع ألفاظه ، وإن كانت المعانى أقرب إلى الاتحاد والاجتماع ، والألفاظ أقرب إلى التعدد والتفرق .

والتزم هؤلاء أن حروف القرآن مخلوقة ، وإن لم يكن عندهم الذي هو كلام الله مخلوقاً ، وفرقوا بين كتاب الله وكلامه . فقالوا كتاب الله هو الحروف وهو مخلوق ، وكلام الله هو معناها غير مخلوق . وهؤلاء والأولون متفقون على خلق القرآن الذي قال الأولون انه مخلوق ، واختلف هؤلاء أين خلقت هذه الحروف ؟ هل خلقت في الهواء ؟ أو فى نفس جبرائيل ؟ أو أن جبرائيل هو الذي أحدثها أو محمد ؟

وأما جمهور الأمة وأهل الحديث والفقه والتصوف فعلى ما جاءت به الرسل، وما جاء عنهم من الكتب والاثارة من العلم، وهم المتبعون للرسالة اتباعاً محضاً، لم يشوبوه بما يخالفه من مقالة الصابئين، وهو أن القرآن كلام الله، لا يجعلون بعضه كلام الله وبعضه ليس كلام الله، والقرآن هو القرآن — الذي يعلم المسلمون أنه القرآن — حروفه ومعانيه، والأمر والنهي هو اللفظ والمعنى جميعاً.

ولهذا كان الفقهاء المصنفون فى أصول الفقه من جميع الطوائف: الحنفية والمالكية، والشافعية والحنبلية — إذا لم يخرجوا عن مذاهب الأئمة، والفقهاء — إذا تكلموا فى الأمر والنهي ذكروا ذلك، وخالفوا من قال إن الأمر هو المعنى المجرد، ويعلم أهل الاثارة النبوية — أهل السنة والحديث، عامة المسلمين الذين هم جماهير أهل القبلة — أن قوله تعالى: (ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه) ونحو ذلك هو كلام الله لا كلام غيره، وكلام الله هو ما تكلم به لا ما خلقه فى غيره، ولم يتكلم به.

وسئل شيخ الإسلام

قدس الله روحه(١)

عن رجلين تجادلا في « الأحرف التي أنزلها الله على آدم » فقال أحدهما إنها قديمة ليس لها مبتدأ ، وشكلها ونقطها محدث . فقال الآخر ليست بكلام الله وهي مخلوقة بشكلها ونقطها ، والقديم هو الله ، وكلامه منه بدأ وإليه يعود ، منزل غير مخلوق ، ولكنه كُتِبَ بها . وسألا أيهما أصوب قولاً وأصح اعتقاداً ؟

فأجاب : الحمد لله رب العالمين . أصل هذه المسألة هو معرفة « كلام الله تعالى » . ومذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم باحسان ، وسائر أئمة المسلمين كالأئمة الأربعة وغيرهم ما دل عليه الكتاب والسنة ، وهو الذي يوافق الأدلة العقلية الصريحة أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، فهو المتكلم بالقرآن والتوراة والانجيل وغير ذلك من كلامه ، ليس ذلك

---

(١) تسمى : « مسألة الأحرف التي أنزلها الله على آدم ».

مخلوقاً منفصلاً عنه ، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته ، فكلامه قائم بذاته ، ليس مخلوقاً بائناً عنه ، وهو يتكلم بمشيئته وقدرته ، لم يقل أحد من سلف الأمة إن كلام الله مخلوق بائن عنه ، ولا قال أحد منهم ان القرآن أو التوراة أو الانجيل لازمة لذاته أزلا وأبداً ، وهو لا يقدر أن يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا قالوا إن نفس ندائه لموسى أو نفس الكلمة المعينة قديمة أزلية ، بل قالوا لم يزل الله متكلماً إذا شاء ، فكلامه قديم بمعنى أنه لم يزل متكلماً إذا شاء .

وكلمات الله لا نهاية لها ، كما قال تعالى : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً) ، والله سبحانه تكلم بالقرآن العربي ، وبالتوراة العبرية . فالقرآن العربي كلام الله ، كما قال تعالى : (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) الى قوله : (لسان عربي مبين) فقد بين سبحانه أن القرآن الذي يبدل منه آية مكان آية نزله روح القدس وهو جبريل — وهو الروح الأمين كما ذكر ذلك في موضع آخر — من الله بالحق ، وبين بعد ذلك أن من الكفار من قال : (إنما يعلمه بشر) كما قال بعض المشركين يعلمه رجل بمكة أعجمي ، فقال تعالى : (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي) أي الذي يضيفون إليه هذا التعليم أعجمي (وهذا لسان عربي مبين) .

فني هذا ما يدل على أن الآيات التى هي لسان عربى مبين ، نزلها روح القدس من الله بالحق ، كما قال فى الآيــة الأخرى : (أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليــكم الكتــاب مفصلا ؟ والذين آتينــاهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن مــن الممترين) والكتــاب الذي أنزل مفصلا هــو القرآن العربى باتفاق النــاس ، وقد أخبر أن الذين أتاهم الكتاب يعلمون أنه منزل من الله بالحق ، والعــلم لا يكون إلا حقاً فقال : (يعلمون) ولم يقل يقولون ، فان العلم لايكون إلا حقاً بخلاف القول . وذكر علمهم ذكر مستشهد به .

وقد فرق سبحــانه بين ايحائه الى غير موسى وبين تكليمه لموسى فى قوله تعالى : (إنا أوحينــا إليك كما أوحينــا الى نوح) الى قوله : (حجة بعد الرسل) فرق سبحــانه بين تكليمه لموسى وبــين ايحائه لغيره ، ووكد تكليمه لموسى بالمصــدر ، وقال تعــالى : (تلك الرســل فضلنــا بعضهم على بعض) الى قوله : (روح القدس) وقال تعــالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً) إلى آخر السورة . فقد بين سبحــانه أنه لم يكن لبشر أن يكلمه الله إلا على أحد الأوجه الثلاثة : إما وحياً ، وإما مــن وراء حجــاب ، وإما أن يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء ؛ فجعل الوحي غير التكليم ، والتكليم من وراء حجــاب كان لموسى .

وقد أُخبر فى غير موضع أنه ناداه كما قال : (وناديناه من جانب الطور) الآية . وقال : (فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن) الآية . و « النداء » باتفاق أهل اللغة لا يكون إلا صوتاً مسموعا ، فهذا مما اتفق عليه سلف المسلمين وجمهورهم . وأهل الكتاب يقولون : إن موسى ناداه ربه نداء سمعه باذنه ، وناداه بصوت سمعه موسى ، والصوت لا يكون إلا كلاما ، والكلام لا يكون إلا حروفا منظومة ، وقد قال تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وقال : (حم تنزيل من الرحمن الرحيم) وقال : (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) فقد بين فى غير موضع ان الكتاب والقرآن العربي منزل من الله .

وهذا معنى قول السلف : منه بدأ ، قال أحمد بن حنبل رحمه الله : منه بدأ أي هو المتكلم به ، فان الذين قالوا انه مخلوق قالوا خلقه فى غيره فبدا من ذلك المخلوق ، فقال السلف : منه بدا ، أي هو المتكلم به لم يخلقه فى غيره فيكون كلاما لذلك المحل الذي خلقه فيه ، فان الله تعالى إذا خلق صفة من الصفات فى محل كانت الصفة صفة لذلك المحل ولم تكن صفة لرب العالمين ، فاذا خلق طعما أو لوناً فى محل كان ذلك المحل هو المتحرك المتلون به ، وكذلك إذا خلق حياة أو إرادة أو قدرة أو علماً أو كلاماً فى محل كان ذلك المحل هو المريد ،

القادر ، العالم ، المتكلم بذلك الكلام ، ولم يكن ذلك المعنى المخلوق فى ذلك المحل صفة لرب العالمين ، وإنما يتصف الرب تعالى بما يقوم به من الصفات ، لا بما يخلقه فى غيره من المخلوقات ، فهو الحي ، العليم ، القدير ، السميع ، البصير ، الرحيم ، المتكلم بالقرآن وغيره من الكلام ، بحياته وعلمه وقدرته وكلامه القائم به لا بما يخلقه فى غيره من هذه المعانى .

ومن جعل كلامه مخلوقا لزمه أن يقول المخلوق هو القائل لموسى : (إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ، وأقم الصلاة لذكري) وهذا ممتنع لا يجوز أن يكون هذا كلاماً إلا لرب العالمين ، وإذا كان الله قد تكلم بالقرآن والتوراة وغير ذلك من الكتب بمعانيها وألفاظها المنتظمة من حروفها لم يكن شيء من ذلك مخلوقا ؛ بل كان ذلك كلاماً لرب العالمين .

وقد قيل للامام أحمد بن حنبل : إن فلاناً يقول لما خلق الله الأحرف سجدت له إلا الألف ، فقالت : لا أسجد حتى أؤمر ، فقال : هذا كفر . فأنكر على من قال ان الحروف مخلوقة ؛ لأنه اذا كان جنس الحروف مخلوقا لزم أن يكون القرآن العربي والتوراة العبرية وغير ذلك مخلوقا ، وهذا باطل مخالف لقول السلف والأئمة ، مخالف للادلة العقلية والسمعية ، كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

والناس قد تنازعوا فى كلام الله نزاعا كثيراً ؛ والطوائف الكبـار نحو ست فرق ، فابعدهـا عن الاسلام قول من يقول من المتفلسفـة والصابئة إن كلام الله انمـا هو ما يفيض على النفوس : اما من العقل الفعال ، واما من غيره ، وهؤلاء يقولون : انما كلم الله موسى من سماء عقله اي بكلام حدث فى نفسه لم يسمعه من خارج .

واصل قول هؤلاء أن الأفلاك قديمة أزليـة ، وان الله لم يخلقها بمشيئته وقدرته فى ستة أيام كما اخبرت به الأنبيـاء ، بل يقولون : ان الله لا يعلم الجزئيات ، فلما جاءت الأنبياء بما جاءوا به من الامور الباهرة جعلوا يتأولون ذلك تأويـلات يحرفون فيهـا الكلم عـن مواضعه ، ويريدون ان يجمعوا بينها وبين اقوال سلفهم الملاحدة ، فقـالوا مثل ذلك . وهؤلاء اكفر من اليهود والنصـارى ، وهم كثيروا التنـاقض ، كقولهم ان الصفة هي الموصوف ، وهذه الصفة هي الأخرى فيقولون : هو عقـل وعاقل ومعقول ، ولذيذ وملتذ ولذة ، وعاشـق ومعشوق وعشق . وقد يعبرون عن ذلك بانه حي عالم معلوم ، محـب محبوب ، ويقولون نفس العلم هو نفس المحبة ، وهو نفس القدرة . ونفس العلم هو نفس العالم ، ونفس المحبة هي نفس المحبوب .

ويقولون انه علة تامة في الأزل ؛ فيجب أن يقارنها معلولهـا فى

الأزل فى الزمن وإن كان متقدماً عليها بالعلة لا بالزمان . ويقولون إن العلة التامة ومعلولها يقترنان فى الزمان ويتلازمان ، فلا يوجد معلول إلا بعلة تامة ، ولا تكون علة تامة إلا مع معلولها فى الزمان . ثم يعترفون بان حوادث العالم حدثت شيئاً بعد شيء من غير أن يتجدد من المبدع الأول ما يوجب أن يصير علة للحوادث المتعاقبة ؛ بل حقيقة قولهم أن الحوادث حدثت بلا محدث ، وكذلك عدمت بعد حدوثها من غير سبب يوجب عدمها على أصلهم .

وهؤلاء قابلهم طوائف من أهل الكلام ظنوا أن المؤثر التام يتراخى عنه أثره ، وأن القادر المختار يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح ، والحوادث لها ابتداء ، وقد حدثت بعد أن لم تكن بدون سبب حادث . ولم يهتد الفريقان للقول الوسط ، وهو أن المؤثر التام مستلزم أن يكون أثره عقب تأثيره التام لا مع التأثير ولا متراخياً عنه ، كما قال تعالى : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) فهو سبحانه يكون كل شيء فيكون عقب تكوينه لا مع تكوينه فى الزمان ، ولا متراخياً عن تكوينه ، كما يكون الانكسار عقب الكسر والانقطاع عقب القطع ، ووقوع الطلاق عقب التطليق لا متراخياً عنه ولا مقارناً له فى الزمان .

والقائلون بالتراخي ظنوا امتناع حوادث لا تتناهى ، فلزمهم أن

الرب لا يمكنه فعل ذلك ، فالتزموا أن الرب يمتنع أن يكون لم يزل متكلماً بمشيئته ، ويمتنع أن يكون لم يزل قادراً على الفعل والكلام بمشيئته . فافترقوا بعد ذلك ، منهم من قال : كلامه لا يكون إلا حادثاً ؛ لأن الكلام لا يكون إلا مقدوراً مراداً ، وما كان كذلك لا يكون الا حادثاً ، وما كان حادثاً كان مخلوقاً منفصلاً عنه ؛ لامتناع قيام الحوادث به ، وتسلسلها فى ظنهم .

ومنهم من قال : بل كلامه لا يكون إلا قائماً به ، وما كان قائماً به لم يكن متعلقاً بمشيئته وإرادته ، بل لا يكون إلا قديم العين ؛ لأنه لو كان مقدوراً مراداً لكان حادثاً فكانت الحوادث تقوم به ، ولو قامت به لم يسبقها ولم يخل منها ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ؛ لامتناع حوادث لا أول لها .

ومنهم من قال : بل هو متكلم بمشيئته وقدرته ، لكنه يمتنع أن يكون متكلماً فى الأزل ، أو أنه لم يزل متكلماً بمشيئته وقدرته ؛ لأن ذلك يستلزم وجود حوادث لا أول لها ، وذلك ممتنع .

قالت « هذه الطوائف » : ونحن بهذا الطريق علمنا حدوث العالم ؛ فاستدللنا على حدوث الأجسام بأنها لا تخلوا من الحوادث ولا تسبقها ، وما لم يسبق الحوادث فهو حادث . ثم من هؤلاء من ظن أن هذه

قضية ضرورية ولم يتفطن لاجمالها . ومنهم من تفطن للفرق بين ما لم يسبق الحوادث المحصورة المحدودة وما يسبق جنس الحوادث المتعاقبة شيأ بعد شيء . أما الأول فهو حادث بالضرورة ؛ لأن تلك الحوادث لها مبدأ معين ، فما لم يسبقها يكون معها أو بعدها وكلاهما حادث .

وأما جنس الحوادث شيئاً بعد شيء فهذا شيء تنازع فيه الناس ، فقيل إن ذلك ممتنع فى الماضي والمستقبل ، كقول الجهم وأبي الهذيل . فقال الجهم : بفناء الجنة والنار . وقال أبو الهذيل : بفناء حركات أهلها وقيل : بل هو جائز فى المستقبل دون الماضي ؛ لأن الماضي دخل فى الوجود دون المستقبل . وهو قول كثير من طوائف النظار . وقيل : بل هو جائز فى الماضي والمستقبل . وهذا قول أئمة أهل الملل وأئمة السنة كعبد الله بن المبارك وأحمد بن حنبل ، وغيرهما ممن يقول بأن الله لم يزل متكلماً إذا شاء ، وأن كلمات الله لا نهاية لها وهي قائمة بذاته وهو متكلم بمشيئته وقدرته . وهو أيضاً قول أئمة الفلاسفة .

لكن أرسطو وأتباعه مدعون ذلك فى حركات الفلك ، ويقولون إنه قديم أزلي . وخالفوا فى ذلك جمهور الفلاسفة ، مع مخالفة الأنبياء والمرسلين وجماهير العقلاء . فانهم متفقون على أن الله خلق السموات والأرض ؛ بل هو خالق كل شيء ، وكل ما سوى الله مخلوق حادث كائن بعد أن لم يكن . وإن القديم الأزلي هو الله تعالى بما هو متصف به من صفات

الـكمال وليست صفاته خارجة عن مسمى اسمه ؛ بل من قال عبدت الله ودعوت الله فانما عبد ذاته المتصفة بصفات الـكمال التى تستحقها ، ويمتنع وجود ذاته بدون صفاتها اللازمة لها .

ثم لـما تكلم فى « النبوات » مـن اتبع أرسطو ــ كابن سينا وأمثاله ــ ورأوا ما جاءت به الأنبياء مـن إخبارهم بأن الله يتـكلم ، وانه كلم موسى تـكليماً ، وانه خالق كل شيء ، أخذوا يحرفون كلام الأنبياء عن مواضعه ، فيقولون : الحدوث نوعان ، ذاتي وزماني ، ونحن نقول إن الفلك محدث الحدوث الزماني ؛ بمعنى أنه معـلول وإن كان أزلياً لم يزل مع الله ، وقالوا إنه مخلوق بهذا الاعتبار ، والكتب الالهية أخبرت بأن الله خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، والقديم الأزلي لا يكون فى أيام .

وقد علم بالاضطرار أن ما أخبرت به الرسل مـن أن الله خلق كل شيء ، وأنه خلق كذا إنما أرادوا بذلك أنـه خلق المخلوق ، وأحدثه بعد أن لم يكن ، كما قال : (وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً) والعقول الصريحة توافق ذلك ، وتعـلم أن المفعول المخـلوق المصنوع لا يكون مقارناً للفاعل فى الزمان ولا يكون إلا بعـده ، وأن الفعل لا يكون إلا باحداث المفعول .

وقالوا لهؤلاء قولكم : « إنه مؤثر تام في الازل » لفظ مجمل يراد به التأثير العام فى كل شيء ، ويراد به التأثير المطلق في شيء بعد شيء ويراد به التأثير فى شيء معين دون غيره ؛ فان أردتم « الاول » لزم أن لا يحدث فى العالم حادث ، وهذا خلاف المشاهدة ، وإن أردتم « الثاني » لزم أن يكون كل ما سوى الله مخلوقا حادثاً كائناً بعد أن لم يكن ، وكان الرب لم يزل متكلماً بمشيئته فعالاً لما يشاء ، وهذا يناقض قولكم ويستلزم أن كل ما سواه مخلوق ويوافق ما أخبرت به الرسل ، وعلى هذا يدل العقل الصريح . فتبين أن العقل الصريح يوافق ما أخبرت به الانبياء ، وإن أردتم « الثالث » فسد قولكم ؛ لانه يستلزم انه يشاء [حدوثها] بعد أن لم يكن فاعلاً لها من غير تجدد سبب يوجب الاحداث ، وهذا يناقض قولكم . فان صح هذا جاز أن يحدث كل شيء بعد أن لم يكن محدثاً لشيء ، وإن لم يصح هذا بطل ، فقولكم باطل على التقديرين .

وحقيقة قولكم أن المؤثر التام لا يكون إلا مع أثره ، ولا يكون الاثر إلا مع المؤثر التام فى الزمن ؛ وحينئذ فيلزمكم أن لا يحدث شيء ، ويلزمكم أن كل ما حدث حدث بدون مؤثر ، ويلزمكم بطلان الفرق بين أثر وأثر ، وليس لكم أن تقولوا بعض الآثار يقارن المؤثر التام وبعضها يتراخى عنه .

وأيضاً فكونه فاعلا لمفعول معين مقارن له أزلا وأبداً باطـل فى صريح العقل ، وأيضا فأنتم وسائر العقلاء موافقون على ان الممكن الذي لا يكون [الا] ممكنـاً يقبل الوجود والعـدم ، وهو الذي جعلتموه الممكن الخاص الذي قسيمه الضروري الواجب ، والضروري الممتنـع لا يكون إلا موجوداً تارة ومعدوماً أخرى ، وأن القديم الازلي لايكون إلا ضروريا واجباً يمتنع عدمه . وهذا مما اتفق عليه ارسطو واتباعه حتى ابن سينا ، وذكره فى كتبـه المشهورة « كالشفا » وغـيره . ثم تناقض فزعم أن الفلك ممكن مع كونه قديماً ازلياً لم يزل ولا يزال ، وزعم ان الواجب بغيره القديم الازلي الذي يمتنع عدمه يكون ممكناً يقبل الوجود والعدم . وزعم ان له ماهية غير وجوده . وقـد بسط الـكلام على فساد قول هؤلاء وتناقضه فى غير هذا الموضع .

و « القول الثاني » للناس فى كلام الله تعـالى قول من يقول : ان الله لم يقم به صفة من الصفات ، لا حياة ولا علم ، ولا قدرة ولا كلام ، ولا إرادة ولا رحمة ، ولا غضب ولا غير ذلك ، بـل خلق كلاماً فى غيره فذلك المخلوق هو كلامه ، وهذا قول الجهمية والمعتزلة . وهذا القول ايضاً مخـالف للـكتاب والسنة واجمـاع السلف ، وهو مناقض لاقوال الانبياء ونصوصهم ؛ وليس مع هؤلاء عن الأنبياء قول يوافق قولهم ؛ بل لهم شبه عقلية فاسدة ، قد بينا فسادها فى غير هذا

الموضع . وهؤلاء زعموا أنهم يقيمون الدليل على حدوث العالم بتلك الحجج ، وهم لا للاسلام نصروا ، ولا لأعدائه كسروا .

و « القول الثالث » قول من يقول : انه يتكلم بغير مشيئته وقدرته بكلام قائم بذاته أزلا وابداً ، وهؤلاء موافقون لمن قبلهم فى اصل قولهم ، لكن قالوا الرب تقوم به الصفات ، ولا يقوم به مايتعلق بمشيئته وقدرته من الصفات الاختيارية .

وأول من اشتهر عنه انه قال هذا القول فى الاسلام « عبد الله ابن سعيد بن كلاب » ثم افترق موافقوه ، فمنهم من قال : ذلك الكلام معنى واحد هو الامر بكل مأمور ، والنهي عن كل محظور ، والخبر عن كل مخبر عنه ، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا ، وان عبر عنه بالعبرية كان توراة . وقالوا معنى القرآن والتوراة والانجيل واحد ، ومعنى آية الكرسي هو معنى آية الدين . وقالوا : الأمر والنهي والخبر صفات للكلام لا أنواع له . ومن محققيهم من جعل المعنى يعود الى الخبر ، والخبر يعود الى العلم .

وجمهور العقلاء يقولون : قول هؤلاء معلوم الفساد بالضرورة . وهؤلاء يقولون تكليمه لموسى ليس الا خلق ادراك يفهم به موسى ذلك المعنى . فقيل لهم : أفهم كل الكلام ام بعضه ؟ ان كان فهمه كله

فقد علم علم الله ، وان كان فهم بعضه فقد تبعض ، وعنـدهم كلام الله لا يتبعض ولا يتعدد .

وقيل لهم : قد فرق الله بـين تكليمه لموسى وايحـائه لغـيره . وعلى اصلـكم لا فرق .

وقيل لهم : قد كفر الله من جعل القرآن العربى قول البشر ، وقد جعله تارة قول رسول من البشر . وتارة قول رسول من الملائكة ، فقال فى موضع: (انه لقول رسول كريم . وما هو بقول شـاعر قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) فهذا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وقال فى الآية الأخرى : (انه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاع ثم امين) فهذا جبريل ، فاضافه تارة الى الرسول الملـكي ، وتارة الى الرسول البشري . والله يصطفي من الملائكة رسلا ومن النـاس .

وكان بعض هؤلاء ادعى ان القرآن العربي احدثه جبريل او محمـد فقيل لهم : لو أحدثه احدهما لم يجز إضافته الى الآخر . وهو سبحانه اضافه الى كل منهما باسم الرسول الدال على مرسله لا باسم الملك والنبي فدل ذلك على انه قول رسول بلغه عن مرسله لا قول ملك او نبي احدثه من تلقاء نفسه ، بل قد كفر من قال انه قول البشر .

والطائفة الأخرى التى وافقت ابن كلاب على ان الله لايتكلم بمشيئته وقدرته قالت : بل الكلام القديم هو حروف ، أو حروف وأصوات لازمة لذات الرب أزلا وأبداً لا يتكلم بها بمشيئته وقدرته ، ولا يتكلم بها شيئاً بعد شيء . ولم يفرق هؤلاء بين جنس الحروف وجنس الكلام ، وبين عين حروف قديمة أزلية ، وهذا ايضاً مما يقول جمهور العقلاء انه معلوم الفساد بالضرورة ؛ فان الحروف المتعاقبة شيئاً بعد شيء يمتنع ان يكون كل منها قديماً أزلياً ، وان كان جنسها قديماً ؛ لامكان وجود كلمات لا نهاية لها ، وحروف متعاقبة لا نهاية لها ، وامتناع كون كل منها قديماً أزلياً ، فان المسبوق بغيره لا يكون أزلياً .

وقد فرق بعضهم بين وجودها وماهيتها فقال : الترتيب فى ماهيتها لا فى وجودها ، وبطلان هذا القول معلوم بالاضطرار لمن تدبره ، فان ماهية الكلام الذي هو حروف لا يكون شيئاً بعد شيء ، والصوت لا يكون إلا شيئاً بعد شيء ، فامتنع أن يكون وجود الماهية المعينة أزلياً متقدماً عليها به ، مع ان الفرق بينها بين لو قدر الفرق بينها . ويلزم من هذين الوجهين ان يكون وجودها أيضاً مترتباً ترتيباً متعاقباً .

ثم من هؤلاء من يزعم ان ذلك القديم هو ما يسمع من العباد من الاصوات بالقرآن والتوراة والانجيل أو بعض ذلك ، وكان أظهر

فساداً مما قبله ، فانه يعلم بالضرورة حدوث أصوات العباد .

و « طائفة خامسة » قالت : بل الله يتكلم بمشيئته وقدرته بالقرآن العربي وغيره ؛ لكن لم يكن يمكنه أن يتكلم بمشيئته فى الأزل لامتناع حوادث لا أول لها ، وهؤلاء جعلوا الرب فى الأزل غير قادر على الكلام بمشيئته ، ولا على الفعل كما فعله أولئك ثم جعلوا الفعل والكلام ممكنا مقدوراً من غير تجدد شيء أوجب القدرة والامكان ؛ كما قال أولئك فى المفعولات المنفصلة .

واما السلف فقالوا : لم يزل الله متكلما اذا شاء ، وان الكلام صفة كمال ، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، كما ان من يعلم ويقدر أكمل ممن لا يعلم ولا يقدر ، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته اكمل ممن يكون الكلام لازما لذاته ، ليس له عليه قدرة ولا له فيه مشيئة ، والكمال انما يكون بالصفات القائمة بالموصوف لا بالأمور المباينة له ، ولا يكون الموصوف متكلما عالماً قادراً إلا بما يقوم به من الكلام والعلم والقدرة . واذا كان كذلك فمن لم يزل موصوفا بصفات الكمال اكمل ممن حدثت له بعد أن لم يكن متصفاً بها لو كان حدوثها ممكناً ، فكيف اذا كان ممتنعاً ؟ فتبين ان الرب لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال ، منعوتاً بنعوت الجلال ؛ ومن أجلها الكلام . فلم يزل متكلما إذا شاء ولا يزال كذلك ، وهو يتكلم اذا شاء بالعربية كما تكلم بالقرآن

العربي ، وما تكلم الله به فهو قائم بـه ليس مخلوقاً منفصلا عنـه ، فلا تـكون الحروف التى هي مباني أسماء الله الحسنى وكتبه المنزلة مخلوقة، لان الله تكلم بها .

فصـــــل

ثم تنازع بعض المتأخرين فى الحروف الموجودة فى كلام الآدميين . وسبب نزاعهم أمران :

« احدها » أنهم لم يفرقوا بين الـكلام الذي يتكلم الله به فيسمع منه ، وبين ما إذا بلغه عنه مبلغ فسمع من ذلك المبلـغ ، فان القرآن كلام الله ، تكلم به بلفظه ومعناه بصوت نفسه ؛ فاذا قرأه القراء قرأوه بأصوات أنفسهم . فاذا قال القاريء : (الحمد لله رب العالمـين ، الرحمن الرحيم) كان هذا الكلام المسموع منه كلام الله لا كلام نفسه ، وكان هو قرأه بصوت نفسه لا بصوت الله ، فالكلام كلام الباري ، والصوت صوت القارىء ، كما قال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتـكم » وكان يقول : « ألا رجل يحملني الى قومه لأبـلغ كلام ربي ؟ فان قريشا قـد منعونى أن أبلـغ كلام ربى » وكلا الحديثين ثابت ، فبين ان الكلام الذى يبلغه كلام ربـه ، وبـين ان القاريء

يقرأه بصوت نفسه ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » قال أحمد والشافعي وغيرهما : هو تحسينه بالصوت . قال احمد بن حنبل : يحسنه بصوته ، فبين أحمد أن القارىء يحسن القرآن بصوت نفسه .

و « السبب الثانى » أن السلف قالوا : القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، وقالوا لم يزل متكلما إذا شاء . فبينوا أن كلام الله قديم أي جنسه قديم لم يزل ، ولم يقل أحد منهم إن نفس الكلام المعين قديم ، ولا قال أحد منهم القرآن قديم ؛ بل قالوا : انه كلام الله منزل غير مخلوق ، وإذا كان الله قد تكلم بالقرآن بمشيئته كان القرآن كلامه ، وكان منزلا منه غير مخلوق ، ولم يكن مع ذلك أزلياً قديما بقدم الله. وإن كان الله لم يزل متكلما إذا شاء ، فجنس كلامه قديم . فمن فهم قول السلف وفرق بين هذه الأقوال زالت عنه الشبهات في هذه المسائل المعضلة التى اضطرب فيها أهل الأرض .

فمن قال ان حروف المعجم كلها مخلوقة وان كلام الله تعالى [مخلوق فقد قال قولا] مخالفاً للمعقول الصريح ، والمنقول الصحيح ، ومن قال نفس أصوات العباد او مدادهم او شيئاً من ذلك قديم فقد خالف ايضا أقوال السلف ، وكان فساد قوله ظاهراً لكل أحد ، وكان مبتدعا قولا لم يقله أحد من أئمة المسلمين ، ولا قالته طائفة كبيرة من

طوائف المسلمين ، بل الأئمة الأربعة وجمهور أصحابهم بريئون من ذلك . ومن قال إن الحرف المعين او الكلمة المعينة قديمة العين ، فقد ابتدع قولا باطلا فى الشرع والعقل .

ومن قال : ان جنس الحروف التى تكلم الله بها بالقرآن وغيره ليست مخلوقة ، وان الكلام العربي الذي تكلم به ليس مخلوقا ، والحروف المنتظمة منه جزء منه ولازمة له وقد تكلم الله بها فلا تكون مخلوقة فقد أصاب .

وإذا قال ان الله هدى عباده وعلمهم البيان ، فانطقهم بها باللغات المختلفة ، وأنعم عليهم بان جعلهم ينطقون بالحروف التى هي مبانى كتبه وكلامه وأسمائه فهذا قد أصاب ، فالانسان وجميع مايقوم به من الاصوات والحركات وغيرها مخلوق كأن بعد ان لم يكن ، والرب تعالى بما يقوم به من صفاته وكلماته وأفعاله غير مخلوق ، والعباد إذا قرأوا كلامه فان كلامه الذي يقرؤنه هو كلامه لا كلام غيره ، وكلامه الذي تكلم به لا يكون مخلوقا ، وكان ما يقرؤن به كلامه من حركاتهم وأصواتهم مخلوقا ، وكذلك ما يكتب في المصاحف من كلامه فهو كلامه مكتوبا فى المصاحف وكلامه غير مخلوق ، والمداد الذي يكتب به كلامه وغير كلامه مخلوق .

وقد فرق سبحانه وتعالى بين كلامه وبين مداد كلماته بقوله تعالى : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً) وكلمات الله غير مخلوقة ، والمداد الذي يكتب به كلمات الله مخلوق ، والقرآن المكتوب فى المصاحف غير مخلوق ، وكذلك المكتوب فى اللوح المحفوظ وغيره ، قال تعالى : (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) وقال : (كلا إنها تذكرة . فمن شاء ذكره . في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة) وقال تعالى : (يتلو صحفا مطهرة . فيها كتب قيمة) وقال : (انه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون . لا يمسه الآ المطهرون) .

فصل

فهذان المتنازعان اللذان تنازعا فى « الأحرف التى أنزلها الله على آدم » فقال أحدهما : انها قديمة وليس لها مبتدأ ، وشكلها ونقطها محدث . وقال الآخر : انها ليست بكلام الله ، وانها مخلوقة بشكلها ونقطها ، وان القديم هو الله ، وكلامه منه بدأ واليه يعود منزل غير مخلوق ، ولكنه كتب بها . وسؤالهما ان نبين لهما الصواب وأيهما أصح اعتقاداً ، يقال لهما : يحتاج بيان الصواب إلى بيان مافى السؤال من الكلام المجمل ،

فان كثيراً من نزاع العقلاء لكونهم لايتصورون مورد النزاع تصوراً بينا ، وكثير من النزاع قد يكون الصواب فيه فى قول آخر غير القولين الذين قالاهما ، وكثير من النزاع قد يكون مبنياً على أصل ضعيف إذا بين فساده ارتفع النزاع .

فأول مافى هذا السؤال قولهما : الأحرف التى انزلها الله على آدم ، فانه قد ذكر بعضهم ان الله انزل عليه حروف المعجم مفرقة مكتوبة ، وهذا ذكره ابن قتيبة فى المعارف ، وهو ومثله يوجد فى التواريخ كتاريخ ابن جرير الطبري ونحوه ، وهذا ونحوه منقول عمن ينقل الاحاديث الاسرائيلية ونحوها من أحاديث الأنبياء المتقدمين ، مثل وهب بن منبه وكعب الاحبار ، ومالك بن دينار ، ومحمد بن اسحاق وغيرهم .

وقد أجمع المسلمون على أن ما ينقله هؤلاء عن الأنبياء المتقدمين لايجوز أن يجعل عمدة فى دين المسلمين إلا إذا ثبت ذلك بنقل متواتر ، أو ان يكون منقولا عن خاتم المرسلين ، وأيضا فهذا النقل قد عارضه نقل آخر وهو : « ان أول من خط وخاط ادريس » . فهذا منقول عن بعض السلف وهو مثل ذلك وأقوى ، فقد ذكروا فيه ان ادريس أول من خاط الثياب وخط بالقلم : وعلى هذا فبنوا آدم من قبل ادريس لم يكونوا يكتبون بالقلم ولا يقرؤن كتباً . والذي فى حديث أبي ذر المعروف عن ابى ذر عن

النبي صلى الله عليه وسلم : « ان آدم كان نبياً مكلما كلمه الله قبلا » وليس فيه أنه انزل عليه شيئاً مكتوباً ، فليس فيه ان الله أنزل على آدم صحيفة ولا كتابا ، ولا هذا معروف عند أهل الكتاب ، فهذا يدل على أن هذا لا أصل له ، ولو كان هذا معروفا عند اهل الكتاب لكان هذا النقل ليس هو فى القرآن ، ولا فى الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم وانما هو من جنس الاحاديث الأسرائيلية التى لا يجب الايمان بها ؛ بل ولا يجوز التصديق بصحتها إلا بحجة ، كما قال النبي صلى عليه وسلم في الحديث الصحيح « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم ؛ فاما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه ، واما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه » .

والله سبحانه علم آدم الاسماء كلها ، وانطقه بالكلام المنظوم . وأما تعليم حروف مقطعة لا سيما إذا كانت مكتوبة فهو تعليم لا ينفع ، ولكن لما أرادوا تعليم المبتدىء بالخط صاروا يعلمونه الحروف المفردة حروف الهجاء ، ثم يعلمونه تركيب بعضها الى بعض ، فيعلم أبجد هوز ، وليس هذا وحده كلاماً .

فهذا المنقول عن آدم من نزول حروف الهجاء عليه لم يثبت به نقل ، ولم يدل عليه عقل ؛ بل الأظهر فى كليهما نفيه ، وهو من جنس ما يروونه عن النبي صلى الله عليه وسلم من تفسير ا ، ب ، ت ، ث ، وتفسير أبجد ،

هوز ، حطي ، ويروونه عن المسيح أنه قاله لمعلمه في الكتاب ، وهـذا كله من الأحاديث الواهية بل المكذوبة . ولا يجوز باتفاق أهل العلم بالنقل أن يحتج بشيء من هذه ، وإن كان قد ذكرها طائفة من المصنفين فى هذا الباب ، كالشريف المزيدي ، والشيخ أبي الفرج ، وابنه عبد الوهاب وغيرهم . وقد يذكر ذلك طائفة من المفسرين والمؤرخين ، فهذا كله عند أهل العلم بهذا الباب باطل لا يعتمد عليه فى شيء من الدين .

وهذا وإن كان قد ذكره أبو بكر النقاش وغيره من المفسرين وعن النقاش ونحوه نقله الشريف المزيدي الحرانى وغيره[١] فأجل من ذكر ذلك من المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، وقد بين في تفسيره ان كل ما نقل فى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو باطل . فذكر فى آخر تفسيره اختلاف الناس فى تفسير أبجد ، هوز ، حطي ، وذكر حديثاً رواه من طريق محمد بن زياد الجزري ، عن فرات بن أبى الفرات ، عن معاوية بن قرة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعلموا أباجاد وتفسيرها ، ويل لعالم جهل تفسير ابي جاد » قال : قالوا يارسول الله وما تفسيرها ؟ قال ؟ « أما الألف فآلاء الله وحرف من اسمائه . وأما الباء فبهاء الله ، وأما الجيم فجلال الله ، وأما الدال فدين

(١) فى هذا التركيب نظر . والمعنى : أن هذا ان كان النقاش والمزيدى وابو الفرج وابنه قد ذكروه وسكتوا عليه فابن جرير قد ذكره وصرح ببطلانه وهو اجل منهم .

الله ، وأما الهاء فالهاوية ، وأما الواو فويل لمن سها ، وأما الزاي فالزاوية وأما الحاء فحطوط الخطايا عن المستغفرين بالاسحار » وذكر تمام الحديث من هذا الجنس .

وذكر حديثاً ثانياً من حديث عبد الرحيم بن واقد حدثني الفرات ابن السائب عن ميمون بن مهران عن ابن عباس قال : « ليس شيء إلا وله سبب ، وليس كل أحد يفطن له ولا بلغه ذلك ، ان لأبي جاد حديثاً عجيباً ، أما « أبو جاد » فأبى آدم الطاعة وجد فى اكل الشجرة ، وأما « هوز » فزل آدم فهوى من السماء إلى الأرض ، وأما « حطي » فحطت عنه خطيئته ، وأما « كلمن » فأكله من الشجرة ومن عليه بالتوبة » وساق تمام الحديث من هذا الجنس .

وذكر حديثاً ثالثا من حديث اسماعيل بن عياش عن اسماعيل بن يحيى عن ابن أبي مليكة عمن حدثه عن ابن مسعود ومسعر بن كدام عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان عيسى بن مريم أسلمته أمه إلى الكتاب ليعلمه ، فقال له المعلم : اكتب بسم الله ، فقال له عيسى : وما بسم الله ؟ فقال له المعلم وما ادري . فقال له عيسى الباء بهاء الله ، والسين سناؤه ، والميم ملكه ، والله إله الآلهة ، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة ، والرحيم رحيم الآخرة . ابو جاد : الف آلاء الله ، وباء بهاء الله ، وجيم جمال الله ، ودال الله الدائم ، وهوز هاء الهاوية » وذكر حديثا

من هذا الجنس ، وذكره عن الربيع بن أنس موقوفا عليه . وروى أبو الفرج المقدسي عن الشريف المزيدي حديثا عن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم فى تفسير : ا ، ب ، ت ، ث من هذا الجنس .

ثم قال ابن جرير : ولو كانت الأخبار التى رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم فى ذلك صحاح الأسانيد لم يعدل عن القول بها الى غيرها ولكنها واهية الأسانيد غير جائز الاحتجاج بمثلها ؛ وذلك أن محمد بن زياد الجزري الذي حدث حديث معاوية بن قرة عن فرات عنه غير موثوق بنقله ، وإن عبد الرحيم بن واقد الذي خالفه فى رواية ذلك عن الفرات مجهول غير معروف عند أهل النقل ، وإن اسماعيل بن يحيى الذي حدث عن ابن أبي مليكة غير موثوق بروايته ولا جائز عند أهل النقل الاحتجاج بأخباره .

قلت : اسماعيل بن يحيى هذا يقال له التيمي كوفي معروف بالكذب ، ورواية اسماعيل بن عياش فى غير الشاميين لا يحتج بها ، بل هو ضعيف فيما ينقله عن أهل الحجاز وأهل العراق ، بخلاف ما ينقله عن شيوخه الشاميين ؛ فانه حافظ لحديث أهل بلده كثير الغلط فى حديث أولئك وهذا متفق عليه بين أهل العلم بالرجال ، وعبد الرحمن بن واقد لا يحتج به باتفاق أهل العلم ، وفرات بن السائب ضعيف أيضاً

لا يحتج به فهو فرات بن أبي الفرات ، ومحمد بن زياد الجزري ضعيف أيضاً .

وقد تنازع الناس فى أبجد ، هوز ، حطي ، فقال طائفة هي أسماء قوم ، قيل أسماء ملوك مدين ، أو أسماء قوم كانوا ملوكا جبابرة . وقيل : هي أسماء الستة الايام التى خلق الله فيها الدنيا . والاول اختيار الطبري . وزعم هؤلاء أن أصلها أبو جاد مثل أبي عاد ، وهواز مثل رواد وجواب . وانها لم تعرب لعدم العقد والتركيب .

والصواب : أن هذه ليست أسماء لمسميات ، وإنما ألفت ليعرف تأليف الأسماء من حروف المعجم بعد معرفة حروف المعجم . ولفظها : أبجد ، هوز ، حطي ، ليس لفظها ابو جاد ، هواز . ثم كثير من أهل الحساب صاروا يجعلونها علامات على مراتب العدد ، فيجعلون الألف واحداً ، والباء اثنين ، والجيم ثلاثة ، إلى الياء ثم يقولون الكاف عشرون ... وآخرون من أهل الهندسة والمنطق يجعلونها علامات على الخطوط المكتوبة ، أو على ألفاظ الأقيسة المؤلفة كما يقولون : كل ألف ب ، وكل ب ج ، فكل ألف ج . ومثلوا بهذه لكونها ألفاظاً تدل على صورة الشكل ، والقياس لا يختص بمادة دون مادة .

كما جعل أهل التصريف لفظ « فعل » تقابل الحروف الأصلية .

والزائدة ينطقون بهـا . ويقولون : وزن استخرج « استفعل » ، وأهل العروض يزنون بألفاظ مؤلفة من ذلك ؛ لكن يراعون الوزن من غير اعتبار بالأصل ، والزائد ؛ ولهذا سئل بعض هؤلاء عن وزن نكتل فقال نفعل ، وضحك منه أهل التصريف . ووزنه عندهم نفتل قان أصله نكتال ، وأصل نكتال : نكتيل . تحركت اليـاء وانفتح ما قبلها فقلبت الفا ، ثم لما جزم الفعل سقطت ، كما نقول مثل ذلك فى نعتد ونقتد من اعتاد يعتاد واقتاد البعير يقتاده . ونحو ذلك فى نقتيل ، فلما حذفوا الألف التى تسمى لام الكلمة صار وزنها .

وجعلت « ثمانية » تكون متحركة : وهي الهمزة ، وتكون ساكنة وهي حرفان على الاصطلاح الأول ، وحرف واحد على الثاني ، والألف تقرن بالواو والياء لأنهن حروف العلة ، ولهذا ذكرت فى آخر حروف المعجم ، ونطقوا بأول لفظ كل حرف منها إلا الألف فلم يمكنهم أن ينطقوا بها ابتداء ، فجعلوا اللام قبلها فقالوا : « لاَ » والتى فى الأول هي الهمزة المتحركة ، فان الهمزة فى أولها . وبعض الناس ينطق بها « لام ألف » والصواب أن ينطق بها « لا » وبسط هذا له موضع آخر .

والمقصود هنا : أن العلم لا بد فيه من نقل مصدق ونظر محقق . وأما النقول الضعيفة لا سيما المكذوبة فلا يعتمد عليها . وكذلك النظريات الفاسدة ، والعقليات الجهلية الباطلة لا يحتج بها .

(الثاني) أن يقال : هذه الحروف الموجودة فى القرآن العربي قد تكلم الله بها بأسماء حروف ، مثل قوله : (الم وقوله المص وقوله الم طس — حم — كهيعص — حم عسق — ن — ق) فهذا كله كلام الله غير مخلوق .

(الثالث) أن هذه الحروف إذا وجدت فى كلام العباد ، وكذلك الاسماء الموجودة في القرآن اذا وجدت فى كلام العباد مثل آدم ، ونوح ، ومحمد ، وابراهيم وغير ذلك ، فيقال : هذه الاسماء وهذه الحروف قد تكلم الله بها ؛ لكن لم يتكلم بها مفردة . فان الاسم وحده ليس بكلام ؛ ولكن تكلم بها فى كلامه الذي أنزله فى مثل قوله (محمد رسول الله) وقوله : (وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا) إلى قوله : (رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى) وقوله : (ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) ونحو ذلك ، ونحن إذا تكلمنا بكلام ذكرنا فيه هذه الاسماء ، فكلامنا مخلوق وحروف كلامنا مخلوقة ، كما قال احمد بن حنبل لرجل : ألست مخلوقا ؟ قال : بلى ، قال : أليس كلامك منك ؟ قال : بلى ، قال : أليس كلامك مخلوقا ؟ قال : بلى ، قال : فالله تعالى غير مخلوق ، وكلامه منه ليس بمخلوق .

فقد نص احمد وغيره على ان كلام العباد مخلوق ، وهم إنما

يتكلمون بالأسماء والحروف التى يوجد نظيرها فى كلام الله تعالى ، لكن الله تعالى تكلم بهـا بصوت نفسه وحروف نفسه وذلك غير مخلوق ، وصفات الله تعالى لا تماثل صفات العباد ؛ فان الله تعالى ليس كمثله شيء لا فى ذاته ، ولا صفاته ، ولا أفعاله ، والصوت الذي ينادي به عباده يوم القيامة والصوت الذي سمعه منه موسى ليس كاصوات شيء من المخلوقات ، والصوت المسموع هو حروف مؤلفة وتلك لا يماثلها شيء من صفات المخلوقين ، كما أن علم الله القائم بذاته ليس مثل علم عبـاده . فان الله لا يماثل المخلوقين فى شيء من الصفات ، وهو سبحانه قـد علم العباد من علمه ما شاء ، كما قال تعالى : (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) وهم إذا علمهم الله ما علمهم من علمه ، فنفس علمه الذي اتصف به ليس مخلوقا ، ونفس العباد وصفاتهم مخلوقة ، لكن قد ينظر الناظر إلى مسمى العلم مطلقاً ، فلا يقال : ان ذلك العلم مخلوق لاتصاف الرب به ، وان كان ما يتصف به العبد مخلوقا .

واصل هذا ان ما يوصف الله به ويوصف به العباد يوصف الله به على ما يليق به ، ويوصف به العباد بما يليق بهم من ذلك ؛ مثل الحيـاة والعلم والقـدرة ، والسمع والبصر والـكلام ، فان الله له حيـاة وعلم وقدرة ، وسمع وبصر وكلام . فكلامه يشتمل على حروف وهو يتكلم بصوت نفسه ، والعبد له حيـاة وعلم وقـدرة ، وسمع وبصر وكلام ،

وكلام العبد يشتمل على حروف وهو يتكلم بصوت نفسه .

فهذه الصفات لها ثلاث اعتبارات : تارة تعتبر مضافة إلى الرب . وتارة تعتبر مضافة إلى العبد ، وتارة تعتبر مطلقة لا تختص بالرب ولا بالعبد . فاذا قال العبد : حياة الله وعلم الله وقدرة الله وكلام الله ونحو ذلك ، فهذا كله غير مخلوق ولا يماثل صفات المخلوقين ، وإذا قال علم العبد وقدرة العبد وكلام العبد ، فهذا كله مخلوق ولا يماثل صفات الرب . وإذا قال العلم والقدرة والكلام ، فهذا مجمل مطلق لا يقال عليه كله انه مخلوق ولا انه غير مخلوق ، بل ما اتصف به الرب من ذلك فهو غير مخلوق ، وما اتصف به العبد من ذلك فهو مخلوق ، فالصفة تتبع الموصوف . فان كان الموصوف هو الخالق فصفاته غير مخلوقة ، وان كان الموصوف هو العبد المخلوق فصفاته مخلوقة .

ثم إذا قرأ بام القرآن وغيرها من كلام الله فالقرآن فى نفسه كلام الله غير مخلوق ، وإن كان حركات العباد واصواتهم مخلوقة . ولو قال الجنب : (الحمد لله رب العالمين) ينوي به القرآن منع من ذلك وكان قرآنا ، ولو قاله ينوى به حمد الله لا يقصد به القراءة لم يكن قارئاً وجاز له ذلك .

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « افضل الكلام بعد

القرآن اربع وهن من القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله اكبر » رواه مسلم فى صحيحه . فاخبر انها أفضل الكلام بعد القرآن وقال هي من القرآن ، فهي من القرآن باعتبار ، وليست من القرآن باعتبار ، ولو قال القائل : (يا يحيى خذ الكتاب) ومقصوده القرآن كان قد تكلم بكلام الله ولم تبطل صلاته باتفاق العلماء ، وان قصد مع ذلك تنبيه غيره لم تبطل صلاته عند جمهور العلماء . ولو قال لرجل اسمه يحيى وبحضرته كتاب : يا يحيى خذ الكتاب لكان هذا مخلوقا ؛ لأن لفظ يحيى هنا مراد به ذلك الشخص ، وبالكتاب ذلك الكتاب ليس مراداً به ما اراده الله بقوله : (يايحيى خذ الكتاب) والكلام كلام [المخلوق] بلفظه ومعناه .

وقد تنازع الناس فى مسمى « الكلام » فى الأصل ، فقيل : هو اسم اللفظ الدال على المعنى ، وقيل : المعنى المدلول عليه باللفظ ، وقيل : لكل منها بطريق الاشتراك اللفظي ، وقيل : بل هو اسم عام لهما جميعاً يتناولهما عند الاطلاق ، وان كان مع التقييد يراد به هذا تارة وهذا تارة . هذا قول السلف وأئمة الفقهاء وان كان هذا القول لا يعرف في كثير من الكتب .

وهذا كما تنازع الناس فى مسمى « الانسان » هل هو الروح فقط أو الجسد فقط ؟ والصحيح انه اسم للروح والجسد جميعاً ، وان

كان مع القرينة قد يراد به هذا تارة وهذا تارة ، فتنازعهم في مسمى النطق كتنازعهم فى مسمى الناطق . فمن سمى شخصاً محمداً وابراهيم ، وقال : جاء محمد وجاء ابراهيم لم يكن هذا محمد وابراهيم المذكورين فى القرآن . ولو قال : محمـــد رسول الله ، وابراهيم خليل الله . يعني به خاتم الرسل وخليل الرحمن لكان قـــد تكلم بمحمد وابراهيم الذي فى القرآن ، لكن قد تكلم بالاسم والفه كلاما فهو كلامـــه لم يتكلم به فى القرآن العربى الذي تكلم الله به .

ومما يوضح ذلك ان الفقهاء قالوا فى « آداب الخلاء » انه لا يستصحب ما فيـــه ذكر الله ، واحتجوا بالحديث الذي فى السنن « ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا دخل الخلاء نزع خاتمه . وكان خاتمه مكتوبا عليه « محمد رسول الله » محمد سطر ، رسول سطر ، الله سطر . ولم يمنع أحد من العلماء ان يستصحب ما يكون فيه كلام العباد وحروف الهجاء مثل ورق الحساب الذي يكتب فيـه أهل الديوان الحســـاب ، ومثل الأوراق التى يكتب فيها الباعة ما يبيعونه ونحو ذلك .

وفى السيرة « ان النبي صلى الله عليـــه وسلم لما صالح غطفـــان على نصف تمر المدينة أتاه سعد فقال له : اهذا شيء أمر الله به فسمعا وطاعة ، أم شيء تفعله لمصلحتنـــا ؟ فبين له النبي صلى الله عليه وسلم انه لم يفعل ذلك بوحي بل فعله باجتهاده فقال : لقد كنا فى الجاهلية

وما كانوا يأكلون منها تمرة الا بقرى أو بشراء ، فلما اعزنا الله بالاسلام يريدون ان يأكلوا تمرنا لا يأكلون تمرة واحدة ، وبصق سعد فى الصحيفة وقطعها » فاقره النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك ولم يقل هذه حروف ، فلا يجوز اهانتها والبصاق فيها . وأيضاً فقد كره السلف محو القرآن بالرجل ولم يكرهوا محو مافيه كلام الآدميين .

وأما قول القائل : ان الحروف قديمة أو حروف المعجم قديمة فان أراد جنسها فهذا صحيح ، وإن أراد الحرف المعين فقد اخطأ ، فان له مبدأ ومنتهى ، وهو مسبوق بغيره ، وما كان كذلك لم يكن إلا محدثاً .

وأيضا فلفظ الحروف مجمل ، يراد بالحروف الحروف المنطوقة المسموعة التى هي مبانى الكلام ، ويراد بها الحروف المكتوبة ، ويراد بها الحروف المتخيلة فى النفس ، والصوت لا يكون كلاما إلا بالحروف باتفاق الناس . وأما الحروف فهل تكون كلاما بدون الصوت ؟ فيه نزاع . والحرف قد يراد به الصوت المقطع ، وقد يراد به نهاية الصوت وحده ، وقد يراد بالحروف المداد ، وقد يراد بالحروف شكل المداد ، فالحروف التى تكلم الله بها غير مخلوقة ، وإذا كتبت فى المصحف قيل كلام الله المكتوب فى المصحف غير مخلوق ، وأما نفس أصوات العباد فمخلوقة والمداد مخلوق وشكل المداد مخلوق ، فالمداد مخلوق بمادته وصورته ، وكلام الله المكتوب بالمداد غير مخلوق . ومن كلام الله

الحروف التى تـكلم الله بها ، فاذا كتبت بالمـــداد لم تكن مخلوقة وكان المداد مخلوقا . وأشكال الحروف المـكتوبة مما يختلف فيها اصطلاح الامم .

والخط العربي قد قيل ان مبدأه كان من الأنبار ، ومنهـا انتقل الى مكة وغيرها ، والخط العربي تختلف صورته : العربى القديم فيـــه تكوف ، وقد اصطلح المتأخرون على تغيير بعض صوره ، وأهل المغرب لهم اصطلاح ثالث حتى فى نقط الحروف وترتيبها ، وكلام الله المـكتوب بهذه الخطوط كالقرآن العربى هو فى نفسه لا يختلف باختلاف الخطوط التى يكتب بها .

فان قيل : فالحرف من حيث هو مخلوق أو غير مخلوق مع قطع النظر عن كونه فى كلام الخالق او كلام المخلوق ؟ فان قلتم هو من حيث هو غير مخلوق لزم أن يكون غير مخلوق فى كلام العباد ، وان قلتم مخلوق لزم ان يكون مخلوقا فى كلام الله ؟ قيل : قول القائـــل الحرف من حيث هو هو كقوله الـــكلام من حيث هو هو ، والعلم من حيث هو هو ، والقـــدرة من حيث هي هي ، والوجـــود من حيث هو هو ، ونحو ذلك .

والجواب عن ذلك ان هـــذه الأمور وغيرها اذا أخـــذت مجردة مطلقة غير مقيدة ولا مشخصة لم يكن لها حقيقة فى الخارج عن الاذهان

إلا شيء معين ، فليس ثم وجود إلا وجود الخالق او وجود المخلوق ، ووجود كل مخلوق مختص به وان كان اسم الوجود عاما يتناول ذلك كله ، وكذلك العلم والقدرة اسم عام يتناول افراد ذلك ، وليس فى الخارج الا علم الخالق وعلم المخلوق ، وعلم كل مخلوق مختص به قائم به ، واسم الكلام والحروف يعم كل ما يتناوله لفظ الكلام والحروف وليس فى الخارج الا كلام الخالق وكلام المخلوقين . وكلام كل مخلوق مختص به واسم الكلام يعم كل ما يتناوله هذا اللفظ . وليس فى الخارج إلا الحروف التى تكلم الله بها الموجودة فى كلام الخالق ، والحروف الموجودة فى كلام المخلوقين . فاذا قيل : ان علم الرب وقدرته وكلامه غير مخلوق ، وحروف كلامه غير مخلوقة لم يلزم من ذلك ان يكون علم العبد وقدرته وكلامه غير مخلوق ، وحروف كلامه غير مخلوقة .

وأيضا فلفظ الحرف يتناول الحرف المنطوق والحرف المكتوب ، وإذا قيل ان الله تكلم بالحروف المنطوقة كما تكلم بالقرآن العربي وبقوله : (الم – وحم – وطسم – وطس – ويس – وق – ون) ونحو ذلك فهذا كلامه وكلامه غير مخلوق ، وإذا كتب فى المصاحف كان ما كتب من كلام الرب غير مخلوق وان كان المداد وشكله مخلوقا .

و « أيضا » فاذا قرأ الناس كلام الله فالكلام في نفسه غير مخلوق إذا كان الله قد تكلم به ، وإذا قرأه المبلغ لم يخرج عن أن يكون

كلام الله ؛ فان الكلام كلام من قاله مبتدئاً امراً يأمر به ، أو خبراً يخبره ، ليس هو كلام المبلغ له عن غيره ؛ اذ ليس على الرسول الا البلاغ المبين . وإذا قرأه المبلغ فقد يشار اليه من حيث هو كلام الله فيقال هذا كلام الله مع قطع النظر عما بلغه به العباد من صفاتهم ، وقد يشار الى نفس صفة العبد كحركته وحياته ، وقد يشار اليها ، فالمشار اليه الأول غير مخلوق ، والمشار اليه الثاني مخلوق ، والمشار اليه الثالث فمنه مخلوق ومنه غير مخلوق ، وما يوجد فى كلام الآدميين من نظير هذا هو نظير صفة العبد لا نظير صفة الرب أبداً .

وإذا قال القائل القاف فى قوله (أقم الصلاة لذكري) كالقاف فى قوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

قيل : ما تكلم الله به وسمع منه لا يماثل صفة المخلوقين ، ولكن إذا بلغنا كلام الله فانما بلغناه بصفاتنا وصفاتنا مخلوقة ، والمخلوق يماثل المخلوق .

وفى هذا جواب للطائفتين لمن قاس صفة المخلوق بصفة الخالق فجعلها غير مخلوقة ، فان الجهمية المعطلة أشباه اليهود ، والحلولية الممثلة

أشباه النصارى دخلوا فى هذا وهذا ، أولئك مثلوا الخالق بالمخلوق فوصفوه بالنقائص التى تختص بالمخلوق : كالفقر والبخل، وهؤلاء مثلوا المخلوق بالخالق فوصفوه بخصائص الربوبية التى لا تصلح إلا لله ، والمسلمون يصفون الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفته به رسله ، من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، بل يثبتون له ما يستحقه من صفات الكمال ، وينزهونه عن الاكفاء والأمثال ، فلا يعطلون الصفات ولا يمثلونها بصفات المخلوقات ؛ فان المعطل يعبد عدما ، والممثل يعبد صنماً ، والله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) .

ومما ينبغي أن يعرف أن كلام المتكلم فى نفسه واحد ، وإذا بلغه المبلغون تختلف أصواتهم به ، فاذا أنشد المنشد قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

كان هذا الكلام كلام لبيد لفظه ومعناه ، مع أن أصوات المنشدين له تختلف ، وتلك الأصوات ليست صوت لبيد ، وكذلك من روى حديث النبي صلى الله عليه وسلم بلفظه ، كقوله : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » كان هذا الكلام كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لفظه ومعناه ، ويقال لمن رواه : أدى الحديث بلفظه ،

وإن كان صوت المبلـغ ليس هــو صوت الرسول ، فالقرآن أولى أن يكون كلام الله لفظه ومعناه ، وإذا قرأه القراء فانما يقرؤونه بأصواتهم .

ولهذا كان الامام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة يقولون : من قال اللفظ بالقرآن أو لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن قال إنه غير مخلوق فهو مبتدع ، وفي بعض الروايات عنه : مـن قال لفظي بالقرآن مخلوق يعني به القرآن فهو جهمي ؛ لأن اللفظ يراد به مصـدر لفظ يلفظ لفظاً ، ومسمى هذا فعل العبد وفعل العبد مخـلوق ، ويراد باللفظ القول الذي يلفظ به اللافظ ، وذلك كلام الله لا كلام القارىء ، فمن قال إنه مخلوق فقد قال إن الله لم يتكلم بهذا القرآن ، وان هذا الذي يقرؤه المسلمون ليس هو كلام الله ، ومعلوم أن هـذا مخالف لما علم بالاضطرار من دين الرسول .

وأما صوت العبد فهو مخـلوق ، وقد صرح أحمد وغـيره بأن الصوت المسموع صوت العبد ، ولم يقل أحمد قط : من قال إن صوتي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، وإنما قال من قال لفظي بالقرآن ، والفرق بين لفظ الكلام وصوت المبلغ له فرق واضح ، فكل من بلغ كلام غيره بلفظ ذلك الرجل فانما بلغ لفظ ذلك الغير لا لفظ نفسه ، وهو إنما بلغه بصوت نفسه لا بصوت ذلك الغير ، ونفس اللفظ والتـلاوة والقراءة والكتابة ونحو ذلك لما كان يراد به المصدر الذي هو حركات

العباد ، وما يحدث عنها من أصواتهم وشكل المداد ، ويراد به نفس الكلام الذي يقرأه التالي ويتلوه ويلفظ به ويكتبه ، منع أحمد وغيره من اطلاق النفي والاثبات ، الذي يقتضي جعل صفات الله مخلوقة ، أو جعل صفات العباد ومدادهم غير مخلوق .

وقال أحمد : نقول القرآن كلام الله غير مخلوق حيث تصرف : أي حيث تلي وكتب وقرىء مما هو فى نفس الأمر كلام الله ، فهو كلامه ، وكلامه غير مخلوق ، وما كان من صفات العباد وأفعالهم التى يقرؤن ويكتبون بها كلامه كأصواتهم ومدادهم فهو مخلوق ، ولهذا من لم يهتد الى هذا الفرق يحار ، فانه معلوم أن القرآن واحد ويقرأه خلق كثير ، والقرآن لا يكثر فى نفسه بكثرة قراءة القراء ، وإنما يكثر ما يقرؤن به القرآن ، فما يكثر ويحدث فى العباد فهو مخلوق ، والقرآن نفسه لفظه ومعناه الذي تكلم الله به ، وسمعه جبريل من الله ، وسمعه محمد من جبريل ، وبلغه محمد إلى الناس ، وأنذر به الأمم ؛ لقوله تعالى : (لانذركم به ومن بلغ) قرآن واحد ، وهو كلام الله ليس بمخلوق .

وليس هذا من باب ما هو واحد بالنوع متعدد الأعيان ، كالانسانية الموجودة في زيد وعمرو ، ولا من باب ما يقول الانسان مثل قول غيره كما قال تعالى : (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم) فان

القرآن لا يقدر أحد أن يأتي بمثله ، كما قال تعالى : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) فالانس والجن إذا اجتمعوا لم يقدروا أن يأتوا بمثل هذا القرآن مع قدرة كل قارىء على أن يقرأه ويبلغه .

فعلم أن ما قرأه هو القرآن ليس هو مثل القرآن ، وأما الحروف الموجودة فى القرآن إذا وجد نظيرها في كلام غيره فليس هـذا هو ذاك بعينه بل هو نظيره ، وإذا تكلم الله باسم من الأسماء : كآدم ونوح وابراهيم ، وتكلم بتلك الحروف والأسماء التى تكلم الله بها ، فاذا قرئت فى كلامه فقد بلغ كلامه ، فاذا أنشأ الانسان لنفسه كلاماً لم يكن عين ما تكلم الله به من الحروف والأسماء هو عين ما تكلم به العبد حتى يقال : إن هذه الأسماء والحروف الموجودة فى كلام العبـاد غير مخلوقة ؛ فان بعض من قال إن الحروف والأسماء غير مخلوقة فى كلام العباد ادعى ان المخلوق إنما هو النظم والتأليف دون المفردات ، وقائل هـذا يلزمه أن يكون أيضاً النظم والتأليف غير مخلوق إذا وجد نظيره فى القرآن كقوله : (يا يحيى خذ الكتاب) وإن أراد بذلك شخصاً اسمه يحيى وكتاباً بحضرته .

(فان قيل) يحيى هذا والكتاب الحاضر ليس هو يحيى والكتاب المذكور في القـرآن ، وان كان اللفظ نظير اللفظ ، (قيل) كذلك

سائر الأسماء والحروف إنما يوجد نظيرها فى كلام العباد لا فى كلام الله. وقولنا يوجد نظيرها فى كلام الله تقريب أي يوجد فيما نقرأه ونتلوه، فان الصوت المسموع من لفظ محمد ويحيى وابراهيم فى القرآن هو مثل الصوت المسموع من ذلك فى غير القرآن، وكلا الصوتين مخلوق. واما الصوت الذي يتكلم الله بـه فلا مثل له لا يماثل صفات المخلوقين، وكلام الله هو كلامه بنظمه ونثره ومعانيه. وذلك الكلام ليس مثل كلام المخلوقين. فاذا قلنا: (الحمد لله رب العالمين) وقصد بذلك قراءة القرآن الذي تكلم الله به فذلك القرآن تكلم الله بلفظه ومعناه لا يماثل لفظ المخلوقين ومعناهم، واما إذا قصدنا به الذكر ابتداء من غير أن نقصد قراءة كلام الله فانما نقصد ذكراً ننشئه نحن بقوم معناه بقلوبنا، وننطق بلفظه بألسنتنا، وما أنشأناه من الذكر فليس هو من القرآن وان كان نظيره فى القرآن.

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح: «أفضل الكلام بعد القرآن أربع وهن من القرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» فجعل النبي صلى الله عليه وسلم هذه الكلمات أفضل الكلام بعد القرآن، فجعل درجتها دون درجة القرآن، وهذا يقتضي أنها ليست من القرآن. ثم قال: «هي من القرآن» وكلا قوليه حق وصواب؛ ولهذا منع أحمد أن يقال: الايمان مخلوق.

وقال : لا إله إلا الله من القرآن . وهذا الكلام لا يجوز أن يقال : إنه مخلوق وان لم يكن من القرآن ، ولا يقال فى التوراة والانجيل انهما مخلوقان ، ولا يقال فى الأحاديث الالهية التى يرويها عن ربه انها مخلوقة كقوله : « ياعبادي اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » فكلام الله قد يكون قرآناً وقد لا يكون قرآناً ، والصلاة إنما تجوز وتصح بالقرآن . وكلام الله كله غير مخلوق .

فاذا فهم هذا فى مثل هذا فليفهم فى نظائره ، وان ما يوجد من الحروف والأسماء فى كلام الله ويوجد فى غير كلام الله يجوز أن يقال: انه من كلام الله باعتبار ، ويقال ليس من كلام الله باعتبار ، كما أنه يكون من القرآن باعتبار وغير القرآن باعتبار ، لكن كلام الله القرآن وغير القرآن غير مخلوق ، وكلام المخلوقين كله مخلوق . فما كان من كلام الله فهو غير مخلوق ، وما كان من كلام غيره فهو مخلوق .

وهؤلاء الذين يحتجون على نفي الخلق أو اثبات القدم بشيء من صفات العباد واعمالهم لوجود نظير ذلك فيما يضاف إلى الله وكلامه والايمان به ، شاركهم فى هذا الإصل الفاسد من احتج على خلق ما هو من كلام الله وصفاته بان ذلك قد يوجد نظيره فيما يضاف إلى العبد . مثال ذلك : أن القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله قرؤوه بحركاتهم وأصواتهم ، فقال الجهمي أصوات العباد ومدادهم مخلوقة وهذا

هو المسمى بكلام الله ، أو يوجد نظيره فى المسمى بكلام الله ، فيكون كلام الله مخلوقا .

وقال الحلولي الاتحادي الذي يجعل صفة الخالق هي عين صفة المخلوق الذي : نسمعه من القراء هو كلام الله ، وانما نسمع اصوات العباد فاصوات العباد بالقرآن كلام الله ، وكلام الله غير مخلوق فاصوات العباد بالقرآن غير مخلوقة ، والحروف المسموعة منهم غير مخلوقة ، ثم قالوا : الحروف الموجودة في كلامهم هي هذه او مثل هذه فتكون غير مخلوقة . وزاد بعض غلاتهم فجعل أصوات كلامهم غير مخلوقة ، كما زعم بعضهم ان الاعمال من الايمان وهو غير مخلوق والاعمال غير مخلوقة . وزاد بعضهم أعمال الخير والشر ، وقال : هي القدر والشرع المشروع ، وقال عمر : ما مرادنا بالاعمال الحركات بل الثواب الذي يأتى يوم القيامة ، كما ورد فى الحديث الصحيح : « انه تأتى البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان او غيايتان ، او فرقان من طير صواف » فيقال له : وهذا الثواب مخلوق . وقد نص احمد وغيره من الأئمة على أنه غير مخلوق ، وبذلك أجابوا من احتج على خلق القرآن بمثل هذا الحديث فقالوا له : الذي يجيء يوم القيامة هو ثواب القرآن لانفس القرآن وثواب القرآن مخلوق ، الى أمثال هذه الأقوال التى ابتدعها طوائف ، والبدع تنشأ شيئا فشيئاً ، وقد بسط الكلام فى هذا الباب فى مواضع أخر .

وقد بينا أن الصواب فى هذا الباب هو الذي دل عليه الكتاب والسنة واجماع السابقين الأولين والتابعين لهم باحسان ، وهو ما كان عليه الامام احمد بن حنبل ومن قبله من أئمة الاسلام ومن وافق هؤلاء ، فان قول الامام احمد وقول الأئمة قبله هو القول الذي جاء به الرسول ، ودل عليه الكتاب والسنة ، ولكن لما امتحن الناس بمحنة الجهمية ، وطلب منهم تعطيل الصفات ، وان يقولوا بان القرآن مخلوق ، وان الله لا يرى فى الآخرة ونحو ذلك ، ثبت الله الامام احمد فى تلك المحنة ؛ فدفع حجج المعارضين النفاة ، وأظهر دلالة الكتاب والسنة ، وان السلف كانوا على الاثبات فآتاه الله من الصبر واليقين ماصار به إماما للمتقين كما قال تعالى : (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون)

ولهذا قيل فيه رحمه الله : عن الدنيا ما كان أصبره ، وبالماضين ما كان أشبهه . أتته البدع فنفاها ، والدنيا فأباها ، فلما ظهر به من السنة ما ظهر كان له من الكلام فى بيانها ، وإظهارها أكثر وأعظم مما لغيره ، فصار أهل السنة من عامة الطوائف يعظمونه وينتسبون اليه .

وقد ذكرت كلامه وكلام غيره من الأئمة ونصوص الكتاب والسنة فى هذه الابواب فى غير هذا الموضع ، وبينا أن كل ما يدل عليه الكتاب والسنة فانه موافق لصريح المعقول ، وان العقل الصريح لايخالف

النقل الصحيح ، ولكن كثيراً من الناس يغلطون إما فى هـذا وإما فى هذا ، فمن عرف قول الرسول ومراده به كان عارفا بالأدلة الشرعية ، وليس فى المعقول ما يخالف المنقول ؛ ولهذا كان أئمة السنة على ما قاله أحمد بن حنبل ، قال : معرفة الحديث والفقه فيه أحب إلي من حفظه أي « معرفته » بالتمييز بين صحيحه وسقيمه . « والفقه فيه » معرفة مراد الرسول وتنزيله على المسائل الاصولية والفروعية أحب إلي من أن يحفظ من غير معرفة وفقه . وهكذا قال علي بن المدينى وغيره من العلماء ، فانه من احتج بلفظ ليس بثابت عن الرسول [أو بلفظ ثابت عن الرسول] وحمله على مالم يدل عليه فانما أتي من نفسه .

وكذلك « العقليات الصريحة » إذا كانت مقدماتها وترتيبها صحيحاً لم تكن إلا حقاً ، لا تناقض شيئاً مما قاله الرسول ، والقرآن قد دل على الأدلة العقلية التى بها يعرف الصانع وتوحيده ، وصفاته وصدق رسله ، وبها يعرف امكان المعاد . فى القرآن من بيان أصول الدين التى تعلم مقدماتها بالعقل الصريح مالا يوجد مثله في كلام أحد من الناس ، بل عامة ما يأتى به حذاق النظار من الأدلة العقلية يأتى القرآن بخلاصتها وبما هو أحسن منها ، قال تعالى : (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) وقال : (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) وقال : (وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) .

وأما الحجج الداحضة التى يحتج بها الملاحدة ، وحجج الجهمية معطلة الصفات ، وحجج الدهرية وأمثالها ؛ كما يوجد مثل ذلك فى كلام المتأخرين الذين يصنفون فى الكلام المبتدع وأقوال المتفلسفة ويدعون انها عقليات ففيها من الجهل والتناقض والفساد ، مالا يحصيه إلا رب العباد . وقد بسط الكلام على هؤلاء فى مواضع أخر .

وكان من أسباب ضلال هؤلاء تقصير الطائفتين أو قصورهم عن معرفة ما جاء به الرسول ، وما كان عليه السلف ، ومعرفة المعقول الصريح ؛ فان هذا هو الكتاب، وهذا هو الميزان ، وقد قال تعالى : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز)

وهذه المسألة لاتحتمل البسط على هذه الأمور ؛ إذ كان المقصود هنا التنبيه على ان هؤلاء المتنازعين أجمعوا على أصل فاسد ، ثم تفرقوا فأجمعوا على أن جعلوا عين صفة الرب الخالق هي عين صفة المخلوق . ثم قال هؤلاء : وصفة المخلوق مخلوقة فصفة الرب مخلوقة ، فقال هؤلاء: صفة الرب قديمة فصفة المخلوق قديمة . ثم احتاج كل منهما الى طرد أصله ، فخرجوا إلى أقوال ظاهرة الفساد : خرج النفاة الى أن الله لم يتكلم بالقرآن ، ولا بشيء من الكتب الالهية : لا التوراة ولا الانجيل ولا غيرها ، وانه لم

يناد موسى بنفسه نداء يسمعه منه موسى ولا تكلم بالقرآن العربي ولا التوراة العبرية ، وخرج هؤلاء إلى أن ما يقوم بالعباد ويتصفون به يكون قديماً أزلياً ، وان ما يقوم بهم ويتصفون به لا يكون قائما بهم حالا فيهم بل يكون ظاهراً عنهم من غير قيام بهم .

ولما تكلموا فى « حروف المعجم » صاروا بين قولين : طائفة فرقت بين المتماثلين ، فقالت الحرف حرفان هذا قديم وهذا مخلوق ، كما قال ابن حامد والقاضي أبو يعلى وابن عقيل وغيرهم ، فانكر ذلك عليهم الاكثرون وقالوا هذا مخالفة للحس والعقل ، فان حقيقة هذا الحرف هي حقيقة هذا الحرف ، وقالوا الحرف حرف واحد . وصنف في ذلك القاضي يعقوب البرزيني مصنفاً خالف به شيخه القاضي ابا يعلى مع قوله في مصنفه : وينبغي ان يعلم ان ما سطرته فى هذه المسألة ان ذلك مما استفدته وتفرع عندي من شيخنا وامامنا القاضي ابي يعلى بن الفراء ، وان كان قد نصر خلاف ماذكرته فى هذا الباب ، فهو العالم المقتدى به فى علمه ودينه ، فانى ما رأيت احسن سمتا منه ، ولا اكثر اجتهاداً منه ، ولا تشاغلا بالعلم ، مع كثرة العلم والصيانة والانقطاع عن الناس والزهادة فيما بايديهم ، والقناعة في الدنيا باليسير ، مع حسن التجمل ، وعظم حشمته عند الخاص والعام ، ولم يعدل بهذه الاخلاق شيئا من نفر من الدنيا .

وذكر القاضي يعقوب فى مصنفه ان ما قاله قول ابي بكر احمـد بن المسيب الطبري ، وحكاه عن جماعة من أفضل أهل طبرستان ، وانه سمع الفقيه عبد الوهاب بن حلبه قاضي حران يقول : هو مذهب العـلوي الحراني ، وجماعة من أهل حران . وذكره أبو عبد الله بن حامد عن جمـاعة من أهل طبرستان ممـن ينتمي إلى مذهبنا : كأبي محمـد الكشفل واسماعيل الـكاوذرى (١) فى خلق من اتباعهم يقولون إنها قديمة ، قال القـاضي ابو يعلى : وكذلك حكي لي عن طائفة بالشام انها تذهب الى ذلك منهم النابلسي وغيره ، وذكر القاضي حسين أن أباه رجع فى آخر عمره إلى هـذا . وذكروه عن الشريف أبي علي بن أبي موسى ، وتبعهم فى ذلك الشيخ ابو الفرج المقدسي وابنه عبـد الوهاب وسائر اتباعـه ، وابو الحسن بن الزاغونى وأمثـاله . وذكر القـاضي يعقوب ان كلام أحمـد يحتمل القولين .

وهؤلاء تعلقوا بقول احمـد لما قيل له ان سريا السقطي قال : لما خلق الله الاحرف سجدت له إلا الألف فقالت لا أسجـد حتى أومر . فقال أحمد هذا كفر . وهؤلاء تعلقوا من قول احمد بقوله : كل شيء من المخلوقين على لسان المخلوقين فهو مخـلوق ، وبقوله لو كان كذلك لما تمت صلاته بالقرآن كما لا تتم بغيره من كلام النـاس . وبقول احمـد

---

(١) نسخة الـكلوذاني.

لأحمد بن الحسن الترمذي : ألست مخلوقا ؟ قال بـلى ، قال أليس كل شيء منك مخلوقا ؟ قال بلى ، قال فكلامك منك وهو مخلوق .

(قلت) الذي قاله احمد فى هذا الباب صواب يصدق بعضـه بعضا وليس فى كلامه تناقض ، وهو أنكره على من قال : إن الله خلق الحروف ؛ فان من قال ان الحروف مخلوقة كان مضمون قوله : ان الله لم يتكلم بقرآن عربى ، وان القرآن العربى مخلوق ، ونص احمـد ايضاً عـلى ان كلام الآدميين مخلوق ، ولم يجعل شيئاً منه غير مخلوق ، وكل هـذا صحيح ، والسري رحمه الله إنما ذكر ذلك عن بكر بن خنيس العابد ، فكان مقصودهما بذلك ان الذي لا يعبد الله الا بامره ، هو اكمل ممـن يعبده برأيه من غير أمر من الله ، واستشهدا على ذلك بما بلغهما « أنه لما خلق الله الحروف سجدت له إلا الألف فقالت لا أسجد حتى أومر » وهذا الأثر لا يقوم بمثله حجـة فى شيء ، ولكن مقصودهما ضرب المثل أن الألف منتصبة فى الخط ليست هي مضطجعة كالباء والتاء ، فمن لم يفعل حتى يؤمر أكمل ممن فعل بغير أمر .

وأحمد أنكر قول القائل ان الله لما خلق الحروف ، وروي عنـه انه قال : من قال إن حرفا من حروف المعجم مخلوق فهو جهمي ، لانه سلك طريقا إلى البدعة ، ومن قال ان ذلك مخلوق فقد قال ان القرآن مخلوق . وأحمد قد صرح هو وغيره من الأئمـة ان الله لم يزل متكلما إذا

شاء ، وصرح أن الله يتكلم بمشيئته ، ولكن أتباع ابن كلاب كالقاضي وغيره تأولوا كلامه على أنه أراد بذلك إذا شاء الاسماع ؛ لانه عندهم لم يتكلم بمشيئته وقدرته .

وصرح أحمد وغيره من السلف ان القرآن كلام الله غير مخلوق ، ولم يقل أحد من السلف ان الله تكلم بغير مشيئته وقدرته ، ولا قال أحد منهم ان نفس الكلام المعين كالقرآن أو ندائه لموسى أو غير ذلك من كلامه المعين انه قديم ازلي لم يزل ولا يزال ، وان الله قامت به حروف معينة أو حروف وأصوات معينة قديمة أزلية لم تزل ولا تزال ، فان هذا لم يقله ولا دل عليه قول احمد ولا غيره من أئمة المسلمين ، بل كلام أحمد وغيره من الأئمة صريح فى نقيض هذا ، وأن الله يتكلم بمشيئته وقدرته ، وانه لم يزل يتكلم إذا شاء ، مع قولهم إن كلام الله غير مخلوق ، وانه منه بدأ ؛ ليس بمخلوق ابتدأ من غيره ، ونصوصهم بذلك كثيرة معروفة فى الكتب الثابتة عنهم ، مثل ما صنف أبو بكر الخلال فى « كتاب السنة » وغيره ، وما صنفه عبد الرحمن بن أبي حاتم من كلام أحمد وغيره ، وما صنفه أصحابه وأصحاب أصحابه : كابنيه صالح وعبد الله ، وحنبل ، وأبي داود السجستانى صاحب « السنن » والاثرم ، والمروذي ، وأبى زرعة ، وأبى حاتم ، والبخاري صاحب الصحيح ، وعثمان بن سعيد الدارمي ، وابراهيم الحربى ، وعبد الوهاب الوراق ،

وعباس بن عبد العظيم العنبري ، وحرب بن اسماعيل الكرماني ، ومن لا يحصى عدده من أكابر أهل العلم والدين ، وأصحاب أصحابه ممن جمع كلامه وأخباره : كعبد الرحمن بن أبي حاتم وأبي بكر الخلال ، وأبي الحسن البناني الاصبهاني ، وأمثال هؤلاء ، ومن كان أيضاً يأتم به وبأمثاله من الأئمة في الأصول والفروع : كأبي عيسى الترمذي صاحب الجامع ، وأبي عبد الرحمن النسائي وأمثالهما ، ومثل أبي محمد بن قتيبة وأمثاله ، وبسط هذا له موضع آخر .

وقد ذكرنا في « المسائل الطبرستانية » و « الكيلانية » بسط مذاهب الناس وكيف تشعبت وتفرعت في هذا الأصل .

والمقصود هنا ان كثيراً من الناس المتأخرين لم يعرفوا حقيقة كلام السلف والأئمة ، فمنهم من يعظمهم ويقول انه متبع لهم ، مع انه مخالف لهم من حيث لا يشعر ، ومنهم من يظن أنهم كانوا لا يعرفون أصول الدين ولا تقريرها بالدلائل البرهانية ، وذلك لجهله بعلمهم ؛ بل لجهله بما جاء به الرسول من الحق الذي تدل عليه الدلائل العقلية مع السمعية ؛ فلهذا يوجد كثير من المتأخرين يشتركون في أصل فاسد ، ثم يفرع كل قوم عليه فروعا فاسدة يلتزمونها ، كما صرحوا في تكلم الله تعالى بالقرآن العربي ، وبالتوراة العبرية ، وما فيها من حروف الهجاء مؤلفاً او مفرداً لما رأوا ان ذلك بلغ بصفات المخلوقين اشتبه بصفات المخلوقين ، فلم يهتدوا لموضع

الجمع والفرق ، فقال هؤلاء : هذا الذي يقرأ ويسمع مثل كلام المخلوقين فهو مخلوق .

وقال هؤلاء : هذا الذي من كلام الآدميين هو مثل كلام الله فيكون غير مخلوق ، كما ذكر ابن عقيل في « كتاب الارشاد » عن بعض القائلين بأن القرآن مخلوق ، فقال : شبهة اعترض بها عليّ بعض أئمتهم فقال : أقل مافي القرآن من امارات الحدث كونه مشبهاً لكلامنا ، والقديم لا يشبه المحدث ومعلوم انه لا يمكن دفع ذلك ؛ لأن قول القائل لغلامه يحيى : يا يحيى خذ الكتاب بقوة ، يضاهي قوله سبحانه ، حتى لا يميز السامع بينهما من حيث حسه ، إلا أن يخبره أحدهما بقصده والآخر بقصده ، فيميز بينهما بخبر القائل لا بحسه ، وإذا اشتبها الى هذا الحد فكيف يجوز دعوى قدم ما يشابه المحدث ويسد مسده ، مع انه إن جاز دعوى قدم الكلام مع كونه مشاهداً للمحدث جاز دعوى التشبيه بظواهر الآي والاخبار ، ولا مانع من ذلك ، فلما فزعنا نحن وانتم الى نفي التشبيه خوفا من جواب دخول القرآن بالحدث علينا ، كذلك يجب أن تفزعوا من القول بالقدم مع وجود الشبه ، حتى ان بعض أصحابكم يقول لقوة ما رأى من الشبه بينهما ان الكلام واحد والحروف غير مخلوقة ، فكيف يجوز ان يقال فى الشيء الواحد انه قديم محدث .

قلت : وهذا الذي حكى عنه ابن عقيل من بعض الاصحاب المذكورين منهم القاضي يعقوب البرزيني ذكره في مصنفه فقال : (دليـل عاشر) وهو ان هذه الحروف بعينها وصفتها ومعناها وفائدتها هي التى في كتاب الله تعالى وفى اسمائه وصفاته والكتاب بحروفه قديم ؛ وكذلك هاهنـا . قال : فان قيل : لا نسلم ان تلك لها حرمة وهذه لا حرمة لها ، قيل : لا نسلم بل لها حرمة .

فان قيل : لو كان لها حرمة لوجب ان تمنع الحائض والنفساء من مسها وقراءتها ، قيل : قد لا تمنع من قراءتها ومسها ويكون لها حرمة كبعض آية لا تمنع من قراءتها ولهـا حرمة وهي قديمة ، وانما لم تمنع من قراءتها ومسها للحاجـة الى تعليمهـا ، كما يقال فى الصبي يجوز له مس المصحف على غير طهارة للحاجة إلى تعليمه .

فان قيل : فيجب اذا حلف بها حالف ان تنعقد يمينه وإذا خالف يمينه أن يحنث ، قيل له : كما فى حروف القرآن مثله نقول هنا .

فان قيل : أليس إذا وافقها فى هذه المعانى دل على انهـا هي ، الا ترى انه إذا تـكلم متكلم بكلمة يقصد بهـا خطاب آدمي فوافق صفتها صفة ما فى كتاب الله تعـالى ، مثل قوله ، يا داود ! يا نوح ! يا يحيى ! وغير ذلك ؛ فانه موافق لهذه الاسماء التى فى كتاب الله ، وان

كانت فى كتاب الله قديمة وفى خطاب الآدمي محدثة ؟ .

قيل : كل ما كان موافقاً لكتاب الله من الكلام فى لفظه ونظمه وحروفه فهو من كتاب الله وان قصد به خطاب آدمي .

فان قيل : فيجب إذا أراد بهذه الاسماء آدمياً وهو فى الصلاة ان لا تبطل صلاته .

قيل له : كذلك نقول وقد ورد مثل ذلك عن علي وغيره ؛ اذ ناداه رجل من الخوارج : (لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) قال : فأجابه علي وهو فى الصلاة : (فاصبر ان وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) . وعن ابن مسعود انه استأذن عليه بعض اصحابه فقال : (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) .

قال : فان قيل : أليس إذا قال : (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) ونوى به خطاب غلام اسمه يحيى يكون الخطاب مخلوقا ؟ وان نوى به القرآن يكون قديما ، قيل له : فى كلا الحالين يكون قديماً ؛ لأن القديم عبارة عما كان موجوداً فيما لم يزل ، والمحدث عبارة عما حدث بعد ان لم يكن ، والنية لا تجعل المحدث قديماً ولا القديم محدثاً ، قال : ومن قال هذا فقد بالغ فى الجهل والخطأ .

وقال ايضاً : كل شيء يشبه بشيء ما فانما يشبهه فى بعض الأشياء دون بعض ، ولا يشبهه من جميع أحواله ؛ لأنه إذا كان مثله فى جميع احواله كان هو لا غيره ، وقد بينا أن هذه الحروف تشبه حروف القرآن فهي غيرها اه .

(قلت) : هذا كلام القاضي يعقوب وامثاله ، مع انه اجل من تكلم فى هذه المسألة ، ولما كان جوابه مشتملا على ما يخالف النص والاجماع والعقل خالفه ابن عقيل وغيره من أئمة المذهب الذين هم أعلم به .

وأجاب ابن عقيل عن سؤال الذين قالوا هذا مثل هذا ، بان قال : الاشتراك فى الحقيقة لا يدل على الاشتراك فى الحدوث ، كما ان كونه عالما هو تبينه للشيء على أصلكم ، ومعرفته به على قولنا على الوجه الذي يتبينه الواحد منا ، وليس مماثلا لنا فى كوننا عالمين . وكذلك كونه قادراً هو صحة الفعل منه سبحانه وتعالى ، وليست قدرته على الوجه الذي قدرنا عليها ، فليس الاشتراك فى الحقيقة حاصلا ، والافتراق فى القدم والحدوث حاصل .

قال : « وجواب آخر » ، لا نقول ان الله يتكلم بكلامه على

الوجه الذي يتكلم به زيد ، بمعنى انه يقول : يا يحيى ! فاذا فرغ من ذلك انتقل إلى قوله خذ الكتاب بقوة ، وترتب فى الوجود كذلك ، بل هو سبحانه وتعالى يتكلم به على وجه تعجز عن مثله أدواتنا . فما ذكرته من الاشتباه من قول القائل يا يحيى خـــذ الكتاب يعود الى اشتباه التلاوة بالـكلام المحدث ، فأما انه يشابه الكلام القائم بذاته فلا .

قال ابن عقيل : قالوا فهذا لا يجيء على مذهبكم ؛ فان عنـــدكم التلاوة هي المتلو والقراءة هي المقروء . قيل : ليس معنى قولنا هي المتلو انها هذه الاصوات المقطعة ، وانما نريد به ما يظهر من الحروف القديمة فى الاصوات المحدثة ، وظهورها فى المحدث لا بد ان يكسبها صفة التقطيع لاختلاف الانفاس ، وادارة اللهوات ؛ لأن الآلة التى تظهر عليها لا تحمل الكلام إلا على وجــه التقطيــع ، وكلام الباري قائم بذاته على خلاف هذا التقطيــع ، والابتداء ، والانتهاء ، والتكرار ، والبعدية ، والقبلية .

ومن قال ذلك لم يعرف حد القديم وادعى قدم الاعراض وتقطع القديم ، وتقطع القديم عرض لايقوم بقديم ، ومن اعتقد ان كلام الله القائم بذاته على حد تلاوة التالى من القطع والوصل ، والتقريب والتبعيد والبعدية والقبلية فقد شبه الله بخلقه . ولهذا روي فى الخبر « أن موسى سأله بنوا اسرائيل كيف سمعت كلام ربك ؟ قال كالرعد الذي لا يترجع » يعني ينقطع لعــدم قطــع الانفاس وعدم الأنفاس ، والآلات والشفاه

واللهوات ، ومن قال غير ذلك وتوهم ان الله تكلـم على لسان التالي ، او الكلام الذي قام بذاته عـلى هذه الصفة من التقطيـع والوصل ، والتقريب والتبعيد : فقد حكم به محدثا ؛ لأن الدلالة عـلى حدوث العالم هو الاجتماع والافتراق ؛ ولأن هذه من صفات الأدوات اه .

(قلت) فهذا الذي قاله ابن عقيل أقل خطأ ممـا قاله البرزبني ، فان ذلك مخالف للنص والاجماع والعقل مخالفة ظاهرة ، فانه قـد ثبت بالنص والاجماع ان من تكلم في الصلاة بكلام الآدميين عامـداً لغير مصلحتها عالما بالتحريم بطلت صلاتـه بالاجماع ، خلاف ماذكره القاضي يعقوب ، ومتى قصد به التلاوة لم تبطل بالاجماع ، وان قصد به التلاوة والخطاب ففيه نزاع ، وظاهر مذهب احمد لاتبطل كمذهب الشافعي وغيره وقيل تبطل كقول أبي حنيفة وغيره .

وما ذكروه عن الصحابة حجة عليهم ؛ فان قول علي بن أبي طالب : (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) هو كلام الله ولم يقصد علي أن يقول للخارجي : ولا يستخفنك الخوارج ؛ وإنما قصد أن يسمعه الآية ، وانه عامل بهـا صابر لا يستخفه الذين لا يوقنون ، وابن مسعود قال لهم وهو بالكوفة : (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) . ومعلوم أن مصر بلا تنوين هي مصر المدينة وهذه لم تـكن بالكوفة . وابن مسعود إنما كان بالـكوفة ؛ فعلم أنه قصد تلاوة الآية ، وقصد مع

ذلك تنبيه الحاضرين على الدخول : فانهم سمعوا قوله ادخـلوا . فعلموا انه أذن لهم فى الدخول ، وان كان هو تلا الآية فهذا هذا .

وأما جواب ابن عقيل فبناه على أصل ابن كلاب الذي يعتقده هو وشيخه وغيرهما ، وهو الأصل الذي وافقوا فيه ابن كلاب ومـن اتبعه كالأشعري وغـيره ، وهو ان الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، وانه ليس فيما يقوم به شيء يكون بمشيئته وقدرته ؛ لامتنـاع قيام الأمور الاختيارية به عندهم ؛ لأنهـا حادثة والله لا يقوم به حادث عندهم ؛ ولهـذا تأولوا النصوص المناقضة لهذا الأصل ، كقوله تعالى : (وقل اعملوا فسيرى الله عملـكم ورسوله والمؤمنون) فان هـذا يقتضي انه سيرى الأعمـال فى المستقبل ، وكذلك قوله : (ثم جعلناكم خلائف فى الأرض مـن بعدهم لننظر كيف تعملون) وقوله : (اعملوا فسيرى الله عملـكم ورسوله) وكذلك قوله : (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) فان هذا يقتضي أنه يحبهم بعد اتبـاع الرسول . وكذلك قوله تعـالى : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ، ثم قلنـا للملائـكة اسجدوا لآدم) فان هـذا يقتضي انه قال لهم بعد خلق آدم ، وكذلك قوله تعالى : (فلمـا أتاها نودي) يقتضي أنه نودي لما أتاها ، لم يناد قبل ذلك ، وكذلك قوله : (إنمـا أمره إذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيـكون) ومثـل هذا فى القرآن كثير .

وهذا الأصل هو مما أنكره الامام أحمد على ابن كلاب وأصحابه، حتى على الحارث المحاسبي مع جلالة قدر الحارث ، وأمر أحمد بهجره وهجر الكلابية ، وقال : احذروا من حارث ، الآفة كلها من حارث، فمات الحارث وما صلى عليه إلا نفر قليل بسبب تحذير الامام أحمد عنه ، مع أن فيه من العلم والدين ما هو أفضل من عامة من وافق ابن كلاب على هذا الأصل ، وقد قيل إن الحارث رجع عن ذلك وأقر بأن الله يتكلم بصوت ، كما حكى عنه ذلك صاحب « التعرف لمذهب التصوف » أبو بكر محمد بن اسحاق الكلاباذي .

وكثير من المتأخرين من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبي حنيفة وافقوا ابن كلاب على هذا الأصل ، كما قد بسط الكلام على ذلك فى مواضع أخر .

واختلف كلام ابن عقيل فى هذا الأصل ، فتارة يقول بقول ابن كلاب ، وتارة يقول بمذهب السلف وأهل الحديث أن الله تقوم به الأمور الاختيارية ، ويقول انه قام به أبصار متجددة حين تجدد المرئيات لم تكن قبل ذلك ، وقام به علم بأن كل شيء وجد غير العلم الذي كان أولاً أنه سيوجد ، كما دل على ذلك عدة آيات فى القرآن ، كقوله تعالى : (لنعلم من يتبع الرسول) وغير ذلك . وكلامه فى هذا الأصل وغيره يختلف ، تارة يقول بهذا ، وتارة يقول بهذا ، فان هذه المواضع مواضع

مشكلة كثر فيها غلط الناس ؛ لما فيها من الاشتباه والالتباس .

والجواب الحق : أن كلام الله لا يماثل كلام المخلوقين ، كما لا يماثل في شيء من صفاته صفات المخلوقين ، وقول القائل : إن الاشتراك في الحقيقة لا يدل على الاشتراك في الحدوث لفظ مجمل ، فانا إذا قلنا : لله علم ولنا علم ، أو له قدرة ولنا قدرة ، أو له كلام ولنا كلام ، أو تكلم بصوت ونحن نتكلم بصوت ، وقلنا صفة الخالق وصفة المخلوق اشتركتا في الحقيقة ، — فان أريد بذلك ان حقيقتها واحدة بالعين فهذا مخالف للحس والعقل والشرع ، وان أريد بذلك أن هذه مماثلة لهذه في الحقيقة ، وإنما اختلفتا في الصفات العرضية ، كما قال ذلك طائفة من أهل الكلام — وقد بين فساد ذلك في الكلام على « الأربعين » للرازي وغير ذلك — فهذا أيضاً من أبطل الباطل ، وذلك يستلزم أن تكون حقيقة ذات الباري عز وجل مماثلة لحقيقة ذوات المخلوقين .

وان أريد بذلك أنهما اشتركا في مسمى العلم والقدرة والكلام فهذا صحيح ، كما انه إذا قيل : إنه موجود أو ان له ذاتا فقد اشتركا في مسمى الوجود والذات ، لكن هذا المشترك أمر كلي لا يوجد كلياً إلا في الأذهان لا في الاعيان ، فليس في الخارج شيء اشترك فيه مخلوقان كاشتراك الجزئيات في كلياتها بخلاف اشتراك الاجزاء في الكل ، فانه يجب الفرق بين قسمة الكلي إلى جزئياته ، كقسمة الحيوان إلى

ناطق وغير ناطق ، وقسمة الانسان الى مسلم وكافر ، وقسمة الاسم الى معرب ومبني ، وقسمة الكل إلى أجزائه كقسمة العقار بين الشركاء وقسمة الكلام إلى اسم وفعل وحرف ، ففي الأول انما اشتركت الأقسام فى أمر كلي فضلا عن أن يكون الخالق والمخلوقون مشتركين فى شيء موجود فى الخارج ، وليس في الخارج صفة لله يماثل بها صفة المخلوق ، بل كل ما يوصف به الرب تعالى فهو مخالف بالحد والحقيقة ؛ لما يوصف به المخلوق أعظم مما يخالف المخلوق المخلوق واذا كان المخلوق مخالفاً بذاته وصفاته لبعض المخلوقات في الحد والحقيقة ، فمخالفة الخالق لكل مخلوق في الحقيقة أعظم من مخالفة أي مخلوق فرض لأي مخلوق فرض ، ولكن علمه ثبت له حقيقة العلم ، ولقدرته حقيقة القدرة ، ولكلامه حقيقة الكلام ، كما ثبت لذاته حقيقة الذاتية ، ولوجوده حقيقة الوجود ، وهو أحق بأن تثبت له صفات الكمال على الحقيقة من كل ما سواه .

فهذا هو المراد بقولنا : علمه يشارك علم المخلوق فى الحقيقة ، فليس ما يسمع من العباد من أصواتهم مشابهاً ولا مماثلا لما سمعه موسى من صوته إلا كما يشبه ويماثل غير ذلك من صفاته لصفات المخلوقين ، فهذا فى نفس تكلمه سبحانه وتعالى بالقرآن ، والقرآن عند الامام احمد وسائر أئمة السنة كلامه تكلم به ، وتكلم بالقرآن العربي بصوت نفسه ، وكلم موسى بصوت نفسه الذي لا يماثل شيئاً من اصوات العباد .

ثم إذا قرأنا القرآن فانما نقرؤه باصواتنا المخلوقة التى لاتماثل صوت الرب ، فالقرآن الذي نقرؤه هو كلام الله مبلغا عنه لا مسموعا منــه ، وانما نقرؤه بحركاتنا واصواتنا ، الـكلام كلام البـاري ، والصوت صوت القارىء ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة مع العقل ، قال الله تعالى : (وأن احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) وقال النبي صلى الله عليـه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » وقال الامام احمد فى قول النبي صلى الله عليــه وسلم : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » قال ، يزينــه ويحسنــه بصوته ، كما قال : « زينوا القرآن بأصواتكم »

فنص احمد على ما جاء به الكتاب والسنة انا نقرأ القرآن باصواتنا والقرآن كلام الله كله لفظه ومعناه ، سمعه جبريل من الله وبلغــه الى محمد صلى الله عليــه وسلم وسمعــه محمد منه ، وبلغه محمــد إلى الخلق ، والخلق يبلغه بعضهم الى بعض ، ويسمعه بعضهم من بعض ، ومعلوم انهم إذا سمعوا كلام النبي صلى الله عليــه وسلم وغيره فبلغوه عنه ، كما قال : « نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه » فهم سمعوا اللفــظ من الرسول بصوت نفسه بالحروف التى تكلم بهــا ، وبلغوا لفظه باصوات انفسهم ، وقد علم الفرق بين من يروي الحديث بالمعنى لا باللفــظ ، واللفظ المبلغ هو لفــظ الرسول وهو كلام الرسول ؛ فان كان صوت

المبلـغ ليس صوت الرسول ، وليس ما قام بالرسول مـن الصفـات والاعراض فارقته وما قامت بغيره ؛ بل ولا تقوم الصفة والعرض بغير محله . وإذا كان هذا معقولا فى صفات المخلوقـين فصفات الخالق اولى بكل صفة كمال ، وأبعد عن كل صفة نقص ، والتباين الذي بـين صفة الخالق والمخلوق اعظم من التباين الذي بـين صفة مخـلوق ومخلوق ، وامتناع الاتحاد والحلول بالذات للخالق وصفاته فى المخـلوق أعظم من الاتحاد والحلول بالذات للمخلوق وصفاته في المخلوق ، وهذه جمل قـد بسطت في مواضع اخر .

هذا مع ان احتجاج الجهمية والمعتزلة بان كلام المخـلوق بقوله : (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) مثل كلام الخالق غلط باتفاق الناس حتى عندهم ، فان الذين يقولون هو مخلوق يقولون انه خلقه فى بعض الاجسام ، اما الهواء او غيره ، كما يقولون : انـه خلق الـكلام فى نفس الشجرة فسمعه موسى .

ومعلوم ان تلك الحروف والاصوات التى خلقها الله ليست مماثلة لما يسمع من العبد ، وتلك هي كلام الله المسموع منه عندهم ؛ كما ان اهل السنة يقولون الذي تـكلم هو الله بمشيئتـه ، وليس ذلك مماثـلاً لصوت العبد .

واما القائلون بقدم الكلام المعين سواء كان معنى او حروفا او اصواتا ، فيقولون : خلق لموسى ادراكا ادرك به ذلك القديم ، وبكل حال فكلام المتكلم إذا سمع من المبلغ عنه [غير ما قام بنفس المتكلم المنشيء] فكيف [لا] يكون ذلك في كلام الله تعالى ؟ .

فيجب على الانسان فى « مسألة الكلام » ان يتحرى أصلين : (احدها) تكلم الله بالقرآن وغيره ، هل تكلم به بمشيئته وقدرته أم لا ؟ وهل تكلم بكلام قائم بذاته أم خلقه فى غيره ؟ (والثانى) تبليغ ذلك الكلام عن الله ، وأنه ليس مما يتصف به الثانى ، وان كان المقصود بالتبليغ الكلام المبلغ . وبسط هذا له موضع آخر .

وأيضا فهذان المتنازعان اذا قال احدهما : انها قديمة ، وليس لها مبتدأ ، وشكلها ونقطها محدث ، وقال الآخر : انها ليست بكلام الله وانها مخلوقة بشكلها ونقطها ، قد يفهم من هذا انهما ارادا بالحروف الحروف المكتوبة دون المنطوقة ، والحروف المكتوبة قد تنازع الناس فى شكلها ونقطها ، فان الصحابة لما كتبوا المصاحف كتبوها غير مشكولة ولا منقوطة ؛ لأنهم انما كانوا يعتمدون فى القرآن على حفظه فى صدورهم لا على المصاحف ، وهو منقول بالتواتر محفوظ فى الصدور ، ولو عدمت المصاحف لم يكن للمسلمين بها حاجة ، فان المسلمين ليسوا كاهل الكتاب الذين يعتمدون على الكتب التى تقبل التغير ، والله أنزل القرآن على محمد فتلقاه تلقياً وحفظه فى قلبه ، لم ينزله مكتوبا كالتوراة ،

وأنزله منجما مفرقا ليحفظ فلا يحتاج الى كتاب ، كما قال تعالى : (وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) الآية ، وقال تعالى : (وقرآنا فرقناه) الآية ، وقال تعالى : (ولا تعجل بالقرآن) الآية ، وقال تعالى : (ان علينا جمعه وقرآنه) الآية .

وفى الصحيح عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعالج من التنزيل شدة ، وكان يحرك شفتيه ، فقال ابن عباس : أنا أحركهما لك كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يحركهما ، فحرك شفتيه ، فأنزل الله تعالى : (لا تحرك به لسانك لتعجل به ان علينا جمعه وقرآنه) قال جمعه فى صدرك ثم تقرأه : (فاذا قرأناه فاتبع قرآنه) قال : فاستمع له وانصت (ثم ان علينا بيانه) أي نبينه بلسانك . فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه جبريل استمع ، فاذا انطلق جبريل قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما أقرأه ؛ فلهذا لم تكن الصحابة ينقطون المصاحف ويشكلونها ، وأيضا كانوا عربا لا يلحنون ؛ فلم يحتاجوا إلى تقييدها بالنقط ، وكان فى اللفظ الواحد قراءتان يقرأ بالياء والتاء مثل : يعملون وتعملون . فلم يقيدوه باحدها ليمنعوه من الأخرى .

ثم انه فى زمن التابعين لما حدث اللحن صار بعض التابعين يشكل المصاحف وينقطها ، وكانوا يعملون ذلك بالحمرة ، ويعملون الفتح بنقطة حمراء فوق الحرف ، والكسرة بنقطة حمراء تحته ، والضمة بنقطة حمراء

امامه . ثم مدوا النقطة وصاروا يعملون الشدة بقولك «شد» ، ويعملون المدة بقولك «مد» ، وجعلوا علامة الهمزة تشبه العين ؛ لأن الهمزة أخت العين ، ثم خففوا ذلك حتى صارت علامة الشدة مثل رأس السين ، وعلامة المدة مختصرة كما يختصر أهل الديوان الفاظ العدد وغير ذلك ، وكما يختصر المحدثون أخبرنا وحدثنا ، فيكتبون أول اللفظ وآخره على شكل «أنا» وعلى شكل «ثنا» .

وتنازع العلماء هل يكره تشكيل المصاحف وتنقيطها ؟ على قولين معروفين وهما روايتان عن الامام احمد ، لكن لا نزاع بينهم ان المصحف إذا شكل ونقط وجب احترام الشكل والنقط ، كما يجب احترام الحرف ، ولا تنازع بينهم ان مداد النقطة والشكل مخلوق ، كما أن مداد الحرف مخلوق ، ولا نزاع بينهم ان الشكل يدل على الاعراب ، والنقط يدل على الحروف ، وان الاعراب من تمام الكلام العربي ،

ويروى عن أبي بكر وعمر انهما قالا : حفظ إعراب القرآن أحب الينا من حفظ بعض حروفه . ولا ريب ان النقطة والشكلة بمجردهما لا حكم لهما ولا حرمة ولا ينبغي أن يجرد الكلام فيهما ، ولا ريب أن إعراب القرآن العربى من تمامه ، ويجب الاعتناء باعرابه ، والشكل يبين إعرابه كما تبين الحروف المكتوبة للحرف المنطوق ، كذلك يبين الشكل المكتوب للاعراب المنطوق .

فهذه المسائل إذا تصورها الناس على وجهها تصوراً تاما ظهر لهم الصواب ، وقلت الاهواء والعصبيات ، وعرفوا موارد النزاع ، فمن تبين له الحق فى شيء من ذلك اتبعه ، ومن خفي عليه توقف حتى يبينه الله له وينبغي له أن يستعين على ذلك بدعاء الله ، ومن أحسن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قام من الليل يصلي يقول : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » .

وقول القائل الآخر كلامه كتب بها : يقتضي انه أراد بالحروف ما يتناول المنطوق والمكتوب ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول الم حرف ، ولكن الف حرف ولام حرف وميم حرف » قال الترمذي : حديث صحيح . فهنا لم يرد النبي صلى الله عليه وسلم بالحرف نفس المداد وشكل المداد ، وانما اراد الحرف المنطوق. وفى مراده بالحرف قولان : قيل هذا اللفظ المفرد . وقيل أراد صلى الله عليه وسلم بالحرف الاسم ، كما قال : ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف .

ولفظ « الحرف والكلمة » له فى لغة العرب التى كان النبي صلى

الله عليـه وسـلم يتكلم بهـا معنى ، وله فى اصطـلاح النحاة معنى .
فالـكلمة فى لغتهم هي الجملة التامـة ، الجملة الاسمية أو الفعليـة ، كما قال النبي صلى الله عليـه وسلم فى الحديث المتفق على صحته : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتـان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » وقال صلى الله عليـه وسلم : « إن أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » وقال : « ان العبد ليتكلم بالـكلمة من رضوان الله ما يظن ان تبلغ ما بلغت يكتب له بها رضوانه الى يوم القيامة ، وإن العبـد ليتـكلم بالـكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب له بهـا سخطه إلى يوم القيامـة » وقال لأم المؤمنين « لقد قلت بعدك اربع كلمات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله عـدد خلقه ، سبحان الله رضـا نفسه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله مداد كلماته » ومنـه قوله تعالى : (كبرت كلمـة تخرج من أفواههـم إن يقولون إلا كـذبا) وقوله : (وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها) وقوله تعالى : (ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله) وقوله : (وجعلها كلمة باقيـة فى عقبه لعلهـم يرجعون) وقوله : (وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا) وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « من قاتل لتـكون كلمة الله هي العليا فهو فى سبيل الله » ونظائره كثيرة .

ولا يوجد قط فى الكتاب والسنة وكلام العرب لفظ الـكلمة إلا

والمراد به الجملة التامة . فكثير من النحاة أو أكثرهم لا يعرفون ذلك ؛ بل يظنون ان اصطلاحهم فى مسمى الكلمة ينقسم إلى اسم وفعل وحرف هو لغة العرب، والفاضل منهم يقول :

وكلمة بها كلام قد يؤم

ويقولون : العرب قد تستعمل الكلمة فى الجملة التامة وتستعملها فى المفرد ، وهذا غلط لا يوجد قط فى كلام العرب لفظ الكلمة إلا للجملة التامة .

ومثل هذا اصطلاح المتكلمين على ان القديم هو مالا أول لوجوده أو مالم يسبقه عدم ، ثم يقول بعضهم : وقد يستعمل القديم فى المتقدم على غيره ، سواء كان أزلياً أو لم يكن ، كما قال تعالى : (حتى عاد كالعرجون القديم) وقال : (وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) وقوله تعالي : (قالوا تالله انك لفي ضلالك القديم) وقال : (أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون) وتخصيص القديم بالأول عرف اصطلاحي ، ولا ريب انه أولى بالقدم فى لغة العرب ؛ ولهذا كان لفظ المحدث فى لغة العرب بازاء القديم ، قال تعالى : (مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث) وهذا يقتضي ان الذي نزل قبله ليس بمحدث بل متقدم . وهذا موافق للغة العرب التى نزل بها القرآن ،

ونظير هذا لفظ « القضاء » فانه فى كلام الله وكلام الرسول المراد بـه إتمام العبادة وإن كان ذلك فى وقتها ، كما قال تعـالى : (فاذا قضيت الصـلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) وقوله : (فاذا قضيتم مناسككم) ثم اصطلح طائفة من الفقهاء فجعلوا لفظ « القضاء » مختصاً بفعلهـا في غير وقتهـا ، ولفظ « الأداء » مختصاً بمـا يفعل في الوقت ، وهـذا التفريق لا يعرف قط فى كلام الرسول ، ثم يقولون قد يستعمل لفظ القضاء فى الأداء ، فيجعلون اللغـة التى نزل القرآن بها من النادر .

ولهذا يتنازعون فى مراد النبي صلى الله عليـه وسلم : « فما أدركتم فصلوا وما فاتـكم فاقضوا » وفى لفـظ : « فأتموا » فيظنون ان بـين اللفظين خلافا وليس الأمر كذلك ؛ بل قوله : « فاقضـوا » كقوله : « فأتموا » لم يرد باحدها الفعل بعد الوقت ؛ بل لا يوجـد فى كلام الشارع أمر بالعبادة فى غير وقتها ، لكن الوقت وقتـان : وقت عام ووقت خاص لأهل الأعذار : كالنائم والناسي إذا صليا بعد الاستيقاظ والذكر فانما صليا فى الوقت الذي أمر الله به ، فان هذا ليس وقتا فى حق غيرها .

ومن أعظم أسباب الغلط فى فهم كلام الله ورسوله ان ينشأ الرجل

على اصطلاح حادث ، فيريد أن يفسر كلام الله بذلك الاصطلاح ويحمله على تلك اللغة التي اعتادها .

وما ذكر في مسمى « الكلام » ما ذكره سيبويه في كتابه عن العرب ، فقال : واعلم « ان » في كلام العرب انما وقعت على أن تحكى وانما يحكى بعد القول ما كان كلاما قولا ؛ وإلا فلا يوجد قط لفظ الكلام والكلمة الا للجملة التامة في كلام العرب ، ولفظ الحرف يراد به الاسم والفعل وحروف المعانى واسم حروف الهجاء ؛ ولهذا سأل الخليل اصحابه : كيف تنطقون بالزاي من زيد ؟ فقالوا : زاي، فقال نطقتم بالاسم ، وإنما الحرف زه ؛ فبين الخليل ان هذه التي تسمى حروف الهجاء هي اسماء .

وكثيراً ما يوجد في كلام المتقدمين هذا « حرف من الغريب » يعبرون بذلك عن الاسم التام ، فقوله صلى الله عليه وسلم : « فله بكل حرف » مثله بقوله : « ولكن الف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » . وعلى نهج ذلك : وذلك حرف ، والكتاب حرف ، ونحو ذلك . وقد قيل : ان ذلك احرف والكتاب احرف ، وروي ذلك مفسراً في بعض الطرق .

والنحاة اصطلحوا اصطلاحا خاصاً ، فجعلوا لفظ « الكلمة » يراد

به الاسم أو الفعـل أو الحرف الذي هو من حروف المعـانى ؛ لأن سيبويه قال فى أول كتابه : الـكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل . فجعل هذا حرفا خاصـاً ، وهو الحرف الذي جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل ؛ لأن سيبويه كان حديث العهد بلغة العرب وقـد عرف انهم يسمون الاسم او الفعـل حرفا ، فقيد كلامـه بان قال : وقسموا الـكلام إلى اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل ، وأراد سيبويه أن الـكلام ينقسم إلى ذلك قسمـة الـكل إلى اجزائـه لا قسمة الـكلي إلى جزئياته كما يقول الفقهاء بان القسمة كما يقسم العقار والمنقول بين الورثة ، فيعطى هؤلاء قسم غير قسم هؤلاء ، كذلك الـكلام هو مؤلف من الأسماء والأفعال وحروف المعاني فهو مقسوم اليها ، وهذا التقسيم غير تقسيم الجنس الى أنواعه ، كما يقال : الاسم ينقسم الى معرب ومبنى .

وجاء الجزولي وغيره فاعترضوا على النحاة فى هذا ولم يفهموا كلامهم ، فقالوا : كل جنس قسم إلى أنواعه او أشخاص أنواعه ، فاسم المقسوم صادق على الأنواع والأشخاص والا فليست أقساماً له ، وارادوا بذلك الاعتراض على قول الزجاج : الـكلام اسم وفعل وحرف . والذي ذكره الزجاج هو الذي ذكره سيبويه وسائر أئمة النحـاة ، وأرادوا بذلك القسمة الأولى المعروفة ، وهي قسمة الأمور الموجودة إلى أجزائهـا كما يقسم العقار والمال ، ولم يريدوا بذلك قسمة الـكليات ـــ التى لا توجد كليات

إلا فى الذهن — كقسمة الحيوان الى ناطق وبهيم، وقسمة الاسم إلى المعرب والمبني . فان المقسم هنا هو معنى عقلي كلي لا يكون كلياً إلا فى الذهن .

فصل

ولفظ « الحرف » يراد به حروف المعانى التى هي قسيمة الأسماء والأفعال : مثل حروف الجر والجزم ؛ وحرفي التنفيس ، والحروف المشبهة للأفعال مثل « إنّ وأخواتها » وهذه الحروف لها أقسام معروفة فى كتب العربية ، كما يقسمونها بحسب الاعراب الى ما يختص بالأسماء والى ما يختص بالأفعال ، ويقولون : ما اختص باحد النوعين ولم يكن كالجزء منه كان عاملاً كما تعمل حروف الجر وإن وأخواتها فى الأسماء ، وكما تعمل النواصب والجوازم فى الأفعال ؛ بخلاف حرف التعريف وحرفي التنفيس : كالسين وسوف فانها لا يعملان لأنها كالجزء من الكلمة ، ويقولون : كان القياس فى « ما » انها لا تعمل لأنها تدخل على الجمل الاسمية والفعلية ، ولكن أهل الحجاز أعملوها لمشابهتها لليس وبلغتهم جاء القرآن في قوله : (ما هذا بشراً) (ما هن أمهاتهم) .

ويقسمون « الحروف » باعتبار معانيها الى حروف استفهام ، وحزوف نفي ، وحروف تحضيض وغير ذلك ، ويقسمونها باعتبار بنيتها كما تقسم الأفعال والأسماء إلى مفرد وثنائى ، وثلاثى ورباعى وخماسي . فاسم الحرف هنا منقول عن اللغة الى عرف النحاة بالتخصيص ، والا فلفظ الحرف فى اللغة يتناول الأسماء والحروف والأفعال ، وحروف الهجاء تسمى حروفاً وهي أسماء كالحروف المذكورة في أوائل السور ، لأن مسماها هو الحرف الذي هو حرف الكلمة .

وتقسم تقسيماً آخر الى حروف حلقية وشفهية ، والمذكورة فى أوائل السور فى القرآن هي نصف الحروف ، واشتملت من كل صنف على أشرف نصفيه : على نصف الحلقية ، والشفهية ، والمطبقة ؛ والمصمتة ، وغير ذلك من أجناس الحروف .

فان لفظ « الحرف » أصله في اللغة هو الحد والطرف كما يقال : حروف الرغيف وحرف الجبل . قال الجوهري : حرف كل شيء طرفه وشفيره وحده . ومنه حرف الجبل وهو أعلاه المحدد ، ومنه قوله تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف) الى قوله : (والآخرة) فان طرف الشيء إذا كان الانسان عليه لم يكن مستقراً ؛ فلهذا كان من عبد الله على السراء دون الضراء عابداً له على حرف : تارة يظهره وتارة ينقلب

على وجهـه ، كالواقف على حرف الجبـل ، فسميت حروف الكلام حروفاً لأنها طرف الكلام وحده ومنتهاه ، إذ كان مبدأ الكلام من نفس المتكلم ، ومنتهاه حده وحرفه القائم بشفتيه ولسانه ؛ ولهـذا قال تعالى : (ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين) فلفظ الحرف يراد به هذا وهذا وهذا .

ثم إذا كتب الكلام في المصحف سموا ذلك حروفاً ، فيراد بالحرف الشكل المخصوص ولكل أمة شكل مخصوص هي خطوطهم التي يكتبون بها كلامهم ، ويراد به المـادة ، ويراد به مجموعها ، وهـذه الحروف المكتوبة تطابق الحروف المنطوقة وتبينها وتدل عليها فسميت باسمائها ؛ إذ كان الانسان يكتب اللفظ بقلمه ؛ ولهذا كان أول ما أنزل الله على نبيه (اقرأ باسم ربك الذي خـلق) الى قوله : (ما لم يعـلم) فبين سبحانه في أول ما أنزله انه سبحانه هو الخالق الهادي الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ، كما قال موسى : (ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى) فالخلق يتناول كل ما سواه من المخلوقات ثم خص الانسان فقال : (خلق الانسان من علق) . ثم ذكر انه علم ؛ فان الهدى والتعليم هو كمال المخلوقات .

والعلم له « ثلاث مراتب » علم بالجنان ، وعبـارة باللسان ، وخط

بالبنان ؛ ولهذا قيل : ان لـكل شيء أربع وجودات : وجود عيني ، وعلمي ، ولفظي ، ورسمي . وجود في الأعيان ، ووجود في الأذهان ، واللسان ، والبنان ؛ لكن الوجود العيني هو وجود الموجودات في أنفسها والله خالق كل شيء ، وأما الذهني الجنانى فهو العلم بها الذي فى القلوب ، والعبارة عن ذلك هو اللسانى ، وكتابة ذلك هو الرسمي البنانى ، وتعليم الخط يستلزم تعليم العبارة واللفظ ، وذلك يستلزم تعليم العـلم فقال : (علم بالقلم) لأن التعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاث ، وأطلق التعليم ، ثم خص ، فقال : (علم الانسان ما لم يعلم) .

وقد تنازع الناس فى وجود كل شيء ، هل هو عين ماهيته أم لا ؟ وقد بسط الكلام على ذلك فى غير هـذا الموضع ، وبين أن الصواب من ذلك انه قد يراد بالوجود ما هو ثابت في الأعيان ، وبالماهية مايتصور فى الأذهان ، فعلى هذا فوجود الموجودات الثابت في الأعيان ليس هو ماهيتها المتصورة في الأذهان ؛ لكن الله خلق الموجود الثابت فى الأعيان وعلم الماهيات المتصورة فى الأذهان ، كما أنزل بيان ذلك فى أول سورة أنزلها من القرآن ، وقد يراد بالوجود والماهية كلاهما : ما هو متحقق فى الأعيان ، وما هو متحقق فى الأذهان ، فاذا أريد بهـذا وهذا ما هو متحقق في الأعيان أو ما هو متصور في الأذهان ، فليس هما في الأعيان اثنان ؛ بل هذا هو هذا . وكذلك الذهن إذا تصور شيئاً فتلك الصورة

هى المثـــال الذي تصورها ، وذلك هو وجودهـــا الذهني الذي تتصوره الأذهان ؛ فهذا فصل الخطاب في هذا الباب .

ومن تدبر هـــذه المسائل وأمثالها تبين له أن أكثر اختـــلاف العقـــلاء من جهة اشتراك الأسمـــاء (ومن لم يجعـــل الله له نوراً فما له من نور) .

وقد بسط الـكلام على أصول هذه المسائل وتفاصيلها في مواضع أخرى ؛ فان الناس كثر نزاعهم فيها حتى قيـــل : « مسألة الـكلام » حيرت عقول الانام . ولكن سؤال هذين لا يحتمل البسط الكثير فانهما سألا بحسب ما سمعاه واعتقداه وتصوراه ، فاذا عرف السائل أصل مسألته ولوازمها وما فيها من الألفاظ المجملة والمعانى المشتبهة ، تبين له أن من الخلق من تكلم في مثل هذه الأسماء بالنفي والاثبات من غير تفصيل ، فلا بد له أن يقابله آخر بمثل اطلاقه .

ومن الاصول الـكلية أن يعلم أن الألفـــاظ « نوعان » : نوع جاء به الكتاب والسنة فيجب على كل مؤمـــن أن يقر بموجب ذلك ، فيثبت ما أثبته الله ورسوله وينفي ما نفاه الله ورسوله ، فاللفظ الذي أثبته الله ، او نفـــاه حق ؛ فان الله يقول الحق وهـــو يهـــدي السبيل ، والألفاظ

الشرعية لها حرمة . ومن تمام العلم أن يبحث عن مراد رسوله بها ليثبت ما أثبته وينفي ما نفاه من المعاني ، فانه يجب علينا أن نصدقه فى كل ما أخبر ، ونطيعه فى كل ما أوجب وأمر ، ثم إذا عرفنا تفصيل ذلك كان ذلك من زيادة العلم والايمان . وقد قال تعالى : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) .

وأما الألفاظ التى ليست فى الكتاب والسنة ولا اتفق السلف على نفيها او إثباتها فهذه ليس على أحد أن يوافق من نفاها أوأثبتها حتى يستفسر عن مراده ، فان أراد بها معنى يوافق خبر الرسول أقر به ، وان أراد بها معنى يخالف خبر الرسول أنكره .

ثم التعبير عن تلك المعاني ان كان في ألفاظه اشتباه او اجمال عبر بغيرها او بين مراده بها ، بحيث يحصل تعريف الحق بالوجه الشرعي ؛ فان كثيراً من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة مبتدعة ، ومعان مشتبهة ، حتى تجد الرجلين يتخاصان ويتعاديان على اطلاق ألفاظ ونفيها ، ولو سئل كل منهما عن معنى ما قاله لم يتصوره فضلاً عن أن يعرف دليله . ولو عرف دليله لم يلزم أن من خالفه يكون مخطئاً بل يكون فى قوله نوع من الصواب ، وقد يكون هذا مصيباً من وجه وهذا مصيباً من وجه ، وقد يكون الصواب في قول ثالث .

وكثير من الكتب المصنفة فى « أصول علوم الدين » وغيرها تجد الرجل المصنف فيها فى « المسألة العظيمة » كمسألة القرآن والرؤية، والصفات والمعاد، وحدوث العالم وغير ذلك يذكر أقوالاً متعددة . والقول الذي جاء به الرسول وكان عليه سلف الأمة ليس فى تلك الكتب ؛ بل ولا عرفه مصنفوها ولا شعروا به. وهذا من أسباب توكيد التفريق والاختلاف بين الأمة . وهو مما نهيت الأمة عنه ، كما فى قوله تعالى: (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم . يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) . قال ابن عباس : تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة .

وقد قال تعالى : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شيء إنما أمرهم إلى الله) وقال تعالى : (وان الذين اختلفوا فى الكتاب لفي شقاق بعيد) . وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يتنازعون فى القدر ، وهذا يقول ألم يقل الله كذا ؟ وهذا يقول ألم يقل الله كذا ؟ فقال : « أبهذا أمرتم ؟ أم إلى هذا دعيتم ؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا : أن ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، انظروا ما أمرتم به فافعلوه ، وما نهيتم عنه فاجتنبوه » . ومما أمر الناس به أن يعملوا بمحكم القرآن ، ويؤمنوا بمتشابهه .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : وقد كتبت فى أصول هـذه المسائل قواعد متعددة وأصول كثيرة ، ولكن هذا الجواب كتب وصاحبه مستوفز فى قعدة واحدة ، والله تعالى يهدينا وسائر اخواننا لما يحبه ويرضاه .
والحمد لله رب العالمين .

وقال رحمه الله

فصـــــل

فى بيان أن القرآن العظيم كلام الله العزيز العليم ، ليس شيء منه كلاماً لغيره لا جبريل ولا محمد ولا غيرهما ، قال الله تعالى : (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون . وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون . قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ، ولقد نعلم انهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين) .

فأمره أن يقول : (نزله روح القدس من ربك بالحق) فان الضمير فى قوله (قل نزله) عائد على ما فى قوله : (بما ينزل) والمراد به القرآن ، كما يدل عليه سياق الكلام وقوله : (والله أعلم

بما ينزل) فيه إخبار الله بأنه انزله ؛ لكن ليس فى هذه اللفظة بيان ان روح القدس نزل به ، ولا انه منزل منه .

ولفظ « الانزال » فى القرآن قد يرد مقيداً بالانزال منه : كنزول القرآن ، وقد يرد مقيداً بالانزال من السماء ويراد به العلو ؛ فيتناول نزول المطر من السحاب . ونزول الملائكة من عند الله وغير ذلك ، وقد يرد مطلقاً فلا يختص بنوع من الانزال ؛ بل ربما يتناول الانزال من رؤوس الجبال ، كقوله : (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) والانزال من ظهور الحيوان كانزال الفحل الماء وغير ذلك . فقوله : (نزله روح القدس من ربك بالحق) بيان لتنزول جبريل به من الله ، فان روح القدس هنا هو جبريل ؛ بدليل قوله : (من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله) وهو الروح الأمين كما في قوله : (وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين) وفي قوله (الأمين) دلالة على أنه مؤتمن على ما أرسل به ، لا يزيد فيه ولا ينقص منه ، فان الرسول الخائن قد يغير الرسالة ، كما قال فى صفته في الآية الأخرى : (إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين) .

وفى قوله : (منزل من ربك) دلالة على أمور :

« منها » بطلان قول من يقول إنه كلام مخلوق خلقه فى جسم

من الأجسام المخلوقــة كما هو قول الجهمية الذين يقولون بخلق القرآن من المعتزلة والنجارية والضرارية وغيرهم ؛ فان السلف كانوا يسمون كل من نفى الصفات وقال ان القرآن مخــلوق وان الله لا يرى في الآخرة جهمياً ؛ فان « جهما » أول من ظهرت عنه بدعة نفى الأسماء والصفات ، وبالغ في نفي ذلك ، فله في هذه البدعة مزية المبالغة في النفي والابتداء بكثرة اظهار ذلك والدعوة إليه ، وان كان الجعد بن درهم قد سبقه الى بعض ذلك .

فان الجعد بن درهم أول من أحدث ذلك في الاسلام ؛ فضحى به خالد بن عبد الله القسري بواسط يوم النحر . وقال : يا أيها الناس ! ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فاني مضح بالجعد بن درهم ، انه زعم ان الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عمــا يقول الجعد بن درهم علواً كبيراً . ثم نزل فذبحه ؛ ولــكن المعتزلة وان وافقوا جهما في بعض ذلك فهم يخالفونه في مسائل غــير ذلك : كمسائل القــدر والايمــان ، وبعض مسائل الصفات أيضاً ، ولا يبالغون في النفي مبالغته .

وجهم يقول : ان الله تعالى لا يتكلم . أو يقول : انه يتكلم بطريق المجاز ، وأما « المعتزلة » فيقولون انه يتكلم حقيقة ؛ لــكن قولهــم في المعنى هو قول جهم ، وجهم ينفي الأسماء أيضاً ، كما نفتهــا الباطنية ومن وافقهم من الفلاسفة ، وأما جمهور المعتزلة فلا ينفون الأسماء .

و (المقصود) ان قوله : (منزل من ربك) فيه بيان انه منزل من الله لا من مخلوق من المخلوقات ؛ ولهذا قال السلف : منـه بدأ ، أي : هو الذي تكلم به لم يبتدأ من غيره ، كما قالت الخلقية .

و « منها » ان قوله : (منزل من ربك) فيه بطلان قول من يجعله فاض على نفس النبي صلى الله عليه وسلم من العقل الفعـال او غيره ، كما يقول ذلك طوائف من الفلاسفة والصابئة ، وهـذا القول أعظم كفراً وضلالا من الذي قبله .

و « منها » ان هذه الآية ـــ ايضاً ـــ تبطل قول من يقول ان القرآن العربى ليس منزلا من الله بل مخلوق : اما فى جبريل او محمد او جسم آخر غيرها ، كما يقول ذلك الـكلابية والأشعرية الذين يقولون ان القرآن العربى ليس هو كلام الله ، وانما كلامه المعنى القائم بذاته ، والقرآن العربى خلق ليدل على ذلك المعنى ، ثم اما ان يكون خلق فى بعض الأجسام : الهواء او غيره ، او الهمه جبريل فعبر عنه بالقرآن العربي ، او ألهمه محمد فعبر عنـه بالقرآن العربى ، او يكون اخـذه جبريل من اللوح المحفوظ او غيره : فهـذه الأقوال التى تقدمت هي تفريع على هذا القول ، فان هذا القرآن العربى لا بد له من متـكلم تكلم به أولا قبل ان يصل الينا .

وهـذا القول يوافق قول المعتزلة ونحوهم فى اثبات خلق القرآن العربى ، وكذلك التوراة العبرية ، ويفارقه من وجهين .

« أحدهما » ان اولئك يقولون ان المخلوق كلام الله ، وهؤلاء يقولون انـه ليس كلام الله ؛ لكن يسمى كلام الله مجـازاً وهـذا قول أئمتهم وجمهورهم . وقالت طائفة من متأخريهم ؛ بل لفظ الـكلام يقـال على هذا وهذا بالاشتراك اللفظي ، لكن هذا ينقض أصلهم فى ابطال قيـام الـكلام بغير المتكلم به ، وهم مع هذا لا يقولون ان المخلوق كلام الله حقيقة ، كما تقوله المعتزلة مع قولهم انه كلامه حقيقـة ، بل يجعلون القرآن العربى كلاما لغير الله وهو كلام حقيقة ، وهـذا شر من قول المعتزلة ، وهذا حقيقة قول الجهمية ، ومن هذا الوجه : فقول المعتزلة أقرب وقول الآخرين هو قول الجهمية المحضة ، لـكن المعتزلة في المعنى موافقون لهؤلاء ، وانما ينازعونهم فى اللفظ .

« الثانى » ان هؤلاء يقولون : لله كلام هو معنى قديم قائم بذاته ، والخلقية يقولون : لا يقوم بذاته كلام . ومن هذا الوجه فالـكلابية خير من الخلقية فى الظاهر ؛ لـكن جمهور الناس يقولون : ان اصحاب هذا القول عنـد التحقيق لم يثبتوا له كلاما حقيقة غير المخـلوق ؛ فانهم يقولون : انه معنى واحد هو الأمر والنهي والخبر : فان عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وان عبر عنه بالعبرية كان توراة ، وان عبر عنه بالسريانية

كان انجيلا . ومنهم من قال : هو خمس معان .

وجمهور العقلاء يقولون : ان فساد هذا معلوم بالضرورة بعد التصور التام ، والعقلاء الكثيرون لا يتفقون على الكذب وجحد الضرورات من غير تواطؤ واتفاق ؛ كما فى الأخبار المتواترة . واما مع التواطؤ فقد يتفقون على الكذب عمدا ، وقد يتفقون على جحد الضرورات وان لم يعلم كل منهم انه جاحد للضرورة ، ولو لم يفهم حقيقة القول الذي يعتقده لحسن ظنه فيمن يقلد قوله ولمحبته لنصر ذلك القول كما اتفقت النصارى والرافضة وغيرهم من الطوائف على مقالات يعلم فسادها بالضرورة .

وقال جمهور العقلاء : نحن إذا عربنا التوراة والأنجيل لم يكن معنى ذلك معنى القرآن ؛ بل معاني هذا ليست معاني هذا ، ومعانى هذا ليست معانى هذا . وكذلك معنى : (قل هو الله أحد) ليس هو معنى (تبت يدا أبى لهب) ولا معنى آية الكرسي هو معنى آية الدين . وقالو : اذا جوزتم أن تكون الحقائق المتنوعة شيئاً واحداً فجوزوا أن يكون العلم والقدرة والكلام والسمع والبصر صفة واحدة ، فاعترف أئمة هذا القول بان هذا الالزام ليس لهم عنه جواب عقلي .

ثم منهم من قال : الناس في الصفات إما مثبت لها وقائل بالتعدد ، وإما ناف لها ؛ واما اثباتها واتحادها فخلاف الاجماع . وهـذه طريقة القاضي أبى بكر وأبي المعالي وغيرهما . ومنهم مـن اعترف بأنه ليس له عنه جواب ، كأبى الحسن الآمدي وغيره .

« والمقصود هنا » أن هذه الآية تبين بطلان هذا القول، كما تبين بطلان غيره فان قوله : (قل نزله روح القدس مـن ربك بالحق) يقتضي نزول القرآن من ربه ، والقرآن اسم للقرآن العربي لفظه ومعناه بدليل قوله : (فاذا قرأت القرآن) وإنما يقرأ القرآن العربي لا يقرأ معانيه المجردة . وأيضاً فضمير المفعول في قوله نزله عائد على ما في قوله : (والله أعلم بما ينزل) فالذي أنزله الله هو الذي نزله روح القدس ، فاذا كان روح القدس نزل بالقرآن العربى لزم أن يكون نزله مـن الله ، فلا يـكون شيء منـه نزله من عين من الأعيـان المخلوقة ، ولا نزله من نفسه .

وأيضاً فانه قال عقيب هذه الآية : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين) وهم كانوا يقولون : إنما يعلمه هذا القرآن العربي بشر ، لم يكونوا يقولون إنما يعلمه بشر معانيه فقط ؛ بدليل قوله : (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين) فانه تعالى أبطل قول الكفار بأن

لسان الذي ألحدوا إليه ، بأن اضافوا إليه هـذا القرآن ، فجعلوه هو الذي يعلم محمداً القرآن لسان أعجمي ، والقرآن لسان عربي مبين ، وعبر عن هذا المعنى بلفظ (يلحدون) لما تضمن مـن معنى ميلهم عن الحق وميلهم الى هذا الذي أضافوا إليه هـذا القرآن ، فان لفظ « الالحاد » يقتضي ميلاً عن شيء الى شيء بباطل ، فلو كان الـكفار قالوا يعلمـه معانيه فقط لم يكن هذا رداً لقولهم ؛ فان الانسان قد يتعلم من الأعجمي شيئاً بلغة ذلك الأعجمي ، ويعبر عنه هو بعبارته .

وقد اشتهر في التفسير أن بعض الـكفار كانوا يقولون : هو تعلمه من شخص كان بمكة أعجمي . قيـل : انه كان مولى لابن الحضرمي ، وإذا كان الـكفار جعلوا الذي يعلمه ما نزل بـه روح القدس بشراً ، والله أبطل ذلك بأن لسان ذلك أعجمي وهذا لسان عربي مبين : علم ان روح القدس نزل باللسان العربي المبين ، وان محمداً لم يؤلف نظم القرآن بل سمعه من روح القدس ، وإذا كان روح القدس نزل به من الله علم انه سمعـه منه ولم يؤلفه هو ، وهذا بيـان من الله ان القـرآن الذي هو اللسان العربي المبـين سمعه روح القدس من الله ونزل به منه .

ونظير هذه الآية قوله تعـالى : (وكذلك جعلنـا لـكل نبي عدواً شياطين الانس والجن) الى قوله : (فذرهم وما يفترون ؛) وكذلك قوله : (وهـو الذي أنزل إليـكم الـكتاب مفصـلاً ، والذين آتينـاهم

الـكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، فلا تكونن من الممترين)
و« الـكتاب » اسم للقرآن العربى بالضرورة والاتفاق ، فان الـكلابية أو بعضهم يفرق بـين كلام الله وكتـاب الله ، فيقول : كلامه هـو المعنى القائم بالذات وهو غـير مخلوق ، وكتـابه هو المنظوم المؤلف العربى ، وهو مخلوق .

و « القرآن » يراد به هذا تارة وهذا تارة ، والله تعالى قـد سمى نفس مجموع اللفظ والمعنى قرآناً وكتابا وكلاما ، فقال تعـالى (الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) وقال : (طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين) وقال : (وإذ صرفنا اليك نفراً من الجن يستمعون القرآن) إلى قوله تعالى : (قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعـد موسى مصدقا لما بين يديه) فبين ان الذي سمعوه هو القرآن وهو الكتاب . وقال : (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) وقال : (انه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون) وقال : (يتلو صحفاً مطهرة . فيهـا كتب قيمـة) وقال : (والطور ، وكتاب مسطور ، فى رق منشور) وقال : (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم) . ولكن لفظ الكتاب قـد يراد به المـكتوب فيكون هو الـكلام ، وقد يراد به ما يكتب فيه كما قال تعالى : (إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون) وقال : (ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً) .

و « المقصود هنـا » ان قوله (وهو الذي انزل اليـكم الكـتاب مفصلاً) يتناول نزول القرآن العربى على كل قول . وقد اخبر : (ان الذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق) اخبار مستشهد بهم لا مكذب لهم . وقال انهم يعلمون ذلك ولم يقل انهم يظنونـه أو يقولونه والعلم لا يكون إلا حقاً مطابقـاً للمعلوم ، بخلاف القول والظن الذي ينقسم الى حق وباطل ؛ فعلم ان القرآن العربى منزل من الله لا من الهواء ، ولا من اللوح ، ولا من جسم آخر ، ولا من جبريـل ، ولا من محمد ولا غيرها ، وإذا كان أهل الكتاب يعلمون ذلك فمن لم يقر بذلك من هذه الأمة كان أهل الـكتاب المقرون بذلك خـيراً منه من هذا الوجه .

وهذا لا ينافى ما جاء عن ابن عباس وغيره من السلف فى تفسير قوله : (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) انه انزله الى بيت العزة فى السماء الدنيا ، ثم انزله بعد ذلك منجما مفرقا بحسب الحوادث ، ولا ينافى انـه مكتوب فى اللوح المحفوظ قبل نزوله ، كما قال تعالى : (بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ) وقال تعالى : (إنه لقرآن كريـم . فى كتـاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون) . وقال تعالى : (كلا إنها تذكرة . فمن شاء ذكره ، فى صحف مكرمة ، مرفوعـة مطهرة ، بأيـدي سفرة كرام بررة) وقال تعالى : (وإنه في أم الـكتاب لدينا لعلي حكيـم)

فان كونه مكتوباً في اللوح المحفوظ . وفي صحف مطهرة بأيدي الملائـكة لا ينافي أن يكون جبريل نزل به من الله ، سواء كتبه الله قبل ان يرسل به جبريل او بعد ذلك ، واذا كان قد انزله مكتوباً إلى بيت العزة جملة واحدة في ليلة القدر فقد كتبه كله قبل ان ينزله .

والله تعالى يعلم ما كان وما يكون ومالا يكون أن لو كان كيف كان يكون ، وهو سبحانه قد قدر مقادير الخلائق ، وكتب أعمال العبـاد قبل ان يعملوها ، كما ثبت ذلك فى صريح الكتاب والسنة وآثار السلف، ثم انه يأمر الملائكة بكتابتها بعد ما يعملونها ؛ فيقابل بين الـكتابة المتقدمة على الوجود والكتابة المتأخرة عنه ، فلا يكون بينهما تفاوت هكذا قال ابن عباس وغيره من السلف — وهو حق — فاذا كان ما يخلقه بائنا عنـه قد كتبه قبل ان يخلقه ، فكيف يستبعد ان يكتب كلامه الذي يرسل به ملائكته قبل ان يرسلهم به .

ومن قال ان جبريل اخذ القرآن من الكتاب لم يسمعه من الله كان هذا باطلا من وجوه :

« منها » ان يقال إن الله سبحانه وتعالى قـد كتب التوراة لموسى بيده ، فبنوا اسرائيل اخذوا كلام الله من الكتاب الذي كتبه هو سبحانه وتعالى فيه ، فان كان محمد أخذه عن جبريل ، وجبريل عن الكتـاب

كان بنوا اسرائيل اعلا من محمد بدرجة .

وكذلك من قال انه القى إلى جبريل المعانى وان جبريل عبر عنها بالكلام العربى فقوله يستلزم ان يكون جبريل الهمه الهاماً ، وهذا الالهام يكون لآحاد المؤمنين . كما قال تعالى : (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولي) وقال : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) وقد أوحى إلى سائر النبيين فيكون هذا الوحي الذي يكون لآحاد الانبياء والمؤمنين أعلى من أخذ محمد القرآن عن جبريل ؛ لأن جبريل الذي علمه لمحمد هو بمنزلة الواحد من هؤلاء ؛ ولهذا زعم ابن عربى أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء ، وقال : لأنه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به الى الرسول . فجعل اخذه واخذ الملك الذي جاء إلى الرسول من معدن واحد ، وادعى ان اخذه عن الله أعلى من اخذ الرسول للقرآن ، ومعلوم ان هذا من أعظم الكفر ، وان هذا القول من جنسه .

وايضاً فالله تعالى يقول : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط) إلى قوله : (وكلم الله موسى تكليما) ففضل موسى بالتكليم على غيره ممن اوحى اليهم ، وهذا يدل على أمور : على ان الله يكلم عبده تكليما زائداً عن الوحي الذي هو قسيم التكليم الخاص ، فان

لفـظ التكليم والوحي كل منهما ينقسم إلى عام وخاص ، فالتكليم هو المقسوم فى قوله : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيـاً ، أو من وراء حجـاب ، أو يرسل رسولاً) والتكليم المطلق هو قسيم الوحي الخاص ليس هو قسما منه ، وكذلك لفظ الوحي قد يكون عاما فيدخل فيه التكليم الخاص ، كما فى قوله لموسى : (فاستمع لما يوحى) وقـد يكون قسيم التكليم الخاص ، كما فى سورة الشورى ، وهذا يبطل قول من يقول الـكلام معنى واحـد قائم بالذات ، فانه حينئذ لا فرق بين التـكليم الذي خص به موسى والوحي العـام الذي يكون لآحاد العباد .

ومثل هذا قوله فى الآية الأخرى : (وما كان لبشر أن يكلمـه الله الا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى باذنـه ما يشاء) فانه فرق بين الايحاء وبين التكليم من وراء الحجاب ، وبين ارسال رسول يوحى باذنه ما يشاء ، فدل على ان التكليم من وراء حجاب ــ كما كلم موسى ــ أمر غير الايحاء .

وأيضاً فقوله : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وقوله : (حم تنزيل الـكـتاب من الله العزيز العليم) وقوله : (حم تنزيل من الرحمن الرحيم) وأمثال ذلك يدل على انه منزل من الله لا من غيره . وكذلك قوله (بلغ ما أنزل اليك من ربك) فانه يدل على اثبات أن ما أنزل اليه من ربه ، وانه مبلغ مأمور بتبليغ ذلك .

وأيضاً فهم يقولون : انه معنى واحد فان كان موسى سمع جميع المعنى فقد سمع جميع كلام الله ، وان سمع بعضه فقد تبعض ، وكلاهما ينقض قولهم ؛ فانهم يقولون : انه معنى واحد لا يتعدد ولا يتبعض ، فان كان ما يسمعه موسى والملائكة هو ذلك المعنى كله كان كل منهم علم جميع كلام الله ، وكلامه متضمن لجميع خبره وجميع أمره ، فيلزم أن يكون كل واحد ممن كلمه الله أو أنزل عليه شيئاً من كلامه عالما بجميع أخبار الله وأوامره ، وهذا معلوم الفساد بالضرورة . وان كان الواحد من هؤلاء انما يسمع بعضه ، فقد تبعض كلامه وذلك يناقض قولهم .

وايضا فقوله : (وكلم الله موسى تكليما) وقوله : (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) وقوله : (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً) وقوله : (فلما أتاها نودي يا موسى انى انا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى) الآيات . دليل على تكليم سمعه موسى . والمعنى المجرد لا يسمع بالضرورة ، ومن قال انه يسمع فهو مكابر ، ودليل على انه ناداه ، والنداء لا يكون الا صوتاً مسموعا ، ولا يعقل في لغة العرب لفظ النداء بغير صوت مسموع ، لا حقيقة ولا مجازاً .

وأيضا فقد قال تعالى : (فلما جاءها نودي أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين) وقوله : (فلما أتاها نودي من

شاطىء الوادي الأيمن فى البقعة المبـاركة من الشجرة أن ياموسى انى انا الله رب العالمين) وقال : (وهل أتاك حديث موسى اذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى) وقال : (فلما أتاها نودي ياموسى انى أنا ربك) وفى هذا دليل على انه حينئذ نودى ولم يناد قبل ذلك ؛ ولما فيهـا من معنى الظرف ، كما فى قوله : (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) ومثل هذا قوله : (ويـوم يناديهـم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) (ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون) فانه وقت النداء بظرف محدود ، فـدل على ان النداء يقـع فى ذلك الحين دون غيره من الظروف ، وجعل الظرف للنداء لا يسمع النداء إلا فيـه .

ومثل هذا قوله تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعـل فى الأرض خليفة) وقوله : (وإذ قلنا للملائـكة اسجدوا لآدم) وأمثال ذلك مما فيـه توقيت بعض أقوال الرب بوقت معـين ، فان الكلابية ومن وافقهم من أصحاب الأئمة الأربعة يقولون : انـه لا يتكلم بمشيئته وقدرته ؛ بل الـكلام المعين لازم لذاته كلزوم الحياة لذاته .

ثم من هؤلاء من قال انه معنى واحـد ؛ لأن الحروف والأصوات متعاقبة ، يمتنع أن تكون قديمة . ومنهم من قال : بل الحروف والأصوات قديمة الأعيان ، وأنها مترتبة فى ذاتها متقاربة فى وجودها ، لم تزل ولا

تزال قائمة بذاته ، والنداء الذي سمعه موسى قديم أزلي ، لم يزل ولا يزال . ومنهم من قال : بل الحروف قديمة الأعيان ، بخلاف الأصوات ، وكل هؤلاء يقولون : ان التكليم والنداء ليس الا مجرد خلق ادراك المخلوق ، بحيث يسمع مالم يزل ولا يزال لا أنه يكون هناك كلام يتكلم الله به بمشيئته وقدرته ، ولا تكليم ؛ بل تكليمه عندهم جعل العبد سامعاً لما كان موجوداً قبل سمعه ، بمنزلة جعل الأعمى بصيراً لما كان موجوداً قبل رؤيته من غير احداث شيء منفصل عن الأعمى . فعندهم لما جاء موسى لميقات ربه سمع النداء القديم لا انه حينئذ نودي .

ولهذا يقولون : انه يسمع كلامه لخلقه بدل عن قول الناس إنه يكلم خلقه ، وهؤلاء يردون على الخلقية الذين يقولون القرآن مخلوق ، ويقولون عن أنفسهم إنهم أهل السنة الموافقون للسلف ، الذين قالوا : ان القرآن كلام الله غير مخلوق ، وليس قولهم قول السلف ؛ لكن قولهم أقرب إلى قول السلف من وجه ، وقول الخلقية أقرب الى قول السلف من وجه .

أما كون قولهم أقرب فلأنهم يثبتون لله كلاما قائما بنفس الله ، وهذا قول السلف ؛ بخلاف الخلقية الذين يقولون : ليس كلامه إلا ما خلقه في غيره ، فان قول هؤلاء مخالف لقول السلف . واما كون قول

الخلقية أقرب فلأنهم يقولون ان الله يتكلم بمشيئته وقدرته وهـذا قول السلف ، وهؤلاء عندهم لا يقدر الله على شيء من كلامه ، وليس كلامه بمشيئته واختياره ، بل كلامه عندهم كحياته ، وهم يقولون : الـكلام عندنا صفة ذات لا صفـة فعل . والخلقيـة يقولون صفـة فعل لا صفة ذات ، ومذهب السلف انه صفة ذات وصفة فعل معاً ، فكل منهـما موافق للسلف من وجه دون وجه .

واختلافهم فى كلام الله تعالى شبيه اختلافهم فى أفعاله تعالى ورضاه وغضبه ، وارادته وكراهته ، وحبه وبغضه ، وفرحه وسخطه ونحو ذلك. فان هؤلاء يقولون هذه كلها أمور مخلوقة بائنة عنه ترجـع إلى الثواب والعقاب . والآخرون يقولون بل هذه كلهـا أمور قديمة الأعيان قائمـة بذاته . ثم منهم من يجعلها كلهـا تعود الى ارادة واحدة بالعين متعلقة بجميع المخلوقات . ومنهم من يقول : بـل هي صفات متعددة الأعيان ، لكن يقول : كل واحدة واحدة العين ، قديمـة قبل وجود مقتضياتها ، كما قالوا مثل ذلك فى الكلام ، والله تعالى يقول : (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه) فأخبر أن أفعالهم أسخطته ، قال تعالى : (فلما آسفونا انتقمنا منهـم) أي أغضبونا . وقال تعـالى : (ادعونى أستجب لـكم) الى أمثال ذلك مما يبـين أنه سخط على الـكفار لما كفروا ، ورضي عن المؤمنين لما آمنوا .

ونظير هذا اختلافهم فى أفعاله تعالى ومسائل القدر ؛ فان المعتزلة يقولون :
انه يفعل لحكمة مقصودة ، وارادة الاحسان الى العباد ؛ لكن لا يثبتون
لفعله حكمة تعود اليه . وأولئك يقولون لا يفعل لحكمة ولا لمقصود
أصلاً . فأولئك أثبتوا حكمة لكن لا تقوم به ، وهؤلاء لا يثبتون له
حكمة ولا قصداً يتصف به ، والفريقان لا يثبتون له حكمة ولا
مقصوداً يعود اليه .

وكذلك في « الكلام » : أولئك أثبتوا كلاما هو فعله لا يقوم به .
وهؤلاء يقولون مالا يقوم به لا يعود حكمه اليه . والفريقان يمنعون ان
يقوم به حكمة مرادة له ، كما يمنع الفريقان ان يقوم به كلام وفعل يريده
وقول أولئك أقرب الى قول السلف والفقهاء اذ أثبتوا الحكمة والمصلحة
في احكامه وأفعاله واثبتوا كلاما يتكلم به بقدرته ومشيئته ، وقول
هؤلاء أقرب الى قول السلف اذ اثبتوا الصفات ، وقالوا : لا يوصف
بمجرد المخلوق المنفصل عنه الذي لم يقم به اصلاً ، ولا يعود اليه حكم
من شيء لم يقم به ، فلا يكون متكلما بكلام لم يقم به ، ولا
يكون حكيما كريما ورحيما بحكمة ورحمة لم تقم به ، كما لا يكون عليما بعلم
لم يقم به ، وقديرا بقدرة لم تقم به ، ولا يكون محباً راضياً غضباناً
بحب ورضى وغضب لم يقم به .

فكل من المعتزلة والأشعرية في مسائل كلام الله وأفعال الله ؛ بل

وسائر صفاته وافقوا السلف والأئمة من وجه ، وخالفوهم من وجه ، وليس قول أحدهما هو قول السلف دون الآخر ؛ لكن الأشعرية فى جنس مسائل الصفات ، بل وسائر الصفات والقدر أقرب إلى قول السلف والأئمة من المعتزلة.

فان قيل : فقد قال تعالى : (إنه لقول رسول كريم) وهذا يدل على أن الرسول أحدث الكلام العربي . قيل : هذا باطل ؛ وذلك لأن الله ذكر هذا فى القرآن فى موضعين ؛ والرسول فى أحد الموضعين محمد ، والرسول فى الآية الأخرى جبريل . قال تعالى فى سورة الحاقة : (إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين) فالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال فى سورة التكوير : (إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين) فالرسول هنا جبريل . فلو كان أضافه الى الرسول لكونه أحدث حروفه أو أحدث منه شيئاً لكان الخبران متناقضين ، فانه ان كان أحدهما هو الذى أحدثها امتنع أن يكون الآخر هو الذي أحدثها .

وأيضاً فانه قال : (لقول رسول كريم) ولم يقل : لقول ملك ولا نبي ، ولفظ « الرسول » يستلزم مرسلا له ، فدل ذلك على أن

الرسول مبلغ له عن مرسله ؛ لا أنه أنشأ منه شيئاً من جهة نفسه. وهذا يدل على أنه أضافه الى الرسول ؛ لأنه بلغه وأداه ، لا لأنه أنشأ منه شيئاً وابتداه .

وأيضاً فان الله قد كفر من جعله قول البشر بقوله : (انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال : ان هذا الا سحر يؤثر ، ان هذا الا قول البشر) ومحمد بشر ، فمن قال : انه قول محمد فقد كفر ، ولا فرق بين ان يقول : هو قول بشر أو جني أو ملك ، فمن جعله قولاً لأحد من هؤلاء فقد كفر ؛ ومع هذا فقد قال تعالى : (انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر) فجعله قول الرسول البشري مع تكفيره من يقول انه قول البشر ، فعلم ان المراد بذلك ان الرسول بلغه عن مرسله ، لا انه قول له من تلقاء نفسه ، وهو كلام الله الذي أرسله ، كما قال تعالى : (وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) فالذى بلغه الرسول هو كلام الله لا كلام الرسول .

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس بالمواسم ويقول: « الا رجل يحملني الى قومه لأبلغ كلام ربي فان قريشا قد منعونى ان ابلغ كلام ربى » رواه أبو داود وغيره ، والكلام كلام من

قاله مبتدئاً لا كلام من قاله مبلغاً مؤدياً ، وموسى سمع كلام الله من الله بلا واسطة ، والمؤمنون يسمعه بعضهم من بعض ، فسماع موسى سماع مطلق بلا واسطة ، وسماع الناس سماع مقيد بواسطة . كما قال تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي باذنه مايشاء) .

ففرق بين التكليم من وراء حجاب — كما كلم موسى — وبين التكليم بواسطة الرسول — كما كلم الأنبياء بارسال وسول اليهم — والناس يعلمون أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا تكلم بكلام تكلم به بحروفه ومعانيه بصوته صلى الله عليه وسلم ، ثم المبلغون عنه يبلغون كلامه بحركاتهم وأصواتهم ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه » فالمستمع منه يبلغ حديثه كما سمعه ؛ لكن بصوت نفسه لا بصوت الرسول ، فالكلام هو كلام الرسول تكلم به بصوته ، والمبلغ بلغ كلام الرسول ، لكن بصوت نفسه ، واذا كان هذا معلوماً فيمن يبلغ كلام المخلوق فكلام الخالق أولى بذلك .

ولهذا قال تعالى : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم » فجعل الكلام كلام الباري وجعل الصوت الذي يقرأ به العبد صوت القارىء وأصوات العباد ليست هي عين الصوت الذي ينادي

الله به ويتكلم به ، كما نطقت النصوص بذلك ، بل ولا مثله ، فان الله ليس كمثله شيء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، فليس علمه مثل علم المخلوقين ، ولا قدرته مثل قدرتهم ، ولا كلامه مثل كلامهم ، ولا نداؤه مثل ندائهم ، ولا صوته مثل أصواتهم .

فمن قال عن القرآن الذي يقرؤه المسلمون : ليس هو كلام الله ، أو هو كلام غيره فهو ملحد مبتدع ضال . ومن قال : ان أصوات العباد أو المداد الذي يكتب به القرآن قديم أزلي فهو ملحد مبتدع ضال ؛ بل هذا القرآن هو كلام الله ، وهو مثبت فى المصاحف ، وهو كلام الله مبلغاً عنه مسموعا من القراء ، ليس هو مسموعا منه ، والانسان يرى الشمس والقمر والكواكب بطريق المباشرة ، ويراها فى ماء أو مرآة ، فهذه رؤية مقيدة بالواسطة ، وتلك رؤية مطلقة بطريق المباشرة ، وكذلك الكلام يسمع من المتكلم به بطريق المباشرة ، ويسمع من المبلغ عنه بواسطة ، والمقصود بالسماع هو كلامه فى الموضعين ، كما ان المقصود بالرؤية هو المرئى في الموضعين .

فمن عرف ما بين الحالين من الاجتماع والافتراق ، والاختلاف والاتفاق ، زالت عنه الشبهة التى تصيب كثيراً من الناس فى هذا الباب ، فان طائفة قالت : هذا المسموع كلام الله ، والمسموع صوت العبد وصوته مخلوق ؛ فكلام الله مخلوق . وهذا جهل ، فانه مسموع من

المبلغ ، ولا يلزم إذا كان صوت المبلغ مخلوقاً ان يكون نفس الكلام مخلوقاً .

وقالت « طائفة » : هذا المسموع صوت العبد وهو مخلوق ، والقرآن ليس بمخلوق ، فلا يكون هذا المسموع كلام الله ، وهذا جهل ؛ فان المخلوق هو الصوت لا نفس الكلام الذي يسمع من المتكلم به ومن المبلغ عنه .

و « طائفة » قالت : هذا كلام الله وكلام الله غير مخلوق ، فيكون هذا الصوت غير مخلوق وهذا جهل ؛ فانه إذا قيل : هذا كلام الله فالمشار إليه هو الكلام من حيث هو هو ، وهو الثابت إذا سمع من الله وإذا سمع من المبلغ عنه ، وإذا قيل للمسموع انه كلام الله فهو كلام الله . مسموعا من المبلغ عنه لا مسموعا منه ، فهو مسموع بواسطة صوت العبد ، وصوت العبد مخلوق . وأما كلام الله نفسه فهو غير مخلوق حيث ما تصرف . وهذه نكت قد بسط الكلام فيها في غير هذا الموضع .

فصـــــل

فان قيل : ما منشأ هذا النزاع والآشتباه والتفرق والاختـلاف ؟ قيل : منشـأه هو الـكلام الذي ذمـه السلف وعابوه ، وهو الـكلام المشتبه المشتمل على حق وباطل : فيه ما يوافق العقل والسمع ، وفيـه ما يخالف العقل والسمع ، فيأخذ هؤلاء جانب النفى المشتمل على نفي الحق والباطل ، وهؤلاء جانب الاثبات المشتمل على إثبات حق وباطـل ، وجماعه هو الـكلام المخالف للـكتاب والسنة وإجماع السلف ، فـكل كلام خالف ذلك فهو باطل ، ولا يخالف ذلك الا كلام مخـالف للعقل والسمع ، وذلك أنه لما تناظروا في مسألة حدوث العـالم وإثبات الصانع استدلت الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم من طوائف أهل الـكلام على ذلك بأن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث .

ثم ان المستدلين بذلك على حدوث الأجسام ، قالوا : ان الأجسام لا تخلو عن الحوادث ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، ثم تنوعت طرقهم في المقدمة الأولى . فتارة يثبتونها بأن الأجسام لا تخـلو عن الحركة والسكون وهما حادثان ، وتارة يثبتونها بأن الأجسام لا تخلو عن

الاجتماع والافتراق وهما حادثان ، وتارة يثبتونها بأن الأجسام لا تخلو عن الاكوان الأربعة : الاجتماع والافتراق ، والحركة والسكون ، وهى حادثة . وهذه طرق المعتزلة ومن وافقهم على ان الأجسام لا تخـــلو عن بعض أنواع الأعراض .

وتارة يثبتونها بأن الجسم لا يخلو من كل جنس من الاعراض عن عرض منه . ويقولون : القابل للشيء لا يخلو عنه وعن ضده ويقولون : ان الاعراض يمتنع بقاؤها لان العرض لا يبقى زمانين ، وهذه الطريقة هي التى اختارها الآمدي ، وزيف ما سواها ، وذكر ان جمهور اصحابه اعتمدوا عليها ، وقد وافقهم عليها طائفة من الفقهاء من أصحاب الأئمـة الأربعة : كالقاضي أبي يعلى وأبى المعالى الجوينى ، وأبى الوليد البـــاجى وأمثـالهم .

وأما الهشامية والكرامية وغيرهم من الطوائف الذين يقولون بحدوث كل جسم ، ويقولون : ان القديم تقوم به الحوادث ، فهؤلاء إذا قالوا بأن ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، كما هو قول الكرامية وغيرهم موافقة للمعتزلة فى هذا الاصل ، فانهم يقولون إن الجسم القديم يخلو عن الحوادث بخلاف الأجسام المحدثة ، فانها لا تخلوا عن الحوادث .

والناس متنازعون فى « السكون » هل هو أمر وجودي او عدمي ؟

فمن قال انه وجودي قال إن الجسم الذي لا يخلو عن الحركة والسكون إذا انتفت عنه الحركة قام به السكون الوجودي ، وهـذا قول من يحتج بتعاقب الحركة والسكون على حدوث المتصف بذلك ، ومـن قال انه عدمي : لم يلزم من عدم الحركة عن المحل ثبوت سكون وجودي ، فمن قال انه تقوم به الحركة او الحوادث بعد ان لم تكن مع قوله بامتناع تعاقب الحوادث ، كما هو قول الكرامية وغيرهم ـ يقولون : إذا قامت به الحركة لم يعدم بقيامها سكون وجودي ؛ بل ذلك عندهم بمنزلة قولهم مع المعتزلة والاشعرية وغيرهم انه يفعل بعد ان لم يكن فاعلا ، ولا يقولون : ان عدم الفعل أمر وجودي ـ كذلك الحركة عند هؤلاء ، وكان كثير من أهل الكلام يقولون : ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، أو ما لا يسبق الحوادث فهو حادث ، بناء على أن هذه مقدمة ظاهرة ، فان ما لا يسبق الحادث فلا بد ان يقارنه او يكون بعده ، وما قارن الحادث فهو حادث وما كان بعده فهو حادث .

وهذا الكلام مجمل فانه إذا أريد به ما لا يخلو عن الحادث المعين او مالا يسبق الحادث المعين فهو حق بلا ريب ، ولا نزاع فيه ، وكذلك إذا أريد بالحادث جملة ما له أول او ما كان بعد العدم ونحو ذلك ، وأما إذا أريد بالحوادث الامور التي تكون شيئاً بعد شيء لا الى أول . وقيل : انه ما لا يخلو عنها وما لم يخل عنها فهو حادث لم يكن ذلك ظاهراً ولا بينا

بل هذا المقام حار فيه كثير من الافهام ، وكثر فيه النزاع والخصام ؛ ولهذا صار المستدلون بقولهم : ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث يعلمون ان هذا الدليل لا يتم إلا إذا اثبتوا امتناع حوادث لا أول لها ، فذكروا فى ذلك طرقا قد تكلمنا عليها فى غير هذا الموضع .

وهذا الاصل تنازع الناس فيه على « ثلاثة أقوال » .

فقيل : ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، وبامتناع حوادث لا اول لها مطلقاً ، وهذا قول المعتزلة ومن اتبعهم من الكرامية والاشعرية ، ومن دخل معهم من الفقهاء وغيرهم .

وقيل : بل يجوز دوام الحوادث مطلقاً وليس كل ما قارن حادثاً بعد حادث لا إلى اول يجب ان يكون حادثا ؛ بل يجوز ان يكون قديماً سواء كان واجباً بنفسه او بغيره ، وربما عبر عنه بالعلة والمعلول ، والفاعل والمفعول ونحو ذلك وهذا قول الفلاسفة القائلين بقدم العالم والأفلاك ، كارسطو واتباعه مثل ثامسطيوس ، والاسكندر الافريدوسي وبرقلس ، والفارابي ، وابن سينا وأمثالهم .

واما جمهور الفلاسفة المتقدمين على ارسطو فلم يكونوا يقولون

بقدم الافلاك . ثم الفلاسفة من هؤلاء وهؤلاء متنازعون في قيام الصفات والحوادث بواجب الوجود على قولين معروفين لهم ، واثبات ذلك قول كثير من الأساطين القدماء ، وبعض المتأخرين ، كابي البركات صاحب المعتبر وغيره ، كما بسطت اقوالهم في غير هذا الموضع .

وقيل : بل ان كان المستلزم للحوادث ممكناً بنفسه ، وانه هو الذي يسمى مفعولا ومعلولا ، ومربوبا ونحو ذلك من العبارات وجب ان يكون حادثا . وان كان واجباً بنفسه لم يجز ان يكون حادثا ، وهذا قول أئمة أهل الملل واساطين الفلاسفة ، وهو قول جماهير أهل الحديث . وصاحب هذا القول يقول مالا يخلو عن الحوادث وهو ممكن بنفسه فهو حادث او مالا يخلو عن الحوادث وهو معلول او مفعول او مبتدع او مصنوع فهو حادث ؛ لأنه إذا كان مفعولا مستلزما للحوادث امتنع ان يكون قديما ؛ فان القديم المعلول لا يكون قديماً إلا إذا كان له موجب قديم بذاته يستلزم معلوله ، بحيث يكون معه ازلياً لا يتأخر عنه ، وهذا ممتنع .

فان كونه مفعولا ينافي كونه قديماً ، بل قدمه ينافي كونه ممكناً ، فلا يكون ممكناً إلا ما كان محدثا عند جماهير العقلاء من الأولين والآخرين ، وهذا قول الفلاسفة القدماء قاطبة كارسطو وأتباعه ، وإنما أثبت ممكناً قديماً بعض متأخريهم كابن سينا واتباعه خالفوا في

ذلك الفلاسفة القدماء قاطبة ، كما خالفوا فى ذلك جماهير العقلاء من سائر الطوائف ؛ ولهذا تناقضوا فى احكام الممكن ، وورد عليهم فيه من الأسئلة [مالا جواب لهم عنه كما ذكرت ذلك] فى [الرد على] الأربعين وغير ذلك من المواضع .

وما يدعى من أن المعلول قد يقارن علته إنما يعقل فيما كان شرطاً لا فاعلا ، كقولهم : حركت يدى فتحرك الخاتم ؛ فان حركة اليد شرط فى تحريك الخاتم ، والشرط والمشروط قد يتلازمان [و] ليست فاعلة مبدعة لها ، وكذلك الشعاع مع النار والشمس ونحو ذلك ، وأما ما يكون فاعلا فلا يتصور ان يقارنه مفعوله فى الزمان ، سواء كان فاعلا بالارادة أو قدر أنه فاعل بغير إرادة ، وسواء سمي فاعلا بالذات أو بالطبع ، أو ما قدر ، لا يتصور أن يكون المفعول مقارناً لفاعله فى الزمان ، كما اعترف بذلك جماهير العقلاء من الأولين والآخرين .

وأرسطو وأتباعه لم يقولوا إن الفلك مفعول للرب ، ولا أنه معلول لعلة فاعلية أبدعت ذاته ؛ بل زعموا أنه قديم واجب بنفسه ، وأن له علة غائية يتشبه بها ، نحو حركة المعشوق يجب أن يقتدى به ، والفلك عندهم يتحرك للتشبه بتلك العلة ، ولهذا قالوا : « الفلسفة » هي التشبه بالاله بحسب الطاقة ، وقولهم — وإن كان فيه من الكفر والجهل بالله أعظم مما فى قول ابن سينا وأتباعه ، وفيهم من التناقض فى الالهيات

ما ليس هـذا موضع بسطه ـــ فلم يتناقضوا فى إثبات ممكن قديم كتناقض متأخريهم .

ولهذا لما كانت هذه القضية مستقرة فى فطر العقلاء وكان مجرد العلم والخبر بأن السموات مخلوقة او مصنوعة أو مفعولة موجباً للعلم بأنها حادثة ، لا يخطر بالفطر السليمة امكان كونها مفعولة لفاعل فعلها مع كونها قديمة لم تزل معه ، ولهذا لم يدع هذا إلا هـذه الشرذمة القليلة من المتفلسفة .

و « أيضاً » فان ما استلزم الحوادث يمتنع أن يكون فاعله موجباً بذاته يستلزم معلوله فى الأزل ؛ فان الحوادث المتعاقبة شيئاً بعد شيء ، لا يكون مجموعها فى الأزل ، ولا يكون شيء منها أزلياً ، بل الأزلي هو دوامها واحداً بعد واحد ، والموجب بذاته المستلزم لمعلوله فى الأزل لا يكون معلوله شيئاً بعد شيء ، سواء كان صادراً عنه بواسطة أو بغير واسطة ، فان ما كان واحدا بعد واحد يكون متعاقباً حادثاً شيئاً بعـد شيء ، فيمتنع أن يكون معلولا مقارناً لعلته فى الأزل بخلاف ما اذا قيل ان المقارن لذلك هو الموجب بذاته الذي يفعل شيئاً بعد شيء ، فانه على هـذا التقدير لا يكون فى الأزل موجباً بذاته ، ولا علة سابقة تامة لشيء من العالم ، فلا يكون معه فى الأزل مـن المخلوقات شيء لكن فاعليتـه للمفعولات تـكون شيئاً بعد شيء . وكل مفعول يوجد عنده وجود كمال فاعليتـه ،

إذ المؤثر التام المستلزم لجميع شروط التأثير لا يتخلف عنه اثره ؛ إذ لو تخلف لم يكن مؤثراً تاماً ، فوجود الاثر يستلزم وجود المؤثر التام ، ووجود المؤثر التام يستلزم وجود الأثر ، فليس في الأزل مؤثر تام ، فليس مع الله شيء من مخلوقاته قديم بقدمه ، والأزل ليس هو حداً محدوداً ولا وقتاً معيناً ؛ بل كل ما يقدره العقل من الغاية التى ينتهي اليها فالأزل قبل ذلك ، كما هو قبل ماقدره ، فالأزل لا أول له ، كما ان الأبد لا آخر له .

وفى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه كان كان يقول : « انت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء » فلو قيل انه مؤثر تام فى الأزل لشىء من الأشياء لزم ان يكون مقارنا له دائماً ، وذلك ينافى كونه مفعولا له ، وانما يصح مثل هذا فى الصفة اللازمة للموصوف ، فانه اذا قيل : الذات مقتض تام للصفة كان المعنى أن الذات مستلزمة للصفة ، ليس المراد بذلك ان الذات مبدعة للصفة ، فانه إذا تصور معنى المبدع امتنع فى المقارن بصريح المعقول ، سواء سمي علة فاعلة أو خالقاً أو غير ذلك ، وامتنع ان يقوم بالأثر شيء من الحوادث ؛ لأن كل حادث يحدث لا يحدث إلا إذا وجد مؤثره التام عند حدوثه ، وان كانت ذات المؤثر موجودة قبل ذلك ؛ لكن لا بد من كمال وجود شروط التأثير عند وجود الأثر

وإلا لزم الترجيح بلا مرجح ، وتخلف المعلول عن العلة التامة ، ووجود الممكن بدون المرجح التام . وكل هذا ممتنع ، فامتنع ان يكون مؤثراً لشيء من الحوادث في الأزل ، وامتنع ان يكون مؤثراً في الأزل فيما يستلزم الحوادث ، لأن وجود الملزوم بدون اللازم محال فامتنع ان يكون المفعول المستلزم للحوادث قديماً .

واذا قيل ذاته مقتضية للحادث الثاني بشرط انقضاء الأول . قيل: فليس هو مقتضياً لشيء واحد دائماً ، فلا يكون معه قديم من مفعولاته . وقيل ايضاً : هذا انما يكون إذا كانت لذاته احوال متعاقبة تختلف المفعولات لأجلها ، فاما إذا قدر ان لا يقوم بها شيء من الأحوال المتعاقبة ؛ بل حالها عند وجود الحادث كحالها قبله ، كان امتناع فعله للحوادث المتعاقبة الباتئة أعظم من امتناع فعله لحادث معين ، فاذا كان الثاني ممتنعاً عندهم فالأول أولى بالامتناع ، ومتى كان للذات أحوال متعاقبة تقوم بها بطلت كل حجة لهم على قدم شيء من العالم ، وامتنع أيضاً قدم شيء من العالم إذا كان المفعول لا بد له من فاعل والفعل الحادث لا يكون مفعوله الا حادثاً . وهذا مبسوط في غير هذا الموضع .

فصـــــل

واذا عرف الأصل الذى منه تفرع نزاع الناس فى « مسألة كلام الله » فالذين قالوا ما لا يسبق الحوادث فهو حادث مطلقاً تنـازعوا فى كلام الله تعالى . فقال كثير من هولاء : الـكلام لا يكون إلا بمشيئة المتكلم وقدرته ، فيكون حادثاً كغيره من الحوادث ، ثم قالت طائفة : والرب لا تقوم به الحوادث ، فيكون الكلام مخلوقاً فى غيره ، فجعلوا كلامه مخلوقاً من المخلوقات ، ولم يفرقوا بين قال وفعل . وقد علم أن المخلوقات لا يتصف بهـا الخالق ، فلا يتصف بما يخلقه فى غـيره من الألوان والأصوات ، والروائح والحركة ، والعلم والقدرة ، والسمع والبصر ، فكيف يتصف بما يخلقه فى غيره من الكلام ، ولو جاز ذلك لـكان ما يخلقه من انطاق الجمادات كلامه ، ومن علم انه خالق كلام العبـاد وأفعالهم يلزمه ان يقول كل كـلام في الوجود فهو كلامه ، كما قال بعض الاتحادية :

وكل كلام في الوجود كلامه   سواء علينـا نثره ونظامـه

وهـذا قول الجهمية والنجارية والضرارية وغـيرهم ، فان هؤلاء

يقولون : انه خالق أفعال العباد وكلامهم ، مع قولهم ان كلامه مخلوق فيلزمهم هذا .

وأما « المعتزلة » فلا يقولون ان الله خالق افعال العباد ، لكن الحجة توجب القول بذلك .

وقالت طائفة : بل الكلام لابد ان يقوم بالمتكلم ، ويمتنع ان يكون كلامه مخلوقاً فى غيره ، وهو متكلم بمشيئته وقدرته فيكون كلامه حادثاً بعد ان لم يكن ؛ لامتناع حوادث لا أول لها . وهذا قول الكرامية وغيرهم . ثم من هؤلاء من يقول : كلامه كله حادث لا محدث . ومنهم من يقول هو حادث ومحدث . وقال كثير من هؤلاء الذين يقولون بامتناع حوادث لا أول لها مطلقاً : الكلام لازم لذات الرب ، كلزوم الحياة ليس هو متعلقاً بمشيئته وقدرته بل هو قديم كقدم الحياة ؛ إذ لو قلنا انه بقدرته ومشيئته لزم ان يكون حادثاً ، وحينئذ فيلزم ان يكون مخلوقاً أو قائماً بذات الرب ، فيلزم قيام الحوادث به وذلك يستلزم تسلسل الحوادث ؛ لأن القابل للشيء لايخلو عنه أو عن ضده . قالوا : وتسلسل الحوادث ممتنع ؛ إذ التفريع على هذا الأصل .

ثم ان هؤلاء لما قالوا بقدم عين الكلام تنازعوا فيه فقالت طائفة :

القديم لا يكون حروفاً ولا أصواتاً ؛ لأن الصوت يستحيل بقاؤه . كما يستحيل بقاء الحركة ، وما امتنع بقاؤه امتنع قدم عينه بطريق الأولى والأحرى ، فيمتنع قدم شيء من الأصوات المعينة ، كما يمتنع قدم شيء من الحركات المعينة ؛ لأن تلك لا تكون كلاماً الا إذا كانت متعاقبة ، والقديم لا يكون مسبوقاً بغيره ، فلو كانت الميم من (بسم الله) قديمة مع كونها مسبوقة بالسين والباء لكان القديم مسبوقاً بغيره ، وهذا ممتنع فيلزم أن يكون القديم هو المعنى فقط ولا يجوز تعدده ؛ لأنه لو تعدد لكان اختصاصه بقدر دون قدر ترجيحاً بلا مرجح ، وان كان لا يتناهى لزم وجود أعداد لا نهاية لها في آن واحد . قالوا : وهذا ممتنع ، فيلزم ان يكون معنى واحداً هو الأمر والخبر ، وهو معنى التوراة والانجيل والزبور والقرآن ، وهذا أصل قول الكلابية والأشعرية .

وقالت طائفة من أهل الكلام والحديث والفقهاء وغيرهم : بل هو حروف قديمة الأعيان لم تزل ولا تزال ، وهي مترتبة في ذاتها لا في وجودها ، كالحروف الموجودة في المصحف وليس بأصوات قديمة .

ومنهم من قال : بل هو أيضاً أصوات قديمة ولم يفرق هؤلاء بين الحروف المنطوقة التي لا توجد إلا متعاقبة ، وبين الحروف المكتوبة التي توجد في آن واحد ، كما يفرق بين الأصوات والمداد ؛ فان الأصوات لا تبقى بخلاف المداد فانه جسم يبقى ، وإذا كان الصوت لا يبقى امتنع

ان يكون الصوت المعين قديماً ؛ لأن ما وجب قدمه لزم بقاؤه وامتنع عدمه ، والحروف المكتوبة قد يراد بهـا نفس الشكل القائم بالمداد او ما يقدر بقدر المداد : كالشكل المصنوع فى حجر وورق ، فازالة بعض اجزائه تدل على حدوثه ، وقد يراد بالحروف نفس المداد .

وأما الحروف المنطوقة فقد يراد بها أيضاً الأصوات المقطعة المؤلفة ، وقد يراد بها حدود الأصوات وأطرافها ، كما يراد بالحرف فى الجسم حده ومنتهاه . فيقال : حرف الرغيف وحرف الجبل ونحو ذلك . ومنه قوله تعـالى : (ومن الناس من يعبد الله عـلى حرف) وقد يراد بالحروف الحروف الخيالية الباطنة ، وهي ما يتشكل فى باطن الانسان من الكلام المؤلف المنظوم قبل أن يتكلم به .

وقد تنازع الناس هل يمكن وجود حروف بدون أصوات فى الحي الناطق ؟ على قولين لهم ، وعلى هذا تنازعت هذه الطائفة القائلة بقدم أعيـان الحروف ، هل تـكون قديمة بدون أصوات قديمـة أم لابد من أصوات قديمة لم تزل ولا تزال ؟

ثم القائلون بقدم الأصوات المعينة تنازعوا فى المسموع من القارىء . هل يسمع منه الصوت القديم ؟ فقيـل : المسموع هو الصوت القديم وقيل بل المسموع هو صوتان أحدهما القديم ، والآخـر المحدث ، فما لا بد منه فى وجود القرآن فهو القديم ، وما زاد على ذلك فهو المحدث .

وقيل : بل الصوت القديم غير المسموع من العبد .

وتنازعوا في « القرآن » هل يقال انه حال فى المصحف والصدور أم لا يقال ذلك ؟ على قولين . فقيل : هو ظاهر في المحدث ليس بحال فيه . وقيل : بل القرآن حال فى الصدور والمصاحف ، فهؤلاء الخلقية والحادثية ، والاتحادية والاقترانية أصل قولهم ان ما لا يسبق الحوادث فهو حادث مطلقاً . ومن قال بهذا الأصل فانه يلزمه بعض هذه الأقوال أو ما يشبه ذلك ، فان من الناس من يجعله حادثاً ، يريد انه كائن بعد ان لم يكن ، ويجعل الحادثات ارادات وتصورات لا حروف وأصوات . والداربي وغيره يميلون الى هذا القول ؛ فانه اما أن يجعل كلام الله حادثاً أو قديماً ، وإذا كان حادثاً فاما ان يكون حادثاً فى غيره واما ان يكون حادثاً فى ذاته ، وإذا كان قديماً فاما أن يكون القديم المعنى فقط ، أو اللفظ فقط ، أو كلاهما ، فاذا كان القديم هو المعنى فقط لزم أن لا يكون الكلام المقروء كلام الله تعالى ثم الكلام فى ذلك المعنى قد عرف .

وأما قدم اللفظ فقط ، فهذا لم يقل به أحد ؛ لكن من الناس من يقول ان الكلام القديم هو اللفظ . وأما معناه فليس هو داخلا في مسمى الكلام ، بل هو العلم والارادة وهما قديمان ، لكن ليس ذلك داخلا فى مسمى الكلام ، فهذا يقول الكلام القديم هو اللفظ

فقـط إما الحروف المؤلفة واما الحروف والأصوات ؛ لكنه يقول إن معنـاه قديم .

وأما « الفريق الثاني » الذين قالوا بجـواز حوادث لا أول لهـا مطلقاً ، وان القـديم الواجب بنفسه يجوز أن تتعقب عليـه الحوادث مطلقاً ، وإن كان ممكناً لا واجباً بنفسه ، فهؤلاء القائلون بقدم العالم كما يقولون بقدم الأفلاك ، وانها لم تزل ولا تزال معلولة لعلة قديمة أزلية ، لكن المتسبون إلى الملل كابن سينا ونحوه منهم قالوا انها صـادرة عن الواجب بنفسه الموجب لها بذاته ، وأما أرسطو وأتباعـه فانهم قالوا : ان لهـا علة غائية تتحرك للتشبه بهـا فى تحركها ، كما يحرك المعشوق عاشقه ، ولم يثبتوا لها مبدعا موجباً ولا موجباً قائماً بذاته ، ولا قالوا ان الفلك ممكن بنفسه واجب بغيره ، بل الفلك عنـدهم واجب بنفسـه ، لـكن قالوا ، مع ذلك : إن له علة غائية يتحرك للتشبه بها لاقوام له إلا بها ، فجعلوا الواجب بنفسه الذي لا فاعل له مفتقرا إلى علة غائية منفصلة عنه ، هـذه حقيقة قول أرسطو وأتباعه ؛ ولهـذا لم يثبتوا الاول عالماً بغيره ؛ إذ لم يكن الأول عندهم مبدعا للفلك ؛ فانه إذا كان مبـدعا يجب ان يكون عالما بمفعوله ، كما قال : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟)

ولهذا كانت أقوالهم فى الالهيات من أعظم الأقوال فساداً ، بخلاف اقوالهم فى الطبيعيات ؛ ولهذا كان قولهم اشد فساداً فى العقل والدين.

من قول ابن سينا وأتباعه ، ولم يثبت أرسطو وأتباعه « العلة الاولى » بطريقة الوجود ، ولا قسموا الوجود القديم الى واجب وممكن ، بل الممكن عندهم لا يكون إلا حادثا ، ولا اثبتوا للموجود الواجب الخصائص المميزة للرب عن الأفلاك ، بل هذا من تصرف متأخريهم الذين خلطوا فلسفتهم بكلام المعتزلة ونحوهم ، وانما أثبت واجب الوجود بطريقة الوجود ابن سينا وأتباعه .

وحقيقة قول هؤلاء وجود الحوادث بلا محدث أصلا ، أما على قول من جعل الأول علة غائية للحركة فظاهر ، فانه لا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعلا لها . فقولهم في حركات الأفلاك نظير قول القدرية فى حركة الحيوان ، وكل من الطائفتين قد تناقض قولهم . فان هؤلاء يقولون بأن فعل الحيوان صادر عن غيره ؛ لكون القدرة والداعي مستلزمين وجود الفعل ، والقدرة والداعي كلاهما من غير العبد .

فيقال لهم : فقولوا هكذا فى حركة الفلك بقدرته وداعيه ، فانه يجب أن يكونا صادرين عن غيره ، وحينئذ فيكون الواجب بنفسه هو المحدث لتلك الحوادث شيئاً بعد شيء ، وان كان ذلك بواسطة العقل ، وهذا القول هو الذي يقوله ابن سينا وأتباعه ، وهو باطل أيضاً ؛ لأن الموجب بذاته القديم الذي يقارنه موجبه ومقتضاه يمتنع ان يصدر عنه

حادث بواسطة أو بلا واسطة ، فان صدور الحوادث عن العلة التامة الأزلية ممتنع لذاته .

واذا قالوا الحركة بتوسطه أي [بتوسط] حركة الفلك ، قيل لهم : فالكلام إنما هو فى حدوث الحركة الفلكية ، فان الحركة الحادثة شيئاً بعد شيء يمتنع أن يكون المقتضى لها علة تامة أزلية ، مستلزمة لمعلولها ، فان ذلك جمع بين النقيضين ؛ إذ القول بمقارنة المعلول لعلته في الأزل ووجوده معها يناقض أن يتخلف المعلول أو شيء من المعلول عن الأزل بل يمتنع أن يكون المقتضى لها ذاتا بسيطة لا يقوم بها شيء من الصفات والأحوال المقتضية لحدوث الحوادث المتعاقبة المختلفة ؛ بل يمتنع ان يكون المقتضى لها ذاتا موصوفة لا يقوم بها شيء من الأحوال الموجبة لحدوث الحوادث المذكورة ؛ فان التجدد والتعدد الموجود فى المعلولات يمتنع صدوره عن علة واحدة بسيطة من كل وجه ، فصار حقيقة قولهم ان الحوادث العلوية والسفلية لا محدث لها .

وهؤلاء يقولون كلام الله ما يفيض على النفوس الصافية ، كما ان ملائكة الله عندهم ما يتشكل فيها من الصور النورانية ، فلا يثبتون له كلاما خارجاً عما فى نفوس البشر ، ولا ملائكة خارجة عما فى نفوسهم غير « العقول العشرة » و «النفوس الفلكية التسعة » ، مع أن أكثرهم يقولون انها أعراض ، وقد بين فى غير هذا الموضع ان ما يثبتونه من المجردات

العقلية التى هي العقول والنفوس والمواد والصور ، انما وجودهـــا فى الأذهان لا فى الأعيان .

وأمـــا « الصنف الثالث » الذين فرقوا بين الواجـــب والممكن ، والخالق والمخلوق ، والغنى الذي لا يفتقر إلى غيره ، والفقير الذي لاقوام له إلا بالغني ، فقالوا : كل ما قارن الحوادث من الممكنـــات فهو محدث كائن بعد ان لم يكن ، وهو مخلوق مصنوع مربوب ، وانه يمتنـــع أن يكون فيما هو فقير ممكن مربوب شيء قديم فضلا عن ان تقارنه حوادث لا أول لهـــا ؛ ولهذا كانت حركات الفلك دليلا على حدوثه كما تقدم التنبيه على ذلك .

وأما « الرب تعـــالى » إذا قيل لم يزل متكلما إذا شاء أو لم يزل فاعلا لما يشاء لم يكن دوام كونه متكلما بمشيئته وقدرتـــه ، ودوام كونه فاعلا بمشيئته وقدرته ممتنعاً ؛ بل هذا هو الواجب ؛ لأن الـكلام صفة كمال لا نقص فيه ، فالرب أحق أن يتصف بالـكلام من كل موصوف بالـكلام ؛ إذ كل كمال لا نقص فيه ثبت للمخلوق فالخـــالق أولى به ؛ لأن القديم الواجب الخـــالق أحق بالـكمال المطلق من المحـــدث الممكن المخلوق ؛ ولأن كل كمال ثبت للمخلوق فانما هو من الخالق ، وما جاز اتصافه به من الـكمال وجب له ، فانه لو لم يجب له لـــكان اما ممتنعـــاً وهو محال بخلاف الفرض ، وإما ممكناً ، فيتوقف ثبوته له على غيره ، والرب

لا يحتاج في ثبوت كماله إلى غيره ، فان معطى الكمال أحق بالكمال ، فيلزم أن يكون غيره أكمل منه لو كان غيره معطياً له الكمال ، وهذا ممتنع ؛ بل هو بنفسه المقدسة مستحق لصفات الكمال ، فلا يتوقف ثبوت كونه متكلما على غيره ، فيجب ثبوت كونه متكلما ، وان ذلك لم يزل ولا يزال ، والمتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام لازماً له بدون قدرته ومشيئته ، والذي لم يزل متكلما إذا شاء أكمل ممن صار الكلام يمكنه بعد ان لم يكن الكلام ممكناً له .

وحينئذ فكلامه قديم مع انه يتكلم بمشيئته وقدرته ، وان قيل : انه ينادي ويتكلم بصوت ولا يلزم من ذلك قدم صوت معين ، واذا كان قد تكلم بالتوراة والقرآن والانجيل بمشيئته وقدرته لم يمتنع ان يتكلم بالباء قبل السين ، وان كان نوع الباء والسين قديماً لم يستلزم ان تكون الباء المعينة والسين المعينة قديمة ؛ لما علم من الفرق بين النوع والعين ، وهذا الفرق ثابت في الارادة والكلام ، والسمع والبصر وغير ذلك من الصفات ، وبه تنحل الاشكالات الواردة على وحدة هذه الصفات وتعددها ، وقدمها وحدوثها ، وكذلك تزول به الاشكالات الواردة في أفعال الرب ، وقدمها وحدوثها ، وحدوث العالم .

واذا قيل : ان حروف المعجم قديمة بمعنى النوع كان ذلك ممكناً ، بخلاف ما اذا قيل ان عين اللفظ الذي نطق به زيد وعمرو قديم ،

فان هذا مكابرة للحس . والمتكلم يعلم ان حروف المعجم كانت موجودة قبل وجوده بنوعها . وأما نفس الصوت المعين الذي قام به التقطيع أو التأليف المعين لذلك الصوت ؛ فيعلم ان عينه لم تكن موجودة قبله ، والمنقول عن الامام أحمد وغيره من ائمة السنة مطابق لهذا القول ؛ ولهذا انكروا على من زعم ان حرفا من حروف المعجم مخلوق ، وانكروا على من قال : « لما خلق الله الحروف سجدت له إلا الألف ، فقالت لا اسجد حتى أومر » مع ان هذه الحكاية نقلت لأحمد عن سري السقطي . وهو نقلها عن بكر بن خنيس العابد ، ولم يكن قصد أولئك الشيوخ بها الا بيان ان العبد الذي يتوقف فعله على الأمر والشرع هو أكمل من العبد الذي يعبد الله بغير شرع ؛ فان كثيراً من العباد يعبدون الله بما تحبه قلوبهم ، وان لم يكونوا مأمورين به ، فقصد أولئك الشيوخ ان من عبد الله بالأمر ولم يفعل شيئاً حتى يؤمر به فهو افضل ممن عبده بما لم يؤمر به ، وذكروا هذه الحكاية الاسرائيلية شاهداً لذلك ، مع ان هذه لا اسناد لها ، ولا يثبت بها حكم ، ولكن الاسرائيليات إذا ذكرت على طريق الاستشهاد بها لما عرف صحته لم يكن بذكرها بأس ، وقصدوا بذلك الحروف المكتوبة ؛ لأن الألف منتصبة وغيرها ليس كذلك . مع ان هذا أمر اصطلاحي وخط غير العربي لا يماثل خط العربي ، ولم يكن قصد أولئك الأشياخ ان نفس الحروف المنطوقة التي هي مباني أسماء الله الحسنى ، وكتبه المنزلة ، مخلوقة بائنة عن الله ؛

بل هذا شيء لعله لم يخطر بقلوبهم ، والحروف المنطوقة لا يقال فيها انها منتصبة ولا ساجدة ، فمن احتج بهذا من قولهم على أنهم يقولون : ان الله لم يتكلم بالقرآن العربي ولا بالتوراة العبرية ، فقد قال عنهم مالم يقولوه .

واما الامام أحمد : فانه أنكر اطلاق هذا القول ، وما يفهم منه عند الاطلاق ، وهو ان نفس حروف المعجم مخلوقة ، كما نقل عنه انه قال : ومن زعم ان حرفا من حروف المعجم مخلوق فهذا جهمي يسلك طريقاً الى البدعة ، فانه اذا قال ان ذلك مخلوق . فقد قال : ان القرآن مخلوق - أو كما قال - ولا ريب ان من جعل نوع الحروف مخلوقا بائناً عن الله كائناً بعد أن لم يكن لزم عنده أن يكون كلام الله العربى والعبري ونحوها مخلوقا ، وامتنع ان يكون الله متكلما بكلامه ، الذي أنزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم فلا يكون شيء من ذلك كلامه ، فطريقة الامام أحمد وغيره من السلف مطابقة للقول الثالث ، الموافق لصريح المعقول وصحيح المنقول .

وقال الشيخ الامام أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرخي الشافعي في كتابه الذي سماه « الفصول فى الاصول » سمعت الامام أبا منصور محمد بن أحمد يقول : سمعت الامام أبا بكر عبد الله بن أحمد يقول : سمعت الشيخ أبا حامد الاسفرائيني يقول : مذهبي ومذهب الشافعي

وفقهاء الامصار ان القرآن كلام الله غير مخلوق . ومن قال انه مخلوق فهو كافر ، والقرآن حمله جبريل عليه السلام مسموعا من الله ، والنبي صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل ، والصحابة سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي نتلوه نحن مقروء بألسنتنا ، وفيما بين الدفتين ، وما فى صدورنا مسموعا ومكتوبا . ومحفوظاً ومقروءاً ، وكل حرف منه كالباء والتاء كله كلام الله غير مخلوق ، ومن قال إنه مخلوق فهو كافر عليه لعائن الله والملائكة والناس اجمعين .

والكلام على هذه الأمور مبسوط فى غير هذا الموضع ، وذكر ما يتعلق بهذا الباب من الكلام فى سائر الصفات : كالعلم والقدرة والارادة ، والسمع والبصر والكلام فى تعدد الصفة واتحادها ، وقدمها وحدوثها ، أو قدم النوع دون الأعيان ، أو اثبات صفة كلية عمومية متناولة الأعيان ، مع تجدد كل معين من الأعيان ، أو غير ذلك مما قيل فى هذا الباب ، فان هذه مواضع مشكلة ، وهي من محارات العقول ؛ ولهذا اضطرب فيها طوائف من أذكياء الناس ونظارهم ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

وسئل شيخ الإسلام

قدس الله روحه[1]

عمن قال : اختلاف المسلمين فى كلام الله تعالى على « ثلاثة أنحاء » فقوم إلى أنه قديم الحرف والصوت وهم الحشوية ، وقوم إلى أنه حادث بالصوت والحرف وهم الجهمية ومن تابعهم ، وقوم إلى أنه قديم لا بصوت ولا حرف إلا معنى قائم بذات الله وهم الأشعرية ؟

فأجاب — رضي الله عنه وأرضاه : —

الحمد لله رب العالمين . قول القائل : إن اختلاف المسلمين فى كلام الله على « ثلاثة أنحاء » الخ هو كلام بحسب ما بلغه من ذلك ، وأكثر من تكلم فى هذه المسألة من المتأخرين إنما يذكر فيها بعض اختلاف الناس . فقوم يحكون أربعة أقوال ، كأبي المعالي ونحوه . وقوم يحكون خمسة أو ستة ، كالشهرستاني ونحوه .

---

(١) « المسألة المصرية في القرآن » .

والأقوال التى قالها المنتسبون إلى القبلة فى هذه المسألة تبلغ سبعة أو أكثر.

[الأول] «قول المتفلسفة» ومن وافقهم من متصوف، ومتكلم، كابن سينا وابن عربى الطائى، وابن سبعين، وأمثالهم ممن يقول [بقول] الصابئة الذين يقولون إن كلام الله ليس له وجود خارج عن نفوس العباد؛ بل هو ما يفيض على النفوس من المعانى: أعلاما وطلبا: إما من العقل الفعال كما يقوله كثير من المتفلسفة، واما مطلقا كما يقوله بعض متصوفة الفلاسفة. وهذا قول الصابئة ونحوهم. وهؤلاء يقولون: الكلام الذي سمعه موسى لم يكن موجوداً إلا فى نفسه، وصاحب «مشكات الأنوار» وأمثاله فى كلامه ما يضاهي كلام هؤلاء أحياناً. وان كان أحياناً يكفرهم، وهذا القول أبعد عن الاسلام ممن يقول: القرآن مخلوق.

و (القول الثانى) قول الجهمية من المعتزلة وغيرهم، الذين يقولون: كلام الله مخلوق، يخلقه فى بعض الأجسام، فمن ذلك الجسم ابتدأ، لا من الله، ولا يقوم – عندهم – بالله كلام ولا إرادة، وأول هؤلاء «الجعد بن درهم» الذي ضحى به خالد بن عبد الله القسري – لما خطب الناس يوم عيد النحر – وقال: ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فاني مضح بالجعد بن درهم، انه زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلا، ولم

يكلم موسى تكليماً ، تعالى الله عمـا يقول الجعد علـوا كبيرا ، ثم نزل فذبحه .

وهؤلاء هم الذين دعوا من دعوه من الخلفاء إلى مقالتهم ، حتى امتحن الناس فى القرآن بالمحنة المشهورة فى إمارة المأمون ، والمعتصم والواثق ، حتى رفع الله شأن من ثبت فيها من أئمة السنة : كالامام أحمد — رحمه الله — وموافقيه ، وكشفها الله عن الناس فى إمارة المتوكل وظهر في الأمة « مقالة السلف » : ان القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ واليه يعود . أى هو المتكلم به ، لم يبتدأ من بعض المخلوقات — كما قالت الجهمية — بل هو منه نزل ، كما قال تعالى : تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وقال : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) وقال : (حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم) وقوله : (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) .

ثم لما شاعت المحنة كثر اضطراب الناس وتنازعهم فى ذلك ، حتى صار أهل السنة والجماعة — المتفقون على ان كلام الله منزل غير مخلوق — يقول كل منهم قولا يخالف به صاحبه ، وقد لا يشعر أحدهم بخلاف الأدلة وصار اتباع الأئمة الأربعة — كأبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد ، مع كون الظاهر المشهور عندهم ان القرآن كلام الله غير مخلوق — بين كل طائفة منهم تنازع فى تحقيق ذلك ، كما سننبه على ذلك .

و [القول الثالث] قول أبي محمد عبد الله بن سعيـد بن كلاب البصري ومن اتبعه : كالقلانسي وأبي الحسن الأشعري وغـيرهم ، ان كلام الله معنى قائم بذات الله ، هو الأمر بكل مـأمور أمر الله به ، والخبر عن كل مخبر أخبر الله عنه ، ان عبر عنه بالعربية كان قرآنا ، وان عبر عنه بالعبرية كان توراة ، وان عبر عنه بالسريانية كان انجيلا .

والأمر والنهي والخبر ليست انواعا له ينقسم الكلام اليها ، وإنما كلها صفات له إضافية ، كما يوصف الشخص الواحد بانه ابن لزيد ، وعم لعمرو ، وخال لبكر ،

والقائلون بهذا القول منهم من يقول : إنه معنى واحد فى الأزل وانه فى الأزل أمر ونهى وخبر ، كما يقوله الأشعري .

ومنهم من قال : بل يصير أمراً ونهياً عند وجود المأمور والمنهي .

ومنهم من يقول : هو عـدة معان ، الأمر والنهي ، والخبر ، والاستخبـار .

وقـد ألزم الناس أصحاب هـذا القول أن يجعلوا العلم والقـدرة والارادة والحياة شيئاً واحداً ، فاعترف محققوهم بصحة الالزام .

وجمهور العقلاء ـــ من أهل السنة وأهل البدعـة ـــ يقولون ان فساد هذا القول معلوم بالضرورة ، كما يقولون : ان فساد قول من يقول : ان الاصوات المسموعة من العباد قديمة معلوم بالضرورة ، كما يقولون : ان فساد قول من يقول ان المتكلم يكون متكلما بكلام يقوم بغيره ، وان العالم يكون عالماً بعلم يقوم بغيره ، والقادر يكون قادرا بقدرة تقوم بغيره معلوم بالضرورة .

وكما يقول جمهور العقلاء : ان فساد قول من يقول : ان العلم هو القدرة ، والقدرة هي الارادة ، وان العلم هو العالم ، والقدرة هي القادر ، معلوم بالضرورة .

[القول الرابع] قول طوائف من اهـل الـكلام والحديث من السالمية وغيرهم يقولون : ان كلام الله حروف وأصوات قديمة أزليـة ، ولها مع ذلك معـان تقوم بذات المتكلم ، وهؤلاء يوافقـون الأشعرية والـكلابية في ان تكليم الله لعباده ليس الا مجرد خلق إدراك للمتكلم ، ليس هو امراً منفصلا عن المستمع .

ثم ان جمهور هؤلاء لا يقولون إن تلك الأصوات [هي] المسموعة من القارئين [بل] يفرقون بين هذا وهذا . ومنهم طائفة وهم أهل[1]

---

(١) بياض بالاصل .

يقولون : ان الصوت القديم يسمع من القاريء . ثم قد يقولون تارة : ان القديم نفس الصوت المسموع من القـاریء ، وتارة يقولون : انـه يسمع من القـاریء صـوتان قديماً ومحدثا . وكثير منهم او اكثرهم لا يقولون بحلول القديم فى المحدث ؛ بل يقولون ظهر فيـه كما يظهر الوجه فى المرآة .

ومنهم من يقول بحلول القديم فى المحدث ، وليس هـذا القول ولا الأقوال قبله قول أحد من سلف الأمة ولا أئمتها ، ولم يقل ذلك لا الامام أحمد ، ولا أئمة اصحابه ، ولا غيره من الأئمة ؛ بل هم متفقون على الأنكار على من قال ان لفظي بالقرآن غير مخلوق ، فـكيف بمن قال صوتى غير مخلوق ؟ فكيف بمن قال صوتي قديم ؟!.

وأما القول بان المداد الذي فى المصحف قديم : فهذا ما رأيناه في كتاب أحد من طوائف الاسلام ، ولا نقله أحد عن رجل معروف من العلماء أنه سمعه منه ؛ ولكن طائفة يسكتون عن التكلم في المـداد بنفي أو اثبات ، ويقولون : لا نقول إنه قديم ؛ ولكن نسكت سـداً للذريعة . وقد حكاه طائفـة عمن سموهم الحشوية القول بقدم المـداد ، وقالوا : انهم يقولون : ان المداد الذى فى المصحف قديم ، وانه لما كان فى المحبرة كان محدثا ، فلما صار فى الورق صار قديما .

ورأينا طوائف يكذبون هؤلاء فى النقل ، وكأن حقيقة الأمر أن أولئك يقولون قول غيرهم بمجرد ما بلغهم من اطـلاق قولهم ، أو لما ظنوه لازما لهم ، أو لما سمعوه ممن يجازف فى النقل ولا يحرره ، وربما سمعوه من بعض عوامهم ان كان ذلك قد وقع .

وهذا الباب وقع فيه غلط بهذا السبب ، حتى غلط الناس على من يعظمونه ؛ وبهذا السبب غلط ابا طالب « الامام احمد » فيما نقله عنه فانه قرأ عليه : (قل هو الله أحد) وسأله هذا مخلوق ؟ فقال له احمد هذا ليس بمخلوق . فبلغه أن أبا طالب حكى عنه انه قال لفظي بالقرآن غير مخلوق ، فغضب عليه احمد ، وقال : أنا قلت لك لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟ فقال : لا . ولكن قرأت عليك : (قل هو الله أحـد) فقلت لك : هذا غير مخلوق فقلت نعم . فقـال : فلم حكيت عنى أني قلت لك لفظى بالقرآن غـير مخلوق ؟ فقـال : لم احكه عنك وانما حكيته عن نفسى ، قال : فلا تقل هذا فانى لم اسمع عالما يقول هذا ؛ ولكن قل : القرآن حيث تصرف كلام الله غير مخلوق .

ولهذا قال البخاري فى « كتاب خلق الأفعـال » إن « اللفظية » هؤلاء يذكرون قولهم عن أحمد وهم لا يفهمون دقـة قوله ، وموضع الشبهة أنه إذا قال هذا ، فالاشارة تكون الى الكلام مـن حيث هو كلام ، مع قطع النظر عما بلغ به من حركات العبد وصوته ، كمـا ان

الرجل اذا كتب اسم الله ـــ تبارك وتعالى ـــ وسمع قائلا يذكر الله فقال هـــذا ربي كان صادقا ، ولو قيل له : أتعبد هذا ؟ لقال نعم . ـــ لأن المشار اليه هو المسمي بذلك ـــ الا تعلم المكتوب ؟ والاسم يراد بـــه من الكلام المؤلف المسمى ، فاذا قال : (محمـــد رسول الله والذين معه) فالمراد ان المسمى الذي اسمه محمد هو رسول الله ؛ ليس المراد ان نفس اللفظ والخط هو رسول الله .

ومن هنا تنازع الناس فى « الاسم » هل هـــو المسمى أو غيره ، وكان الصواب ان يمنع من كلا الاطلاقين ، ويقال كما قال الله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى) وكما قال صـــلى الله عليه وسلم : « ان لله تسعة وتسعين اسما ، من احصاها دخل الجنة » . والذين أطلقوا أنه المسمى كان أصل مقصودهم أن المراد به هو المسمى ، وانه إذا ذكر الاسم فالاشارة به إلى مسماه ، وإذا قال العبد حمدت الله ودعوت الله وعبدت الله فهو لا يريد إلا أنه عبد المسمى بهذا الاسم .

والذين نفوا ذلك رأوا أن نفس اللفظ او الخط ليس هو الأعيان المساة بذلك ، وآخرون فرقوا بين التسمية والاسم ، فجعلوا الألفاظ هي التسمية ، وجعلوا الاسم هو الأعيان المساة بالألفاظ ، فخرجوا عن موجب اللغة المعروفة التى جاء بها الكتاب والسنة .

وأصل مقصود الطوائف كلها صحيح ؛ الا من توسل منهم بقوله الى قول باطل : مثل قول الجهمية إن الاسم غـير المسمى ؛ فانهم توسلوا بذلك الى أن يقولوا : أسماء الله غيره . ثم قالوا : وما كان غير الله فهو مخلوق بائن عنه ، فلا يكون الله تعالى سمى نفسه باسم ، ولا تكلم باسم من أسمائه ، ولا يكون له كلام تكلم به ؛ بل لا يكون كلامه إلا ما كان مخلوقاً بائناً عنه .

فهؤلاء لما علم السلف أن مقصودهم باطل انكروا اطلاقهـم القول بأن كلام الله غير الله ، وان علم الله غير الله وأمثال ذلك ؛ لأن لفظ « الغير » مجمل ، يحتمل الشيء البائن عن غيره ، ويحتمل الشيء الذي ليس هو إياه ولا هو بائن عنه . فمن قال : إنه غيره ليجعله بائناً عنه ، كان كلا المعنيين صحيحاً وإن كان فى العبارة تقصير .

وهكذا أنكر الأئمة قول من قال : لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق . وقالوا : مـن قال هو مخلوق فهو جهمي ، ومـن قال غير مخلوق فهو مبتدع . وكذلك قالوا فى « التلاوة ، والقراءة » لأن اللفظ والتلاوة والقراءة يراد بها المصدر الذي هو فعل العبد ، وأفعال العباد مخلوقة ، فمن جعل شيئاً من أفعالهم وأصواتهم وغير ذلك من صفاتهم غير مخلوق فهو مبتدع ، ويراد بـ « اللفظ » نفس الملفوظ ، كما يراد بالتلاوة والقراءة نفس الكلام ، وهو القرآن نفسه . ومن قال كلام

الله الذي أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم وقرأه المسلمون مخلوق فهو جهمي .

ومن المعلوم أنه إذا سمع الناس كلام محدث يحدث بحديث النبي صلى الله عليه وسلم ، كقوله : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » قالوا : هذا كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، أو هذا كلامه بعينه ؛ لأنهم قد علموا أن النبي صلى الله عليه وسلم تكلم بذلك الكلام لفظه ومعناه ، وتكلم بصوته ، ثم المبلغ له عنه بلغه بصوت نفسه ، فالكلام كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، هو الذي تكلم بمعانيه وألف حروفه بصوته ، والمبلغ له بلغه بفعل نفسه وصوت نفسه .

فاذا قالوا : هذا كلام النبي صلى الله عليه وسلم كانت إشارتهم الى نفس الكلام الذي هو الكلام حروفه ونظمه ومعانيه ، لا إلى ما اختص به المبلغ من حركاته وأصواته ؛ بل يضيفون الصوت الى المبلغ فيقولون صوت حسن ، وما كان فى الكلام من فصاحة حروفه ونظمه وبلاغة معانيه فانما يضاف الى المتكلم به ابتداء ، لا إلى المبلغ له ؛ ولكن يضاف الى المبلغ حسن الأداء : كتجويد الحروف ، وتحسين الصوت ؛ ولهذا قال تعالى : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس ، فيقول : « ألا رجل يحملني الى قومه لابلغ كلام ربي ؟ » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » وقال : « الله أشد أذنا الى الرجل يحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة الى قينته » .

فبين الله ورسوله ان القرآن المسموع كلام الله لا كلام أحد من المخلوقين ، والناس يقرؤنه بأصواتهم ، فمن قال : إن هذا القرآن المسموع ليس هو كلام الله ، أو هو كلام القارئين كان فساد قوله معلوماً بالضرورة شرعا وعقلاً ، كما أن من قال : إن هذا الصوت المسموع ليس هو صوت العبد او هو صوت الله كان فساد قوله معلوماً بالضرورة شرعا وعقلا ؛ بل هذا هو كلام الله لا كلام غيره ، سمعه جبريل من الله وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم من جبريل ، وسمعه المسلمون من نبيهم . ثم بلغه بعضهم الى بعض ، وليس لأحد من الوسائط فيه الا التبليغ بأفعاله وصوته ، لم يحدث منهم أحد شيئاً من حروفه ، ولا نظمه ، ولا معانيه ؛ بل جميع ذلك كلام الله تعالى .

[القول الخامس] قول الهشامية والكرامية ومن وافقهم أن كلام الله حادث قائم بذات الله بعد أن لم يكن متكلماً بكلام ؛ بل ما زال عندهم قادراً على الكلام ، وهو عندهم لم يزل متكلماً بمعنى أنه لم يزل قادراً على الكلام ، والا فوجود الكلام عندهم فى الأزل ممتنع ؛كوجود

الأفعال عندهم ، وعند من وافقهم من اهل الكلام ، كالمعتزلة واتباعهم.
وهم يقولون : انه حروف وأصوات حادثة بذات الرب ، بقدرته ومشيئته .
ولا يقولون : إن الأصوات المسموعة ، والمداد الذي في المصحف قديم ؛
بل يقولون : إن ذلك محدث .

[القول السادس] قول الجمهور وأهل الحديث وأئمتهم : ان الله
تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ، وأنه يتكلم بصوت ، كما جاءت به الآثار ،
والقرآن وغيره من الكتب الالهية كلام الله تكلم الله به بمشيئته وقدرته ،
ليس ببائن عنه مخلوقاً . ولا يقولون إنه صار متكلماً بعد أن لم يكن
متكلماً ، ولا أن كلام الله تعالى من حيث هو هو حادث ؛ بل مازال
متكلماً إذا شاء ، وإن كان كلم موسى وناداه بمشيئته وقدرته ، فكلامه
لا ينفد ، كما قال تعالى : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد
البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ، ولو جئنا بمثله مدداً) .

ويقولون : ما جاءت به النصوص النبوية الصحيحة ، ودلت عليه
العقول الزكية الصريحة ، فلا ينفون عن الله تعالى صفات الكمال سبحانه
وتعالى ؛ فيجعلونه كالجمادات التي لا تتكلم ، ولا تسمع ولا تبصر .
فلا تكلم عابديها ، ولا تهديهم سبيلا ، ولا ترجع إليهم قولاً ولا
تملك لهم ضراً ولا نفعاً .

ومن جعل كلام الله لا يقوم الا بغير الله كان المتصف به هو ذلك الغير ، فتكون الشجرة هي القائلة لموسى(انني انا الله)؛ ولهذا اشتد نكير السلف على من قال ذلك . وقالوا هذا نظير قول فرعون : (أنا ربكم الأعلى) اي هذا كلام قائم بغير الله ؛ ولهذا صرح بحقيقة ذلك الاتحادية : كابن عربي ونحوه ، الذين يقولون :

وكل كلام فى الوجود كلامه   سواء علينا نثره ونظامه .

واهل هذا القول — الموافقون للسلف والأئمة — لا يقولون ان الرب كان مسلوبا صفات الكمال في الأزل ، وانه كان عاجزاً عن الكلام حتى حدث له قدرة عليه ، كالطفل . والذين يقولون : ان القرآن مخلوق يجعلون الكلام لغيره ، فيسلبونه صفات الكمال ، ويقولون : انه لايقدر على الكلام فى الأزل ، لا على كلام مخلوق ولا غيره . وهم ان لم يصرحوا بالعجز عن الكلام فى الأزل فهو لازم لقولهم . والكرامية فروا من الأول ؛ وجعلوه متكلما بكلام يقوم به ؛ لكن لم يجعلوه متكلما فى الأزل ؛ بل ولا قادراً على الكلام فى الحقيقة في الأزل .

والكلابية ومن وافقهم من السالمية ونحوهم وصفوه بالكلام في الأزل ، وقالوا : إنه موصوف به أزلا وابداً ، لكن لم يجعلوه قادراً على الكلام ، ولا متكلما بمشيئته واختياره ، ولا يقدر ان يحدث شيئاً

يكون به مكلما لغيره ؛ لكن يخلق لغيره ادراكا بما لم يزل ، كما يزيل العمى عن الاعمى الذى لا يرى الشمس التى كانت ظاهرة متجلية ، لا أن الشمس فى نفسها تجلت وظهرت ، وهذا يقول كثير من هؤلاء فى رؤيته إنها ليست إلا مجرد خلق الادراك ، ليس هناك حجب منفصلة عن الرأي ، فلا يكشف حجابا ، ولا يرفع حجابا .

والقرآن مع الحديث ومع العقل يرد على هؤلاء ؛ كقوله تعالى : (وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا ، او من وراء حجاب ، او يرسل رسولا) ولو كان الحجاب هو عدم الرؤية : لكان الوحي وارسال الرسل من وراء حجاب . وقال تعالى : (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخرموسى صعقا) وفى الصحيح : « اذا دخل اهل الجنة الجنة نادى مناد ؛ يا اهل الجنة ان لكم عند الله موعداً يريد ان ينجزكموه ، فيقولون : ماهو ؟ ألم يبيض وجوهنا ، ويثقل موازيننا ، ويدخلنا الجنة ، وينجينا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فينظرون اليه ، فما اعطاهم شيئاً احب اليهم من النظر » والآثار في ذلك كثيرة .

و « ايضاً » فقول الكلابية : ان الحقائق المتنوعة شيء واحد ، وقول الآخرين إن الأصوات المتضادة تجتمع فى آن واحد مما يقول اكثر العلماء العقلاء انه معلوم الفساد بالضرورة ، وقد بسط الكلام على هذه الأقوال فى غير هذا الموضع .

و « المقصود هنا » الجواب عن قول هـذا القائل : فقوم الى انـه قديم الصوت والحرف ، وهم الحشوية . إن أراد بذلك قول من يقول إن نفس الأصوات مجتمعة فى الأزل : فهذا قول من تقدم من السالمية، وغيرهم من أهل الـكلام والحديث .

وأما قول القائل : « حشوية » فهذا اللفظ ليس له مسمى معروف لا فى الشرع ، ولا في اللغة ، ولا فى العرف العـام ؛ ولكن يذكر أن أول من تكلم بهذا اللفظ عمرو بن عبيد . وقال : كان عبد الله بن عمر حشويا . وأصل ذلك : أن كل طائفة قالت قولا تخالف بـه الجمهور والعامة [ينسب] الى انه قول الحشوية ، أي الذين هم حشو فى الناس ليسوا من المتأهلين عندهم ؛ فالمعتزلة تسمي من أثبت القـدر حشوياً ، والجهميـة يسمون مثبتة الصفات حشوية ، والقرامطة ـــ كاتباع الحاكم ـــ يسمون من أوجب الصلاة والزكاة والصيام والحج حشويا .

وهذا كما ان الرافضة يسمون قول أهل السنة والجماعة قول الجمهور ، وكذلك الفلاسفة تسمي ذلك قول الجمهور ، فقول الجمهور وقول العامـة من جنس واحد .

فان كان قائل ذلك يعتقد أن الخاصة لا تقوله ؛ وانما تقوله العامة والجمهور ، فاضافه اليهم وسماهم حشوية . والطائفة تضاف تارة الى الرجل الذي هو رأس مقالتها، كما يقال : الجهمية ،والاباضية ، والأزارقة ، والـكلابية ، والأشعرية ، والكرامية ،

ويقال في أئمة المذاهب : مالكية ، وحنفية ، وشافعية ، وحنبلية . وتارة تضاف الى قولها وعملها ، كما يقال : الروافض ، والخوارج ، والقدرية ، والمعتزلة ، ونحو ذلك . ولفظة الحشوية لا ينبني لا عن هـذا ولا عن هذا .

وأما قوله : وقوم ذهبوا الى انه حادث بالصوت والحرف — وهم الجهمية — فهو كلام من لا يعرف مقالات الناس . فان الجهمية يقولون : إن الله لا يتكلم ، وليس له كلام ، وانما خلق شيئاً فعبر عنـه ، ومنهم قال : إنه يتكلم بكلام يخلقه في غيره ، وهو قول المعتزلة .

وأما الكرامية فتقول : ان القرآن كلام الله غير مخـلوق ، وهو متكلم به بحرف وصوت . ويقولون مع ذلك : انـه حادث قائم به وهم ليسوا من الجهمية ؛ بل يردون عليهم أعظم الرد ، وهم اعظم مباينة لهم من الاشعرية . ويقولون مع ذلك : ان القرآن حادث في ذات الله .

ثم من هؤلاء من يقول : إن كلام الله كله حادث ومنهـم من لا يقول ذلك ، وهذا القول معروف عن ابى معاذ التومنى ، وزهير البابي ، وداود بن علي الأصبهـانى ، بل والبخاري صاحب الصحيح وغـيره ، وطوائف كثيرة يذكر عنهم هذا ، فليس كل من قال : إنـه حادث كان من الجهمية ، ولا يقول انه مخلوق .

واما قوله : وقوم نحوا إلى انـه قديم لا بصوت ولا حرف ، إلا معنى قائم بذات الله ــ وهم الاشعرية ــ فهذا صحيح ؛ ولكن هـذا القول أول من قاله في الاسلام عبد الله بن كلاب ؛ فان السلف والأئمة كانوا يثبتون لله تعالى ما يقوم به من الصفات ، والأفعال ، المتعلقة بمشيئته وقدرته . والجهمية تنكر هذا وهـذا ، فوافق ابن كلاب السلف على القول بقيام الصفـات القديمـة ، وانكر أن يقوم بـه شيء يتعلق بمشيئته وقدرته .

وجاء ابو الحسن الأشعري بعده ــ وكان تلميذاً لأبي علي الجبائي المعتزلي ثم إنه رجـع عن مقالة المعتزلة ، وبين تناقضهم فى مواضع كثيرة ، وبالغ فى مخالفتهم فى مسائل القدر والايمان ، والوعد والوعيد ، حتى نسبوه بذلك إلى قول المرجئة ، والجبرية والواقفة ــ، وسلك فى الصفات طريقة ابن كلاب . وهذا القول في القرآن هو قول ابن كلاب في الأصل ، وهو قول من اتبعه كالأشعري وغيره .

وقوله : فمن قال ان الحرف والصوت الملفوظ بهما عـين الكلام القديم فلأهل الحق فيـه رأيان : رأي بتكفيره ، ورأي بتبديعـه ، الى قوله : وليعـلم ان الحرف اللسانى والحرف البنـانى كـلاهما مقيـد بزمام تصرفه .

فيقال : اما القول بان المداد المكتوب قديم فما علمنا قائلاً معروفا قال به ، وما رأينا ذلك في كتاب أحد من المصنفين ، لامن أصحاب أبي حنيفة ، ولا مالك ، ولا الشافعي ولا أحمد ؛ بل رأينا فى كتب طائفة من المصنفين من أصحاب مالك ، والشافعي ، وأحمد ، انكار القول بأن المداد قديم ، وتكذيب من نقل ذلك ، وفي كلام بعضهم ما يدل على أن فى المصحف حرفا قديما ليس هو المداد .

ثم منهم من يقول : هو ظاهر فيه ، ليس بحال ، ومنهم من يقول هو حال . وفى كلام بعضهم ما يقتضي ان يكون ذلك هو الشكل : شكل الحرف وصورته ؛ لا مادته التى هي مداده ، وهذا القول ايضا باطل ، كما ان القول بأن شيئاً من أصوات الآدميين قديم هو قول باطل ، وهو قول قاله طائفة من أصحاب مالك ، والشافعي ، وأحمد ، وجمهور هؤلاء ينكرون هذا القول . وكلام الامام أحمد وجمهور أصحابه فى انكار هذا القول كثير مشهور .

ولا ريب ان من قال ان أصوات العباد قديمة فهو مفتر مبتدع ، له حكم أمثاله ، كما ان من قال : ان هذا القرآن ليس هو كلام الله فهو مفتر مبتدع ، له حكم أمثاله .

ومن قال : إن القرآن العربى ليس هو كلام الله ، بل بعضه كلام

الله وبعضه ليس كلام الله فهو مفتر مبتدع ، له حكم أمثاله . ومن قال: إن معنى آية الكرسي ، وآية الدين ، و (قل هو الله احد) و (تبت يدا أبي لهب) معنى واحد فهو مفتر مبتدع ، له حكم امثاله .

واما « التكفير » : فالصواب انه من اجتهد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقصد الحق ، فاخطأ : لم يكفر ؛ بل يغفر له خطأه . ومن تبين له ما جاء به الرسول ، فشاق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ، واتبع غير سبيل المؤمنين : فهو كافر . ومن اتبع هواه ، وقصر في طلب الحق ، وتكلم بلا علم : فهو عاص مذنب . ثم قد يكون فاسقاً ، وقد تكون له حسنات ترجح على سيئاته .

فـ « التكفير » يختلف بحسب اختلاف حال الشخص ، فليس كل مخطىء ولا مبتدع ، ولا جاهل ولا ضال ، يكون كافراً ؛ بل ولا فاسقاً ، بل ولا عاصياً ، لا سيما في مثل « مسألة القرآن » وقد غلط فيها خلق من أئمة الطوائف ، المعروفين عند الناس بالعلم والدين . وغالبهم يقصد وجها من الحق فيتبعه ، ويعزب عنه وجه آخر لايحققه ، فيبقى عارفا ببعض الحق جاهلاً ببعضه ؛ بل منكراً له .

ومن ههنا نشأ نزاعهم ، فالذين قالوا انه مخلوق : رأوا أن

الـكلام لا يكون إلا بقدرة المتكلم ومشيئته ، وإن كلاماً لازماً لذات المتكلم لا يعقل ؛ فانه ان جعل معنى واحداً كان مكابرة للعقل ، وكذلك ان جعل أصواتاً أزليـة ، ثم ظنوا أن ما كان بقدرة الرب ومشيئته لا يكون إلا منفصلا عنه ، وما انفصل عنه فهو مخلوق . ولهذا أنكروا أن يجيء ، أو يأتي ، أو ينزل ، وغير ذلك مما جاء به الكتاب والسنة .

وآخرون وافقوهم على هـذا الأصل الذي أحدثه أولئك ، وهو أنه لا يقوم به ما يتعـلق بمشيئته وقدرته ؛ لكن رأوا ان كلاماً لا يقوم بالمتكلم لا يكون كلاماً له . فقالوا : ان كلامه قائم به .

ثم رأى « فريق » ان قدم الأصوات ممتنع ، فجعلوا القديم هو المعنى ، ثم رأوا أن تعدد المعاني القديمة ممتنع ، وأنه يفضي إلى وجود معاني لانهاية لها ، فقالوا هو معنى واحد .

ورأى « فريق آخر » أن كون المعانى المتنوعة معنى واحداً ممتنع ، وكون الرب لم يتكلم بحروف القرآن ، بل خلقها في غيره موافقة لمن جعل الـكلام لا يقوم بالمتكلم ؛ فان تلك الحروف المنظومة ــ كالقرآن العربى ــ ان قالوا هو كلام الله لزم أن لا يكون كلامه قائماً به بل بغيره ؛ وان قالوا ليس كلاماً لله لزم أن يكون كلاماً لمن خلقت فيه ، فلا يكون الـكلام العربى كلاماً لله ؛ بل كلاماً لمن خلق فيه . وهذا

هو الذي انكروه على من قال القرآن مخلوق . والذي قال انه مخلوق لم يقل إلا هذا ؛ فلزمهم أن يوافقوا فى الحقيقة قول من يقول : القرآن مخلوق ، وان ضموا إلى ذلك قولاً لا حقيقة له يخالف العقل والنقل : وهو اثبات معنى واحد يكون هو جميع معانى التوراة ، والانجيل ، والقرآن ؛ لكنهم إنما قالوا ذلك فراراً من أقوال ظنوها باطلة ، فلم يقصدوا إلا الفرار عما رأوه باطلا ، فوقعوا فى أقوال لها لوازم تقتضي بطلانها أيضاً .

فلما رأى هذا « الفريق الثانى » ما أجاب به هؤلاء ، قالوا : انه حروف وأصوات ، قديمة أزلية . فرد عليهم غيرهم . وقالوا : ان الأصوات متضادة فى نفسها ، والضدان لا يجتمعان ، وأقل مافى الأمور القديمة أن تكون مجتمعة ، وقالوا لهم : الأصوات مستلزمة للحركات المستلزمة للقدرة والارادة ، فلا تكون الأصوات إلا بقدرة وإرادة ، وما كان كذلك لم يكن قديم العين ؛ لكن النزاع فى كونه قديم النوع . وقالوا : الأصوات هي فى نفسها يمتنع بقاؤها ، وما امتنع بقاؤه امتنع قدمه ، فامتنع قدم الأصوات .

وقال « آخرون » : إذا كان الأمر كذلك كان متكلماً بحروف ، وأصوات ، حادثة بمشيئته وقدرته ، قائمة بذاته ، لكن يمتنع قدم شيء من ذلك ؛ لأن الحوادث لا تكون أزلية ، ورأوا أن هذا القول ينجيهم من

سائر ما وقع فيه غيرهم ، وليس فيــه ما ينكر أولئك عليهــم ، إلا أن يقوم بذات الرب ما يتعلق بمشيئته وقدرته .

فان المعتزلة نفت أن يقوم به شيء من المعاني ، وعبروا عن ذلك بأنه لا يقوم به شيء من الأعراض والحوادث ، فسموا ما يقوم به من العلم ، والقدرة ، والحياة ، اعراضاً . وما يقوم به من الخلق ، والاحسان والاتيـان ، والمجيء ، والنزول حوادث . وقـالوا ـــ لسلف الأمـة وأئمتها وجمهورها :ـــ ان قلتم الـكلام المعين لازم له فقد قلتم انه تقوم بـه الأعراض ، وان قلتم يتـكلم باختياره وقدرتـه ، فقد قلتم تقوم به الحوادث .

فقال هؤلاء : كلام المعتزلة وقولهم لا تقوم به هذه الأمور : كلام باطل ، مخالف للـكتاب والسنة ، ولاجماع سلف الأمـة . وهو أيضاً مخالف لصريح العقل ؛ فان اثبات عالم بلا عـلم ، وقادر بلا قدرة ، وحي بلا حياة ، ممتنع في صريح العقل . وكذلك اثبات خالق وعادل بلا خـلق ولا عدل ، واثبـات فاعل لا يقوم به فعـل ، واثبات رب لا يقدر على التصرف بنفسه ؛ بل يكون بمنزلة الجمـاد سلب لصفات الـكمال عنه ، كما أن إثبـات رب لا يعـلم ولا يقدر سلب لصفـات الـكمال عنه .

قال هؤلاء : فاذا قلنا إنه تكلم بالكلام ، حروفه ومعانيه · بمشيئته وقدرته ، سلمنا من هذه المحاذير ، ولم يكن منا محذور شرعي ولا عقلي .

فقال لهم « الفريق السابع » : ولكن جعلتموه عاجزاً عن الكلام فى الأزل ، مسلوباً للكمال ، ولزمكم أن يقال : إذا كان من الأزل الى الأبد لم يتكلم ثم تكلم ، كان ذلك أمراً حادثاً ، فيحتاج الى سبب حادث ، والقول فى ذلك الحادث كالقول فى الأول ؛ فيلزم تسلسل الحوادث . فان كان ذلك ممتنعاً بطل قولكم ، وان كان جائزاً فقولوا لم يزل متكلماً إذا شاء · كما قاله أئمة السنة وجماهير أهل الحديث ، فانكم حينئذ تكونون قد وصفتم ربكم بصفات الكمال أزلاً وأبداً .

قالوا : وهذا القول خير من سائر الأقوال ، مع موافقته المعقول وصحيح المنقول . فقال لهم أولئك : هذا يستلزم حوادث لا أول لها . وذلك ممتنع ، فقال لهم هؤلاء : هذا كلام مبتدع ، وإنما أخذتموه عن المعتزلة لم يأت به كتاب ولا سنة ، ولا قاله أحد من سلف الأمة وأئمتها ، ولا دل عليه العقل ؛ بل العقل يدل على نقيضه .

والذين قالوا هذا القول من المعتزلة ومن تبعهم من الكرامية والأشعرية : ظنوا أنهم بهذا القول يثبتون حدوث العالم ؛ بناء على أن الأجسام لا تخلوا من الأعراض المحدثة ، وما لا يخلوا من الحوادث فهو

محدث ، وهـذا القول هو الذي سلط عليهم « الفلاسفة الدهرية » القائلين بقدم العالم ؛ فان هـذا القول الذي قالوه وجعلوه مستلزماً لحدوث العالم هو مناقض لحدوث العالم ، بل هو مناقض لاثبات الصانع . فهم قصدوا نصر الاسلام بما ينافى دين الاسلام .

ولهذا كثر ذم السلف لمثل هـذا الكلام ، وهـذا هو أصل « الكلام المذموم » عند سلف الأمة وأئمتها ؛ وذلك لأن الشيء إذا كان يمكن وجوده ويمكن عدمه فلا يوجد إلا بمقتض يستلزم وجوده ، وان جاز وجوده بدون ذلك أمكن ان تكون المخلوقات ـــ التى يمكن وجودها وعدمها ـــ وجدت بلا فاعل ، فلا بد للممكنات من وجود واجب يحصل به وجودها ، ولا تكون مع وجود المقتضى التام محتملة للوجود والعدم ؛ بل يكون وجودها لازماً حتماً . فان ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وإذا شاء الرب شيئاً لم يمكن ان لا يكون ؛ بل يجب كونه بمشيئة الرب تعالى المستلزمة لقدرته .

قالوا : وإذا كان كذلك : فالحادث الذي يمكن وجوده ويمكن عدمه اذا حدث بدون سبب حادث مع استواء نسبته إلى جميع الاوقات ، واستواء نسبة جميع الحوادث والأوقات إلى مشيئة الرب وقدرته لزم من ذلك أن يكون قد تخصص بعض الحوادث بالحدوث ، وبعض

الازمنة بالحدوث ، من غير مخصص يقتضى ذلك ، ومــن غير سبب حادث يقتضى الحدوث .

وهذا مع أنه فاسد فى صريح العقول : فهو يبطل ما استـدلوا به على اثبات الصانع ، فلا بــد حينئذ أن يكون لحدوث الحوادث سبب حادث ؛ وحينئذ فـا من حادث إلا وهو مسبوق بحادث . وحينئــذ : فهذا يقتضي ان الله إذا كان متكلما بمشيئته وقدرته ، أمكن أنه لا يزال متكلما بمشيئته وقدرته ، ولم يجز أن يصير متكلما بعد أن لم يكن متكلما بحال ؛ لأن ذلك يقتضي حدوث الحادث بلا سبب حادث وهو ممتنع ، ويقتضي انه تجدد له من صفــات الكمال ما أمكن ثبوته فى الأزل ؛ وذلك ممتنع ؛ وذلك لأن صفات الكمال التى يمكن اتصــاف الرب بهـا لا يجوز ان يتوقف ثبوتها له على غيره ؛ لأنــه يلزم ان يكون ذلك الغير هو المعطي له صفات الكمال ، ومعطى غيره صفــات الكمال أولى بان يكون هو الرب تعالى ، ورب العــالمين ، الخالق ما سواه ، الذي يعطيه صفات الكمال لا يكون غيره ربا له بوجه من الوجوه ، سبحـانه وتعالى عن ذلك .

وحينئذ فيجب اتصافه بالكلام إذا شاء أزلا وابداً .

قال هؤلاء : وهــذا الأصل يبطل حجة الفلاسفة الدهرية ، التى

احتجوا بها على قدم العالم ، وعجزتم انتم معاشر المعتزلة وأتباعكم ــ من المتكلمين القائلين بامتناع دوام الحوادث ــ عنها ، فانهم الزموكم على أصولكم ؛ إذ قدرتم ثبوت موجود لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا يفعل شيئاً ، بل يمتنع منه فى الأزل كل شيء يكون منه : من كلام أو فعل . فقالوا : إذا قدرنا وجود هذا ، وأنه يبقى دائماً ابداً لا يتكلم ولا يفعل شيئاً ، ثم تكلم وفعل ؛ فلا بد من سبب اوجب حدوث هذا الكلام والفعل ، اما حدوث قدرة أو إرادة ، أو علم أو غير ذلك من الأسباب . فاما إذا قدر حاله فيما لايزال كحاله فيما لم يزل : امتنع ان يتجدد له كلام ، أو فعل ، أو غير فعل .

فهذه حجة الفلاسفة عليكم ؛ وأنتم لم تجيبوهم إلا بالمكابرة أو بالالزام « فالمكابرة » دعواكم حدوث الحوادث بلا حدوث سبب ؛ بل جعلتم نفس القدرة أو الارادة القديمة : تخصص أحد المتماثلين عن المثل الآخر بلا سبب أصلا ، مع أن نسبتها إلى جميع المتماثلات نسبة واحدة . وهذا مع أنه معلوم البطلان بالضرورة : فهو يسد عليكم طريق « اثبات الصانع » فانه مبنى على أن الحوادث لا بد لها من محدث ، والمخصص لا بد له من مخصص ، والترجيح لا بد له من مرجح ؛ إذا كان المخصص أو المرجح من الممكنات ، او المحدثات .

وأما « الالزام » فقولكم إن هذا الاشكال لازم للفلاسفة ، كما هو

لازم لنا . فان الحوادث إذا امتنع حدوثها عن علة تامة أزلية ـ وليس عندكم إلا العلة التامة الأزلية ـ لزم ألا يكون للحوادث محـدث . واما نحن إذا سلكنا طريق سلف الأمة وائمتها ، فنقول لهؤلاء الفلاسفة : بل خلق الله السموات والأرض فى ستة أيام ، كما أخبرت به الرسل ، فحدثت باسباب حدثت قبل ذلك ، وإذا قلنا : انه لم يزل متكلما إذا شاء ـــ و (إنما أمره إذا أراد شيئاً ان يقول له : كن فيكون) ـــ كان ما يحدث حادثاً بما شاء ان يتكلم به من كلامه ؛ لا سيما إذا قيل بنظير ذلك فى إرادته ـــ سبحانه وتعالى ـــ وامكننا ان نجيب الفلاسفة بجواب آخر ، مركب عنا وعنكم .

فنقول لهم : وجود حوادث لا أول لها ممكن أو ممتنع ؟ .

فان قلتم ممتنع : لزمكم القول بحدوث العالم ، وامكن حينئذ صحـة قول الكرامية ونحوهم .

وان قلتم : هو ممكن . قيل : فممكن حينئذ أن يكون هذا العالم حدث بسبب حادث قبله . وكذلك السبب الآخر لا الى غايـة ، والكلام على هذه الأمور مبسوط فى غير هذا الموضع .

و « المقصود هنا » التنبيه على أن هذه مقامات دقيقة ، مشكلة ،

بسببها افترقت الأمة واختلفت . فاذا اجتهد الرجل فى متابعة الرسول، والتصديق بما جاء به ، واخطأ فى المواضع الدقيقة التى تشتبه على أذكياء المؤمنين ، غفر الله له خطاياه ؛ تحقيقاً لقوله : (ربنـا لا تؤاخذنـا إن نسينا او اخطأنا) وقد ثبت فى الصحيح ان الله قال : « قد فعلت »

وأما قول القائل : ومن قال : كلام الله منزه عن سمات الحدوث إذ الصوت والحرف لازمها الحدوث ، فكما لذاته التنزيه عن سمات الخلق كذلك لقوله الحق .

فيقال له : لا نزاع بين المسلمين ؛ بل وسائر أهـل الملل وغيرهم من العقلاء ، أن الخالق منزه عن سمات الحدوث ، فان قدمه ضروري ؛ فيمتنع أن يقوم دليل على حدوثه ، و « السمة » هي العلامة والدليل. ولكن منازعوك في الصوت والحرف : جمهور الخلائق ؛ إذ لم يوافـق الـكلابية على قولهم احد من الطوائف ، لا الجهمية ، ولا المعتزلة ، ولا الضرارية ، ولا النجارية ، ولا الكراميـة ، ولا السالميـة ، ولا جمهور المرجئة والشيعة ، ولا جمهور أهل الحديث والفقـه والتصوف ، ولا الفلاسفة : لا الالهيون ، ولا الطبائعيون على اختلاف أصنافهم .

وخصومهم منهم من يقول : الحروف محدثة مخلوقة فى محل منفصل عن الله ، كما يقولون هم ذلك ؛ لكن يقولون : هذا كلام الله ليس لله

كلام غيره ، كما أجمع المسلمون على أن هـذا كلام الله ، بل أجمعت الأمم على ان الكلام لا يعقل الا كذلك .

فان قلتم : هذا هو كلام الله . لزمكم ان يكون كلامـه مخلوقا ، وان قلتم : ليس ذلك كلام الله خالفتم المعلوم بالاضطرار مـن الشرع واللغة ، وان قلتم نسمي هـذا كلام الله ، وهـذا كلام الله ، كلاهما حقيقة بطريـق الاشتراك اللفظي . قيل لـكم : فاذا ثبت ان الكلام المخلوق فى غيره هو كلام له حقيقة بطل أصل حجتكم ، التى إحتججتم بها ، حيث قلتم الـكلام لا يكون كلاما الا لمن قام به ، ولا يكون المتكلم متكلما بكلام يحل فى غيره .

وقالوا لـكم أيضاً : إثبات المعنى الذي أثبتموه غير هذه الحروف ، والأصوات يحتاج إلى اثبات وجوده ، ثم اثبات قدمه ، ثم اثبات حدوثه ، وكل من هذه المقامات أنتم فيها منقطعون ، كما هو مبسوط فى موضعه ، وكما اعترف بذلك فضلاء هذه المقالة .

و « الفريق الثـانى » يقول لـكم : انا نسلم لـكم أن الحـروف والأصوات محدثة ؛ لكن نقول هي كلام الله القائم بذاته ، فان قلتم هذا يستلزم كونه محلا للحوادث ، قالوا لـكم : ونفس هذا من كلام المعتزلة الذي تلقيتموه عنهم ، وليس لـكم على ذلك حجة ، لا عقلية ولا شرعية .

وقد اعترف فضلاؤكم بأن هذا القول يلزم جمهور الطوائف . وقال لكم منازعوكم : قد دل على هذا الأصل الأدلة الشرعية والعقلية .

و « الفريق الثالث » يقول لكم : هب أنها محدثة أهي محدثة الأعيان أم نوعها محدث ؟ فان قلتم : ان كل فرد من أفرادها محدث لم ينفعكم . وان قلتم بل النوع محدث لا متناع حوادث لا تتناهى . قيل لكم : هذا مما ينازعكم فيه جمهور أهل الحديث ، مع جمهور الفلاسفة ، وينازعكم فيه أئمة الملل وأئمة النحل ، وينازعكم فيه الأئمة من أهل التوراة والانجيل ، والقرآن ، والأئمة ؛ من الصابئة ، والفلاسفة ، والمجوس وغيرهم ، وانما ابتدع هذا القول فى الاسلام طائفة من اهل الكلام ، الذين ذمهم أئمة الدين ، واعلام المسلمين ، وهذا القول ليس معلوماً بالكتاب والسنة والاجماع ، ولا قاله أحد من السلف والأئمة ، وإنما هو قول مبتدع ، ومبتدعه يزعم ان العقل دل عليه . ويثبت به حدوث العالم ، والعلم باثبات الصانع .

وهؤلاء يقولون له : العقل يدل على نقيضه ، وانه مناف مضاد لحدوث العالم ، ولاثبات الصانع . وهذا مبسوط فى موضعه ؛ وانما المقصود التنبيه على ما فى هذا الكلام من موارد النزاع ، ومواقع الاجماع .

وقول القائل : كما لذاته التنزيه عن سمات الخلق ، فكذلك لقوله الحق . فهذا من جنس سجع الكهان ، الذي لا يقيم حقاً ولا يبطل باطلا ، فهل تقول ان كل ما وصف به الرب من الصفات يتصف به كل ما له من الكلمات ، او غيرها من الصفات ؟ ، واذا قيل : ان الرب تعالى إله قادر ، خالق معبود ، فهل يجب ان يكون شيء من كلماته وصفاته الهاً قادراً ، خالقاً ، معبوداً ؟ وهذا القول يضاهي قول النصارى ، الذين قالوا : كما ان أقنوم الوجود اله ، فكذلك اقنوم الكلمة والروح ، فيثبتون للصفات الالهية ، التي اثبتوها للذات ،

والرب تعالى له كلام قائم بمحل لا يوجد بغيره ، إذ لا بد للكلام من محل لا يوجد الكلام بدونه ، فهل يجب أن يفتقر الرب الى محل يقوم به ، كما يفتقر الكلام الى ذلك ؟ ولكن يجب تنزيه كلامه عن كل نقص وعيب ؛ إذ هو المستحق للكمال فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله . ويمتنع ان يخلو عن صفات الكمال من الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والكلام ، وغير ذلك من صفات الكمال ، مع أنه يتصف بها بعض مخلوقاته ، فالموصوف الواجب الوجود القديم الأزلي أحق بصفات الكمال من المخلوقات ، وكل كمال ثبت لمخلوق فمن الخالق استفاده ، والخالق أوهبه إياه ، وأعطاه فواهب الكمال ، ومعطيه أحق به ، وأولى .

وهذا مما يعبر عنه كل قوم باصطلاحهم ، حتى تقول المتفلسفة :

كل كمال ثبت للمعلول فهو [من] كمال العلة . ومعلوم أن المخلوق الذي خلق من قبل ، ولم يك شيئاً ليس له من نفسه شيء أصلا ؛ بل كل ماله فمن خالقه سبحانه وتعالى .

وأما قوله : ولتعلم ان الحرف اللساني والحرف البناني : كلاهما مقيد بزمان ، يصرفه المولى متكلم قبل الزمان ، فتعالى كلامه عن ان تكتنفه الحدثان ، فقد عرف منازعة المنازعين له فى هذا ، ولم يذكر الا مجرد الدعوى ، وقد علم أن تصور الدعوى معلوم الفساد بالضرورة عند اكثر العقلاء ، وان الدليل عليها مقدمات ينازعه فيها جمهور العقلاء ، وآخرها ينتهي الى مقدمات تلقوها عن شيوخهم المعتزلة ؛ فان الكلابية والأشعرية إنما أخذوا مقدمات هذا الكلام ، ومادته منهم . وقد عرف حالهم فى ذلك .

وقوله المولى متكلم قبل الزمان، إن أراد أنه سبحانه وتعالى قبل السموات والأرض ، والليل والنهار ، وقبل جميع المخلوقات ، فهذا حق ؛ لكن من أين له ان كل ما كلم به عباده ، ويكلمهم به يوم القيامة ، يجب أن يكون قبل جميع المخلوقات ؟ ومن أين له أنه قبل خلق العالم كان منادياً لموسى ، قائلا له : (انني انا الله ، لا إله الا أنا فاعبدني . وأقم الصلاة لذكري) ؟

وان أراد أنه سبحانه وتعالى قبل ما يوصف بالقبل فهذا ممتنع ، فانه سبحانه موصوف بانه الأول قبل كل شيء ، وان أراد بذلك ان الزمان مقدار الفعل والحركة ، وان ذلك ممتنع في الأزل ، فقد عرف ان أئمة الملل والنحل ينازعونه فى هذا ، مع اتفاق أهل الملل على ان الله خالق السموات والأرض فى ستة أيام ، وقوله : ان الحرف والصوت اداتان يعبر بهما عن المعنى القائم بذات الله ، كما يعبر الانسان عما قام به من الطلب : تارة بالبنان ، وتارة باللسان ، وتارة بالرأس عند طلب الرواح ، وعند طلب الاتيان ، فهذا مذهب الحق ، ومركب الصدق .

فيقال له : هذا عليه اعتراضات :

« أحدها » ان يقال : ما ذلك المعنى القائم بالذات ؟ أهو واحد كما يقوله الأشعري ، وهو عنده مدلول التوراة ، والانجيل ، والقرآن ومدلول آية الكرسي والدين . ومدلول سورة الاخلاص وسورة الكوثر ؟ ام هو معان متعددة ؟ فان قال بالأول : كان فساده معلوماً بالاضطرار ثم يقال : التصديق فرع التصور ، ونحن لا نتصور هذا ، فبين لنا معناه . ثم تكلم على اثباته ، فان قال : هو نظير المعانى الموجودة فينا كان هذا الكلام بعد النزول عما يحتمله من التشبيه والتمثيل باطلا ؛ لأن الذي فينا معان متعددة متنوعة ، وإما معنى واحد هو أمر بكل مأمور به ، وخبر عن كل مخبر عنه ، فهذا غير متصور .

« الثانى » أن يقال : هب أنه متصور . فما الدليل على ثبوته ؟ وما الدليل على قدمه ؟.

« الثالث » أن يقال : قولك الصوت والحرف عبارة عنه . أتعنى به الأصوات المسموعة من القراء ، أو الحروف الموجودة في التلاوة والمصاحف ، وإما حروفاً وأصواتاً غير هذه . فان قلت بالأول كان باطلا من وجوه :

« أحدها » : انه كل من أجاد القراءة عبر عما فى نفس الله ، من غير ان يكون الله عبر عما فى نفسه ، فيكون المخلوق أقدر من الخالق .

« الثانى » ان كثيرا من القراء أو اكثرهم لا يفقهون اكثر معانى القرآن ، والتعبير عما فى نفس المعبر فرع على معرفته ، فمن لم يفهم جميع معانى القرآن ــ كلام الله ــ فكيف يعبر عن تلك المعانى ؟ !

« الثالث » أن الناس لا يفهمون معانى القرآن ، الا بدلالة ألفاظ القرآن على معانيه ؛ فاذا سمعوا ألفاظه وتدبروه كان اللفظ لهم دليلا على المعانى ، والمستدل باللفظ على المعنى الذي أراده المتكلم يمتنع أن يكون هو المعبر باللفظ عن المعنى ، فان المعبر باللفظ عن المعنى يعرف المعنى اولا ،

ثم يدل غيره عليه بالعبارة ، والناس فى القرآن على ضد هـذه الحال ؛ فيمتنع أن يكونوا هم المعبرين به .

« الرابع » ان كل واحد منهم يعلم أنه تعلم القرآن العربى من غيره ، وأنه ليس له فيه الا الحفظ ، والتبليغ ، والأداء ؛ بل يعلم أنه إذا حفظ خطب الخطباء ، وشعر الشعراء ، لم يكن هو المعبر عما في أنفسهم بذلك الكلام ؛ بل يكون الكلام كلامهم ، وهو قد حفظه ، واداه ، وبلغه . فكيف بكلام رب العالمين ؟!

« الخامس » ان كل واحد يعلم بالاضطرار ان نفس القرآن العربى كان موجوداً قبل وجود كل القراء ، وان الناس إنما تلقوه عن محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

و « بالجملة » فالدلالة على فساد هذا القول اكثر من أن تحصر .

وان قلت : بل الحروف والاصوات المعبر بها عن المعانى التى أرادها الله من حروف وأصوات كانت موجودة قبل وجود القراء : ولكن كل من القراء حفظ ذلك النظم العربي ، الذي كان موجوداً قبله قيل لك . فحينئذ قد كان ثم حروف وأصوات غير هـذه الأصوات المسموعة من القراء ، وغير المداد المكتوب فى المصاحف ، وهذا هو

الحق الذي اتفق عليه جميع الخلق .

فقول القائل : إنه ما ثم إلا المعنى القائم بالذات ، أو هذه الحروف والأصوات ليس بحق . ويقال له حينئذ : فتلك الحروف والأصوات أهي من كلام الله الذي تكلم به ؟ أم هي مخلوقة خلقها في غـيره ؟ فان قلت : هي من كلام الله تعالى لزمك ما فررت منه ، حيث أقررت أن لله كلاماً هو حروف وأصوات ، كما يقوله جمهور المسلمين . وان قلت : ليست كلاماً لله فهذه أولى من أن تكون كلاماً لله . وحينئذ فلا يكون هذا القرآن كلام الله ، وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة من دين الاسلام .

وأما قوله : من قال لفظي عين كلام الله : فقد إنسلخ عن ربقـة العقل ، وغرق فى بحر العماية والجهل. فيقال : قول القائـل : [لفظي] « عين كلام الله » كلام مجمل . فان « اللفظ » فى الاصـل مصدر لفظ يلفظ لفظاً ، كما أن « التلاوة ، والقراءة » فى الأصل مصدر تلا يتلو ، وقرأ يقرأ ، ويعبر باللفظ والتلاوة ، والقراءة عن نفس الكلام الملفوظ به ، المتلو المقروء .

فان الناس إذا قالوا : اللفظ يدل على المعنى . لم يريـدوا باللفظ المصدر ؛ بل يريدون به الملفوظ بـه . وإذا قالوا لمن سمعوه يتكلـم : هذه ألفاظ حسنة ، ارادوا به ما يلفظه ، كما قال تعالى : (ما يلفظ من

قول إلا لديه رقيب عتيد) يراد باللفظ نفس الفعل ، وقد يراد به نفس القول الذي لفظه اللافظ . وهذا ك « القرآن » قد يراد به المصدر ، وقد يراد به الكلام المقروء . وقال تعالى : (ان علينا جمعه وقرآنه . فاذا قراناه فاتبع قرآنه) والقرآن هنا مصدر ، كما فى الآية عن ابن عباس ، قال : علينا ان نجمعه فى صدرك ، ثم ان تقرأه بلسانك . فاذا قرأه جبريل فاستمع لقراءته . ثم ان علينا ان نبينه .

وقد يراد بـ « القرآن » نفس الكلام المقروء ، كما قال : (واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا) وقوله : (إن هذا القرآن يهدي للتى هي أقوم) وقال تعالي : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) وقال تعالى : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) ونظائره كثيرة .

وإذا كان كذلك : فقول القائل لفظي : هو عين كلام الله . إن أراد به المصدر فقد اخطأ ، فان نفس حركاته ليست هي كلام الله ، وهذا لا يقوله أحد يفهم ما يقول .

وان اراد « الثاني » : كان المعنى ان هذا القرآن الذي أتلوه هو عين كلام الله ، وهذا هو الذى يقصده الناس ، إذا قالوا : الذي يقرأ

القرآء عين كلام الله ، وهـذا الذى نسمعه من القراء عـين كلام الله ، وهذا الذي يقرأ فى الصلاة عـين كلام الله ، لا يقصد أحـد ان يجعل حركات العباد نفس كلامه .

ثم إذا قال القائل هذا فقد وافق قول الله تعالى : (وان أحـد من المشركـين استجارك فأجـره حتى يسمع كلام الله) بل قـد علم بالاضطرار من دين الاسلام : ان هذا الذي يقرأه المسلمون ، ويكتبونه فى مصاحفهم هو كلام الله لا كلام غيره . تارة يسمع منه كما سمعه موسى ابن عمران ، وتارة يسمع من المتلقين عنه كما سمعه الصحابة من الرسول ، فهذا الذي نسمعه هو كلام الله ، متلقى عنه مسموعا من المبـلغ عنه . قال تعالى : (وأوحى الي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) وقال تعالى : (يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك ، وان لم تفعل فما بلغت رسالته) وقال تعالى : (ليعلم ان قـد ابلغوا رسالات ربهم) . والناس يعلمون أن الـكلام كلام من قاله آمراً بامره ، مخبراً بخبره ، مبتدئاً به ، لا كلام من بلغه عن غيره وأداه .

فالناس يقرؤون القرآن ، وليس هو كلامهم ؛ ولكنه كلام يقرؤونه بافعالهم واصواتهم . وإذا كان كلام النبي صلى الله عليـه وسـلم وكلام غيره اذا رواه الناس عنـه ، وبلغوه وقرؤوه ، فهو كلام النبي صـلى الله عليـه وسلم ، وغيره من المتكلمين بذلك الـكلام ، والنبي صـلى

الله عليه وسلم تكلم بلفظه ، ونظمه . ومعناه ، وتكلم به بحروف وأصوات ، مع ان اصوات الرواة ليست صوت النبي صلى الله عليه وسلم .

فالقرآن إذا قرأه الناس وبلغوه باصواتهم وأفعالهم : كان أولى بان يكون كلام الله ، وان كانوا لم يسمعوه من الله ؛ بل من الخلق .

ومما ينبغي ان يعلم : ان قول الله ورسوله والمؤمنين ان هذا كلام الله ؛ بل قول الناس لما بلغ من كلام المخلوقين ان هذا كلام فلان حق ، كما اتفق على ذلك الناس ؛ لكن عرضت شبهة لكثير من المتنطعين ، فلم يفرقوا بين ما إذا سمع كلام المتكلم به . وبين ما إذا سمع من غيره ، فظنوا أنه إذا قال : (فأجره حتى يسمع كلام الله) كان بمنزلة سماع موسى كلام الله .

فقالت « طائفة » المسموع اصوات العباد ؛ وكلام الله ليس هو أصوات العباد ، فلا يكون المسموع كلام الله .

وقالت « طائفة » بل هذا كلام الله ، وهذا مخلوق ؛ فكلام الله مخلوق .

وقالت « طائفة » : بل هذا كلام الله ، وكلام الله غير مخلوق ، فهذا غير مخلوق .

وهذا إذا أطلقوه « مجملاً » فهو حق ؛ لكن قال بعضهم : هـذا لفظي أو تلاوتي أو صوتي ؛ فلفظي أو تلاوتي أو صوتي غير مخلوق ؛ فضلوا كما ضل غيرهم ؛ ولو اهتدوا لعلموا أنا إذا قلنا : هذا كلام الله فلم نشر اليه بما امتاز قارىء عن قارىء ، إذا كان من المعلوم انه ما يسمع من كل قارىء فهو كلام الله ، مع العلم بأن صوت هذا القارىء ليس هو صوت هذا القارىء فقد اتحد من جهة كونه كلام الله . واختلف من جهة أصوات القراء . وهو كلام الله باعتبار الحقيقة المتحدة ، لا باعتبار ما اختلف فيه أحوال القراء .

وهذا لأن الكلام انما يقصد به لفظه ومعناه ، ولفظه هو الحروف المقروءة المنظومة . وان كانت الحروف أصواتاً مقطعة ، أو هي أطراف الأصوات المقطعة ، فهي من الكلام باعتبار صورتها الخاصة من التقطيع والتأليف ، لا باعتبار المادة الصوتية التى يشترك فيها جميع الصائتين ؛ ولهذا ما كان فى الكلام من بلاغة وبيان ، وحسن تأليف ونظم ، وكمال معان وغير ذلك ، فهو للمتكلم بلفظه ومعناه ، ليس هو لمجرد صفات الذي بلغه وأداه .

وأما قول القائل : من قال ان مذهب جهم بن صفوان هو مذهب الأشعري أو قريب أو سواء معه فهو جاهل بمذهب الفريقين ؛ إذ الجهمية

قائلون بخلق القرآن ، وبخلق جميع [1]

والاشعري يقول بقدم القرآن ، وإن كلام الانسان مخلوق للرحمن فوضح للبيب كل من المذاهب الثلاثة .

فيقـــال : لا ريب أن قول ابن كلاب والأشعري ، ونحوهما من المثبتة للصفات ليس هو قول الجهمية ، بل ولا المعتزلة ، بل هؤلاء لهم مصنفات فى الرد على الجهمية والمعتزلة ، وبيان تضليل من نفاهـا ، بل هم تارة يكفرون الجهمية والمعتزلة ، وتارة يضللونهم . لا سيما والجهم هو اعظم الناس نفيا للصفات ، بل وللأسماء الحسنى . قوله من جنس قول الباطنية القرامطة ، حتى ذكروا عنه أنه لا يسمى الله شيئاً ، ولا غير ذلك من الاسماء التى يسمى بها المخلوق ؛ لأن ذلك بزعمه من التشبيه الممتنع . وهذا قول القرامطة الباطنية .

وحكى عنه انه لا يسميه الا « قادراً فاعلا » ؛ لأن العبد عنـــده ليس بقادر ولافاعل ، إذ كان هو رأس الجبرة . وقوله فى الايمان شر من قول المرجئة ، فانه لا يجعل الايمـــان إلا مجرد تصديق القلب . و « ابن كلاب » إمام الاشعرية اكثر مخالفة لجهم ، وأقرب إلى السلف

---

(١) بياض بالاصل .

من الأشعري نفسه ، والأشعري اقرب الى السلف من القاضي أبي بكر الباقلاني . والقاضي ابو بكر وامثاله اقرب إلى السلف من أبى المعالى واتباعه ، فان هؤلاء نفوا الصفات : كالاستواء ، والوجه ، واليدين .

ثم اختلفوا هل تتأول او تفوض ؟ على قولين أو طريقين ، فأول قولي أبى المعالي هو تأويلها ، كما ذكر ذلك في « الارشاد » وآخر قوليه تحريم التأويل ذكر ذلك في « الرسالة النظامية » واستدل باجماع السلف على ان التأويل ليس بسائغ ولا واجب .

وأما « الأشعري » نفسه وأئمة أصحابه فلم يختلف قولهم فى إثبات الصفات الخبرية ، وفى الرد على من يتأولها ، كمن يقول : استوى بمعنى استولى . وهذا مذكور فى كتبه كلها ، كا « لموجز الكبير » و « المقالات الصغيرة ، والكبيرة » و « الابانة » وغير ذلك . وهكذا نقل سائر الناس عنه ، حتى المتأخرون ، كالرازي والآمدي ينقلون عنه إثبات الصفات الخبرية ، ولا يحكون عنه فى ذلك قولين .

فمن قال : ان « الأشعري » كان ينفيها ، وان له فى تأويلها قولين : فقد افترى عليه ؛ ولكن هذا فعل طائفة من متأخري أصحابه ، كأبي المعالي ونحوه ؛ فان هؤلاء ادخلوا فى مذهبه أشياء من أصول المعتزلة .

و « الأشعري » ابتلى بطائفتين : طائفة تبغضه ، وطائفة تحبه ، كل منها يكذب عليه ويقول : إنما صنف هذه الكتب تقية ، واظهارا لموافقة أهل الحديث والسنة ، من الحنبلية وغيرهم . وهذا كذب على الرجل ، فانه لم يوجد له قول باطن يخالف الأقوال التى أظهرها ، ولا نقل أحد من خواص أصحابه ، ولا غيرهم عنه ما يناقض هذه الأقوال الموجودة فى مصنفاته ؛ فدعوى المدعي أنه كان يبطن خلاف ما يظهر دعوى مردودة شرعا وعقلا ؛ بل من تدبر كلامه فى هذا الباب — فى مواضع — تبين له قطعا أنه كان ينصر ما أظهره ؛ ولكن الذين يحبونه ويخالفونه فى اثبات الصفات الخبرية يقصدون نفى ذلك عنه ، لئلا يقال : إنهم خالفوه ، مع كون ما ذهبوا إليه من السنة ، قد اقتدوا فيه بحجته التى على ذكرها يعولون ، وعليها يعتمدون .

و « الفريق الآخر » : دفعوا عنه لكونهم رأوا المنتسبين إليه لا يظهرون إلا خلاف هذا القول ، ولكونهم اتهموه بالتقية ، وليس كذلك ، بل هو انتصر للمسائل المشهورة عند أهل السنة ، التى خالفهم فيها المعتزلة ؛ كمسألة « الرؤية » و « الكلام » واثبات « الصفات » ونحو ذلك ؛ لكن كانت خبرته بالكلام خبرة مفصلة ، وخبرته بالسنة خبرة مجملة ؛ فلذلك وافق المعتزلة فى بعض أصولهم التى التزموا لأجلها خلاف السنة ، واعتقد انه يمكنه الجمع بين تلك الأصول ، وبين الانتصار

للسنة ، كما فعل فى مسألة الرؤية والكلام ، والصفات الخبرية وغير ذلك .

والمخالفون له من اهل السنة والحديث ، ومن المعتزلة والفلاسفة يقولون : إنه متناقض ، وإن ما وافق فيه المعتزلة يناقض ما وافق فيه أهل السنة ، كما ان المعتزلة يتناقضون فيما نصروا فيه دين الاسلام ، فانهم بنوا كثيراً من الحجج على اصول تناقض كثيراً من دين الاسلام ؛ بل جمهور المخالفين للاشعري من المثبتة والنفاة يقولون : إنما قاله فى مسألة الرؤية ، والكلام : معلوم الفساد بضرورة العقل .

ولهذا يقول اتباعه : إنه لم يوافقنا أحد من الطوائف على قولنا فى « مسألة الرؤية ، والكلام » ؛ فلما كان فى كلامه شوب من هذا وشوب من هذا : صار يقول من يقول ان فيه نوعا من التجهم . وأما من قال : إن قوله قول جهم فقد قال الباطل . ومن قال : إنه ليس فيه شيء من قول جهم فقد قال الباطل ، والله يحب الكلام بعلم وعدل ، واعطاء كل ذي حق حقه ، وتنزيل الناس منازلهم .

وقول جهم هو النفي المحض لصفات الله تعالى ، وهو حقيقة قول القرامطة الباطنية ، ومنحرفي المتفلسفة : كالفارابي وابن سينا . واما مقتصدة الفلاسفة كأبي البركات صاحب المعتبر ، وابن رشد الحفيد ــ ففي قولهم من الاثبات ما هو خير من قول جهم ؛ فان المشهور عنهم إثبات الأسماء

الحسنى . واثبات أحكام الصفات ، ففي الجملة قولهم خير من قول جهم ، وقول ضرار بن عمرو الكوفي خير من قولهم .

وأما ابن كلاب والقلانسي والأشعري فليسوا من هذا الباب ، بل هؤلاء معروفون بالصفاتية ، مشهورون بمذهب الاثبات ؛ لكن فى أقوالهم شيء من أصول الجهمية ، وما يقول الناس إنه يلزمهم بسببه التناقض ، وانهم جمعوا بين الضدين ، وإنهم قالوا ما لا يعقل ، ويجعلونهم مذبذبين لا الى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فهذا وجه من يجعل فى قولهم شيئا من أقوال الجهمية ، كما ان الأئمة ـ كأحمد وغيره ـ كانوا يقولون : افترقت الجهمية على « ثلاث فرق » : فرقة يقولون : القرآن مخلوق . وفرقة تقف ولا تقول مخلوق ولا غير مخلوق . وفرقة تقول : ألفاظنا بالقرآن مخلوقة .

ومن المعلوم انهم إنما أرادوا بذلك افتراقهم فى « مسألة القرآن » خاصة ، وإلا فكثير من هؤلاء يثبت الصفات والرؤية ، والاستواء على العرش . وجعلوه من الجهمية فى بعض المسائل : أي أنه وافق الجهمية فيها : ليتبين ضعف قوله ، لا أنه مثل الجهمية ولا ان حكمه حكمهم ؛ فان هذا لا يقوله من يعرف ما يقول .

ولهذا عامة كلام أحمد إنما هو يجهم اللفظية ، لا يكاد يطلق القول بتكفيرهم كما يطلقه بتكفير المخلوقية ، وقد نسب إلى هذا القول غير واحد من المعروفين بالسنة والحديث : كالحسين الكرابيسي ، ونعيم

ابن حماد الخزاعي ، والبويطي ، والحارث المحاسبي ، ومن الناس من نسب اليه البخاري .

والقول بان « اللفظ غير مخلوق » نسب إلى محمد بن يحيى الذهلي وأبي حاتم الرازي ؛ بل وبعض الناس ينسبه إلى ابي زرعة أيضاً ، ويقول إنه هو وابو حاتم هجرا البخاري لما هجره محمد بن يحيى الذهلي ، والقصة فى ذلك مشهورة .

وبعد موت « أحمد » وقع بين بعض أصحابه وبعضهم ، وبين طوائف من غيرهم بهذا السبب ، وكان أهل الثغر مع محمد بن داود ، والمصيصي شيخ أبي داود ، يقولون بهذا . فلما ولى صالح بن أحمد قضاء الثغر : طلب منه أبو بكر المروذي ان يظهر لأهل الثغر « مسألة ابى طالب » فانه قد شهدها صالح وعبد الله ابنا احمد ، والمروذى ، وفوران ، وغيرهم . وصنف المروذي كتاباً فى الأنكار على من قال : إن لفظي بالقرآن غير مخلوق ، وارسل فى ذلك إلى العلماء بمكة والمدينة ، والكوفة والبصرة ، وخراسان وغيرهم ؛ فوافقوه . وقد ذكر ذلك ابو بكر الخلال فى « كتاب السنة » وبسط القول فى ذلك .

ومع هذا فطوائف من المنتسبين إلى السنة ، وإلى اتباع أحمد ، كأبى عبد الله بن منده ، وأبى نصر السجزي ، وابى اسماعيل الانصاري

وابن العلاء الهمداني وغيرهم يقولون : لفظنا بالقرآن غير مخلوق . ويقولون : إن هذا قول أحمد . ويكذّبون - او منهم مـن يكذب - برواية أبي طالب ، ويقولون : انها مفتعلة عليه ، او يقولون رجع عن ذلك ، كما ذكر ذلك ابو نصر السجزى ، فى كتابه « الابانة »المشهور .

وليس الامر كما قاله هؤلاء ؛ فان اعلم الناس باحمد وأخص النـاس وأصدق الناس فى النقل عنه هم الذين رووا ذلك عنه ؛ ولـكن أهـل خراسان لم يكن لهم من العلم بأقوال أحمد ما لأهل العراق ، الذين هم اخص به . وأعظم ما وقعت فتنة « اللفظ » بخراسان ، وتُعُصِّب فيها على البخارى - مع جلالته وامامته - وان كان الذين قاموا عليه أيضاً أئمة اجلاء ، فالبخاري - رضي الله عنه - من أجل الناس .

وإذا حسن قصدهم ، واجتهد هو وهم ، اثابه الله وإياهم على حسن القصد والاجتهاد . وان كان قد وقع منه او منهم بعض الغلط والخطـأ فالله يغفر لهـم كلهم ؛ لـكن من الجهـال من لا يدري كيف وقعت الأمور ، حتى رأيت بخط بعض الشيوخ الذين لهم علم ودين ، يقول : مات البخاري بقرية خرتنك ، فارسل أحمد إلى أهل القرية يأمرهم أن [لا] يصلوا عليه لأجل قوله فى « مسألة اللفظ » وهـذا من أبـين الـكذب على أحمد والبخاري ، وكاذبه جاهل بحالهما . فان البخـاري - رضي الله عنه - توفى سنة ست وخمسين ؛ بعد موت احمد بخمسة عشر

سنة ، فان أحمد توفى سنة احدى وأربعين ، وكان احمد مكرما للبخاري معظما . وأما تعظيم البخاري وأمثاله لأحمد فهذا أظهر من أن يذكر .

والبخاري ذكر فى كتابه فى « خلق الأفعال » ان كلتا الطائفتين لا تفهم كلام احمد . ومن الطائفة الأخرى المنتسبة إلى السنة ، واتباع احمد : ابو نعيم الاصبهانى ، وابو بكر البيهقي ، وغيرهما ممن يقول : إنهم متبعون لأحمد ، وانّ قولهم فى « مسألة اللفظ » موافق لقول أحمد . ووقع بين ابن منده وابى نعيم بسبب ذلك مشاجرة ، حتى صنف ابو نعيم كتابه في « الرد على الحروفية الحلولية » ، وصنف ابو عبد الله كتابه فى الرد على « اللفظية » .

والمنتصرون للسنة — من أهل الكلام والفقه : كالأشعري ، والقاضي ابى بكر بن الطيب ، والقاضي ابي يعلي وغيرهم — يوافقون أحمد على الانكار على الطائفتين ، على من يقول : لفظي بالقرآن مخلوق ، وعلى من يقول : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، ولكن يجعلون سبب الكراهة كونَ القرآن لا يلفظ ؛ لأن اللفظ الطرح والرمي .

ثم هؤلاء منهم من ينكر تكلم الله بالصوت ، ومنهم من يقر بذلك ؛ بل منهم من يقول ان الصوت المسموع هو الصوت القديم ، وينكرون مع ذلك على من يقول : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، لظنهم ان الكراهة

فى ذلك لما فيه من الطرح والرمي ، وليس الأمر على ما ظنوه . فان الامام أحمد وغيره من الأئمة لم ينكروا قول القائل : لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق لكون اللفظ الطرح ، فانه لو كان كذلك لما انكروا إلا مجرد ما يتصرف من حروف لفظ يلفظ ، وليس كذلك ؛ بل أنكروا على من قال التلاوة والقراءة مخلوقة ، وعلى من قال : تلاوتي وقراءتى غير مخلوقة . مع جواز قول المسلمين : قرأت القرآن وتلوته .

و « ايضاً » فانه يجوز أن يقال : لفظت الكلام وتلفظت به ، كما قال تعالى : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) ولكن الامام احمد وغيره من أئمة السنة قالوا : من قال : لفظي بالقرآن وتلاوتى أو قراءتى مخلوقة فهو جهمي . ومن قال : إنه غير مخلوق فهو مبتدع لأن « اللفظ » و « التلاوة » و « القرآءة » يراد به مصدر لفظ يلفظ لفظاً ، ومصدر قرأ يقرأ قراءة ، وتلا يتلو تلاوة ، ومسمى المصدر هو فعل العبد وحركاته ، ليس هو بقديم باتفاق سلف الأمة وأئمتها ، حتى القدرية القائلون بأن أفعال العباد غير مخلوقة . يقولون : ان ذلك ليس بقديم . ويقولون انه مخلوق لله .

والسلف والأئمة ــ كحماد بن زيد ، والمعتمر بن سليمان ، ويحيى ابن سعيد القطان ، واحمد بن حنبل وغيرهم ــ انكروا على من قال : إن

أقوال العباد وأفعالهم غير مخلوقة ، وقال يحيى بن سعيد : مازلت اسمع اصحابنا يقولون : ان افعال العباد مخلوقة . وقال بعض هؤلاء : من قال إن هـذا غير مخلوق فهو بمنزلة من قال : إن سمـاء الله وارضـه غير مخلوقة .

وقد يراد بالتلاوة والقرآءة واللفظ نفس القرآن ، الذي انزله الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي هـو كلام الله . ومـن قال ان كلام الله الذي أنزله على نبيه مخلوق فهو جهمي ؛ ولهـذا قال أحمـد وغيره من السلف : القرآن كلام الله حيث تصرف غير مخـلوق ، ولم يقل احد من السلف والأئمة ان اصوات العباد بالقرآن غير مخلوقة او قديمة ، ولا قال ايضاً أحد منهم : ان المداد الذي يكتب به القرآن قديم ، أو غير مخلوق . فمن قال ان شيئاً من اصوات العباد . او افعالهم او حركاتهم ، او مدادهم : قديم ، أو غير مخلوق فهو مبتدع ضال . مخالف لأجماع السلف والأئمة .

وقد بدع أحمد بن حنبل من هو أحسن حالا من هؤلاء ، وأمر بهجرهم ان لم يرجعوا عن بدعتهم .

و « مسألة القرآن » قد كثر فيهـا اضطراب الناس ، حتى قال بعضهم : مسألة الكلام حيرت عقول الأنام . وغالبهم يقصدون وجها من

الحق ، ويعزب عنهم وجه آخر ، وكلام الأئمة من أشد الكلام ، كأحمد ابن حنبل ومن قبله من أئمة المسلمين ، من الصحابة والتابعين لهم باحسان ، وسائر الأئمة الذين لهم فى الأمة لسان صدق : مثل سعيد ابن المسيب ، وعلى بن الحسين ، وعلقمة ، والأسود ، والحسن البصري ، وابن سيرين ، وغيرهم من التابعين . ومثل مالك ، والثوري ، والأوزاعى ، والليث بن سعد ، وحماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وأبى حنيفة ، وابن أبى ليلى ، وشريك ، وأمثالهم من تابعي التابعين ، ومثل الشافعي ، وأحمد بن حنبل ، واسحاق بن ابراهيم ، وأبى عبيد ، وأمثالهم من اتباع تابعي التابعين .

وهم أئمة أهل القرون الثلاثة ، الذين دخلوا في ثناء النبي صلى الله عليه وسلم ؛ حيث قال : « خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » .

ومن تدبر كلام أئمة المسلمين في هذا الباب وغيرهم وجده اشد الكلام المطابق لصريح المعقول ، وصحيح المنقول . وهذه الجملة لا تحتمل البسط هنا ، فقد بسطت فى غير هذا الموضع ، وبين ان « الكلام المذموم » الذي ذمه السلف هو الكلام الباطل ، المخالف لصحيح المنقول ، وصريح المعقول ؛ وان ما ثبت بالأدلة القطعية لا يتعارض ولا يتناقض أصلا ، فلا يتعارض دليلان يقينيان أصلا ، سواء كانا عقليين

أو سمعيين ، أو كان أحدهما عقلياً والآخر سمعيا ، ومن ظن أنهما يتعارضان كان ذلك خطأ منه ؛ لاعتقاده فى أحدهما أنه يقينيا ، ولا يكون كذلك ، ولا سيما إذا كانا جميعاً غير يقينيين .

واختلاف الناس فى هذا الباب وغيره كثير منه يكون « اختلاف تنوع » مثل ان يقصد هذا حقاً فيما يثبته ، والآخر يقصد حقاً فيما نقضه ، وكلاهما صادق . لكن يظنان أن بينهما نزاعاً معنوياً ، ولا يكون الأمر كذلك ، وكثير من النزاع يعود إلى اطلاقات لفظية ، لا الى معان عقلية ، وأحسن الناس طريقة من كان إطلاقه موافقاً للاطلاقات الشرعية ، والمعانى التى يقصدها معان صحيحة ، تطابق الشرع والعقل (١)

وأصل منشأ نزاع المسلمين فى هذا الباب : ان المتكلمين — من الجهمية ، والمعتزلة ، ومن اتبعهم — سلكوا فى إثبات حدوث العالم ، وإثبات الصانع طريقاً مبتدعة فى الشرع ، مضطربة في العقل ، وأوجبوها ، وزعموا أنه لا يمكن معرفة الصانع إلا بها ، وتلك الطريق فيها مقدمات مجملة ، لها نتائج مجملة ، فغلط كثير من سالكيها في مقصود الشارع ، ومقتضى العقل ، فلم يفهموا ما جاءت به النصوص النبوية ، ولم يحرروا ما اقتضته الدلائل العقلية ، وذلك أنهم قالوا : لا يمكن معرفة

(١) بياض بالاصل .

الصانع إلا باثبات حدوث العالم ، ولا يمكن اثبات حدوث العـالم إلا باثبات حدوث الأجسام .

قالوا : والطريق الى ذلك هو الاستدلال بحدوث الأعراض عـلى حدوث ما قامت به الأعراض ، فمنهم من استدل بالحركة والسكون فقط ومنهم من احتج بالأكوان التى هي عندهم الاجتماع والافتراق ، والحركة والسكون . ومنهم من احتج بالأعراض مطلقاً . ومبنى الدليـل على ان ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ؛ لامتناع حوادث لا أول لها .

فيقول لهم المعارضون — من أهل الملل وغيرهم ، القـائلون بأن السموات والأرض محدثة عن عدم ،والقائلون بأن الأفلاك قديمة أزلية — حدوث الحوادث بعد أن لم تكن أمر حادث . فلا بد له مـن سبب حادث ، والالزم ترجيح أحد طرفى الممكن بلا مرجح .

وقال لهم القائلون بحدوث الأفلاك ، من أهـل الملل وغيرهم : انتم أثبتم حدوث العالم بطريق ، وحدوث العالم لا يتم إلا مـع نقيض ما اثبتموه . فما جعلتموه دليلا على حدوث العالم لا يدل عـلى حدوثه ؛ بل ولا يستلزم حدوثه . والدليل لابد أن يـكون مستلزماً المدلول ؛ بحيث يلزم مـن تحقق الدليل تحقق المدلول ؛ بـل هو مناف لحدوث العالم مناقض له ، وهو يقتضى امتناع حدوث العالم ، بل امتناع حدوث

شيء من الأشياء . وهذا يقتضي بطلانه في نفسه ، وانه لو صح لم يدل إلا على نقيض المطلوب ، ونقيض ما يقوله كل عاقل .

فان كل عاقل يعلم حدوث الحوادث في الجملة ، سواء قيل بقدم الأفلاك أم لم يقل بذلك ؛ وذلك ان مبنى دليلكم على أن القادر يرجح أحد مقدوريه على الآخر بلا مرجح ، وان الارادة الأزلية ـــ التى نسبتها الى جميع المرادات على السواء ـــ رجحت مراداً على مراد بلا مرجح ، غير المرجح الذي نسبته الى جميع المرجحات نسبة واحدة لا يتفاضل .

ومن المعلوم أن القول بترجيح وجود الممكن على عدمه بلا مرجح ، أو ترجيح أحد المتماثلين على الآخر بلا سبب ، يقتضى ذلك باطل فى بديهة العقل . ولو قيل : إن ذلك صحيح لبطل الدليل الذي يستدل به على ثبوت الصانع ، وحدوث العالم ، فان مبنى الدليل على أن المحدث لا بد له من محدث ، وذلك يستلزم ان ترجيح الحدوث على العدم لابد له من مرجح ، ولا بد أن يكون المحدِث المرجِح قد حدث منه مايستلزم وجود المحدَث ، الذي جعله موجوداً ، واذا لم يلزم وجوده كان وجوده جائزاً ممكناً : فكان محتملا للوجود والعدم .

فترجيح الوجود على العدم لا بد له من مرجح محدث له ، فكل

ما امكن حدوثه ان لم يحصل له ما يستلزم حدوثه لم يحصل ، فما شاء الله كان لا محالة ووجب وجوده بمشيئة الله ، ومالم يشأ لم يكن ؛ بل يمتنع وجوده مع عدم مشيئة الله تعالى له ، فما شاء الله حدوثه كان لازم الحدوث، واجب الحدوث بمشيئة الله لا بنفسه ، ومالم يشأ حدوثه كان ممتنع الحدوث ، لازم العدم ، واجب العدم ؛ لأنه لم توجد مشيئة الله المستلزمة لحدوثه .

ثم ان الفلاسفة الدهرية القائلين بقدم العالم قالوا : ما ذكرتموه من الدليل لايدل على الحدوث : بل يقتضى عدم الحدوث ؛ لأن حدوث الحوادث بعد ان لم تكن عن ذات لم تزل معطلة من الفعل باطل ، فيكون العالم قديماً ، وعبروا عن ذلك بان جميع الأمور المعتبرة فى كونه فاعلا ان وجدت فى الأزل لزم وجود الفعل فى الأزل ، والا لزم تخلف المقتضَى عن المقتضِى التام .

وحينئذ فاذا وجدت بعد ذلك لزم الترجيح بلا مرجح ، وان لم توجد فى الأزل فوجودها بعد ذلك امر حادث ؛ فيقتضى أمرا حادثاً ، والا لزم الحدوث بلا محدث ، وحينئذ فيلزم تسلسل الحوادث ، فان القول فى هذا الحادث كالقول في غيره . وهذا مما تنكره المعتزلة وموافقوهم المتكلمون . قالوا : فأنتم بين امرين : اما اثبات التسلسل فى الحوادث ، واما اثبات الترجيح بلا مرجح ، وكلاهما ممتنع عندكم .

ثم زعم هؤلاء الفلاسفة ان العالم قديم بناء على هذه الحجة، ومن سلك سبيل السلف والأئمة اثبت ما أثبتته الرسل من حدوث العالم بالدليل العقلي ، الذي لايحتمل النقيض ، وبين خطأ المتكلمين من المعتزلة ونحوهم ، الذين خالفوا السلف والأئمة بابتداع بدعة مخالفة للشرع والعقل وبين أن ضلال الفلاسفة — القائلين بقدم العالم ، ومخالفتهم العقل، والشرع — أعظم من ضلال اولئك ، وبين أن الاستدلال على حدوث العالم لايحتاج الى الطريق التى سلكها أولئك المتكلمون ، بل يمكن اثبات حدوثه بطرق اخرى عقلية صحيحة ، لا يعارضها عقل صريح ، ولا نقل صحيح . وثبت بذلك ان ما سوى الله فانه محدث ، كائن بعد ان لم يكن ، سواء سمي جسما او عقلاً أو نفساً أو غير ذلك .

فان اولئك المتكلمين من المعتزلة واتباعهم ، لما لم يكن فى حجتهم الا اثبات حدوث اجسام العالم ، قالت الفلاسفة ومن وافقهم من المتأخرين — كالشهرستانى ، والرازي ، والآمدي وغيرهم — انكم لم تقيموا دليلا على نفي ما سوى الأجسام . وحينئذ فاثبات حدوث أجسام العالم لا يقتضي حدوث ما سوى الله ، ان لم تثبتوا ان كل ماسواه جسم ، وانتم لم تثبتوا ذلك ؛ ولهذا صار بعض المتأخرين — كالأرموي ومن وافقه من أهل مصر ، كأبى عبد الله القشيري — الى ان أجسام العالم محدثة . واما العقول والنفوس فتوقفوا عن حدوثها ، وقالوا بقدمها ،

وان كان حقيقة قولهم انه موجب بالذات لها ، وانه محدث للاجسام بسبب حـدوث بعض التصورات ، والارادات ، التى تحدث للنفوس ، فيصير ذلـك سبباً لحدوث الأجسام ، وهـذا القول كما أنه معلوم البطلان في الشرع : فهو أيضـاً معلوم البطلان فى العقـل ، كما سنبينه ان شاء الله تعـالى .

فنقـول : الدليل الدال على أن كل ما سوى الله محدث يتناول هـذا وهـذا .

و « أيضاً » فاذا كان موجبا بالذات كان اختصاص حدوث اجسام العالم بذلك الوقت دون ما قبله وما بعده يفتقر الى مخصص ، والموجب بذاته لا يصدر عنـه ما يختص بوقت دون وقت ؛ إذ لو جاز ذلك لم يكن موجبا بذاته ؛ ولجاز حدوث العالم عنه ، ولأن النفوس التى تثبتها الفلاسفة هي عند جمهورهم عرض قائم بجسم الفلك ؛ فيمتنع وجودهـا به بدون الفلك ، وعند ابن سينا وطائفة انها جوهر قائم بنفسه ،لكنها متعلقة بالجسم تعلق التدبير والتصريف . وحينئذ فلو وجدت ولا تعلق لها بالجسم لم تكن نفساً ؛ بل كانت عقلا ، فعلم أن وجود النفس مستلزم لوجود الجسم .

فاذا قال هؤلاء : ان النفس ازلية دون الأجسام كان هذا القول

باطلا بصريح العقل ، مع أنه لم يعرف به قائل من العقلاء قبل هؤلاء . وانما الجأ هؤلاء إلى هذا ظنهم صحة دليل المتكلمين على حدوث الاجسام، وصحة قول الفلاسفة بوجود موجود وممكن غير الاجسام ؛ واثبات الموجب بالذات ؛ فلما بنوا قولهم على الأصل الفاسد لهؤلاء ولهؤلاء : لزم هذا ، مع أنهم متناقضون فى الجمع بين هذين ؛ فان عمدة المتكلمين على ابطال حوادث لا أوّل لها .

وعمدة الفلاسفة على ان المؤثرية من لوازم الواجب بنفسه ، فاذا قالوا بقدم نفس لها تصورات وارادات لا تتناهى : لزم جواز حوادث لا تتناهى ؛ فبطل أصل قول المتكلمين الذي بنوا عليه حدوث الأجسام؛ فكان حينئذ موافقتهم المتكلمين بلا حجة عقلية ، فعلم انهم جمعوا بين المتناقضين .

وابو عبد الله ابن الخطيب وامثاله كانوا أفضل من هؤلاء ، وعرفوا انه لا يمكن الجمع بين هذا وهذا ، فلم يقولوا هذا القول المتناقض ، ولم يهتدوا الى مذهب السلف والأئمة ، وان كانوا يذكرون اصوله فى مواضع أخر ، ويثبتون ان جمهور العقلاء يلتزمونها ، فلو تفطنوا لما يقوم بذات الله من كلامه وافعاله المتعلقة بمشيئته وقدرته ودوام اتصافه بصفة الكمال ، خلصوا من هذه المحارات .

ونحن ننبه على بعض الطرق العقلية ، التى يعلم بها حدوث كل ما سوى الله تعالى . فنقول :

من «الطرق» التى يعلم بها حدوث كل ما سوى الله هي ان يقال : لو كان فيما سوى الله شيء قديم لكان صادرا عن علة تامة ، موجبة بذاتها ، مستلزمة لمعلولها ، سواء ثبت له مشيئة أو اختيار ، او لم يثبت ؛ فان القديم الأزلي الممكن الذي لا يوجد بنفسه لا يتصور وجوده ان لم يكن له فى الأزل مقتض تام يستلزم ثبوته .

وهذا كما انه معلوم بضرورة العقل فلا نزاع فيه بين العقلاء ، فلا يقول احد : ان القديم الأزلي صادر عن مؤثر لا يلزمه اثره ، فلا يقول : إنه صادر عن علة غير تامة مستلزمة لغير معلولها ، ولا يقول : إنه صادر عن موجب بذاته لا يقارنه موجبه ومقتضاه ، ولا يقول : إنه صادر عن فاعل بالاختيار يمكن ان يتأخر مفعوله ؛ فانه إذا أمكن تأخر مفعوله امكن ان يكون ذلك القديم الأزلي قديما أزلياً ، فيكون ثبوته في الازل ممكناً ، وليس فى الازل ما يستلزم ثبوته فى الأزل ، فيمتنع ثبوته فى الأزل ؛ فان ثبوت الممكن الأزلي بدون مقتض تام مستلزم له ممتنع بضرورة العقل ؛ اذ قد علم بصريح العقل ان شيئاً من الممكنات لا يكون حتى يحصل المقتضى التام ، المستلزم لثبوته .

ومن نازع في هـذا من المعتزلة وغيرهم ، وقال انـه لا ينتهي الى حد الوجوب : بل يكون العقل بالوجود اولى منه بالعدم ، فانه لم ينازع فى ان القادر المختار يمتنع ان يكون مقدوره المعين أزلياً ، مقارناً له ؛ بل هذا مما لم ينازع فيه لا هؤلاء ولا غيرهم .

فتبين انه لو كان شيء مما سوى الله أزليا للزم أن يكون له مؤثر تام ، مستلزم له في الازل ؛ سواء سمي علة تامة ، أو موجبا بالذات ، او قدر انـه فاعـل بالارادة ، وان مراده المعين يكون ازليا مقارناً له .

واذا كان كذلك فنقول : ثبوت علة تامة ازلية ممتنع ، فان العلة التامة الازلية تستلزم معلولها ، لا يتخلف عنها شيء من معلولها ؛ فانه ان تخلف عنها لم تكن علة تامة لمعلولها ؛ فيمتنع في الشيء الواحد ان يكون موجباً بذاته ، وان يتخلف عنه موجبه أو شيء من موجبه ؛ فان الموجب بالذات لشيء لابد ان يكون ذلك الموجب جميعه مقارنا لذاته ، والعلة التامة هي التى يقارنها معلولها . ولا يتأخر عنها شيء من معلولها ، فلو تأخر عنها شيء من معلولها لم تكن علة تامة لذلك المستأخر . والفلاسفة يسلمون ان ليس علة تامة فى الازل لجميع الحوادث التى تحدث شيئاً بعد شيء ، فان ذلك جمع بين النقيضين ؛ إذ يمتنع ان يكون علة تامة أزلية لامر حادث عنه غير أزلي .

وان شئت قلت : يمتنع أن يكون موجباً بذاتــه فى الأزل لأمر حادث ليس بأزلي ؛ سواء كان ايجابه بواسطة أو بغــير واسطة ، فان تلك الواسطة ان كانت أزلية كان اللازم لهــا أزلياً ، وان كانت حادثة كان القول فيها كالقول فى الحادث بتوسطها ، وهذا الذي سلموه معلوم أيضاً بصريح العقل ، فالمقدمة برهانية مسلمة ؛ لكن يقولون : إنه علـة تامة ؛ لما هو قديم كالأفلاك عندهم . وليس علة تامة للحوادث ، وهــذا أيضاً باطل .

وذلك ان كل ما يقــال : انه قديم كالأفلاك ، إما أن يجب ان يكون مقارناً للحوادث كما يقولون فى الفلك : انه يجب له لزوم الحركة ، وانه لم يزل متحركاً ، وأما أنه لا يجب أن يــكون مقارناً لشيء من الحوادث ، فان كان الأول لزم أن يكون عــلة تامة للحوادث ، وكونه علة تامة للحوادث محال ؛ لأن ما قارنته الحوادث ولم يخل منهــا بل هي لازمة له امتنع صدوره عن الموجب بدونهـــا ، ووجود الملزوم بدون اللازم محال ، وإذا كانت الحركة لازمــة للفلك ، كما يقولون : فوجود الفلك بدون الحركة محال ، فالموجب بذاته الذي هو علة تامة للفلك ، يجب أن يكون علة تامة موجبة للوازمه ، وعلة تامة فى الأزل بحركته ، لكن العلة التامة الأزلية لا يجوز أن تكون علة تامة أزليــة للحوادث ، لا الحركة ولا غيرها ، لأنه يجب وجود معلولها الذي هو موجبها ومقتضاها

فى الأزل ، وان لا يتأخر عنها شيء من موجبها ، ومقتضاها ، ومعلولها .

والحركة التى توجد شيئاً فشيئاً هي وغيرها من الحوادث التى تحدث شيئاً بعد شيء ليس واحد منها قديماً ؛ بل كل منها حادث مسبوق بآخر؛ فيمتنع أن يكون شيء منها معلولاً للعلة التامة الأزلية ؛ لامتناع أن يكون حادث من الحوادث قديماً ، ويمتنع وجود مجموع الحوادث فى الأزل ، ويمتنع وجود المستلزم للحوادث إلا مع حادث من الحوادث أو مع مجموع الحوادث ، وإذا كان كلاهما يمتنع أن يكون قديماً امتنع أن يكون شيء مما يستلزم الحوادث قديماً ، فامتنع أن يكون لشيء من الحوادث أو ما يستلزم الحوادث علة تامة قديمة ؛ فامتنع صدور الحوادث أو شيء منها ، أو من ملزوماتها عن علة تامة قديمة ؛ فامتنع أن يكون شيء لا يخلو عن الحوادث صادراً عن علة تامة أزلية ؛ فامتنع أن يكون الفلك المقارن للحوادث علة تامة أزلية قديمة . ولو كان قديماً لصدر عن علة تامة قديمة ، فاذا لم يكن قديماً إلا إذا كان المقتضى التام ثابتاً فى الأزل ، وثبوت المقتضى التام له ممتنع ، كما ان قدمه ممتنع .

واما ان قيل : ان القديم شيء غير مقارن للحوادث ، ولا مستلزم لها ، مثل أن يقال : القديم أعيان ساكنة ، هي المعلول الاول ، فيقال ذلك المعلول اما أن يجوز حدوث حال من الاحوال ، اما فيه ، أو عنه ، أو غير ذلك . وإما أن لا يجوز .

فان جاز حدوث حال من الأحوال له امتنع حدوث ذلك الحادث عن علة تامة أزلية ــ وهو الموجب بالذات كما تقدم ، وكما هو معلوم ومتفق عليه بين العقلاء ــ ولا بد من محدث ، والمحدث ان كان سوى الله فالقول فى حدوثه ان كان محدثاً ، او فى حدوث ذلك الاحداث له بعد ان لم يكن ، كالقول فى حدوث ذلك الحادث ، وان كان هو الله تعالى امتنع ان يكون موجباً بالذات له ؛ إذ القديم لا يكون موجباً بالذات لحادث ــ كما بين ــ فامتنع ثبوت العلة القديمة . وإذا لم يكن الصانع موجباً بالذات ــ فلا يكون علة تامة ــ امتنع قدم شيء من العالم ؛ لأنه لا يكون قديم إلا عن علة تامة ، وإن قيل إنه لا يجوز حدوث لما فرض قديماً معلولا للأول ؛ فهذا مع أنه لم يقل به أحد من العقلاء فهو باطل ؛ لوجوه :

« أحدها » ان واجب الوجود تحدث له النسب والاضافات باتفاق العقلاء ؛ فحدوث ذلك لغيره أولى .

« الثانى » ان الحوادث مشهودة فى العالم العلوي والسفلي ، وهذه الحوادث صادرة عن الله : اما بوسط او بغير وسط ، فاذا كانت بوسط فتلك الوسائط حدثت عنها أمور بعد ان لم تكن ؛ فلزم حدوث الاحوال للقديم ، سواء كان هو الصانع او كان هو الوسائط للصانع .

وإن قيل : القديم هو شيء ليس بواسطة فى شيء آخـر . قيل : لا بد أن يكون ذلك قابلا لحدوث الأحوال ، فانه يمكن حـدوث النسب والاضافات لله عز وجل بالضرورة واتفاق العقلاء ، فامكان ذلك لغيره اولى ، وإذا كان قابلا لها أمكن أن تحدث له الأحوال ، كما تحـدث لغيره من الممكنات ؛ فان الله لا يمتنع حدوث الحوادث عنه : إما بوسط واما بغير وسط ؛ فاذا كان ذلك قابلا ، وصدور مثل ذلك عن الصانع ممكن امكن حدوث الحوادث عنه او فيه بعد ان لم يكن .

وحينئذ فالقول فى حدوثها كالقول فى حدوث سائر ما يحدث عنه ، وذلك محال من العلة التامة المستلزمة لمعلومها ، فقد بين هذا البرهـان الباهر أن كون الأول علة تامة لشيء من العالم ــ محال ، لا فرق فى ذلك بين الفلك وغيره ؛ سواء قدر ذلك الغير جسما او غير جسم ، وسواء قدر مستلزما للحوادث فيه او عنه ــ كما يقوله الفـلاسفة الدهـرية : كالفارابى ، وابن سينا وامثالها ، وسلفهما من اليونان . فانهم يقولون : الفلك مستلزم للحوادث القديمة ، والعقول والنفوس مستلزمة للحوادث التى تحدث عنها ، فـكل منها مقارن للحوادث ، لا يجوز تقدمه عليهـا مع كون ذلك جميعه معلولا للموجب بذاته ، فاذا تبين ان الموجب بذاته يمتنع ان يصدر عنه في الأزل حادث ، أو مستلزم لحادث ، بطل كون صانع العالم علة تامة فى الأزل ، ومتى بطل كونه علة تامة في الازل ، امتنع أن يكون فيما سواه شيء قديم بعينه ، فهذا بيان أن كل ما سوى الله محدث كائن بعد أن لم يكن ، سواء قيل

بجواز دوام الحوادث ، أو قيل بامتناع ذلك .

فانه ان قيل بامتناع دوام الحوادث لزم حدوث كل ما لا يخلو عن الحوادث ، وان قيل بجواز دوام الحوادث فكل منها حادث بعد ان لم يكن مسبوقا بالعدم ، وكل من العالم مستلزم لحادث بعد ان لم يكن مسبوقاً بالعدم ، وكل من العالم وكل ما كان مصنوعا وهو مستلزم للحوادث امتنع ان يكون صانعه علة تامة قديمة موجبة له : فاذا امتنع ذلك امتنع ان يكون قديماً فامتنع ان يكون من العالم ما هو قديم بعينه .

وأما كون الرب لم يزل متكلما إذا شاء ، أو لم يزل فاعلا تقوم به الأفعال بمشيئته ونحو ذلك ــ فهذا هو الذي قاله السلف والأئمة ؛ فتبين ان الذي قاله السلف والأئمة هو الحق المطابق المنقول والمعقول .

وأما كون قول الفلاسفة أبطل من قول المعتزلة ، فانه يقال لهم: أولئك جوزوا حدوث الحوادث عن ذات لم تزل غير فاعلة ، ولا يقوم بها حادث ولا يصدر عنها حادث ، وأنتم قلتم الحوادث الدائمة المختلفة تصدر عن هذه الذات ، وزدتم فى نفي الصفات عنها ، فجعلتموها وجوداً مطلقاً بشرط الاطلاق او ما يشبه ذلك ، فقولكم فى نفي الصفات عنها أعظم من قول المعتزلة .

وقلتم: هو موجب بذاته علة تامة أزلية يقارنها المعلول الآزلي ، فلا يتأخر عنها . ومعلوم ان صــدور الحوادث المختلفة عن العلة التامــة البسيطة الأزلية ، التى لا يتخلف عنها مقتضاها ومعلولها اشد امتناعا من صدور الحوادث عن قادر مختار بعد ان لم تكن صادرة عنه ، فان كان حدوث الحوادث عن القديم الذي لم يقم به حادث ممتنعا فقولكم أشـد امتناعاً ، وان كان ممكناً فقول المعتزلة أقرب ؛ فان قولهم : ان اقتضى ان لا يكون للحوادث سبب حادث ، فقولكم يقتضي ان لا يكون للحوادث محدث اصلا ، والحوادث مشهودة ، والمحدث لا بد ان يكون موجوداً عند وجودها ، ولا بــد ان يكون كلما يعتبر فى الاحداث موجوداً عنــد الاحداث . وذلك يمتنع صدوره عن علة تامة .

فتبين ان المقدمات التى احتج بها الفلاسفة على المعتزلة واتباعهم على قدم العالم يحتج بها بعينها على حدوث العالم ؛ فان مبنى دليلهم على ان العلة التامة الازلية تستلزم معلولها ، وان البارى ان لم يكن علة تامة ازلية لزم الحدوث بلا سبب ، وان كان علة تامة أزلية لزم مقارنة معلوله ؛ فيلزم قدم العالم .

اما كونه علة تامة فممتنع ؛ لأن العلة التامة الأزلية يقارنها معلولها كله ، لايتأخر عنهــا شيء من معلولها ، والعالم لا ينفك من حوادث مقارنة له بالضرورة ، واتفاق جماهير العقلاء ، وما كان مستلزما للحوادث امتنع كونه معلول العلة التامة الأزلية ؛ لامتنــاع كون الحوادث حادثة

عن علة تامة ازلية ، فانه ما من حادث الا وهو مسبوق بالعدم ، فليس هو علة تامة لشيء منها ، وما من زمن يقدر إلا وفيه حادث ، فليس هو في شيء من الأوقات علة تامة ، لا فى الماضي ولا المستقبل ؛ فامتنع ان يكون علة تامـــة وهو المطلوب ؛ فيلزم من ذلك كون كل ما سواه محدثا . سواء قيل بتسلسل الحادثة او لم يقل .

وأما قولهم : ان لم يكن علة تامة ازلية ، لزم الحدوث بلا سبب . فيقال لهم : هـــذا إنما يلزم إذا لم يكن متكلما إذا شـاء ـــ تقوم به الافعال الاختيارية بقدرته تعالى ـــ والا فعلى هذا التقدير لم يزل ولا يزال قادراً على الفعل متكلما إذا شاء ، وحينئذ فما حصل بمشيئته وقدرته من اقواله وأفعاله يكون هو السبب لما بعده .

وان قالوا : هذا يستلزم قيام الحوادث به ، قيل لهم اولاً : قيام الحوادث بالقديم جائز عندكم ، ومن انكر ذلك من اهـــل الـكلام فانما انكره لاعتقاده ان ما قامت به الحوادث فهو حادث ، فان كان هـــذا الاعتقاد صحيحا بطل قولـكم بقدم الافلاك ، وان كان باطلا بطلت حجة من قال : ان القديم لا تقوم به الحوادث ؛ فلا يمكنكم على التقديرين ان تقولوا انه لا تقوم به الحوادث ؛ لكن انتم نفيتم ذلك بنـاء على نفي الصفات ، وقولـكم فى نفي الصفات فى غاية الفساد ، ودليـكم عليه قـد بين فساده فى غـير هذا الموضع ، وبين بطلان ما ذكرتموه .

و « بالجملة » فاذا كان القول بحدوث العالم مستلزما لاثبات الصفات وقيام الافعال بالله ، كان ماذكرناه من دليل حدوثه دليلا على ان العالم محدث ، وأن محدثه موصوف بالصفات القائمة به ، فاعل الافعال الاختيارية القائمة به ، كما دلت على ذلك النصوص الالهية المتواترة عن الانبياء من القرآن والتوراة ، والانجيل . وذلك ما بين موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح ، والقضايا العقلية التى هي اصول فطر العقلاء ، ومنتهى عقلهم توافق ذلك ، واعتبر ذلك بما ذكره ابو عبد الله بن الخطيب الرازي ، فى كتابه « الاربعين » فى ضبط المقدمات التى يمكن الرجوع اليها فى إثبات المطالب العقلية .

قال : واعلم ان ههنا « مقدمتين » يفرع المتكلمون والفلاسفة اكثر مباحثهم عليهما .

« المقدمة الاولى » مقدمة الكمال والنقصان ، كقولهم هذه الصفة من صفات الكمال فيجب اثباتها لله ، وهذه الصفة من صفات النقصان فيجب نفيها عن الله ، واكثر مذاهب المتكلمين مفرعة على هذه المقدمة .

الى ان قال :

« اما المقدمة الثانية » وهي مقدمة الوجوب ؛ والامكان ، وهذه

المقدمـة فى غاية الشرف والعلو ، وهي غاية عقول العقـلاء . قالوا : الوجود اما واجب واما ممكن ، والممكن لابد له من واجب ، وكذلك الواجب لابد ان يكون واجباً فى ذاته وصفاته ؛ إذ لو كان ممكناً لافتقر إلى مؤثر آخر .

« أما المقدمة الاولى » وهي انه واجب لذاته : فهذا له لازمان : الاول ان يكون منزهاً عن الكثرة فى حقيقته ، ثم يلزم في ذاته امور :

« احدها » ان لا يكون متحيزاً ؛ لان كل متحيز منقسم ، والمنقسم لا يكون فرداً ، وإذا لم يكن متحيزاً لم يكن فى جهة .

و « ثانيها » ان لا يكون واجب الوجود اكثر من واحد ، ولو كان اكثر من واحد لاشتركا فى الوجوب ، وتباينـا في التعيين ، وما به الاشتراك غير ما به الامتياز ؛ فيلزم كون كل واحد منهما مركباً في نفسه ، وقد فرضناه فرداً هذا خالف اللازم الثانى ؛ لكونه واجب الوجود لذاته ان لا يكون حالا ولا محلا ، والافعال الافتقار هي .

قلت : ولقائل ان يقول : هذا هو اصل الفلاسفة فى التوحيد ، الذي نفوا به صفاته تعالى ، وهو ضعيف جداً .

والاصل الذي بنوا عليه ذلك ضعيف جداً ، وان كان اشتبه على كثير من المتأخرين :

وقولهم : ان الواجب لا يكون إلا واحداً . قصدوا به انه ليس له علم ولا قدرة ، ولا حياة ولا كلام يقوم به ، ولا شيء من الصفات القائمة به ؛ لأنه لو كان كذلك لكان الواجب اكثر من واحد ، كما يقوله المعتزلة انه ليس له صفات قديمة قائمة بذاته ؛ لأنه لو كان كذلك لكان القديم اكثر من واحد .

ولفظ « الواجب ، والقديم » يراد به الاله الخالق سبحانه ، الواجب الوجود القديم فهذا ليس الا واحدا ، ويراد به صفاته الأزلية، وهي قديمة واجبة بتقدم الموصوف ، ووجوبه لم يجب أن تكون مماثلة له ، ولا تكون الهاً ، كما أن صفة النبي ليست بنبي ، وصفة الانسان والحيوان ليست بانسان ولا حيوان ، وكما ان صفة المحدث ان كانت محدثة فموافقتها له في الحدوث لا يقتضي مماثلتها له ، وما ذكروا من الحجة على ذلك ضعيفة .

فاذا قالوا : لو كان له علم واجب بوجوب العالم لكان الواجب اكثر من واحد . قيل له : ولم قلتم بامتناع كون الواجب اكثر من واحد ؛ اذ كانت الذات الواجبة إلهاً واحداً ، موصوفا بصفات الكمال .

قولهم : لو كان اكثر من واحد لاشتركا فى الوجوب ، وتباينا فى التعيين ، ومابه الاشتراك غير مابه الامتياز ؛ فيلزم ان يكون كل منهما مركباً فى نفسه ؛ وقد فرضناه ؛ فرد هذا خلق .

يقال له فى جوابه قول القائل اشتركا فى الوجوب ، وتباينا فى التعيين ، تريد به ان الوجوب الذي يختص كلا منهما شاركه الآخر فيه ام تريد انهما اشتركا فى الوجوب المطلق الكلي .

والاول باطل لا يريده عاقل . وأما الثانى فيقال : اشتراكهما فى المطلق الكلي ، كاشتراكهما في التعيين المطلق الكلي . فان هذا له تعين يخصه ، والتعينان يشتركان فى مطلق التعيين . وكذلك هذا له حقيقة تخصه ، وهذا له حقيقة تخصه ، وهما يشتركان فى مطلق الحقيقة وكذلك لهذا ذات تخصه ، ولهذا ذات تخصه ، وهما يشتركان فى مطلق الذات . وكذلك سائر الاسماء التى تعم بالاطلاق ، وتخص بالتقييد ، كاسم الموجود والنفس ، والماهية وغير ذلك .

وإذا كان كذلك فمعلوم انهما اشتركا فى الوجوب المطلق ، وامتاز كل منهما بوجوبه بتعيين يخصه . وحينئذ : فلا فرق بين الوجوب والتعيين .

فقول القائل : اشتركا فى الوجوب المطلق ، وتباينا بالتعيين الخاص .

كقول القائل اشتركا في التعيين المطلق ، وتباينا بالوجوب الخاص .
ومعلوم ان مثل هذا لا مندوحة عنه ، سواء سمي تركيباً او لم يسم ،
فلا يمكن موجود يخلو عن مثل هذه المشاركة والمباينة ، لا واجب
ولا غيره ، وما كان من لوازم الوجود كان نفيه عن الوجود
الواجب ممتنعاً .

و « أيضاً » فالمشترك المطلق الكلي لا يكون كلياً مشتركا الا فى
الأذهان لا في الأعيان ، وإذا كان كذلك فليس في أحدهما شيء يشاركه
الأخر فيه في الخارج ؛ بل كل ما اتصف به أحدهما لم يتصف الاخر
بعينه ، ولم يشاركه فيه ؛ بل لا يشابهه فيه ، أو يماثله فيه . وإذا كان
الاشتراك ليس الا في ما في الأذهان لم يكن أحدهما مركباً في مشترك
ومميز ؛ بل يكون كل منهما موصوفاً بصفة تخصه ، لا يشابهه الاخر
فيها ، وبصفة يشابهه الاخر فيها ، وهذا لا محذور فيه .

وأيضاً فيقال : هذا منقوض بالوجود ، فان الوجود الواجب
والممكن يشتركان في مسمى الوجود ، ويباين احدهما الاخر بخصوصه ؛
فيلزم تركيب الوجود الواجب مما به الاشتراك ، ومما به الامتياز ؛ فما
كان الجواب عن هذا كان الجواب عن ذلك .

و « أيضاً » فيقال : هب انكم سميتم هذا تركيباً . فلم قلتم ان

هذا ممتنع على موجود من الموجودات ، واجباً كان أو ممكناً ؟ مع ان المنازع يقول هـذا المعنى الذي نفيتموه ، وسميتموه تركيباً ، هو لازم لـكل موجود .

قولهم : وقد فرضناه فردا . قيل : هب انـكم فرضتموه كذلك ؛ لكن مجرد فرضكم لا يقتضى ان يكون فرداً بالمعنى الذي ادعيتموه ان لم يقم على ذلك [دليل] .

وسئل قدس الله روحه

عن بيان ما يجب على الانسان أن يعتقده ، ويصير به مسلماً ؛ بأوضح عبارة وأبينها ، من أن ما في المصاحف هل هو كلام الله القديم ؟ أم هو عبارة عنه لا نفسه ، وأنه حادث أو قديم ، وأن كلام الله حرف وصوت ؟ أم كلامه صفة قائمة به لا تفارقه ؟ وأن قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى) حقيقة أم لا ؟ وأن الانسان إذا أجرى القرآن على ظاهره من غير أن يتأول شيئاً منه ، ويقول أو من به كما أنزل ، هل يكفيه ذلك في الاعتقاد أم يجب عليه التأويل ؟

فأجاب : الذي يجب على الانسان اعتقاده في ذلك وغيره ما دل عليه كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واتفق عليه سلف المؤمنين ، الذين أثنى الله تعالى عليهم وعلى من اتبعهم ، وذم من اتبع غير سبيلهم ، وهو أن القرآن الذي أنزله الله على عبده ورسوله كلام الله تعالى ، وأنه منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، وأنه (قرآن كريم . فى كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون) ، وأنه

(قرآن مجيد . في لوح محفوظ) . وأنه كما قال تعالى : (وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلي حكيم) وأنه في الصدور ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « استذكروا القرآن فلهو أشد تفصياً من صدور الرجال من النعم في عقلها » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « الجوف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب » وأن ما بين لوحى المصحف الذي كتبته الصحابة رضي الله عنهم كلام الله ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو ؛ مخافة أن تناله أيديهم » .

فهذه « الجملة » تكفي المسلم في هذا الباب .

وأما تفصيل ما وقع فى ذلك من النزاع فكثير منه يكون كلا الاطلاقين خطأ ، ويكون الحق فى التفصيل ، ومنه ما يكون مع كل من المتنازعين نوع من الحق ، ويكون كل منها ينكر حق صاحبه .

وهذا من التفرق والاختلاف الذي ذمه الله تعالى ونهى عنه ، فقال : (وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد) وقال : (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات) وقال : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) وقال : (وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم) .

فالواجب على المسلم أن يلزم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسنة خلفائه الراشدين ، والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم باحسان . وما تنازعت فيه الأمة وتفرقت فيـه ، إن أمكنه أن يفصل النزاع بالعلم والعدل وإلا استمسك بالجمل الثابتة بالنص والاجماع ، وأعرض عن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعـاً ، فان مواضع التفرق والاختلاف عامتها تصدر عن اتبـاع الظن ، وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى .

وقد بسطت القول في جنس هذه المسائل ببيان ما كان عليه سلف الأمة ، الذي اتفق عليه العقل والسمع . وبيـان ما يدخل فى هذا الباب من الاشتراك والاشتباه والغلط في مواضع متعددة ، ولكن نذكر منها جملة مختصرة بحسب حال السائل .

والواجب أمر العامة بالجمل الثابتة بالنص والاجمـاع ، ومنعهم من الخوض فى التفصيل الذي يوقع بينهم الفرقة والاختـلاف ، فان الفرقة والاختلاف من أعظم ما نهى الله عنه ورسوله .

والتفصيل المختصر أن نقول : من اعتقد أن المداد الذي فى المصحف وأصوات العباد قديمة أزلية فهو ضال مخطيء ، مخالف للـكتاب والسنة ، وإجماع السابقين الأولين ، وسائر علماء الاسلام ، ولم يقل أحد قط من

علماء المسلمين إن ذلك قديم ، لا من أصحاب الامام أحمد ولا من غيرهم ومن نقل قدم ذلك عن أحد من علماء أصحاب الامام أحمد ونحوهم فهو مخطىء فى هذا النقل ، أو متعمد للكذب ؛ بل المنصوص عن الامام أحمد وعامة أصحابه تبديع من قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، كما جهموا من قال : اللفظ بالقرآن مخلوق .

وقد صنف أبو بكر المروذي — أخص أصحاب الامام أحمد به — فى ذلك رسالة كبيرة مبسوطة ، ونقلها عنه أبو بكر الخلال فى « كتاب السنة » الذي جمع فيه كلام الامام أحمد وغيره من أئمة السنة في أبواب الاعتقاد ، وكان بعض أهل الحديث إذ ذاك أطلق القول بأن لفظي بالقرآن غير مخلوق معارضة لمن قال : لفظي بالقرآن مخلوق ، فبلغ ذلك الامام أحمد ، فأنكر ذلك إنكاراً شديداً ، وبدع من قال ذلك وأخبر أن أحداً من العلماء لم يقل ذلك ، فكيف بمن يزعم أن صوت العبد قديم ! وأقبح من ذلك من يحكى عن بعض العلماء أن المداد الذي فى المصحف قديم ، وجميع أئمة أصحاب الامام أحمد وغيرهم أنكروا ذلك ، وما علمت أن عالماً يقول ذلك إلا ما يبلغنا عن بعض الجهال : من الاكراد ونحوهم » .

وقد ميز الله فى كتابه بين الكلام والمداد ، فقال تعالى : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو

جئنا بمثله مدداً) فهذا خطأ من هذا الجانب ، وكذلك مـن زعم أن القرآن محفوظ في الصدور ، كما أن الله معلوم بالقـلوب ، وأنه متـلو بالألسن ، كما أن الله مذكور بالألسن ، وأنـه مكتوب فى المصحف ، كما أن الله مكتوب .

وجعل ثبوت القرآن فى الصدور والألسنة والمصاحف مثـل ثبوت ذات الله تعالى فى هذه المواضع : فهذا — أيضاً — مخطىء فى ذلك ، فان الفرق بين ثبوت الأعيان فى المصحف ، وبين ثبوت الـكلام فيهـا بين واضح ؛ فان الموجودات لها أربع مراتب : مرتبة فى الأعيـان ، ومرتبة فى الأذهان ، ومرتبة فى اللسان ، ومرتبة فى البنان. فالعلم يطابق العين ، واللفظ يطابق العلم ، والخط يطابق اللفظ .

فاذا قيل : إن العين فى كتاب الله كما فى قوله : (وكل شيء فعلوه فى الزبر) فقـد علـم ان الذي فى الزبر إنمـا هو الخط المطابق للفظ المطابق للعلم ، فبين الأعيان وبين المصحف مرتبتان ، وهي اللفظ والخط ، وأما الكلام نفسه فليس بينه وبين المصحف مرتبـة ، بل نفس الكلام يجعل فى الكتاب ، وان كان بـين الحرف الملفوظ والحرف المـكتوب فرق من وجه آخر ، الا إذا أريد أن الذي فى المصحف هو ذكره والخبر عنه ، مثل قوله تعالى : (وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين

على قلبك) الى قوله : وإنه لفي زبر الأولين . أو لم يكن لهم آيــة ان يعلمه علماء بني اسرائيل) .

فالذي فى زبر الأولــين ليس هو نفس القرآن المنزل عــلى محمد صلى الله عليه وسلم ، فان هذا القرآن لم ينزل على احد قبله صلى الله عليــه وسلم ، ولكن في زبر الأولين ذكر القرآن وخبره ، كما فيها ذكر محمد صلى الله عليــه وسلم وخبره ، كما ان أفعال العباد فى الزبر كما قال تعالى : (وكل شيء فعلوه فى الزبر) فيجب الفرق بــين كون هــذه الأشياء فى الزبر . وبين كون الــكلام نفسه في الزبر . كما قال تعالى : (انه لقرآن كريم . في كتاب مكنون) وقال تعالى : (يتلو صحفاً مطهرة. فيها كتب قيمة) .

فمن قال إن المداد قديم فقد اخطأ ، ومن قال ليس في المصحف كلام الله وإنما فيه المداد الذي هو عبارة عن كلام الله فقد أخطأ ؛ بل القرآن فى المصحف كما ان سائر الــكلام فى الورق ، كما أن الأمة مجمعة عليه ، وكما هو في فطر المسلمين . فان كل مرتبة لها حــكم يخصها ، وليس وجود الكلام فى الكتاب كوجود الصفــة فى الموصوف ، مثل وجود العــلم والحياة فى محلها . حتى يقال : إن صفة الله حلت بغيره ، أو فارقته. ، ولا الوجود فيــه كالدليل المحض ، مثل وجود العــالم الدال على الباري تعالى ، حتى يقال : ليس فيه إلا ما هو علامة على كلام الله عز وجل ؛

بل هو قسم آخر ؛ ومن لم يعطِ كل مرتبة مما يستعمل فيها أداة الظرف حقها فيفرق بين وجود الجسم في الحيز وفي المكان ، ووجود العرض بالجسم ، ووجود الصورة بالمرآة ، ويفرق بين رؤية الشيء بالعين يقظة ، وبين رؤيته بالقلب يقظة ومناما ، ونحو ذلك ، والا اضطربت عليه الامور .

وكذلك سؤال السائل عما فى المصحف هل هو حادث أو قديم ؟ سؤال مجمل ؛ فان لفظ القديم اولا ليس مأثوراً عن السلف ، وانما الذي اتفقوا عليه أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وهو كلام الله حيث تلي ، وحيث كتب ، وهو قرآن واحد ، وكلام واحد وإن تنوعت الصور التى يتلى فيها ويكتب من أصوات العباد ومدادهم . فان الكلام كلام من قاله مبتدئاً ، لا كلام من بلغه مؤديا ، فاذا سمعنا محدثاً يحدث بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « انما الاعمال بالنيات » قلنا : هذا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لفظه ومعناه ، مع علمنا أن الصوت صوت المبلغ ، لا صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهكذا كل من بلغ كلام غيره من نظم ونثر .

ونحن اذا قلنا : هذا كلام الله لما نسمعه من القارىء ، ونرى في المصحف ، فالاشارة إلى الكلام من حيث هو هو ، مع قطع النظر عما اقترن به البلاغ من صوت المبلغ ، ومداد الكاتب .

فمن قال : صوت القـارىء ومداد الـكاتب كلام الله الذي ليس بمخلوق فقد اخطأ ، وهذا الفرق الذي بينـه الامام احمد لمن سأله ، وقد قرأ : (قل هو الله احـد) فقال : هذا كلام الله غير مخلوق ، فقال : نعم . فنقل السائل عنه انه قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، فدعا به وزبره زبراً شديـداً . وطلب عقوبتـه وتعزيره ، وقال : أنـا قلت لك لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟! فقال : لا ، ولكن قلت لي لمـا قرأت (قل هو الله احد) : هذا كلام الله غير مخلوق . قال : فـلم تنقل عني مالم أقله ؟! .

فبين الامام أحمد أن القائل إذا قال لما سمعه من المبلغين المؤدين : هذا كلام الله . فالاشارة الى حقيقته التى تـكلم الله بها ، وإن كنا إنمـا سمعناها ببلاغ المبلغ وحركته وصوته ؛ فاذا أشار إلى شـيء من صفات المخلوق لفظه أو صوته أو فعله ، وقال : هذا غير مخلوق فقـد ضل وأخطأ . فالواجب أن يقال : القرآن كلام الله غير مخلوق . فالقرآن فى المصاحف ، كما ان سائر الـكلام فى الصحف ، ولا يقال : إن شيئـاً من المداد والورق غير مخلوق ؛ بل كل ورق ومداد فى العالم فهو مخلوق ، ويقال ايضاً : القرآن الذي في المصحف كلام الله غير مخلوق ، والقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الله غير مخلوق .

ويتبين هذا الجواب بالكلام عـلى « المسألة الثانيـة » وهي قوله :

إن كلام الله هل هو حرف وصوت أم لا ؟ فان اطلاق الجواب فى هذه المسألة نفياً وإثباتاً خطأ ، وهي من البدع المولدة ، الحادثة بعد المائة الثالثة ، لما قال قوم من متكلمة الصفاتية : إن كلام الله الذي أنزل على أنبيائه ـ كالتوراة ، والانجيل ، والقرآن ، والذي لم ينزله ، والكلمات التى كون بها الكائنات ، والكلمات المشتملة على أمره ونهيه وخبره ، ليست الا مجرد معنى واحد ، هو صفة واحدة قامت بالله ، إن عبر عنها بالعبرانية كانت التوراة ، وان عبر عنها بالعربية كانت القرآن ، وان الامر والنهي والخبر صفات لها ، لا أقسام لها ، وان حروف القرآن مخلوقة ، خلقها الله ولم يتكلم بها ، وليست من كلامه ؛ إذ كلامه لا يكون بحرف وصوت .

عارضهم آخرون من المثبتة فقالوا : بل القرآن هو الحروف والاصوات ، وتوهم قوم أنهم يعنون بالحروف المداد ، وبالاصوات أصوات العباد ، وهذا لم يقله عالم .

والصواب الذي عليه سلف الأمة ـ كالامام أحمد والبخاري صاحب الصحيح ، فى « كتاب خلق أفعال العباد » وغيره ، وسائر الأئمة قبلهم وبعدهم ـ اتباع النصوص الثابته ، وإجماع (١) سلف الأمة ، وهو

---

(١) نسخة واتباع بدل واجماع .

أن القرآن جميعه كلام الله ، حروفه ومعانيه ، ليس شيء من ذلك كلاما لغيره ؛ ولكن أنزله على رسوله ، وليس القرآن اسماً لمجرد المعنى ، ولا لمجرد الحرف ؛ بل لمجموعها ، وكذلك سائر الكلام ليس هو الحروف فقط ؛ ولا المعاني فقط . كما أن الانسان المتكلم الناطق ليس هو مجرد الروح ، ولا مجرد الجسد : بل مجموعها . وان الله تعالى يتكلم بصوت ، كما جاءت به الأحاديث الصحاح ، وليس ذلك كأصوات العباد ، لا صوت القارىء ولا غيره . وان الله ليس كمثله شيء ، لافى ذاته . ولا في صفاته ، ولا فى أفعاله . فكما لا يشبه علمه وقدرته وحياته علم المخلوق وقدرته وحياته : فكذلك لا تشبه كلامه كلام المخلوق ، ولا معانيه تشبه معانيه ، ولا حروفه يشبه حروفه ، ولا صوت الرب يشبه صوت العبد ، فمن شبه الله بخلقه فقد ألحد في أسمائه وآياته ، ومن جحد ما وصف به نفسه فقد ألحد فى أسمائه وآياته .

وقد كتبت فى الجواب المبسوط المستوفى : مراتب مذاهب أهل الأرض فى ذلك ، وان المتفلسفة تزعم أن كلام الله ليس له وجود إلا في نفوس الأنبياء، تفيض عليهم المعاني من العقل الفعال ، فيصير في نفوسهم حروفاً ، كما ان ملائكة الله عندهم ما يحدث في نفوس الانبياء من الصور النورانية ، وهذا من جنس قول فيلسوف قريش الوليد ابن المغيرة : (ان هذا إلا قول البشر) فحقيقة قولهم إن القرآن تصنيف

الرسول الكريم ؛ لكنه كلام شريف صادر عن نفس صافية .

وهؤلاء هم الصابئة ؛ فتقربت منهم الجهمية . فقالوا : إن الله لم يتكلم ولا يتكلم ، ولا قام به كلام ، وإنما كلامه ما يخلقه في الهواء أو غيره ، فأخذ ببعض ذلك قوم من متكلمة الصفاتية . فقالوا : بل نصفه وهو المعنى كلام الله ، ونصفه وهو الحروف ليس هو كلام الله ، بل هو خلق من خلقه .

وقد تنازع الصفاتية القائلون بأن القرآن غير مخلوق . هل يقال : إنه قديم لم يزل ولا يتعلق بمشيئته ؟ أم يقال : يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء ؟ . على قولين مشهورين في ذلك ، وفي السمع والبصر ونحوهما ، ذكرهما الحارث المحاسبي عن أهل السنة ، وذكرهما أبو بكر عبد العزيز عن أهل السنة ، من اصحاب الامام أحمد وغيرهم .

وكذلك النزاع بين اهل الحديث والصوفية ، وفرق الفقهاء : من المالكية ، والشافعية والحنفية ، والحنبلية ؛ بل وبين فرق المتكلمين والفلاسفة ، في جنس هذا الباب . وليس هذا موضعاً لبسط ذلك . (هذا لفظ الجواب في الفتيا المصرية) .

وقال الامام العلامة المحقق ابو العباس

احمد بن تيمية – رحمه الله تعالى ورضى عنه –

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

أما بعد فهذا « فصل فى نزول القرآن » ولفظ « النزول » حيث ذكر فى كتاب الله تعالى ، فان كثيراً من الناس فسروا النزول في مواضع من القرآن ، بغير ما هو معناه المعروف لاشتباه المعنى في تلك المواضع ، وصار ذلك حجة لمن فسر نزول القرآن بتفسير أهل البدع .

فمن الجهمية من يقول : انزل بمعنى خلق كقوله تعالى : (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) أو يقول : خلقه فى مكان عال ثم أنزله من ذلك المكان .

---

(١) تسمى : التبيان في نزول القرآن .

ومن الـكلابية من يقول نزوله بمعنى الاعلام به وافهامـه للملك ، أو نزول الملك بما فهمه .

وهذا الذي قالوه باطل فى اللغة والشرع والعقل .

و « المقصود هنا » ذكر النزول .

فنقول وبالله التوفيق : النزول فى كتـاب الله عز وجـل « ثلاثة أنواع » : نزول مقيد بأنه منه ، ونزول مقيد بأنه من السماء ، ونزول غير مقيد لا بهذا ولا بهذا .

فالأول لم يرد إلا فى القرآن ، كما قال تعالى : (والذين آتينـاهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) وقال تعالى (نزله روح القدس من ربك بالحق) وقال تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وفيها قولان :

« أحدها » لا حذف في الـكلام ، بل قوله : (تنزيل الكتـاب) مبتدأ ، وخبره (من الله العزيز الحكيم)

و « الثانى » أنه خبر مبتدإ محذوف ، أي هذا (تنزيل الكتاب) وعلى كلا القولين فقـد ثبت أنه منزل منـه ، وكذلك قوله : (حم

تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وكذلك (حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم) (حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز االعليم) والتنزيل بمعنى المنزل ، تسمية للمفعول باسم المصدر ، وهو كثير ؛ ولهذا قال السلف : القرآن كلام الله ليس بمخلوق ، منه بدأ . قال أحمد وغيره : وإليه يعود ، أي : هو المتكلم به . وقال كلام الله من الله ليس ببائن منه ، أي لم يخلقه فى غيره فيكون مبتدأ منزلا من ذلك المخلوق ؛ بل هو منزل من الله ، كما أخبر به ومن الله بدأ لا من مخلوق ، فهو الذي تكلم به لخلقه .

وأما النزول « المقيد » بالسماء فقوله : (وأنزلنا من السماء) والسماء اسم جنس لكل ماعلا ، فاذا قيد بشيء معين [تقيد به] فقوله فى غير موضع من السماء مطلق أي في العلو ؛ ثم قد بينه فى موضع آخر بقوله (أأنتم أنزلتموه من المزن) وقوله (فترى الودق يخرج من خلاله) أي انه منزل من السحاب ، ومما يشبه نزول القرآن قوله : (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) فنزول الملائكة هو نزولهم بالوحي من أمره ، الذي هو كلامه وكذلك قوله : (تنزل الملائكة والروح فيها) يناسب قوله : (فيها يفرق كل أمر حكيم ، أمراً من عندنا انا كنا مرسلين) فهذا شبيه بقوله : (قل نزله روح القدس)

وأما « المطلق » ففي مواضع . منها : ماذكره من انزال السكينة ؛ بقوله : (فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) وقوله : (هو الذي أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين) إلى غير ذلك .

ومن ذلك « انزال الميزان » ذكره مع الكتاب في موضعين وجمهور المفسرين على أن المراد به العدل ، وعن مجاهد ــ رحمه الله ــ هو ما يوزن به ، ولا منافاة بين القولين .. وكذلك العدل ، وما يعرف به العدل ، منزل في القلوب ، والملائكة قد تنزل على قلوب المؤمنين ؛ كقوله : (اذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا) فذلك الثبات نزل في القلوب بواسطة الملائكة ، وهو السكينة . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من طلب القضاء واستعان عليه وكل اليه ومن لم يطلب القضاء ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكا يسدده) فالله ينزل عليه ملكا ، وذلك الملك يلهمه السداد ، وهو ينزل فى قلبه .

ومنه حديث حذيفة رضي الله عنه ، الذي في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله أنزل الامانة في جذر قلوب الرجال فعلموا من القرآن وعلموا من السنة » والأمانة هي الايمان أنزلها في أصل قلوب الرجال ، وهو كانزال الميزان والسكينة ، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله » الحديث الى آخره ، فذكر أربعة غشيان

الرحمة ، وهى أن تغشاهم كما يغشى اللبــاس لابسه ، وكما يغشى الرجل المرأة ، والليل النهار . ثم قال : « ونزلت عليهم السكينة » وهو انزالها فى قلوبهم « وحفتهم الملائكة » أي جلست حولهم « وذكرهم الله فيمن عنده » من الملائكة .

وذكر الله الغشيان فى مواضع مثل قوله تعالى : (يغشى الليل النهار) وقوله : (فلما تغشاها حملت حملا خفيفاً) وقوله : (والمؤتفكة أهوى ، فغشاها ما غشى) وقوله : (ألا حين يستغشون ثيـابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون) هذا كله فيه احاطة من كل وجه .

وذكر تعالى انزال النعاس في قوله : (ثم أنزل عليكم من بعــد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم) هذا يوم أحد . وقال فى يوم بدر : (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه) والنعاس ينزل في الرأس بسبب نزول الابخرة ، التى تدخل في الدماغ ، فتنعقد فيحصل منها النعاس .

وطائفة من أهل الـكلام ــ منهم أبو الحسن الاشعري ومن اتبعه من أصحاب مالك والشافعي وأحمد ــ جعلوا النزول والاتيـان والمجيء حدثاً يحدثه منفصلا عنه ، فذاك هو اتيـانه واستواؤه على العرش ، فقالوا استواؤه فعل يفعله في العرش يصير به مستويا عليه من غير فعل

يقوم بالرب ، لكن أكثر الناس خالفوهم . وقالوا : المعروف أنه لا يجيء شيء من الصفات والاعراض الا بمجيء شيء ، فاذا قالوا : جاء البرد أو جاء الحر فقد جاء الهواء الذي يحمل الحر والبرد ، وهو عين قائمة بنفسها . وإذا قالوا : جاءت الحمى فالحمى حر أو برد تقوم بعين قائمة بسبب أخلاط تتحرك وتتحول من حال الى حال ، فيحدث الحر والبرد بذلك ، وهذا بخلاف العرض الذي يحدث بلا تحول من حامل ، مثل لون الفاكهة ، فانه لا يقال في هذا : جاءت الحمرة والصفرة والخضرة ، بل يقال : أحمر وأصفر وأخضر . وإذا كان كذلك فانزاله تعالى العدل والسكينة ، والنعاس والامانة — وهذه صفات تقوم بالعباد — إنما تكون إذا افضى بها اليهم ، فالأعيان القائمة توصف بالنزول ، كما توصف الملائكة بالنزول بالوحي والقرآن ، فاذا نزل بها الملائكة قيل انها نزلت .

وكذلك لو نزل غير الملائكة ، كالهواء الذي نزل بالاسباب ، فيحدث الله منه البخار الذي يكون منه النعاس ، فكان قد انزل النعاس سبحانه بانزال ما يحمله .

وقد ذكر سبحانه انزال الحديد ، والحديد يخلق فى المعادن .

وما يذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن آدم عليه السلام

ىن من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد ، السندان والكلبتان والمنقعة ، والمطرقة ، والابرة ، فهو كذب لايثبت مثله .

وكذلك الحديث الذي رواه الثعلبي عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم « ان الله أنزل أربع بركات من السماء الى الارض فأنزل الحديد والماء والنار والملح » حديث موضوع مكذوب ، فى اسناده سيف بن محمد بن أخت سفيان الثوري رحمه الله وهو من الكذابين المعروفين بالكذب .

قال ابن الجوزي : هو سيف بن محمد ابن أخت سفيان الثوري يروي عن الثوري وعاصم الأحول والاعمش ، قال أحمد رحمه الله : هو كذاب يضع الحديث وقال مرة : ليس بشيء وقال يحى : كان كذابا خبيثاً وقال مرة ليس بثقة وقال ابو داود كذاب وقال زكريا الساجي يضع الحديث وقال النسائي : ليس بثقة ولا مأمون وقال الدار قطني ضعيف متروك . والناس يشهدون ان هذه الآلات تصنع من حديد المعادن . فان قيل : ان آدم عليه السلام نزل معه جميع الآلات فهذه مكابرة للعيان . وان قيل بل نزل معه آلة واحدة وتلك لا تعرف فأي فائدة في هذا لسائر الناس ؟! ثم ما يصنع بهذه الآلات اذا لم يكن ثم حديد موجود يطرق بهذه الآلات واذا خلق الله الحديد صنعت منه هذه الآلات منع ان

المأثور : « ان أول من خط وخاط ادريس عليه السلام » وآدم عليه السلام لم يخط ثوبا فما يصنع بالابرة .

ثم اخبر انه انزل الحديد ، فكان المقصود الاكبر بذكر الحديد هو اتخاذ آلات الجهاد منه كالسيف والسنان والنصل وما اشبه ذلك الذي به ينصر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وهذه لم تنزل من السماء . فان قيل نزلت الآلة التى يطبع بها ، قيل فالله أخبر انه أنزل الحديد لهذه المعانى المتقدمة والآلة وحدها لا تكفي ، بل لابد من مادة يصنع بها آلات الجهاد ؛ لكن لفظ النزول أشكل على كثير من الناس حتى قال قطرب رحمه الله : معناه جعله نزلا ، كما يقال أنزل الأمر على فلان نزلا حسنا أي جعله نزلا . قال ومثله قوله تعالى : (وأنزل لكم من الانعام ثمانية ازواج) وهذا ضعيف ؛ فان النزل انما يطلق على ما يؤكل لا على ما يقاتل به قال الله تعالى (فنزل من حميم) والضيافة سميت نزلا لأن العادة ان الضيف يكون راكباً فينزل فى مكان يؤتى اليه بضيافته فيه فسميت نزلا لاجل نزوله ونزل ببني فلان ضيفه ؛ ولهذا قال نوح عليه السلام : (رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين) لأنه كان راكباً فى السفينة ، وسميت المواضع التى ينزل بها المسافرون منازل لأنهم يكونون ركبانا فينزلون والمشاة تبع للركبان وتسمى المساكن منازل .

وجعل بعضهم نزول الحديد بمعنى الخلق لانه أخرجـه من المعادن وعلمهم صنعته ، فان الحديد انما يخلق فى المعادن ، والمعادن انما تكون فى الجبال ، فالحديد ينزله الله من معادنه التى فى الجبال لينتفع بـه بنو آدم وقال تعالى : (وانزل لـكم من الانعام ثمانية أزواج) .

وهذا مما اشكل أيضا . فمنهـم من قال : جعل ، ومنهم من قال : خلق لكونها تخلق من الماء فان به يكون النبات الذي ينزل أصله من السماء وهو المـاء ، وقال قطرب : جعلناه نزلا . ولا حاجـة الى اخراج اللفظ عن معناه المعروف لغة ؛ فان الأنعام تنزل من بطون أمهاتها ومن أصلاب آبائها تأتى بطون أمهاتها ، ويقال للرجـل : قد أنزل المـاء ، واذا انزل وجب عليه الغسل ، مـع ان الرجل غالب انزاله وهو عـلى جنب اما وقت الجماع ، واما بالاحتلام ، فكيف بالأنعام التى غالب انزالها مع قيامها على رجليها وارتفاعها على ظهور الاناث ؟!

ومما يبين هذا أنه لم يستعمل النزول فيما خلق من السفليات ، فلم يقل أنزل النبات ولا انزل المرعى وانما استعمل فيـما يخلق فى محل عال وأنزله الله من ذلك المحل كالحديد والأنعام .

وقال تعالى (يابني آدم قـد أنزلنا عليـكم لباساً يوارى سوآتـكم وريشاً) الآية وفيها قراءتان احداها بالنصب فيكون لباس التقوى أيضاً

منزلاً . واما على قراءة الرفع فلا ، وكلاهما حق . وقد قيل فيه خلقناه وقيل أنزلنا أسبابه وقيل ألهمناهم كيفية صنعته ، وهـذه الأقوال ضعيفة ؛ فان النبات الذي ذكروا لم يجيء فيه لفظ أنزلنا ، ولم يستعمل فى كل ما يصنع أنزلنا فلم يقل : أنزلنا الدور وأنزلنا الطبخ ونحو ذلك ، وهو لم يقل انـا أنزلنا كل لبـاس ورياش ، وقـد قيـل : ان الريش والرياش المـراد بـه اللباس الفاخر كلاهما بمعنى واحـد مثل اللبس واللباس ، وقد قيل : هما المـال والخصب والمعاش ، وارتـاش فـلان حسنت حالته .

والصحيـح ان « الريش » هـو الاثاث والمتـاع ، قال ابو عمر والعرب تقول : اعطانى فلان ريشه أي كسوته وجهازه . وقال غيره : الرياش في كلام العرب الاثاث وما ظهر مـن المتاع والثياب والفرش ونحوها وبعض المفسرين أطلق عليه لفظ المال ، والمراد به مال مخصوص ، قال ابن زيد : جمالا ؛ وهذا لأنه مأخوذ من ريش الطائر وهو مايروش به ويدفع عنه الحر والبرد وجمال الطائر ريشه ، وكذلك مايبيت فيـه الانسان من الفرش وما يبسطه تحته ونحو ذلك ، والقرآن مقصوده جنس اللباس الذي يلبس على البدن وفى البيوت كما قال تعالى (والله جعل لـكم من بيوتكم سكناً) الآية ، فامتن سبحانه عليهم بمـا ينتفعون به من الانعام فى اللباس والاثاث ، وهذا ـــ والله أعـلم ـــ معنى انزاله ؛ فانـه ينزله

من ظهور الانعام ، وهو كسوة الانعام من الأضواف والاوبار والاشعار ، وينتفع به بنو آدم من اللباس والرياش . فقد أنزلها عليهم ، وأكثر اهل الأرض كسوتهم من جلود الدواب فهي لدفع الحر والبرد . وأعظم مما يصنع من القطن والكتان ، والله تعالى ذكر فى سورة النحل انعامه على عباده ، فذكر فى اول السورة أصول النعم التى لا يعيش بنو آدم إلا بها ، وذكر فى أثنائها تمام النعم التى لا يطيب عيشهم إلا بها ، فذكر فى أولها الرزق الذي لابد لهم منه ، وذكر مايدفع البرد من الكسوة بقوله : (والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) ثم فى اثناء السورة ذكر لهم المساكن والمنافع التى يسكنونها : مساكن الحاضرة والبادية ومساكن المسافرين فقال تعالى : (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً) الآية ، ثم ذكر انعامه بالظلال التي تقيهم الحر والبأس فقال : (والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال اكنانا) ، الى قوله : (كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون) .

ولم يذكر هنا مايقي من البرد ، لأنه قد ذكره فى أول السورة ، وذلك فى اصول النعم ؛ لان البرد يقتل فلا يقدر أحد ان يعيش فى البلاد الباردة بلا دفء بخلاف الحر فانه أذى ، لكنه لا يقتل كما يقتل البرد ، فان الحر قد يتقى بالظلال واللباس وغيرها ، وأهله ايضاً لا يحتاجون إلى وقاية كما يحتاج اليه البرد ؛ بل أدنى وقاية تكفيهم وهم في الليل وطرفي

النهار لا يتأذون به تأذيا كثيرا ؛ بل لا يحتاجون اليه احياناً حاجة قوية فجمع بينهما فى قوله (سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم) . ولا حذف فى اللفظ ولا قصور فى المعنى كما يظنه من لم يحسن حقائق معانى القرآن ؛ بل لفظه أتم لفظ ، ومعناه اكمل المعاني ؛ فاذا كان اللباس والرياش ينزل من ظهور الانعام، وكسوة الانعام منزلة من الاصلاب والبطون كما تقدم فهو منزل من الجهتين ، فانه على ظهور الانعام لا ينتفع به بنوا آدم حتى ينزل .

فقد تبين انه ليس فى القرآن ولا فى السنة لفظ نزول إلا وفيه معنى النزول المعروف وهذا هو اللائق بالقرآن ، فانه نزل بلغة العرب ولا تعرف العرب نزولاً إلا بهذا المعنى ولو أريد غير هذا المعنى لكان خطابا بغير لغتها ، ثم هو استعمال اللفظ المعروف له معنى فى معنى آخر بلا بيان ، وهذا لا يجوز بما ذكرنا ؛ وبهذا يحصل مقصود القرآن واللغة الذي أخبر الله تعالى انه بينه وجعله هدى للناس ، وليكن هذا آخره ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيراً .

———

وسئل شيخ الاسلام

رحمه الله

عن قوله تعالى : (وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) فسماه هنا كلام الله ، وقال في مكان آخر : (انه لقول رسول كريم) فما معنى ذلك ؟ فان طائفة ممن يقول بالعبارة يدعون ان هذا حجة لهم ، ثم يقولون : انتم تعتقدون ان موسى ــ صلوات الله عليه ــ سمع كلام الله عز وجل حقيقة من الله من غير واسطة ، وتقولون : ان الذي تسمعونه كلام الله حقيقة ، وتسمعونه من وسائط باصوات مختلفة ، فما الفرق بين هذا وهذا ؟ وتقولون : إن القرآن صفة لله تعالى ، وان صفات الله تعالى قديمة ؛ فان قلتم ان هذا نفس كلام الله تعالى فقد قلتم بالحلول وانتم تكفرون الحلولية والاتحادية ، وان قلتم : غير ذلك قلتم بمقالتنا ، ونحن نطلب منكم فى ذلك جوابا نعتمد عليه ان شاء الله تعالى .

فأجاب : الحمد لله رب العالمين . هذه الآية حق كما ذكر الله ، وليست

احدى الآيتين معارضة للأخرى بوجه من الوجوه ، ولا فى واحدة منها حجة لقول باطل ، وان كان كل من الآيتين قد يحتج بها بعض الناس على قول باطل . وذلك ان قوله : (وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله) فيه دلالة على انه يسمع كلام الله من التالي المبلغ ، وان ما يقرؤه المسلمون هو كلام الله ، كما فى حديث جابر فى السنن : « ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرض نفسه على الناس فى الموقف ويقول : الارجل يحملني إلى قومه لابلغ كلام ربي ؟ فان قريشا منعوني ان بلغ كلام ربى » وفى حديث ابى بكر الصديق رضي الله عنه انه لما خرج على المشركين فقرأ عليهم : (الم غلبت الروم فى ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون) قالوا له هذا كلامك ام كلام صاحبك ؟ فقال : ليس بكلامي ولا بكلام صاحبي ؛ ولكنه كلام الله .

وقد قال تعالى : (ذرنى ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا . ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع ان ازيد ، كلا انه كان لآياتنا عنيداً ، سارهقه صعودا ، انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم ادبر واستكبر ، فقال : ان هذا الاسحر يؤثر ، ان هذا الاقول البشر » فمن قال : ان هذا القرآن قول البشر كان قوله مضاهياً لقول الوحيد الذي أصلاه الله سقر . ومن المعلوم لعامة العقلاء أن من بلغ كلام غيره كالمبلغ لقول

النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » إذا سمعه الناس من المبلغ قالوا : هذا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولو قال المبلغ هذا كلامي وقولي لكذبه الناس لعلمهم بأن الكلام كلام لمن قاله مبتدئاً منشئاً ؛ لا لمن أداه راويا مبلغاً . فاذا كان مثل هذا معلوماً فى تبليغ كلام المخلوق فكيف لا يعقل فى تبليغ كلام الخالق الذي هو أولى ان لا يجعل كلاماً لغير الخالق جل وعلا ؟!.

وقد أخبر تعالى بأنه منزل منه فقال : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق) وقال : (حم تنزيل من الرحمن الرحيم) (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم). فجبريل رسول الله من الملائكة جاء به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من البشر ، والله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ، وكلاهما مبلغ له ، كما قال : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك) وقال : (إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ، ليعلم ان قد أبلغوا رسالات ربهم) وهو مع هذا كلام الله ليس لجبريل ولا لمحمد فيه إلا التبليغ والأداء ، كما ان المعلمين له فى هذا الزمان والتالين له فى الصلاة أو خارج الصلاة ليس لهم فيه إلا ذلك لم يحدثوا شيئاً من حروفه ولا معانيه قال الله تعالى : (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من

الشيطان الرجيم) الى قوله : (واذا بدلنا آية مكان آية — والله أعلم بما ينزل — قالوا : إنما أنت مفتر ؛ بل اكثرهم لا يعلمون ، قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ، ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين) .

كان بعض المشركين يزعم ان النبي صلى الله عليه وسلم تعلمه من بعض الأعاجم الذين بمكة اما عبد ابن الحضرمي واما غيره ، كما ذكر ذلك المفسرون فقال تعالى : (لسان الذي يلحدون إليه — أي يضيفون اليه التعليم لسان — أعجمي وهذا لسان عربي مبين) فكيف يتصور ان يعلمه أعجمي وهذا الكلام عربي ؟ وقد أخبر انه نزله روح القدس من ربك بالحق . فهذا بيان ان هذا القرآن العربي الذي تعلمه من غيره لم يكن هو المحدث لحروفه ونظمه ؛ إذ يمكن لو كان كذلك ان يكون تلقى من الأعجمي معانيه وألف هو حروفه ، وبيان أن هذا الذي تعلمه من غيره نزل به روح القدس من ربك بالحق يدل على ان القرآن جميعه منزل من الرب سبحانه وتعالى لم ينزل معناه دون حروفه .

ومن المعلوم أن من بلغ كلام غيره كمن بلغ كلام النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره من الناس أو أنشد شعر غيره كما لو أنشد منشد قول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

أو قول عبد الله بن رواحة حيث قال :

شهدت بأن وعدَ الله حق وان النار مثوى الكافرينا

وان العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا

أو قوله :

وفينا رسول الله يتلو كتابه اذا انشق معروف من الفجر ساطع

يبيت يجافى جنبه عن فراشه اذا استثقلت بالمشركين المضاجع

أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع

وهذا الشعر قاله منشئه لفظه ومعناه ، وهو كلامه لا كلام غيره بحركته وصوته ومعناه القائم بنفسه ، ثم اذا أنشده المنشد وبلغه عنه علم انه شعر ذلك المنشيء وكلامه ونظمه وقوله ، مع ان هذا الثاني أنشده بحركة نفسه وصوت نفسه ، وقام بقلبه من المعنى نظير ما قام بقلب الأول وليس الصوت المسموع من المنشد هو الصوت المسموع من المنشيء والشعر شعر المنشيء لا شعر المنشد ـــ والمحدث عن النبي صلى

الله عليــه وسلم اذا روى قوله : « إنما الأعمال بالنيات » بلغه بحركته وصوته ، مع ان النبي صلى الله عليه وسلم تكلم بــه بحركته وصوته ، وليس صوت المبلغ صوت النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا حركتــه كحركته ، والكلام كلام رسول الله صلى الله عليــه وسلم لا كلام المبلغ له عنه .

فاذا كان هذا معلوماً معقولاً فكيف لا يعقــل ان يكون ما يقرأ القارىء اذا قرأ (الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين) ان يقال هذا الكلام كلام الباريء وان كان الصوت صوت القارىء . فمن ظن ان الأصوات المسموعة مـن القراء صوت الله فهو ضال مفتر مخالف لصريح المعقول وصحيح المنقول قائل قولاً لم يقله أحد من أئمة المسلمين ؛ بل قد أنكر الامام أحمد وغيره على من قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق وبدعوه ، كما جهموا من قال : لفظي بالقرآن مخلوق . وقالوا القرآن كلام الله غير مخلوق كيف تصرف ، فكيف من قال لفظي به قديم أو صوتي به قديم ؟ فابتداع هذا وضلاله أوضح . فمن قال ان لفظه بالقرآن غير مخلوق أو صوته أو فعـله أو شيأ من ذلك فهو ضال مبتدع .

وهؤلاء قد يحتجون بقوله (حتى يسمع كلام الله) ويقولون هــذا كلام الله وكلام الله غير مخلوق فهذا غــير مخلوق ، ونحن لا نسمع

إلا صوت القارىء ، وهذا جهل منهم ، فان سماع كلام الله ، بل وسماع كل كلام يكون تارة من المتكلم به بلا واسطة ، ويكون بواسطة الرسول المبلغ له قال تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء)

ومن قال : ان الله كلمنا بالقرآن كما كلم موسى بن عمران ، أو انا نسمع كلامه كما سمعه موسى بن عمران فهو من أعظم الناس جهلا وضلالا . ولو قال قائل : انا نسمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم كما سمعه الصحابة منه لكان ضلاله واضحاً ، فكيف من يقول انا أسمع كلام الله منه كما سمعه موسى ؟! وان كان الله كلم موسى تكليما بصوت سمعه موسى فليس صوت المخلوقين صوتاً للخالق . وكذلك مناداته لعباده بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب ، وتكلمه بالوحي حتى يسمع أهل السموات والارض صوته كجر السلسلة على الصفا ، وامثال ذلك مما جاءت به النصوص والآثار كلها ليس فيها ان صفة المخلوق هي صفة الخالق ؛ بل ولامثلها بل فيها الدلالة على الفرق بين صفة الخالق وبين صفة المخلوق فليس كلامه مثل كلامه ، ولا معناه مثل معناه ، ولا حرفه مثل حرفه ، ولا صوته مثل صوته ، كما انه ليس علمه مثل علمه ، ولا قدرته مثل قدرته ، ولا سمعه مثل سمعه ، ولا بصره مثل بصره ، فان الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله .

ولما استقر فى فطر الخلق كلهم الفرق بين سماع الـكلام من المتكلم به ابتداء وبين سماعه من المبلغ عنه كان ظهور هذا الفرق في سماع كلام الله من المبلغين عنه اوضح من ان يحتاج الى الاطناب . وقد بين أئمة السنة والعلم ـــ كالامام احمد والبخاري صاحب الصحيح فى كتـــابه فى خلق الافعال وغيرهما من أئمة السنة ـــ من الفرق بين صوت الله المسموع منه وصوت العباد بالقرآن وغيره مالا يخالفهم فيه أحد من العلماء اهل العقل والدين .

فصـــــــل

واما قوله تعالى (انه لقول رسول كريم) فهـــذا قـــد ذكره فى موضعين . فقال فى الحاقة (انه لقول رسول كريم ، وما هـــو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) فالرسول هنا محمـــد صلى الله عليه وسلم وقال فى التكوير : (انـــه لقول رسول كريم ، ذي قوة ، عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم امين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالافق المبين) فالرسول هنـــا جبريل فأضافه الى الرسول من البشر تارة ، والى الرسول من الملائكة تارة ، باسم الرسول ، ولم يقل : انه لقول ملك ولا نبي ، لان لفظ الرسول يبين انـــه مبلغ

عن غيره لا منشىء له من عنده (وما على الرسول الا البلاغ المبين) فـكان قوله : (انـه لقول رسول كريم) بمنزلة قوله لتبليغ رسول ، او مبلغ من رسول كريم ، أو جاء به رسول كريم ، أو مسموع عن رسول كريم ؛ وليس معناه انه انشأه أو أحدثه أو أنشأ شيئاً منه أو أحدثه رسول كريم إذ لو كان منشئاً لم يكن رسولا فيما أنشأه وابتـدأه وإنما يكون رسولا فيما بلغه وأداه ، ومعلوم أن الضمير عائد الى القرآن مطلقاً .

و (أيضاً) فلو كان احد الرسولين أنشأ حروفه ونظمه امتنـع ان يكون الرسول الآخر هو المنشيء المؤلف لها ، فبطل ان تكـون اضافته الى الرسول لاجل احداث لفظه ونظمه . ولو جاز ان تـكون الاضافة هنا لاجل احداث الرسول له أو لشيء منه لجاز ان نقول انه قول البشر ، وهذا قول الوحيد الذي أصلاه الله سقر .

فان قال قائل : فالوحيد جعل الجميع قول البشر ، ونحن نقول إن الـكلام العربي قول البشر ، وأما معناه فهو كلام الله .

فيقـال لهم : هـذا نصف قول الوحيد ، ثم هـذا باطل من وجوه أخرى .

وهو ان معانى هذا النظم معان متعددة متنوعـة ، وأنتم تجعلون

ذلك المعنى معنى واحداً هو الامر والنهي والخبر والاستخبار . وتجعلون ذلك المعنى إذا عبر عنه بالعربيـة كان قرآناً ، وإذا عبر عنـه بالعبرانية كان توراة ، وإذا عبر عنه بالسريانية كان انجيلا ، وهذا مما يعلم بطلانه بالضرورة من العقل والدين ؛ فان التوراة إذا عربناها لم يكن معناها معنى القرآن ، والقرآن إذا ترجمناه بالعبرانية لم يكن معناه معنى التوراة .

و (ايضاً) فان معنى آية الكرسي ليس هو معنى آيـة الدين ، وإنما يشتركان فى مسمى الـكلام ، ومسمى كلام الله ، كما تشترك الاعيان في مسمى النوع . فهذا الكلام وهذا الكلام وهذا الـكلام كله يشترك فى انه كلام الله اشتراك الاشخاص فى أنواعها ، كما ان الانسان وهـــذا الانسان وهذا الانسان يشتركون في مسمى الانسان وليس فى الخارج شخص بعينه هو هذا وهـذا وهـذا ، وكذلك ليس فى الخارج كلام واحـد هو معنى التوراة والانجيـل والقرآن وهو معنى آيـة الدين وآية الكرسي .

ومن خالف هـذا كان فى مخالفته لصريح المعقول من جنس من قال : إن اصوات العباد وافعالهم قديمة أزلية . فاضرب بكلام البـدعتين رأس قائلها ، والزم الصراط المستقيم : صراط الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

وبسبب هاتين البدعتين الحمقـاوين ثارت الفتن وعظمت الاحن ، وإن كان كل من أصحاب القولين قد يفسرونهما بما قد يلتبس على كثير من الناس كما فسر من قال : ان الصوت المسموع من العبـد أو بعضه قديم : أن القديم ظهر في المحدث من غير حلول فيه .

وأما « أفعال العباد » فرأيت بعض المتأخرين يزعم انها قديمة خيرها وشرها ، وفسر ذلك بان الشرع قديم والقدر قديم ، وهي مشروعة مقدرة ولم يفرق بين الشرع الذي هو كلام الله والمشروع الذي هو المأمور به والمنهى عنه ، ولم يفرق بين القدر الذى هو عـلم الله وكلامـه وبين المقدور الذي هو مخلوقاته . والعقلاء كلهم يعلمون بالاضطـرار ان الأمر والخبر نوعان للـكلام لفظه ومعناه ، ليس الأمر والخبر صفـات لموصوف واحد ـ فمن جعل الأمر والنهي والخبر صفات للـكلام لا أنواعاً له فقد خالف ضرورة العقل ، وهؤلاء في هذا بمنزلة من زعم ان الوجود واحد ؛ إذ لم يفرق بين الواحد بالنوع والواحد بالعين ؛ فان انقسام « الموجود » الى القديم ، والمحدث ، والواجب والممكن ، والخالق والمخلوق ، والقائم بنفسـه والقائم بغيره ، كانقسام « الـكلام » إلى الأمر والخبر ، او إلى الانشاء والاخبار ، او الى الأمر والنهي والخبر ـ فمن قال الـكلام معنى واحـد هو الأمر والخبر فهو كمن قال الوجود واحد هو الخالق والمخـلوق ، أو الواجب والممكن . وكما ان حقيقة هذا تؤل إلى تعطيل الخالق فحقيقة

هذا تؤول إلى تعطيل كلامه وتكليمه .

وهذا حقيقة قول فرعون الذي انكر الخالق وتكليمه لموسى : ولهذا آل الامر بمحقق هؤلاء الى تعظيم فرعون وتوليه وتصديقه فى قوله : (أنا ربكم الأعلى) بل إلى تعظيمه على موسى والى الاستحقار بتكليم الله لموسى كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

(وأيضاً) فيقال : ما تقول فى كلام كل متكلم إذا نقله عنه غيره ـ كما قد ينقل كلام النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والعلماء والشعراء وغيرهم ويسمع من الرواة او المبلغين ـ إن ذلك المسموع من المبلغ بصوت المبلغ هو كلام المبلغ او كلام المبلغ عنه ؟ فان قال : كلام المبلغ لزم ان يكون القرآن كلاما لكل من سمع منه فيكون القرآن المسموع كلام الف الف قارىء لا كلام الله تعالى ، وان يكون قوله : « إنما الاعمال بالنيات » ونظائره كلام كل من رواه لا كلام الرسول وحينئذ فلا فضيلة للقرآن فى (إنه لقول رسول كريم) فانه على قول هؤلاء قول كل منافق قرأه ، والقرآن يقرؤه المؤمن والمنافق كما فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم انه قال : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ؛ ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن

مثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها » وعلى هذا التقدير فلا يكون القرآن قول بشر واحد بل قول ألف ألف بشر واكثر من ذلك . وفساد هذا في العقل والدين واضح .

وان قال : كلام المبلغ عنه علم ان الرسول المبلغ للقرآن ليس القرآن كلامه ولكنه كلام الله ؛ ولكن لما كان الرسول الملك قد يقال إنه شيطان بين الله انه تبليغ ملك كريم ؛ لا تبليغ شيطان رجيم ؛ ولهذا قال : (انه لقول رسول كريم ، ذي قوة ، عند ذي العرش مكين) الى قوله : (وما هو بقول شيطان رجيم) . وبين فى هذه الآية ان الرسول البشري الذي صحبناه وسمعناه منه ليس بمجنون ، وما هو على الغيب بمتهم . وذكره باسم « الصاحب » لما فى ذلك من النعمة به علينا اذ كنا لا نطيق ان نتلقى إلا عمن صحبناه وكان من جنسنا ، كما قال تعالى (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) وقال (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون) كما قال فى الآية الأخرى : (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى) وبين ان الرسول الذي من أنفسنا والرسول الملكي أنهما مبلغان فكان في هذا تحقيق أنه كلام الله .

فلما كان الرسول البشرى يقال : انه مجنون أو مفتر نزهه عن هذا وهذا ، وكذلك في السورة الأخرى قال : (انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا

ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين) وهذا مما يبين أنه أضافه اليه لأنه بلغه وأداه لا لأنه أحدثه وأنشأه ، فانه قال : (وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين) فجمع بين قوله : (انه لقول رسول كريم) وبين قوله : (وانه لتنزيل رب الغالمين) والضميران عائدان الى واحد ، فلو كان الرسول أحدثه وأنشأه لم يكن تنزيلا من رب العالمين ؛ بل كان يكون تنزيلا من الرسول . ومن جعل الضمير فى هذا عائدا إلى غير ما يعود اليه الضمير الآخر مع انه ليس فى الكلام ما يقتضى اختلاف الضميرين ، ومن قال ان هذا عبارة عن كلام الله ــ فقل له : هــذا الذي تقرؤه أهو عبارة عــن العبارة التى أحــدثها الرسول الملك او البشر عــلى زعمك ؟ أم هو نفس تلك العبارة ؟ فان جعلت هذا عبارة عن تلك العبــارة جاز ان تكون عبارة جبريل او الرسول عبارة عــن عبارة الله ، وحينئذ فيبقى النزاع لفظياً ؛ فانه متى قال ان محمدا سمعــه من جبريل جميعه ، وجبريل سمعه من الله جميعــه ، والمسلمون سمعوه من الرسول جميعه ، فقد قال الحق ــ وبعد هذا فقوله عبارة لأجل التفريق بين التبليغ والمبلغ عنه كما سنبينه .

وان قلت : ليس هذا عبارة عن تلك العبــارة ، بل هو نفس تلك العبارة فقد جعلت ما يسمع من المبلغ هو بعينه ما يسمع من المبلغ

عنه إذ جعلت هذه العبارة هي بعينها عبارة جبريل فحينئذ هـذا يبطل أصـــل قولك .

واعلم ان أصـــل القول بالعبارة « ان أبا محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب » هو أول من قال فى الاسلام : ان معنى القرآن كلام الله . وحروفه ليست كلام الله ، فأخذ بنصف قول المعتزلة ونصف قول أهل السنـــة والجماعة ، وكان قد ذهب إلى اثبات الصفات لله تعالى ، وخالف المعتزلة فى ذلك ، وأثبت العلو لله على العرش ومباينته المخلوقات ، وقرر ذلك تقـريراً هو أكمل من تقرير أتباعه بعده . وكان الناس قـد تكلموا فيمن بلغ كلام غيره هل يقـال له حكاية عنه أم لا ؟ وأكثر المعتزلة قالوا : هو حكاية عنه ، فقال ابن كلاب : القرآن العربي حـكاية عن كلام الله ؛ ليس بكلام الله . .

فجاء بعـده « أبو الحسن الأشعري » فسلك مسلـكه فى اثبـات أكثر الصفات ، وفى مسألة القرآن أيضاً ، واستدرك عليـه قوله ان هذا حكاية ، وقال : الحـكاية إنما تـكون مثل المحـكي فهـذا يناسب قول المعتزلة ؛ وإنما يناسب قولنـا أن نقول هو عبارة عن كلام الله ؛ لأن الكلام ليس من جنس العبارة ، فانـكر أهـل السنة والجماعة عليهم عدة أمور .

(أحدها) قولهم : ان المعنى كلام الله وإن القرآن العربي ليس كلام الله ، وكانت المعتزلة تقول : هو كلام الله وهو مخلوق، فقال : هؤلاء هو مخلوق وليس بكلام الله ؛ لأن من أصول أهل السنة ان الصفة إذا قامت بمحل عاد حكمها على ذلك المحل ، فاذا قام الكلام بمحل كان هو المتكلم به كما ان العلم والقدرة اذا قاما بمحل كان هو العالم القادر وكذلك « الحركة » . وهذا مما احتجوا به على المعتزلة وغيرهم من الجهمية فى قولهم : إن كلام الله مخلوق خلقه فى بعض الأجسام — قالوا لهم لو كان كذلك لكان الكلام كلام ذلك الجسم الذي خلقه فيه فكانت الشجرة هي القائلة : (اني أنا الله رب العالمين) فقال أئمة الكلابية إذا كان القرآن العربي مخلوقاً لم يكن كلام الله ، فقال طائفة من متأخريهم : بل نقول الكلام مقول بالاشتراك بين المعنى المجرد وبين الحروف المنظومة ، فقال لهم المحققون : فهذا يبطل أصل حجتكم على المعتزلة ؛ فانكم إذا سلمتم أن ما هو كلام الله حقيقة لا يمكن قيامه به بل بغيره أمكن المعتزلة ان يقولوا ليس كلامه الا ما خلقه فى غيره .

(الثانى) قولهم : ان ذلك المعنى هو الأمر والنهي والخبر، وهو معنى التوراة، والانجيل والقرآن ، وقال أكثر العقلاء : هذا الذي قالوه معلوم الفساد بضرورة العقل .

(الثالث) ان ما نزل به جبريل من المعنى واللفظ وما بلغه محمد لأمته من المعنى واللفظ ليس هو كلام الله .

و « مسألة القرآن » لها طرفان (احدهما) تكلم الله به وهو أعظم الطرفين (والثانى) تنزيله الى خلقه والكلام في هذا سهل بعد تحقيق الأول . وقد بسطنا الكلام فى ذلك فى عدة مواضع ، وبينا مقالات أهل الأرض كلهم فى هذه المسائل ، وما دخل في ذلك من الاشتباه ، ومأخذ كل طائفة ، ومعنى قول السلف : القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأنهم قصدوا به ابطال قول من يقول : ان الله لم يقم بذاته كلام ؛ ولهذا قال الأئمة كلام الله من الله ليس ببائن عنه ، وذكرنا اختلاف المنتسبين الى السنة هل يتعلق الكلام بمشيئته وقدرته ام لا ؟ وقول من قال من أئمة السنة لم يزل الله متكلماً إذا شاء ، وأن قول السلف منه بدأ لم يريدوا به انه فارق ذاته وحل فى غيره ؛ فان كلام المخلوق ، بل وسائر صفاته لا تفارقه وتنتقل إلى غيره فكيف يجوز أن يفارق ذات الله كلامه أو غيره من صفاته ؟! بل قالوا : منه بدأ . أي : هو المتكلم به رداً على المعتزلة والجهمية وغيرهم الذين قالوا بدأ من المخلوق الذي خلق فيه . وقولهم : اليه يعود . أي : يسرى عليه فلا يبقى فى المصاحف منه حرف ولا فى الصدور منه آية .

والمقصود هنا الجواب عن مسائل السائل .

فصــــــل

وأما قول القائل : أنتم تعتقدون ان موسى سمع كلام الله منه حقيقة من غير واسطة ، وتقولون ان الذي تسمعونه كلام الله حقيقة وتسمعونه من وسائط بأصوات مختلفة فما الفرق بين ذلك ؟

فيقال له بين هذا وهذا من الفرق أعظم مما بين القدم والفرق . فان كل عاقل يفرق بين سماع كلام النبي صلى الله عليه وسلم منه بغير واسطة — كسماع الصحابة منه — وبين سماعه منه بواسطة المبلغين عنه كأبي هريرة وأبي سعيد وابن عمر وابن عباس . وكل من السامعين سمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة ، وكذلك من سمع شعر حسان بن ثابت أو عبد الله بن رواحة أو غيرهما من الشعراء منه بلا واسطة ومن سمعه من الرواة عنه يعلم الفرق بين هذا وهذا ، وهو في الموضعين شعر حسان لا شعر غيره ، والانسان إذا تعلم شعر غيره فهو يعلم ان ذلك الشاعر انشأ معانيه ونظم حروفه بأصواته المقطعة وان كان المبلغ يرويه بحركة نفسه وأصوات نفسه .

فاذا كان هذا الفرق معقولا فى كلام المخلوقين بين سماع الكلام من المتكلم به ابتداء وسماعه بواسطة الراوي عنه أو المبلغ عنه فكيف لا يعقل ذلك فى سماع كلام الله ؟ وقد تقدم أن من ظن أن المسموع من القراء هو صوت الرب فهو الى تأديب المجانين أقرب منه الى خطاب العقلاء . وكذلك من توهم أن الصوت قديم أو ان المداد قديم فهذا لا يقوله ذو حس سليم ؛ بل ما بين لوحي المصحف كلام الله ، وكلام الله ثابت فى مصاحف المسلمين لا كلام غيره ، فمن قال : ان الذي فى المصحف ليس كلام الله بل كلام غيره فهو ملحد مارق .

ومن زعم ان كلام الله فارق ذاته وانتقل الى غيره كما كتب فى المصاحف أو أن المداد قديم أزلي فهو أيضاً ملحد مارق ؛ بل كلام المخلوقين يكتب فى الأوراق وهو لم يفارق ذواتهم ، فكيف لا يعقل مثل هذا في كلام الله تعالى ؟ !

و « الشبهة » تنشأ فى مثل هذا من جهة ان بعض الناس لا يفرق بين المطلق من الكلام والمقيد . مثال ذلك ان الانسان يقول رأيت الشمس والقمر والهلال اذا رآه بغير واسطة « وهذه الرؤية المطلقة » وقد يراه فى ماء أو مرآة فهذه « رؤية مقيدة » فاذا اطلق قوله رأيته أو ما رأيته حمل على مفهوم اللفظ المطلق ، واذا قال : لقد رأيت الشمس في الماء والمرآة فهو كلام صحيح مع التقييد ، واللفظ يختلف معناه بالاطلاق

والتقييد ، فاذا وصل بالكلام مايغير معناه كالشرط والاستثناء ونحوهما من التخصيصات المتصلة كقوله : (ألف سنة الا خمسين عاما) كان هذا المجموع دالا على تسعمائة وخمسين سنة بطريق الحقيقة عند جماهير الناس .

ومن قال ان هذا مجاز فقد غلط ؛ فان هذا المجموع لم يستعمل في غير موضعه وما يقترن باللفظ من القرائن اللفظية الموضوعة هي من تمام الكلام ؛ ولهذا لا يحتمل الكلام معها معنيين ولا يجوز نفي مفهومها بخلاف استعمال لفظ الاسد في الرجل الشجاع مع ان قول القائل : هذا اللفظ حقيقة ، وهذا مجاز نزاع لفظي ، وهو مستند من انكر المجاز فى اللغة أو فى القرآن ، ولم ينطق بهذا أحد من السلف والأئمة ، ولم يعرف لفظ المجاز فى كلام أحد من الأئمة إلا فى كلام الامام أحمد فانه قال فيما كتبه من « الرد على الزنادقة والجهمية » هذا من مجاز القرآن . وأول من قال ذلك مطلقاً ابو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه الذي صنفه في « مجاز القرآن » ثم ان هذا كان معناه عند الأولين مما يجوز في اللغة ويسوغ فهو مشتق عندهم من الجواز كما يقول الفقهاء عقد لازم وجائز ، وكثير من المتأخرين جعله من الجواز الذي هو العبور من معنى الحقيقة إلى معنى المجاز ، ثم انه لا ريب ان المجاز قد يشيع ويشتهر حتى يصير حقيقة .

والمقصود أن القائل إذا قال : رأيت الشمس أو القمر او الهلال أو غير ذلك فى الماء والمرآة فالعقلاء متفقون على الفرق بين هذه الرؤية وبين رؤية ذلك بلا واسطة ، وإذا قال قائل : ما رأى ذلك ؛ بل رأى مثاله أو خياله أو رأى الشعاع المنعكس أو نحو ذلك لم يكن هذا ما نعا لما يعلمه الناس ويقولونه من انه رآه في الماء أو المرآة ، وهذه الرؤية في الماء او المرآة حقيقة مقيدة ، وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من رآنى في المنام فقد رآني حقاً فان الشيطان لا يتمثل في صورتي » هو كما قال صلى الله عليه وسلم رآه في المنام حقاً ، فمن قال : ما رآه في المنام حقاً فقد اخطأ ، ومن قال : ان رؤيته فى اليقظة بلا واسطة كالرؤية بالواسطة المقيدة بالنوم فقد أخطأ ؛ ولهذا يكون لهذه تأويل وتعبير دون تلك .

وكذلك ما سمعه منه من الكلام فى المنام هو سماع منه فى المنام وليس هذا كالسماع منه في اليقظة وقد يرى الرائى في المنام أشخاصاً ويخاطبونه والمرئيون لا شعور لهم بذلك وانما رأى مثالهم ، ولكن يقال : رآهم فى المنام حقيقة ، فيحترز بذلك عن الرؤيا التى هي حديث النفس .

فان « الرؤيا ثلاثة أقسام » رؤيا بشرى من الله ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه فى اليقظة فيراه فى المنام . وقد ثبت هذا التقسيم فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛

ولكن الرؤيا يظهر لكل احد من الفرق بينها وبين اليقظة مالا يظهر فى غيرها ، فكما ان الرؤية تكون مطلقة وتكون مقيـدة بواسطة المرآة والماء أو غير ذلك ، حتى ان المرئي يختلف باختلاف المرآة ، فاذا كانت كبيرة مستديرة رأى كذلك وان كانت صغيرة أو مستطيلة رأى كذلك ، فكذلك في « السماع » يفرق بين من سمع كلام غيره منه ومن سمعه بواسطة المبلغ ، ففي الموضعين المقصود سمـاع كلامه ، كما ان هناك فى الموضعين يقصد رؤية نفس النبي ؛ لكن اذا كان بواسطة اختلف باختلاف الواسطة فيختلف باختلاف اصوات المبلغين كما يختلف المرئى باختـلاف المرايا — قال تعالى : (وما كان لبشر ان يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب او يرسل رسولاً فيوحي باذنه مايشاء) .

فجعل « التكليم ثلاثـة انواع » الوحـي المجرد ، والتكليم من وراء حجاب كما كلم موسى عليـه السلام ، والتكليم بواسطة ارسال الرسول كما كلم الرسل بارسال الملائكة ، وكما نبأنا الله من أخبار المنافقين بارسال محمد صلى الله عليه وسلم ، والمسلمون متفقون على ان الله امرهم بما امرهم به في القرآن ونهاهم عما نهاهم عنه فى القرآن ، وأخبرهم بما أخبرهم به فى القرآن فامره ونهيه واخباره بواسطة الرسول ، فهـذا تكليم مقيـد بالارسال ، وسماعنا لـكلامه سماع مقيـد بسماعه من المبلغ لا منه . وهـذا القرآن كلام الله مبلغاً عنه مؤدا عنه ، وموسى سمع كلامه مسموعا منـه لا مبلغاً

عنه ولا مؤدا عنه ، وإذا عرف هذا المعنى زاحت الشبهة .

والنبي صلى الله عليه وسلم يروى عن ربه ، ويخبر عن ربه ، ويحكى عن ربه ، فهذا يذكر ما يذكره عن ربه من كلامه الذي قاله راويا حاكياً عنه . فلو قال من قال : إن القرآن « حكاية » : ان محمدا حكاه عن الله كما يقال بلغه عن الله واداه عن الله لكان قد قصد معنى صحيحاً ؛ لكن يقصدون — ما يقصده القائل بقوله فلانا يحكى فلانا أي يفعل مثل فعله وهو — انه يتكلم بمثل كلام الله فهذا باطل قال الله تعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) .

ونكتة الأمر أن العبرة بالحقيقة المقصودة لا بالوسائل المطلوبة لغيرها . فلما كان مقصود الرائى ان يرى الوجه مثلا فرآه فى المرآة حصل مقصوده وقال رأيت الوجه، وان كان ذلك بواسطة انعكاس الشعاع في المرآة — وكذلك من كان مقصوده ان يسمع القول الذي قاله غيره الذي ألف الفاظه وقصد معانيه ، فاذا سمعه منه أو من غيره حصل هذا المقصود ، وان كان سماعه من غيره هو بواسطة صوت ذلك الغير الذي يختلف باختلاف الصائتين . والقلوب إنما تشير إلى المقصود لا إلى ما ظهر به المقصود ، كما في « الاسم والمسمى » فان القائل إذا قال جاء زيد وذهب عمرو لم يكن مقصوده إلا الاخبار بالمجيء عن « المسمى »

ولكن بذكر الاسم أظهر ذلك .

فمن ظن أن الموصوف بالمجيء والاتيـان هو لفظ زيد أو لفظ عمرو كان مبطلا ، فكذلك إذا قال القائل : هـذا كلام الله ، وكلام الله غير مخلوق ، فالمقصود هنـا الكلام نفسه من حيث هو هو ، وإن كان إنما ظهر وسمع بواسطة حركة التالي وصوته ، فمن ظن أن المشـار اليه هو صوت القارىء وحركته كان مبطلا ؛ ولهذا لما قرأ أبو طالب المكي على الامام أحمد رضى الله عنه : (قل هو الله أحـد) وسأله هل هذا كلام الله ، وهل هو مخلوق ؟ فاجابه بأنه كلام الله وانـه غير مخلوق : فنقل عنه أبو طالب — خطأ منه — أنه قال لفظي بالقرآن غير مخلوق ، فاستدعاه وغضب عليه وقال انا قلت لك : لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟ قال : لا ، ولكن قرأت عليك : (قل : هو الله أحد) وقلت لك : هذا غير مخلوق ، فقلت : نعم ، قال فلم تحك عنى مـالم أقل ؟ لا تقل هـذا ؛ فان هذا لم يقله عالم — وقصته مشهورة حكاها عبد الله وصالح وحنبل والمروذي وفوران وبسطها الخلال فى « كتـاب السنـة » وصنف المروذي فى « مسألة اللفـظ » مصنفاً ذكر فيـه أقوال الأئمـة .

وهذا الذي ذكره أحمد من أحسن الكلام وأدقه ؛ فان الاشارة اذا أطلقت انصرفت الى المقصود وهو كلام الله الذي تكلم به ؛ لا الى

ما وصل به الينا من أفعال العباد واصواتهم . فاذا قيل : لفظي جعل نفس الوسائط غير مخلوقة وهـذا باطل ، كما ان من رأى وجهاً ، في مرآة فقال اكرم الله هذا الوجه وحياه ، او قبحه ، كان دعاؤه عـلى الوجه الموجود في الحقيقة الذي رأى بواسطة المرآة لا على الشعـاع المنعكس فيها ، وكذلك اذا رأى القمر في الماء فقال : قد أبدر أو لم يبدر فانمـا مقصوده القمر الذي في السماء لا خياله ، وكذلك من سمعـه يذكر رجلا فقال هذا رجل صالح أو رجل فاسق علم ان المشار اليه هـو الشخص المسمى بالاسم ؛ لا نفس الصوت المسموع من النـاطق ــ فلو قال : هـذا الصوت أو صوتي بفلان صـالح أو فاسق فسد المعنى ، وكان بعضهم يقول : لفظي بالقرآن مخلوق فرأى في منامه وضارب يضربه وعليـه فروة فأوجعه بالضرب ، فقال له : لا تضربني ، فقال : انا ما أضربك ، وانمـا اضرب الفروة ، فقال : انمـا يقع الضرب علي ، فقال هكذا اذا قلت : لفظي بالقرآن مخلوق ، فالخلق انما يقع على القرآن . يقول : كما ان المقصود بالضرب بدنك واللباس واسطة فهكذا المقصود بالتلاوة كلام الله وصوتك واسطة ، فاذا قلت : مخلوق وقـع ذلك على المقصود ، كما اذا سمعت قائلا يذكر رجلا فقلت : انا أحب هـذا وأنا أبغض هـذا انصرف الكلام إلى المسمى المقصود بالاسم لا الى صوت الذاكر ؛ ولهـذا قال الأئمة : القرآن كلام الله غـير مخلوق كيفمـا

تصرف ؛ بخلاف افعال العباد واصواتهم ؛ فانه من نفى عنها الخلق كان مبتدعا ضالا .

فصـــــل

واما قول القائل : تقولون ان القرآن صفة الله وان صفـات الله غير مخلوقة ، فان قلتم ان هذا نفس كلام الله فقـد قلتم بالحلول وأنتم تكفرون الحلولية والاتحادية ، وان قلتم غير ذلك قلتم بمقالتنا .

فمن تبين له ما نبهنا عليه سهل عليه الجواب عن هذا وأمثاله ، فان منشأ الشبهة ان قول القائل : هذا كلام الله يجعل أحكامه واحـدة ، سواء كان كلامه مسموعا منه أو كلامه مبلغاً عنه .

ومن هنا تختلف طوائف من الناس .

« طائفة » قالت هـذا كلام الله وهذا حروف واصوات مخلوقـة فـكلام الله مخلوق .

و « طائفة » قالت هذا مخلوق وكلام الله ليس بمخلوق فهذا ليس كلام الله .

و « طائفة » قالت هذا كلام الله وكلام الله ليس بمخلوق وهذا الفاظنا وتلاوتنا ؛ فألفاظنا وتلاوتنا غير مخلوقة .

ومنشأ ضلال الجميع من عدم الفرق فى المشار اليه فى هذا .
فأنت تقول هذا الكلام الذي تسمعه من قائله صدق وحق وصواب ، وهو كلام حكيم ، وكذلك إذا سمعته من ناقله تقول هذا الكلام صدق وحق وصواب وهو كلام حكيم ، فالمشار اليه فى الموضعين واحد ، وتقول أيضاً : ان هذا صوت حسن ، وهذا كلام من وسط القلب ثم إذا سمعته من الناقل تقول : هذا صوت حسن ، او كلام من وسط القلب فالمشار اليه هنا ليس هو المشار اليه هناك ، بل اشار الى ما يختص به هذا من صوته وقلبه ، والى ما يختص به هذا من صوته وقلبه ، واذا كتب الكلام في صفحتين كالمصحفين تقول في كل منها هذا قرآن كريم ، وهذا كتاب مجيد ، وهذا كلام الله فالمشار اليه واحد، ثم تقول هذا خط حسن وهذا قلم النسخ او الثلث ، وهذا الخط أحمر أو اصفر والمشار اليه هنا ما يختص به كل من المصحفين عن الآخر .

فاذا ميز الانسان فى المشار اليه بهذا وهذا تبين المتفق والمفترق ، وعلم ان من قال هذا القرآن كلام الله وكلام الله غير مخلوق ان المشار اليه الكلام من حيث هو مع قطع النظر عما به وصل الينا من حركات العباد وأصواتهم ، ومن قال : هذا مخلوق واشار به الى مجرد صوت العبد وحركته لم يكن له في هذا حجة على ان القرآن نفسه حروفه ومعانيه الذي تعلم هذا القارىء من غيره وبلغه بحركته وصوته مخلوق ، من اعتقد ذلك فقد اخطأ وضل .

ويقال لهذا : هذا الكلام الذي اشرت اليه كان موجوداً قبل ان يخلق هذا القارىء فهب ان القارىء لم تخلق نفسه ولا وجدت لا افعاله ولا أصواته فمن اين يلزم ان يكون الكلام نفسه الذي كان موجوداً قبله يعدم بعدمه ويحدث بحدوثه ؟ فاشارته بالخلق ان كانت الى ما يختص به هذا القارىء من افعاله وأصواته فالقرآن غني عن هذا القارىء وموجود قبله فلا يلزم من عدم هذا عدمه ، وان كانت الى الكلام الذي يتعلمه الناس بعضهم من بعض فهذا هو الكلام المنزل من الله الذي جاء به جبريل الى محمد ، وبلغه محمد لامته ، وهو كلام الله الذي تكلم به فذاك يمتنع ان يكون مخلوقا ، فانه لو كان مخلوقا لكان كلاما لمحله الذي خلق فيه ولم يكن كلاماً لله ، ولأنه لو كان سبحانه إذا خلق كلاماً كان كلامه كان ما أنطق به كل ناطق كلامه مثل تسبيح الجبال والحصى وشهادة الجلود ، بل كل كلام فى الوجود وهذا قول الحلولية الذين يقولون :

وكل كلام فى الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

ومن قال : القرآن مخلوق فهو بين أمرين — اما ان يجعل كل كلام فى الوجود كلامه ، وبين ان يجعله غير متكلم بشيء أصلاً ، فيجعل العباد المتكلمين اكمل منه ، وشبهه بالأصنام والجمادات والموات : كالعجل الذي لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا ، فيكون قد فرعن اثبات

صفات الكمال له حذراً فى زعمه من التشبيه فوصفه بالنقص وشبهه بالجامد والموات .

وكذلك قول القائل : هذا نفس كلام الله ، وعين كلام الله ، وهذا الذي فى المصحف هو عين كلام الله . ونفس كلام الله ، وأمثال هذه العبارات . هذه مفهومها عند الاطلاق فى فطر المسلمين أنه كلامه لا كلام غيره ، وانه لا زيادة فيه ولا نقصان ؛ فان من ينقل كلام غيره ويكتبه فى كتاب قد يزيد فيه وينقص كما جرت عادة الناس فى كثير من مكاتبات الملوك وغيرها — فاذا جاء كتاب السلطان فقيل : هذا الذي فيه كلام السلطان بعينه بلا زيادة ولا نقص : يعنى لم يزد فيه الكاتب ولا نقص . وكذلك من نقل كلام بعض الأئمة فى مسألة من تصنيفه قيل : هذا الكلام كلام فلان بعينه : يعنى لم يزد فيه ولم ينقص كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه » .

فقوله فبلغه كما سمعه لم يرد به انه يبلغه بحركاته وأصواته التى سمعه بها ، ولكن أراد انه يأتى بالحديث على وجهه لا يزيد فيه ولا ينقص ، فيكون قد بلغه كما سمعه . فالمستمع له من المبلغ يسمعه كما قاله صلى الله عليه وسلم ، ويكون قد سمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قاله . وذلك معنى قولهم هذا كلامه بعينه وهذا نفس كلامه ،

لا يريدون أن هـذا هو صوته وحركاته ، وهذا لا يقوله عاقـل ولا يخطر ببال عاقل ابتداء ، ولكن اتباع الظن وما تهوى الأنفس يلجىء أصحابه الى « القرمطة » فى السمعيات ، و « السفسطة » فى العقليات .

ولو ترك الناس على فطرتهم لكانت صحيحة سليمة فاذا رأى الناس كلاماً صحيحاً ، فان من تكلم بكلام وسمع منـه ونقل عنه أو كتبـه فى كتاب لا يقول عاقل ان نفس ما قام بالمتكلم من المعـانى التى فى قلبه والألفاظ القائمة بلسانه فارقته وانتقلت عنه الى المستمع والمبلغ عنه ، ولا فارقته وحلت فى الورق ؛ بل ولا يقول ان نفس ما قام به من المعانى والألفاظ هو نفس المداد الذي فى الورق ؛ بـل ولا يقول ان نفس ألفاظه التى هي أصواته هي أصوات المبلغ عنه ، فهذه الأمور كلها ظاهرة لا يقولهـا عاقل فى كلام المخلوق إذا سمـع وبلغ أو كتب فى كتاب ، فكيف يقال ذلك فى كلام الله الذي سمع منه وبلغ عنه او كتبه سبحانه كما كتب التوراة لموسى ، وكما كتب القرآن فى اللوح المحفوظ ، وكما كتبه المسلمون فى مصاحفهم .

واذا كان من سمع كلام مخلوق فبلغه عنه بلفظه ومعنـاه ؛ بل شعر مخلوق كما يبلغ شعر حسان وابن رواحة ولبيد وأمثالهم مـن الشعراء ، ويقول الناس : هذا شعر حسان بعينه ، وهذا هو نفس شعر حسان ، وهذا شعر لبيد بعينه كقوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ومع هذا فيعلم كل عاقل. ان رواة الشعر ومنشديه لم يسلبوا الشعراء نفس صفاتهم حتى حلت بهم، بل ولا نفس ما قام بأولئك من صفاتهم وأفعالهم كأصواتهم وحركاتهم حلت بالرواة والمنشدين ، فكيف يتوهم متوهم أن صفات الباري كلامه أو غير كلامه فارق ذاته وحل فى مخلوقاته ، وان ما قام بالمخلوق من صفاته وأفعاله كحركاته وأصواته هي صفات البارى حلت فيه ؟! وهم لايقولون مثل ذلك فى المخلوق بل يمثلون العلم بنور السراج يقتبس منه المتعلم ولا ينقص ما عند العالم ، كما يقتبس المقتبس ضوء السراج فيحدث الله له ضوأ كما يقال : ان الهوى ينقلب ناراً بمجاورة الفتيلة للمصباح من غير انْ تتغير تلك النار التى فى المصباح ، والمقرىء والمعلم يقرىء القرآن ويعلم العلم ولم ينقص مما عنده شيء ؛ بل يصير عند المتعلم مثل ما عنده .

ولهذا يقال : فلان ينقل علم فلان ، وينقل كلامه ، ويقال : العلم الذي كان عند فلان صار إلى فلان وامثال ذلك ، كما يقال : نقلت مافي الكتاب ونسخت ما فى الكتاب ، أو نقلت الكتاب أو نسخته ، وهم لا يريدون أن نفس الحروف التى فى الكتاب الاول عدمت منه وحلت في الثانى ؛ بل لما كان المقصود من نسخ الكتاب من الكتب ونقلها من جنس نقل العلم والكلام ، وذلك يحصل بان يجعل في الثاني

مثل ما فى الاول ، فيبقى المقصود بالاول منقولا منسوخا وان كان لم يتغير الاول ، بخلاف نقل الاجسام وتوابعها ، فان ذلك اذا نقل من موضع الى موضع زال عن الاول .

وذلك لأن الاشياء لها وجود فى انفسها وهو وجودها العيني ، ولها ثبوتها فى العلم ، ثم فى اللفظ المطابق للعلم ، ثم فى الخط . وهذا الذي يقال : وجود فى الأعيان ، ووجود فى الاذهان ، ووجود في اللسان ووجود فى البنان : وجود عيني ، ووجود علمي ، ولفظي ، ورسمي ؛ ولهذا افتتح الله كتابه بقوله تعالى : (إقرأ بسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم) فذكر الخلق عموما وخصوصاً ، ثم ذكر التعليم عموما وخصوصاً ، فالخط يطابق اللفظ ، واللفظ يطابق العلم ، والعلم هو المطابق للمعلوم .

ومن هنا غلط من غلط فظن ان القرآن فى المصحف كالاعيان في الورق ، فظن ان قوله : (انه لقرآن كريم فى كتاب مكنون) كقوله : (الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل) فجعل اثبات القرآن الذي هو كلام الله فى المصاحف كاثبات الرسول في المصاحف وهذا غلط : إثبات القرآن كاثبات اسم الرسول هذا كلام وهذا كلام ، واما اثبات اسم الرسول فهذا كاثبات الاعمال ، او كاثبات القرآن في

زبر الأولين ، قال تعالى : (وكل شيء فعلوه في الزبر) وقال تعالى : (وانه لفي زبر الأولين) فثبوت الاعمال في الزبر وثبوت القرآن في زبر الأولين هو مثل كون الرسول مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل ؛ ولهذا قيد سبحانه هذا بلفظ « الزبر » و « الكتب » زبر . يقال زبرت الكتاب إذا كتبته والزبور بمعنى المزبور أي المكتوب ، فالقرآن نفسه ليس عند بني اسرائيل ولكن ذكره ، كما ان محمدا نفسه ليس عندهم ولكن ذكره ، فثبوت الرسول في كتبهم كثبوت القرآن في كتبهم ؛ بخلاف ثبوت القرآن في اللوح المحفوظ وفي المصاحف ؛ فان نفس القرآن اثبت فيها ، فمن جعل هذا مثل هذا كان ضلاله بينا . وهذا مبسوط في موضعه .

و (المقصود هنا) ان نفس الموجودات وصفاتها اذا انتقلت من محل الى محل حلت في ذلك المحل الثاني ، واما العلم بها والخبر عنها فيأخذه الثاني عن الأول مع بقائه في الأول ، وان كان الذي عند الثاني هو نظير ذلك ومثله ؛ لكن لما كان المقصود بالعلمين واحداً في نفسه صارت وحدة المقصود توجب وحدة التابع له والدليل عليه ، ولم يكن للناس غرض فى تعدد التابع ، كما فى الاسم مع المسمى ؛ فان اسم الشخص وان ذكره اناس متعددون ودعا به اناس متعددون فالناس يقولون انه اسم واحد لمسمى واحد . فاذا قال المؤذن : اشهد ان لا إله إلا الله ،

اشهد أن محمداً رسول الله ، وقال ذلك هـذا المؤذن وهـذا المؤذن ، وقاله غير المؤذن فالناس يقولون ان هذا المكتوب هو اسم الله واسم رسوله كما ان المسمى هو الله ورسوله .

واذا قال : (اقرأ باسم ربك) وقال : (اركبوا فيهـا بسم الله) وقال : (سبح اسم ربك الأعلى) وقال : (بسم الله) ففي الجميع المذكور هو اسم الله وان تعدد الذكر والذاكر ، فالخبر الواحد من من المخبر الواحد من مخبره ، والأمر الواحد بالمأمور به من الآمر الواحد بمنزلة الاسم الواحد لمسماه ، هذا في المركب نظير هذا في المفرد ، وهـذا هو واحد باعتبار الحقيقة وباعتبار اتحاد المقصود وان تعـدد من يذكر ذلك الاسم والخبر ، وتعددت حركاتهم وأصواتهم وسائر صفاتهم .

واما قول القائل : ان قلتم : ان هذا نفس كلام الله فقد قلتم بالحلول وانتم تكفرون الحلولية والاتحادية فهذا قياس فاسد . مثاله مثال رجل ادعى ان النـبي صـلى الله عليـه وسلـم يحل بذاتـه فى بدن الذي يقرأ حديثه ، فانكر الناس ذلك عليـه ، وقالوا ان النبي صلى الله عليـه وسلم لا يحل فى بدن غيره ، فقـال : انتم تقولون : ان المحدث يقرأ كلامه ، وان ما يقرؤه هو كلام النبي صلى الله عليه وسـلم ، فاذا قلتم ذلك فقد قلتم بالحلول ، ومعلوم ان هذا فى غاية الفساد .

والناس متفقون على اطلاق القول بان كلام زيد فى هذا الكتاب وهذا الذي سمعناه كلام زيد ، ولا يستجيز العاقل اطلاق القول بانــه هو نفسه في هذا المتكلم، او فى هذا الورق . وقد نطقت النصوص بان القرآن فى الصدور كقول النبي صلى الله عليــه وســلم : « استذكروا القرآن ، فلهو اشد تفلتا من صدور الرجال من النعم فى عقلها » وقوله: « الجوف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب » وامثال ذلك ، وليس هذا عند عاقل مثل ان يقال الله فى صدورنا واجوافنا ، ولهــذا لما ابتدع شخص يقال له الصورى بان من قال القرآن فى صدورنا فقد قال بقول النصـارى فقيل لأحمد قد جاءت جهمية رابعــة أي : جهمية الخلقية ، واللفظية ، والواقفية ، وهذه الرابعة ـــ اشتد نكــيره لذلك ، وقال ، هذا اعظم من الجهمية . وهو كما قال .

فان « الجهمية » ليس فيهم من ينكر أن يقال القرآن فى الصدور ، ولا يشبه هذا بقول النصارى بالحلول الا من هو فى غاية الضلالة والجهالة ؛ فان النصارى يقولون ؛ الأب والابن وروح القدس اله واحــد ، وان الكلمة التى هي اللاهوت تدرعت الناسوت ، وهو عنــدهم إله يخلق ويرزق ؛ ولهذا كانوا يقولون : ان الله هو المسيح بن مريم ، ويقولون : المسيح بن الله ؛ ولهذا كانوا متناقضين ، فان الذي تدرع للمسيح إن كان هو الاله الجامع للأقانيم فهو الأب نفسه ، وان كان هو صفة من

صفاته فالصفة لا تخلق ولا ترزق وليست إلها ، والمسيح عنـدهم إله ، ولو قال النصارى ان كلام الله فى صدر المسيح كما هـو فى صدور سائر الأنبياء والمؤمنين لم يكن فى قولهم ما ينكر .

فالحلولية المشهورون بهذا الاسم من يقول بحلول الله في البشر ، كما قالت النصارى والغالية من الرافضة وغلاة اتباع المشايخ ، أو يقولون بحلوله في كل شيء كما قالت الجهمية انه بذاته في كل مكان ، وهو سبحانه ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، وكذلك من قال باتحاده بالمسيح أو غيره ، أو قال باتحاده بالمخلوقات كلهـا ، أو قال : وجوده وجود المخلوقات أو نحو ذلك .

فأما قول القائل : ان كلام الله فى قلوب أنبيائه وعباده المؤمنين وان الرسل بلغت كلام الله ، والذي بلغته هـو كلام الله ، وان الـكلام فى الصحيفة ونحو ذلك فهذا لا يسمى حلولا ، ومن سماه حلولا لم يكن بتسميته لذلك مبطلاً للحقائق . وقد تقدم أن ذلك لا يقتضى مفارقة صفة المخلوق له وانتقالها الى غيره ، فكيف صفة الخالق تبارك وتعالى ؟! ولكن لما كان فيه شبهة الحلول تنازع الناس فى اثبات لفظ الحلول ونفيه عنه هل يقال : ان كلام الله حال فى المصحف أو حال في الصدور ؟ وهل يقـال : كلام الناس المـكتوب حال فى المصحف أو حال في قلوب حافظيه ونحو ذلك ؟ فمنهم طائفة نفت الحلول كالقاضي

أبي يعلى وأمثاله وقالوا : ظهر كلام الله فى ذلك ولا نقول : حل : لأن حلول صفة الخالق فى المخلوق ، أو حلول القديم فى المحدث ممتنع . وطائفة أطلقت القول بأن كلام الله حال فى المصحف كأبي اسماعيل الانصاري الهروى — الملقب بشيخ الاسلام — وغيره وقالوا : ليس هذا هو الحلول المحذور الذي نفيناه ؛ بل نطلق القول بأن الكلام فى الصحيفة ولا يقال بأن الله فى الصحيفة أو فى صدر الانسان ، كذلك نطلق القول بأن كلامه حال فى ذلك دون حلول ذاته ، وطائفة ثالثة كأبى علي بن أبى موسى وغيره قالوا : لا نطلق الحلول نفياً ولا اثباتاً لأن اثبات ذلك يوهم انتقال صفة الرب الى المخلوقات ونفي ذلك يوهم نفي نزول القرآن الى الخلق فنطلق ما أطلقته النصوص ونمسك عما فى اطلاقه محذور لما في ذلك من الاجمال .

وأما قول القائل ان قلتم [ان هذا نفس كلام الله فقد قلتم بالحلول ، وان قلتم غير ذلك] قلتم بمقالتنا فجواب ذلك ان المقالة المنكرة هنا تتضمن ثلاثة أمور فاذا زالت لم يبق منكراً .

(أحدها) من يقول ان القرآن العربى لم يتكلم الله به وإنما أحدثه غير الله كجبريل ومحمد والله خلقه فى غيره .

(الثانى) قول من يقول ان كلام الله ليس الا معنى واحداً هو

الأمر والنهي والخبر وان الكتب الالهيـة تختلف باختـلاف العبارات لا باختلاف المعانى فيجعـل معنى التوراة والانجيـل والقرآن واحداً ، وكذلك معنى آية الدين وآية الكرسي ، كمن يقول ان معانى اسماء الله الحسنى بمعنى واحد فمعنى العليم والقدير والرحيم والحكيم معنى واحد فهذا إلحاد في أسمائه وصفاته وآياته .

(الثالث) قول من يقول ان ما بلغته الرسل عن الله من المعنى والألفاظ ليس هو كلام الله وان القرآن كلام التالـين لا كلام رب العـالمين . فهذه الأقوال الثلاثة باطلة بأي عبارة عبر عنها .

وأما قول من قال : ان القرآن العربى كلام الله بلغه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه تارة يسمع من الله ، وتارة من رساه مبلغين عنه ، وهو كلام الله حيث تصرف ، وكلام الله تكلم به لم يخلقه فى غيره ، ولا يكون كلام الله مخلوقاً ، ولو قرأه النـاس وكتبوه وسمعوه . وقال مع ذلك : ان أفعال العباد وأصواتهم وسائر صفاتهم مخلوقة فهذا لا ينكر عليه ، واذا نفى الحلول وأراد به ان صفة الموصوف لا تفارقه وتنتقل الى غيره فقد أصاب فى هذا المعنى ؛ لكن عليه مع ذلك ان يؤمن ان القرآن العربى كلام الله تعالى ، وليس هو ولا شيء منه كلاماً لغيره ، ولكن بلغته عنه رسله ، واذا كان كلام المخلوق يبلغ عنه مع العلم بأنه كلامه حروفه ومعانيه ، ومع العلم بأن شيئا من صفاته لم تفارق ذاته فالعلم بمثل هذا فى كلام الخالق أولى واظهر والله أعلم .

وقال ايضا شيخ الاسلام

قدس الله روحه

فصـــــل

قال تعالى : (وان أحد من المشركين استجـارك فأجره حتى يسمع كلام الله) . وهو منزل من الله ، كما قال تعالى : (أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلا ، والذين آتينـاهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) . فأخبر سبحـانه أنهم يعلمون ذلك والعلم لا يكون إلا حقاً .

وقال تعالى: (تنزيل الكتاب مـن الله العزيز الحـكيم) (حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) (حم تنزيل من الرحمن الرحيم) وقال تعالى : (ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وقال تعالى : (ولولا كلمة سبقت مـن ربك لـكان لزاماً وأجل مسمى) ونحو ذلك ، وقال تعالى : (قـل نزله روح القدس

من ربك بالحق) . فأخبر سبحانه انه منزل من الله ، ولم يخبر عن شيء أنه منزل من الله الا كلامه ؛ بخلاف نزول الملائكة والمطر والحديد وغير ذلك .

ولهذا كان القول المشهور عن السلف أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ؛ فان من قال انه مخلوق يقول انه خلق في بعض المخلوقات القائمة بنفسها ، فمن ذلك المخلوق نزل وبدأ لم ينزل من الله ، فاخبار الله تعالى أنه منزل من الله يناقض أن يكون قد نزل من غير الله ؛ ولهذا فسر الامام احمد قوله « منه بدأ » أي هو المتكلم به ، وقال احمد : كلام الله من الله ليس ببائن عنه .

و « أيضاً » فلو كان مخلوقاً في غيره لم يكن كلامه ؛ بل كان يكون كلاماً لذلك المخلوق فيه ، وكذلك سائر ما وصف به نفسه من الارادة والمحبة والمشيئة والرضى والغضب والمقت وغير ذلك من الأمور لو كان مخلوقاً في غيره لم يكن الرب تعالى متصفاً به ، بل كان يكون صفة لذلك المحل ؛ فان المعنى إذا قام بمحل كان صفة لذلك المحل ولم يكن صفة لغيره ، فيمتنع أن يكون المخلوق او الخالق موصوفاً بصفة موجودة قائمة بغيره ؛ لأن ذلك فطري ، فما وصف به نفسه من الأفعال اللازمة يمتنع أن يوصف الموصوف بأمر لم يقم به . وهذا مبسوط في مواضع أخر .

ولم يقل السلف : ان النبي سمعه من الله تعـالى ، كما يقول ذلك بعض المتأخرين . قال الله تعالى : (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته) وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال لي النبي صـلى الله عليه وسـلم « اقرأ علي القرآن » قلت : أقرأ عليك وعليـك أنزل ؟ قال « انى احب ان أسمعه مـن غيرى » فقرأت عليه سورة النسـاء ، حتى بلغت الى هـذه الآية (فكيف اذا جئنا مـن كل أمة بشهيد وجئنا بك عـلى هؤلاء شهيداً ؟) قال : « حسبك » . فنظرت فاذا عيناه تذرفان من البكاء .

والنبي صـلى الله عليـه وسـلم سمعه مـن جبريل ، وهو الذى نزل عليه به ، وجبريل سمعه من الله تعالى ، كما نص على ذلك أحمد وغيره من الأئمة ، قال تعالى : (قل من كان عدواً لجبريـل ، فانه نزله على قلبك باذن الله) وقال تعالى : (نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين) وقال تعالى (واذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا : إنما أنت مفتر ، بل أكثرهم لا يعلمون ، قل نزله روح القدس من ربك بالحق) فأخبر سبحـانه انه نزله روح القدس — وهو الروح الأمين ، وهو جبريل — من الله بالحق ، ولم يقل احد من السلف : ان النبي صـلى الله عليـه وسـلم سمعه من الله ، وإنما قال ذلك بعض المتأخرين .

وقوله تعالى : (ان علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم ان علينا بيـانه) هو كقوله تعـالى : (نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق) وقوله : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هـذا القرآن) ونحو ذلك ممـا يكون الرب فعله بملائكته : فان لفظ (نحن) هو للواحد المطاع الذي له أعوان يطيعونه ، فالرب تعالى خلق الملائـكة وغيرها تطيعه الملائـكة أعظم مما يطيع المخلوق أعوانه ، فهو سبحـانه أحق باسم « نحن » و « فعلنـا » ونحو ذلـك من كل ما يستعمـل .

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال : « كان النبي صلى الله عليـه وسلم يعالج من التنزيل شـدة وكان يحرك شفتيه ، فقـال ابن عباس : أنـا أحركها لك كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحركها . وقال سعيد ابن جبير : أنا أحركها كما رأيت ابن عباس يحركها ، فحرك شفتيه فانزل الله (لا تحرك به لسانك لتعجل به ؛ ان علينا جمعـه وقرآنه) قال : جمعه لك فى صـدرك وتقرأه (فاذا قرأناه فاتبـع قرآنه) فاذا قرأه رسولنا ، وفى لفـظ : فاذا قرأه جبريل فاستمع له وأنصت (ثم ان علينا بيانه) اي نقرؤه . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك اذا أتاه جبريل استمع ، فاذا انطلق جبريل قرأه النبي صلى الله عليـه وسلم كما قرأه » .

وقد بين الله تعالى أنواع تكليمه لعباده فى قوله (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء) فبين سبحانه ان التكليم تارة يكون وحياً ، وتارة من وراء حجاب كما كلم موسى ، وتارة يرسل رسولا فيوحي الرسول باذن الله ما يشاء ، وقال تعالى: (الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس) فاذا أرسل الله تعالى رسولا كان ذلك مما يكلم به عباده فيتلوه عليهم وينبئهم به كما قال تعالى : (قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم) وإنما نبأهم بواسطة الرسول والرسول مبلغ به ، كما قال تعالى : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك) وقال تعالى: (ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) وقال تعالى : (وما على الرسول إلا البلاغ المبين)

والرسول أمر أمته بالتبليغ عنه . ففي صحيح البخاري عن عبد الله ابن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: « بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علي معتمداً فليتبوأ مقعده من النار » وقال صلى الله عليه وسلم لما خطب المسلمين : « ليبلغ الشاهد الغائب ، فرب مبلغ أوعى من سامع » وقال صلى الله عليه وسلم : « نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فبلغه الى من لم يسمعه ، فرب حامل غير فقيه ، ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه »

وفى السنن عن جابر قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول « ألا رجل يحملني إلى قومه لابلغ كلام ربي ، فان قريشاً منعوني ان ابلغ كلام ربى »

وكما لم يقل أحد من السلف إنه مخلوق ، فلم يقل أحد منهم إنه قديم ، لم يقل واحداً من القولين أحد من الصحابة ولا التابعين لهم باحسان ولا من بعدهم من « الأئمة الأربعة » ولا غيرهم ؛ بل الآثار متواترة عنهم بأنهم كانوا يقولون القرآن كلام الله ، ولما ظهر من قال انه مخلوق قالوا رداً لكلامه : انه غير مخلوق ، ولم يريدو بذلك انه مفترى كما ظنه بعض الناس ، فان احداً من المسلمين لم يقل انه مفترى ، بل هذا كفر ظاهر يعلمه كل مسلم ، وانما قالوا انه مخلوق خلقه الله فى غيره ، فرد السلف هذا القول ، كما تواترت الآثار عنهم بذلك ، وصنف فى ذلك مصنفات متعددة ، وقالوا : منه بدا واليه يعود .

وأول من عرف أنه قال مخلوق : الجعد بن درهم وصاحبه الجهم ابن صفوان ؛ وأول من عرف انه قال هو قديم عبد الله بن سعيد بن كلاب ، ثم افترق الذين شاركوه فى هذا القول .

فمنهم من قال : الكلام معنى واحد قائم بذات الرب ، ومعنى القرآن كله والتوراة والانجيل وسائر كتب الله وكلامه هو ذلك المعنى الواحد الذي لا يتعدد ولا يتبعض ، والقرآن العربي لم يتكلم الله به ،

بل هو مخلوق خلقه فى غيره . وقال جمهور العقلاء : هذا القول معلوم الفســـاد بالاضطرار ، فانه مـــن المعلوم بصريح العقل ان معنى « آية الكرسي » ليس معنى «آية الدين » ولا معنى (قل هو الله أحد) معنى (تبت يدا أبي لهب) فكيف بمعانى كلام الله كله في الكتب المنزلة وخطابه لملائكته وحسابه لعباده يوم القيامة وغير ذلك من كلامه ؟!.

ومنهم من قال : هو حروف أو حروف وأصوات قـديمة أزليـــة لازمة لذاته لم يزل ولا يزال موصوفا بها .

وكلا الحزبين يقول : ان الله تعالى لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، وانه لم يزل ولا يزال يقول : يانوح ! ياابراهيم ! ياأيهـا المزمل ! ياأيها المدثر ! كما قد بسطت أقوالهم فى غير هذا الموضع ، ولم يقل أحـــد من السلف بواحد من القولين ، ولم يقل أحد من السلف : ان هــذا القرآن عبارة عن كلام الله ، ولا حكاية له ، ولا قال احـــد منهم إن لفظي بالقرآن قديم او غير مخلوق ، فضلا عن ان يقول : إن صوتي به قديم أو غير مخلوق ؛ بل كانوا يقولون بما دل عليه الكتاب والسنة من أن هذا القرآن كلام الله ، والنـــاس يقرءونه بأصواتهم ويكتبونه بمدادهم وما بين اللوحين كلام الله وكلام الله غير مخلوق .

وفى الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « لا تسافروا

بالقرآن إلى أرض العدو » وقال تعالى : (بل هو قرآن مجيد ، فى لوح محفوظ) والمداد الذي يكتب به القرآن مخلوق ، والصوت الذي يقرأ به هو صوت العبد ، والعبد وصوته وحركاته وسائر صفاته مخلوقة فالقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الباري ، والصوت الذي يقرأ به العبد صوت القارىء ، كما قال تعالى : (وان احد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم » فبين أن الاصوات التى يقرأ بها القرآن أصواتنا والقرآن كلام الله ، ولهذا قال أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة : يحسنه الانسان بصوته كما قال ابو موسى الاشعري للنبي صلى الله عليه وسلم : « لو علمت انك تسمع لحبرته لك تحبيراً » .

فكان ما قاله احمد وغيره من أئمة السنة من ان الصوت صوت العبد موافقاً للكتاب والسنة ، وقد قال تعالى : (واقصد في مشيك واغضض من صوتك) وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) وقال تعالى : (ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى) وقال تعالى : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً) ففرق سبحانه بين المداد الذي تكتب به كلماته وبين كلماته ، فالبحر وغيره من المداد الذي يكتب به الكلمات

مخلوق وكلمات الله غير مخلوقة . وقال تعالى : (ولو أن ما فى الأرض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر ما نفدت كلمات الله) فالابحر إذا قدرت مداداً تنفد وكلمات الله لا تنفد ؛ ولهـذا قال أئمة السنة لم يزل الله متكلما كيف شاء وبما شاء ، كما ذكرت الآثار بهذه المعاني عن ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما .

هذا وقد اخبر سبحـانه عن نفسه بالنداء فى اكثر من عشـرة مواضع ، فقال تعالى : (فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفـان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما الم انهكما عـن تلكما الشجرة واقل لكما ان الشيطـان لكما عدو مبين ؟) وقال تعالى : (ويوم ينـاديهم اين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟) (ويوم ينـاديهم فيقول ماذا اجبتم المرسلين ؟) وذكر سبحانه نداءه لموسى عليـه السلام فى سورة « طه » و « مريم » و « الطس الثلاث » وفي سورة و « النازعات » واخبر انه ناداه فى وقت بعينه فقال تعالى (فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الايمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى اني انا الله رب العالمين) وقال تعالى : (هل أتاك حديث موسى اذ ناداه ربـه بالواد المقدس طوى) وقال تعالى : (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا)

واستفاضت الآثار عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين ومن بعـدهم من أئمة السنة انه سبحانه ينادي بصوت : نادى موسى ،

وينادي عباده يوم القيامة بصوت ، ويتكلم بالوحي بصوت ، ولم ينقل عن احد من السلف أنه قال : ان الله يتكلم بلا صوت او بلا حرف ، ولا أنه أنكر ان يتكلم الله بصوت او بحرف ، كما لم يقل احد منهم ان الصوت الذي سمعه موسى قديم ، ولا ان ذلك النداء قديم ، ولا قال احد منهم : ان هـذه الاصوات المسموعة من القراء هي الصوت الذي تكلم الله بـه ؛ بل الآثار مستفيضـة عنهم بالفرق بين الصوت الذي يتكلم الله به وبين اصوات العباد .

وكان أئمة السنة يعدون من انكر تكلمه بصوت من الجهمية ، كما قال الامام أحمد لما سئل عمن قال ان الله لا يتكلم بصوت ، فقال : هؤلاء جهمية ، إنما يدورون على التعطيل . وذكر بعض الآثار المروية فى انه سبحانه يتكلم بصوت . وقد ذكر من صنف في السنة[1] من ذلك قطعة ، وعلى ذلك ترجم عليه البخاري فى صحيحه بقوله تعالى : (حتى إذا فزع عن قلوبهم) وقد ذكر البخاري فى « كتاب خلق الأفعال » مما يبين به الفرق بين الصوتين آثاراً متعددة . وكانت محنة البخاري مع اصحابه محمد بن يحيى الذهلي وغيره بعد موت احمد بسنين ولم يتكلم أحمد في البخاري إلا بالثناء عليه . ومن نقل عن احمد انه تكلم فى البخاري بسوء فقد افترى عليه .

---

(١) بياض بالاصل .

وقد ذكر الشيخ ابو الحسن محمد بن عبد الملك الكرخي فى كتابه الذي سماه (الفصول فى الأصول) قال سمعت الامام أبا منصور محمد بن أحمد يقول : سمعت أبا حامد الأسفرائيني يقول : مذهبي ومذهب الشافعي وفقهاء الامصار ان القرآن كلام الله غير مخلوق ومن قال : مخلوق فهو كافر ، والقرآن حمله جبريل مسموعا من الله ؛ والنبي صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل ، والصحابة سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي نتلوه نحن بألسنتنا ، وفيما بين الدفتين ، وما فى صدورنا : مسموعا ، ومكتوبا ، ومحفوظا ، وكل حرف منه كالباء والتاء كله كلام الله غير مخلوق . ومن قال : مخلوق فهو كافر ، عليه لعائن الله والناس أجمعين .

وقد كان طائفة من أهل الحديث والمنتسبين الى السنة تنازعوا فى اللفظ بالقرآن هل يقال انه مخلوق؟ ولما حدث الكلام فى ذلك أنكرت أئمة السنة كاحمد بن حنبل وغيره أن يقال : لفظي بالقرآن مخلوق او غير مخلوق ، وقالوا : من قال : انه مخلوق فهو جهمي ، ومن قال انه غير مخلوق فهو مبتدع . وأما صوت العبد فلم يتنازعوا انه مخلوق ، فان المبلغ لكلام غيره بلفظ صاحب الكلام انما بلغ غيره ، كما يقال : روى الحديث بلفظه وانما يبلغه بصوت نفسه لا بصوت صاحب الكلام .

و (اللفظ) في الأصل مصدر لفظ يلفظ لفظاً ، وكذلك « التلاوة »

والقراءة » مصـدران ؛ لكن شاع استعمال ذلك في نفس الـكلام الملفوظ المقروء المتلو ، وهو المراد باللفظ فى اطلاقهم ، فاذا قيل : لفظي او اللفظ بالقرآن مخلوق أشعر ان هذا القرآن الذي يقرؤه ويلفظ به مخلوق ، واذا قيل : لفظي غير مخلوق أشعر ان شيئاً مما يضاف اليه غير مخلوق ، وصوته وحركته مخلوقان ، لكن كلام الله الذي يقرؤه غير مخلوق ، و « التلاوة » قد يراد بها نفس الـكلام الذي يتلى وقد يراد بها نفس حركة العبد ، وقد يراد بها مجموعها . فاذا أريد بها الـكلام نفسه الذى يتلى فالتلاوة هي المتلو ، وإذا أريد بها حركة العبد فالتـلاوة ليست هي المتلو ، وإذا أريد بها المجموع فهي متناولة للفعل والـكلام فلا يطلق عليها انها المتلو ولا انها غيره .

ولم يكن أحد من السلف يريد بالتلاوة مجرد قراءة العباد وبالمتـلو مجرد معنى واحد يقوم بذات البارى تعالى ؛ بل الذي كانوا عليـه ان القرآن كلام الله تكلم الله به بحروفه ومعانيه ، ليس شيء منه كلامـا لغيره ، لا لجبريل ولا لمحمد ولا لغيرهما ؛ بل قـد كفر الله من جعـله قول البشر ، مع انه سبحانه أضـافه تارة إلى رسول من البشر وتارة الى رسول من الملائكة ، فقال تعالى : (انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين) فالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال تعالى :

(انه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثمّ أمين . وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالافق المبين ، وما هو على الغيب بضنين ، وما هو بقول شيطان رجيم ، فأين تذهبون ؟ إن هو إلا ذكر للعالمين) فالرسول هنا جبريل .

وأضافه سبحانه إلى كل منهما باسم رسول لأن ذلك يدل على انه مبلغ له عن غيره ، وأنه رسول فيه لم يحدث هو شيئاً منه ؛ إذ لو كان قد أحدث منه شيئا لم يكن رسولا فيما أحدثه بل كان منشئا له من تلقاء نفسه ، وهو سبحانه يضيفه الى رسول من الملائكة تارة ومن البشر تارة ، فلو كانت الاضافة لكونه أنشأ حروفه لتناقض الخبران ، فان انشاء أحدهما له يناقض إنشاء الآخر له . وقد كفر الله تعالى من قال : انه قول البشر ، فمن قال ان القرآن أو شيئاً منه قول بشر او ملك فقد كذب ، ومن قال انه قول رسول من البشر ومن الملائكة بلغه عن مرسله ليس قولا انشأه فقد صدق ، ولم يقل أحد من السلف : ان جبريل أحدث الفاظه ولا محمداً صلى الله عليه وسلم ، ولا ان الله تعالى خلقها فى الهواء أو غيره من المخلوقات ، ولا ان جبريل أخذها من اللوح المحفوظ ، بل هذه الاقوال هي من أقوال بعض المتأخرين .

وقد بسط الكلام في غير هذا الموضع على تنازع المبتدعين الذين اختلفوا فى الكتاب وبين فساد أقوالهم ، وان القول السديد هو قول

السلف وهو الذي يدل عليه النقل الصحيح والعقل الصريح وإن كان عامة هؤلاء المختلفين فى الكتاب لم يعرفوا القول السديد قول السلف ؛ بل ولا سمعوه ، ولا وجدوه فى كتاب من الكتب التى يتداولونها ؛ لأنهم لا يتداولون الآثار السلفية ولا معانى الكتاب والسنة إلا بتحريف بعض المحرفين لها ، ولهذا إنما يذكر أحدهم أقوالا مبتدعة : إما قولين ، وإما ثلاثة ، وإما أربعة ، وإما خمسة ، والقول الذي كان عليه السلف ودل عليه الكتاب والسنة لا يذكره لانه لا يعرفه ؛ ولهذا تجد الفاضل من هؤلاء حائراً مقراً بالحيرة على نفسه وعلى من سبقه من هؤلاء المختلفين لانه لم يجد فيما قالوه قولا صحيحاً .

وكان أول من ابتدع الاقوال « الجهمية المحضة النفاة » الذين لا يثبتون الأسماء والصفات ، فكانوا يقولون أولاً : ان الله تعالى لا يتكلم بل خلق كلاماً في غيره وجعل غيره يعبر عنه ، وان قوله تعالى : (وإذ نادى ربك موسى) وقول النبي صلى الله عليه وسلم « ان الله ينزل الى السماء الدنيا كل ليلة إذا بقي ثلث الليل ، فيقول : من يدعونى فاستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ » معناه ان ملكا يقول ذلك عنه ، كما يقال : نادى السلطان ، أي أمر مناديا ينادى عنه ، فاذا تلي عليهم ما أخبر الله تعالى به عن نفسه من انه يقول ويتكلم . قالوا هذا مجاز ؛ كقول العربي :

امتلأ الحوض وقال قطني .

وقالت[1] : اتساع بطنه ، ونحو ذلك .

فلما عرف السلف حقيقته وانه مضاه لقول المتفلسفة المعطلة الذين يقولون ان الله تعالى لم يتكلم ، وانما أضافت الرسل اليه الكلام بلسان الحال كفروهم وبينوا ضلالهم ، ومما قالوا لهم : ان المنادي عن غيره — كمنادي السلطان — يقول : أمر السلطان بكذا ، خرج مرسومه بكذا ، لا يقول انى آمركم بكذا وأنهاكم عن كذا ، والله تعالى يقول في تكليمه لموسى (انني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكرى) ويقول تعالى إذا نزل ثلث الليل الغابر « من يدعونى فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فاغفر له ؟ » وإذا كان القائل ملكا قال — كما في الحديث الذي في الصحيحين — « اذا أحب الله العبد نادى في السماء ياجبريل ! انى أحب فلانا فاحبه ، فيحبه جبريل ، وينادي في السماء ان الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول في الأرض » فقال جبريل في ندائه عن الله تعالى : « ان الله يحب فلانا فأحبوه » ، وفي نداء الرب يقول « من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ » .

(١) كذا بالأصل

فان قيل : فقد روى أنه يأمر مناديا فينادي ، قيل هذا ليس في الصحيح فان صح أمكن الجمع بين الخبرين بان ينادي هو ويأمر مناديا ينادي . أما أن يعارض بهذا النقل النقل الصحيح المستفيض الذي اتفق اهل العلم بالحديث على صحته وتلقيه بالقبول مع أنه صريح في ان الله تعالى هو الذي يقول : « من يدعونى فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه من يستغفرني فاغفر له ؟ » فلا يجوز .

وكذلك جهم كان ينكر أسماء الله تعالى فلا يسميه شيئاً ولا حيا ولا غير ذلك إلا على سبيل المجاز . قال : لأنه إذا سمي باسم تسمى به المخلوق كان تشبيهاً ، وكان جهم « مجبراً » يقول : ان العبد لا يفعل شيئاً ، فلهذا نقل عنه أنه سمى الله قادراً ؛ لأن العبد عنده ليس بقادر .

ثم ان المعتزلة الذين اتبعوا عمرو بن عبيد على قوله في القدر والوعيد دخلوا في مذهب جهم ، فأثبتوا أسماء الله تعالى ولم يثبتوا صفاته ، وقالوا نقول ان الله متكلم حقيقة . وقد يذكرون إجماع المسلمين على أن الله متكلم حقيقة ، لئلا يضاف اليهم أنهم يقولون انه غير متكلم ، لكن معنى كونه سبحانه متكلما عندهم انه خلق الكلام في غيره ، فمذهبهم ومذهب الجهمية في المعنى سواء ، لكن هؤلاء يقولون هو متكلم حقيقة وأولئك ينفون أن يكون متكلما حقيقة . وحقيقة قول الطائفتين أنه غير

متكلم ، فانه لا يعقل متكلم إلا من قام به الكلام ، ولا مريد الا من قامت به الارادة ، ولا محب ولا راض ولا مبغض ولا رحيم إلا من قامت به الارادة والمحبة والرضى والبغض والرحمة ، وقد وافقهم على ذلك كثير ممن انتسب في الفقه إلى أبي حنيفة من المعتزلة . وغيرهم من أئمة المسلمين ليس فيهم من يقول بقول المعتزلة لا في نفي الصفات ولا فى القدر ولا المنزلة بين المنزلتين ولا انفاذ الوعيد .

ثم تنازع المعتزلة والكلابية فى حقيقة « المتكلم » فقالت المعتزلة : المتكلم من فعل الكلام ولو أنه أحدثه فى غيره ، ليقولوا ان الله يخلق الكلام فى غيره وهو متكلم به . وقالت الكلابية : المتكلم من قام به الكلام وان لم يكن متكلما بمشيئته وقدرته ولا فعل فعلاً أصلا بل جعلوا المتكلم بمنزلة الحي الذي قامت به الحياة ، وان لم تكن حياته بمشيئته ولا قدرته ولا حاصلة بفعل من أفعاله .

وأما السلف واتباعهم وجمهور العقلاء فالمتكلم المعروف عندهم من قام به الكلام ، وتكلم بمشيئته وقدرته . لا يعقل متكلم لم يقم به الكلام ، ولا يعقل متكلم بغير مشيئته وقدرته ، فكان كل من تينك الطائفتين المبتدعتين أخذت بعض وصف المتكلم : المعتزلة أخذوا انه فاعل ، والكلابية اخذوا انه محل الكلام ، ثم زعمت المعتزلة انه يكون فاعلا للكلام فى غيره وزعموا هم ومن وافقهم من اتباع الكلابية كابى الحسن

وغيره ان الفاعل لا يقوم به الفعل ، وكان هـذا ممـا انكره السلف وجمهور العقلاء ، وقالوا لا يكون الفاعل إلا من قام بـه الفعل ، وانـه يفرق بـين الفاعل والفعل والمفعول، وذكر البخاري في « كتاب خلق أفعال العباد » اجماع العلماء على ذلك .

والذين قالوا ان الفاعل لا يقوم به الفعل ، وقالوا مـع ذلك ان الله فاعل أفعال العباد كابى الحسن وغيره ، وان العبـد لم يفعل شيئاً وأن جميع ما يخلقه العبد فعل له ، وهم يصفونه بالصفات الفعلية المنفصلة عنه ويقسمون صفاته إلى صفات ذات وصفات افعال ، مـع ان الافعال عندهم هي المفعولات المنفصلة عنه ، فلزمهم ان يوصف بما خلقه من الظـلم والقبائح مع قولهم انه لا يوصف بما خلقه من الـكلام وغيره ، فكان هذا تناقضاً منهم تسلطت به عليهم المعتزلة . ولما قرروا ماهو من أصول اهل السنة وهو ان المعنى إذا قام بمحل اشتق له منه اسم ولم يشتق لغـيره منه اسم كاسم المتكلم نقض عليهم المعتزلة ذلك باسم الخالق والعادل فـلم يجيبوا عن النقض بجواب سديد .

وأما السلف والأئمة فاصلهم مطرد . ومما احتجوا به على ان القرآن غير مخلوق ما احتج به الأمام احمد وغيره من قول النبي صلى الله عليه وسلم « اعوذ بكلمات الله التامات » . قالوا والمخـلوق لا يستعاذ بـه ، فعورضوا بقوله « اعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وبك

منك » فطرد السلف والأئمة أصلهم وقالوا معافاته فعله القائم به ، وأما العافية الموجودة فى الناس فهى مفعوله .

وكذلك قالوا : ان الله خالق أفعال العباد ، فأفعال العباد القائمة بهم مفعولة له لا نفس فعله ، وهي نفس فعل العبد ، وكان حقيقة قول اولئك نفي فعل الرب ونفي فعل العبد . فتسلطت عليهم المعتزلة فى « مسألة الكلام والقدر » تسلطاً بينوا به تناقضهم كما بينوا هم تناقض المعتزلة .

وهذا أعظم ما يستفاد من أقوال المختلفين الذين أقوالهم باطلة ، فانه يستفاد من قول كل طائفة بيان فساد قول الطائفة الأخرى ، فيعرف الطالب فساد تلك الأقوال ، ويكون ذلك داعياً له إلى طلب الحق ، ولا تجد الحق إلا موافقاً لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ولا تجد ما جاء به الرسول إلا موافقاً لصريح المعقول ، فيكون ممن له قلب او ألقى السمع وهو شهيد ، وممن له قلب يعقل به وأذن يسمع بها ، بخلاف الذين قالوا : (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) .

وقد وافق الكلابية على قولهم كثير من أهل الحديث والتصوف ، ومن أهل الفقه المنتسبين الى الأئمة الأربعة ، وليس من الأئمة الأربعة

وأمثالهم من أئمة المسلمين من يقول بقولهم .

وحدث مع الكلابية ونحوهم طوائف أخرى من الكرامية وغير الكرامية من أهل الفقه والحديث والكلام فقالوا : إنه سبحانه متكلم بمشيئته وقدرته كلاماً قائماً بذاته ، وهو يتكلم بحروف وأصوات بمشيئته وقدرته ، ليتخلصوا بذلك من بدعتى المعتزلة والكلابية ؛ لكن قالوا انه لم يكن يمكنه في الأزل أن يتكلم ؛ بل صار الكلام ممكناً له بعد ان كان ممتنعاً عليه ، من غير حدوث سبب أوجب إمكان الكلام وقدرته عليه ، وهذا القول مما وافق الكرامية عليه كثير من أهل الكلام والفقه والحديث ؛ لكن ليس من الأئمة الأربعة ونحوهم من أئمة المسلمين من نقل عنه مثل قولهم . وهذا مما شاركوا فيه الجهمية والمعتزلة ؛ فان هؤلاء كلهم يقولون : انه لم يكن الكلام ممكناً له فى الأزل ثم صار ممكناً له بعد أن كان ممتنعاً علية من غير حدوث سبب أوجب إمكانه ؛ لكن الجهمية والمعتزلة يقولون انه خلق كلاماً فى غيره من غير أن يقوم به كلام ؛ لأنه لو قام به كلام بمشيئته وقدرته لقامت به الحوادث ، قالوا : ولا تقوم به الحوادث . قالت الجهمية والمعتزلة . لأن الحوادث هي من جملة الصفات التى يسمونها الأعراض . وعندهم لا يقوم به شيء من الصفات ، قالوا لأن الصفات أعراض والعرض لا يقوم إلا بجسم وليس هو بجسم ؛ لأن الجسم لا يخلو من الحوادث وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث .

وقالت الكلابية : بل تقوم به الصفات ولا تقوم به الحوادث ، ونحن لا نسمي الصفات اعراضاً ؛ لأن العرض عندنا لا يبقى زمانين، وصفات الله تعالى باقية . وقالوا : وأما الحوادث فلو قامت به لم يخل منها ؛ لأن القابل للشيء لا يخلو منه ومن ضده ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث .

فقال الجمهور المنازعون للطائفتين : أما قول أولئك : انه لاتقوم به الصفات ؛ لأنها اعراض والعرض لا يقوم إلا بجسم وليس بجسم ، فتسمية ما يقوم بغيره عرضاً اصطلاح حادث ، وكذلك تسمية ما يشار اليه جسما اصطلاح حادث أيضاً ، و « الجسم » فى لغة العرب هو البدن وهو الجسد كما قال غير واحد من أهل اللغة منهم الأصمعي وأبو عمرو ، فلفظ الجسم يشبه لفظ الجسد وهو الغليظ الكثيف . والعرب تقول هذا جسيم وهذا أجسم من هذا أي أغلظ منه . قال تعالى (وزاده بسطة فى العلم والجسم) وقال تعالى (واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم) ثم قد يراد بالجسم نفس الغلظ والكثافة ، ويراد به الغليظ الكثيف .

وكذلك النظار يريدون بلفظ « الجسم » تارة المقدار ، وقد يسمونه الجسم التعليمي ، وتارة يريدون به الشيء المقدر ، وهو الجسمي الطبيعي والمقدار المجرد عن المقدر كالعدد المجرد عن المعدود ، وذلك لا يوجد إلا

فى الأذهان دون الاعيان . وكذلك السطح والخط والنقطة المجردة عن المحل الذي تقوم به لا يوجد إلا فى الذهن . قالوا وإذا كان هذا معنى الجسم بلغة العرب فهو أخص من المشار إليه ، فان الروح القائمة بنفسها لا يسمونها جسما ، بل يقولون خرجت روحه من جسمه ، ويقولون انه جسم وروح ، ولا يسمون الروح جسما ، ولا النفس الخارج من الانسان جسما ، لكن أهل الكلام اصطلحوا على أن كل ما يشار إليه يسمى جسما ، كما اصطلحوا على أن كل ما يقوم بنفسه يسمى جوهراً ، ثم تنازعوا فى ان كل ما يشار إليه هل هو مركب من الجواهر الفردة ، أو من المادة والصورة ، او ليس مركباً لا من هذا ولا من هذا على اقوال ثلاثة قد بسطت فى غير هذا الموضع ؛ ولهذا كان كثير منهم يقولون الجسم عندنا هو القائم بنفسه ، او هو الموجود لا المركب .

قال اهل العلم والسنة فاذا قالت الجهمية وغيرهم من نفاة الصفات : ان الصفات لا تقوم الا بجسم ، والله تعالى ليس بجسم ، قيل لهم : ان اردتم بالجسم ما هو مركب من جواهر فردة أو ما هو مركب من المادة والصورة لم نسلم لكم « المقدمة الاولى » وهي قولكم : إن الصفات لا تقوم إلا بما هو كذلك ، قيل لكم ان الرب تعالى قائم بنفسه والعباد يرفعون ايديهم إليه فى الدعاء ويقصدونه بقلوبهم وهو العلي الأعلى سبحانه ، ويراه المؤمنون بأبصارهم يوم القيامة عيانا كما يرون القمر ليلة

البدن . فان قلتم : إن ما هو كذلك فهو جسم وهو محدث ، ـــ كان هذا بدعة مخالفة للغة والشرع والعقل ، وإن قلتم : نحن نسمي ما هو كذلك جسما ونقول انه مركب ، قيل تسميتكم التى ابتدعتموها هي من الاسماء التى ما انزل الله بها من سلطان ، ومن عمد إلى المعاني المعلومة بالشرع والعقل وسماها باسماء منكرة لينفر الناس عنها قيل له النزاع فى المعانى لا فى الألفاظ ولو كانت الألفاظ موافقة للغة ، فكيف اذا كانت من ابتداعهم ؟ ومعلوم ان المعـاني التى يعلم ثبوتهـا بالشرع والعقل لا تدفع بمثل هذا النزاع اللفظي الباطل.. واما قولهم ان كل ما كان تقوم به الصفـات وترفـع الأيدي إليه ويمكن أن يراه الناس بابصارهم فانه لابد ان يكون مركباً من الجواهر المفردة أو من المـادة والصورة فهذا ممنوع ؛ بل هو باطل عنـد جمهور العقلاء : من النظار والفقهـاء وغيرهم ، كما قد بسط فى موضعه .

قال الجمهور : واما تفريق الـكلابية بين المعاني التى لا تتعلق بمشيئته وقدرته والمعاني التى تتعلق بمشيئته وقدرته ـــ التى تسمى الحوادث ، ومنهم من يسمي الصفـات اعراضاً ، لان العرض لا يبقى زمانين ـــ فيقال : قول القائل : ان العرض الذي هو السواد والبيـاض والطول والقصر ونحو ذلك لا يبقى زمانين قول محدث في الاسلام ، لم يقله احد من السلف والائمة ، وهو قول مخالف لما عليه جماهير العقلاء من جميع

الطوائف ؛ بل من الناس من يقول انه معلوم الفساد بالاضطرار ، كما قد بسط فى موضع آخر .

وأما تسمية المسمي للصفات اعراضاً فهذا امر اصطلاحي لمن قاله من أهل الكلام ليس هو عرف أهل اللغة ولا عرف سائر أهل العلم ، والحقائق المعلومة بالسمع والعقل لا يؤثر فيها اختلاف الاصطلاحات ، بل يعد هذا من النزاعات اللفظية ، والنزاعات اللفظية اصوبها ما وافق لغة القرآن والرسول والسلف ، فما نطق به الرسول والصحابة جاز النطق به باتفاق المسلمين ، وما لم ينطقوا به ففيه نزاع وتفصيل ليس هذا موضعه .

وأما قول « الكلابية » ما يقبل الحوادث لا يخلو منها وما لم يخل من الحوادث فهو حادث . فقد نازعهم جمهور العقلاء فى كلا المقدمتين حتى أصحابهم المتأخرون نازعوهم فى ذلك ، واعترفوا ببطلان الادلة العقلية التى ذكرها سلفهم على نفي حلول الحوادث به ، واعترف بذلك المتأخرون من أئمة الأشعرية والشيعة والمعتزلة وغيرهم كما قد بسط فى غير هذا الموضع .

وحدثت طائفة اخرى من السالمية وغيرهم — ممن هو من اهل الكلام والفقه والحديث والتصوف ، ومنهم كثير ممن هو ينتسب الى

مالك والشافعي وأحمد بن حنبل. وكثر هذا فى بعض المتأخرين المنتسبين الى أحمد بن حنبل — فقالوا بقول المعتزلة وبقول الكلابية: وافقوا هؤلاء فى قولهم انه قديم، ووافقوا أولئك فى قولهم انه حروف وأصوات، وأحدثوا قولاً مبتدعا — كما أحدث غيرهم — فقالوا: القرآن قديم، وهو حروف وأصوات قديمة أزلية لازمة لنفس الله تعالى أزلا وأبداً.

واحتجوا على انه قديم بحجج الكلابية، وعلى أنه حروف واصوات بحجج المعتزلة. فلما قيل لهم: الحروف مسبوقة بعضها ببعض فالباء قبل السين والسين قبل الميم، والقديم لا يسبق بغيره، والصوت لا يتصور بقاؤه فضلا عن قدمه، قالوا: الكلام له وجود وماهية، كقول من فرق بين الوجود والماهية من المعتزلة وغيرهم. قالوا: والكلام له ترتيب فى وجوده، وترتيب ماهية الباء للسين بالزمان هي فى وجوده وهي مقارنة لها فى ماهيتها لم تتقدم عليها بالزمان وان كانت متقدمة بالمرتبة كتقدم بعض الحروف المكتوبة على بعض. فان الكاتب قد يكتب آخر المصحف قبل أوله ومع هذا فاذا كتبه كان أوله متقدما بالمرتبة على آخره.

فقال لهم جمهور العقلاء هذا مما يعلم فساده بالاضطرار؛ فان الصوت لا يتصور بقاؤه، ودعوى وجود ماهية غير الموجود فى الخارج دعوى

فاسدة ، كما قد بسط فى موضع آخر ، والترتيب الذي فى المصحف هو ترتيب للحروف المدادية والمداد أجسام ، فهو كترتيب الدار والانسان ، وهذا امر يوجد الجزء الأول منه مع الثانى بخلاف الصوت فانه لا يوجد الجزء الثانى منه حتى يعدم الأول كالحركة ، فقياس هذا بهذا قياس باطل ، ومن هؤلاء من يطلق لفظ القديم ولا يتصور معناه ، ومنهم من يقول يعني بالقديم انه بدأ من الله وأنه غير مخلوق ، وهذا المعنى صحيح ؛ لكن الذين نازعوا هل هو قديم أو [ليس بقديم] لم يعنوا هذا المعنى ، فمن قال لهم : انه قديم وأراد هذا المعنى قد أراد معنى صحيحاً لكنه جاهل بمقاصد الناس مضل لمن خاطبه بهذا الكلام ، مبتدع فى الشرع واللغة .

ثم كثير من هؤلاء يقولون : ان الحروف القديمة والأصوات ليست هي الاصوات المسموعة من القراء ولا المداد الذي فى المصحف ، ومنهم من يقول بل الأصوات المسموعة من القراء هو الصوت القديم ، ومنهم من يقول بل يسمع من القاريء شيئان : الصوت القديم ، وهو مالا بد منه فى وجود الكلام . والصوت المحدث ، وهو مازاد على ذلك ، وهؤلاء يقولون المداد الذي فى المصحف مخلوق ؛ لكن الحروف القديمة ليست هي المداد ؛ بل الأشكال والمقادير التى تظهر بالمداد ، وقد تنقش فى حجر وقد تخرق في ورق ، ومنهم من يمنع أن يقال فى المداد انه قديم أو

مخلوق ، وقد يقول لا أمنع عن ذلك بل أعلم انه مخلوق لكن أسد باب الخوض فى هذا ، وهو مع هـذا يهجر من يتـكلم بالحق ومن يبـين الصواب الموافق للـكتاب والسنة واجماع سلف الأمة مع موافقته لصريح المعقول ، ومع دفعه للشناعات التى يشنع بها بعضهم على بعض .

وخوض الناس وتنازعهم فى هذا الباب كثير قد بسطناه فى مواضع . وإنما المقصود هنا ذكر قول مختصر جامع يبين الاقوال السديدة التى دل عليها الـكتاب والسنة وكان عليها سلف الأمة فى مسألة الـكلام ، الـتى حيرت عقول الأنام والله تعالى أعلم .

سئل شيخ الاسلام مفتى الانام

تقى الدين أبو العباس أحمد بن تيمية

عن قوم يقولون : كلام الناس وغيرهم قديم — سواء كان صدقاً أو كذباً ، فحشا أو غير فحش ، نظما أو نثراً — ولا فرق بين كلام الله وكلامهم فى القدم إلا من جهة الثواب . وقال قوم منهم — بل اكثرهم — : أصوات الحمير والكلاب كذلك ، ولما قرىء عليهم ما نقل عن الامام احمد رداً على قولهم تأولوا ذلك ، وقالوا : بأن أحمد إنما قال ذلك خوفاً من الناس ، فهل هؤلاء مصيبون أو مخطئون ؟ وهل على ولي الأمر وفقه الله تعالى زجرهم عن ذلك أم لا ؟ وهل يكفرون بالاصرار على ذلك أم لا ؟ وهل الذي نقل عن أحمد حق كما زعموا أم لا (1)

فأجاب رضى الله عنه

الحمد لله . بل هؤلاء مخطئون فى ذلك خطأ محرماً باجماع المسلمين وقد قالوا منكراً من القول وزوراً ؛ بل كفراً ومحالا يجب نهيهم عنه ويجب على ولاة الأمور عقوبة من لم ينته منهم عن ذلك ، جزاء بما

(1) تسمى : « الكيلانية » .

كسبوا نكالا من الله ؛ فان هذا القول مخالف للعقل والدين مناقض للكتاب والسنة وإجماع المؤمنين . وهي « بدعة شنيعة » لم يقلها أحد قط من علماء المسلمين : لا علماء السنة ولا علماء البدعة ، ولا يقولها عاقل يفهم ما يقول ؛ ولكن عرض لمن قالها شبهة، ونحن نبينها إن شاء الله تعالى .

ولا يحتاج في مثل هذا الكلام الذي فساده معلوم ببداية العقول أن يحتج له بنقل عن إمام من الأئمة الا من جهة بيان أن رده وإنكاره منقول عن الأئمة، وأن قائله مخالف للأمة مبتدع في الدين ؛ ولتزول بذلك شبهة من يتوهم أن قولهم من لوازم قول أحد من السلف ، ويعلم أنهم مخالفون لمذاهب الأئمة المقتدى بهم المعظمين ؛ وليتبين أن نقيض قولهم منصوص ، عن الأئمة المتبعين في السنة ، وليس ذلك مما سكتوا عنه نفياً وإثباتاً .

وانه لا ريب ان الامام « أحمد بن حنبل » ومن قبله وبعده من الأئمة نصوا على أن كلام الآدميين مخلوق — نصاً مطلقاً — بل نص أحمد وكثير من الأئمة على « أفعال العباد » عموما وعلى « كلام الآدميين » خصوصاً ، ولم يمتنعوا عن هذا الاطلاق لأجل الشبهة التى عرضت لهؤلاء المبتدعة المخالفين ، حتى لا يقول قائل منهم أو من غيرهم : إنه لا يقال مخلوق ولا غير مخلوق لأجل شبهتهم ، أو لكون الكلام فى

ذلك بدعة ، بل القول بأن كلام الآدميين مخلوق غير قديم منصوص عن الأئمة المتفق على إمامتهم فى الدين والسنة .

فمنهم من نص عليه لما تكلم فى « مسائل القدر » و « خلق أفعال العباد » ومنهم من نص عليه لما تكلم فى « مسألة تلاوة العباد للقرآن واللفظ به »

ومنهم من نص عليه محتجاً به على الفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق . فروى أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال ــ وهو الذي جمع نصوص أحمد فى أصول الدين وأصول الفقه وفى أبواب الفقه كلها وفى الآداب والأخلاق والزهد والرقائق وفى علل الحديث وفى التاريخ وغير ذلك من علوم الاسلام .

روي ــ فى « كتاب السنة » فى الكلام على اللفظية عن أبي بكر ابن زنجويه ، قال : سمعت أحمد بن حنبل يقول : من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع ، لايكلم . قال الخلال : وأخبرنا أبو داود السجستاني قال : سمعت أبا عبد الله يتكلم فى « اللفظية » وينكر عليهم كلامهم ، وسمعت إسحق بن راهويه ذكر « اللفظية » وبدعهم ، وقال الخلال : سمعت ابن صدقة قال سمعت يحي ابن حبيب بن عربي قال سمعت رجلا سأل معتمر بن سليمان ان لنا

إماماً قدريا أصلي خلفه قال : من زعم أن لفظه غير مخلوق بمنزلة من زعم ان سماء الله غير مخلوقة ، قال الخلال : وأخبرني أبو بكر المروذي حدثنا محمد بن يحي الأزدي حدثني مسدد قال : كنت عند يحي القطان وجاء يحي بن اسحق بن توبة العنبري فقال له يحي حدث هـذا يعني مسدداً كيف قال حماد بن زيد فيها ؟ — أي « مسألتنا » — فقال سألت حماد بن زيد عمن قال : كلام الناس ليس بمخلوق ، فقال هـذا كلام أهل الكفر ، وقال يحي بن اسحق سألت معتمر بن سليمان عمن قال كلام الناس ليس بمخلوق فقال هذا كفر .

فهذه الآثار ونحوها مما اعتمد عليها المشهورون بالسنة كالمروذي والخلال وغيرهما ، وكذلك الامام أبو عبد الله بن بطة يعتمد في كتابه « الابانة الكبير » على هذه الآثار ونحوها .

قلت : « حماد بن زيد » أحد الأئمة الاعلام فى السنة فى طبقة مالك والثوري والأوزاعي وحماد بن سلمة والليث بن سعد فى الزمان والامامة بل هو عند علماء السنة أقعد بالسنة من الثوري ، وان كان الثوري أكثر علما منه وزهداً ، وعند علماء الحديث أحفظ للحديث من حماد بن سلمة ، وان كان حماد أشهر بالزهد وأكثر دعاء إلى السنة وهو إمام البصرة فى ذلك الزمان الذي كانت البصرة فيه مجمع علم الاسلام ، وكان علماء الأمة وورثة الأنبياء وخلفاء الرسل فى ذلك العصر

الذي هو عصر تابعي التـابعين هؤلاء المسلمين ونحوهم وهم من القرن الثالث الممدوح .

و « المعتمر بن سليمان » أحد الأئمة الأعلام أيضاً ، وهو دون حماد ابن زيد ، وقد أدركه الامام أحمد واسحق بن راهويه وغيرهما وهو أحد شيوخ الامام أحمد وأما « حماد بن زيد » ففات الامام أحمد فقال : فاتنى حماد بن زيد فعوضني الله باسماعيل بن عليـة ، وفاتنى مالـك بن أنس فعوضني الله سفيان بن عيينة .

وأما « يحي بن سعيد القطان » فهو أحد علماء السنة وهو إمام أهل الحديث فى معرفـة صحته وعلله ورجاله وضبطـه حتى قال أحمد : ما رأيت بعيني مثله ، يعني فى ذلـك الفن ، وعنه أخـذ ذلك علي بن المدينى ، وعن علي أخذ ذلك البخاري صاحب الصحيح ، وقـد ذكر الترمذي أنه لم ير فى معرفة علل الحديث مثل محمد بن اسماعيل البخاري .

وهؤلاء العلماء الأئمة أنـكروا على من قال كلام الآدميين ولفظهم غير مخلوق لما نبغت « القدرية » المبتدعـة ، وزعموا أن أفعال العبـاد غير مخلوقة لله : لا أقوالهم ولا سائر اعمالهم : لا خيرها ولا شرها ؛ بل يقولون : هي محدثة أحدثهـا العبد ، وليست مخلوقة لأحـد ، أو يقولون : العبد خلقها ، كما أنه أحدثها ؛ فانهم قد يتنازعون فى إثبـات

خلق لغير الله . ومع هذا فلم يكن بين الأمة نزاع فى أنها محدثة كائنة بعد أن لم تكن ، ولم يقل أحد : إنها قديمة ؛ ولكن « القدرية » من المعتزلة وغيرهم إعتقدوا أن الأفعال الاختيارية وما يتولد عنها من أفعال الملائكة والجن والانس ــ الطاعات والمعاصي ــ لم يخلقها الله . قالوا : لأنه لو خلقها للزم أن يكون العبد مجبوراً ، وأن يرتفع التكليف والوعد والوعيد والثواب والعقاب ؛ ولان العبد يعلم أنه هو الذي يحدث أفعاله علما ضروريا وعللوا ذلك بأدلة نظرية .

فلما ابتدعوا هذه « المقالة » أنكرها أئمة السنة ، كما أنكر الصحابة رضوان الله عليهم أول هذه البدعة لما نبغت القدرية فى أواخر عصر الصحـــابة فرد عليهم ابن عمر وابن عباس وواثلة بن الأسقع وغيرهم من الصحابة .

وبين الأئمة أن من جعل شيئاً من المحدثات كأفعال العباد وغيرها ليس مخلوقا لله فهو مثل من أنكر خلق الله لغير ذلك من المحدثات كالسماء والأرض ؛ فان الله رب العـــالمين ، ومالك الملك ، وخالق كل شيء ، فليس شيء من العالمين خارجاً عن ربوبيته ، ولا شيء من الملك خارجاً عن ملـــكه ، ولا شيء من المحدثات خارجاً عن خلقه ، قال تعالى : (الله خالق كل شيء وهو عـــلى شيء وكيل ، له مقـــاليد السمـــوات والأرض) وقال تعالى : (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقـــه فتشابه

الخلق عليهم ، قل : الله خالق كل شيء) وقال تعالى : (بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟! وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو ، خالق كل شيء ، فاعبدوه ، وهو على كل شي وكيل ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) وقال تعالى : (ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ؟) وقال تعالى : (الذي له ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولداً ، ولم يكن له شريك فى الملك ، وخلق كل شيء فقدره تقديراً) وقال تعالى : (إنا كل شيء خلقناه بقدر) وقال تعالى : (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ؟ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ؛ إن الله لغفور رحيم . والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ، والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، أموات غير أحياء ، وما يشعرون أيان يبعثون)

ولهذا كان أهل السنة والجماعة والحديث هم المتبعين لكتاب الله المعتقدين لموجب هذه النصوص حيث جعلوا كل محدث من الأعيان والصفات والأفعال المباشرة والمتولدة وكل حركة طبعية أو إرادية أو قسرية فان الله خالق كل ذلك جميعه وربه ومالكه ومليكه ووكيل عليه، وانه سبحانه على كل شيء قدير ، وبكل شيء عليم ، فآمنوا بعلمه المحيط ، وقدرته الكاملة ، ومشيئته الشاملة ، وربوبيته التامة ؛ ولهذا

قال ابن عباس: الايمان بالقدر نظام التوحيد فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيده، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده .

وأما صفة الله تعالى فهي داخلة فى مسمى أسمائه الظاهرة والمضمرة فاذا قلت : عبدت الله ، ودعوت الله و (إياك نعبد) فهذا الاسم لا يخرج عنه شيء من صفاته من علمه ورحمته وكلامه وسائر صفاته ؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » وقال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » وقد ثبت عنه : « الحلف بعزة الله » والحلف بقوله : « لعمر الله » فعلم ان ذلك ليس حلفاً بغير الله فأعطوا هذه الآيات المنصوصة حقها فى اتباع عمومها الذي قد صرحت به فى أن الله خالق كل شيء ؛ إذ قد علم ان الله ليس هو داخلا فى المخلوق، وعلم ان صفاته ليست خارجة عن مسمى اسمه .

وأما « المعتزلة » الذين جمعوا التجهم والقدر فأخرجوا عنها ما يتناوله الاسم يقيناً من أفعال الملائكة والجن والانس والبهائم : طاعاتها وغير طاعاتها ، وذلك قسط كبير من ملك الله وآياته ؛ بل هي من محاسن ملكه وأعظم آياته ومخلوقاته ، وأدخلوا فى ذلك كلامه لكونه يسمى « شيئاً » فى مثل قوله : (إذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل : من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ؟) ولم ينظروا فى أن ذلك مثل تسمية علمه « شيئاً » فى قوله : (ولا يحيطون

بشيء من علمه إلا بما شاء) وتسمية نفسه شيئاً فى قوله : (قل أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بيني وبينكم) وأن قوله : (كل شيء) يعم بحسب ما اتصل به من الكلام .

فان الاسم تتنوع دلالته بحسب قيوده . ففي قوله : (وهو بكل شيء عليم) دخل فى ذلك نفسه لأنها تصلح أن تعلم ، وفى قوله : (وهو على كل شيء قدير) دخل في ذلك ما يصلح أن يكون مقدوراً وذلك يتناول كل ما كانت ذاته ممكنة الوجود ، وقد يقال: دخل فى ذلك كل ما يسمى شيئاً بمعنى « مشيئاً » فان « الشيء » فى الأصل مصدر وهو بمعنى المشيء ، فكل ما يصلح أن يشاء فهو عليه قدير ، وإن شئت قلت : قدير على كل ما يصلح أن يقدر عليه ، والممتنع لذاته ليس شيئاً باتفاق العقلاء . وفى قوله : (الله خالق كل شيء) قد علم أن الخالق ليس هو المخلوق ، وانه لا يتناوله الاسم ، وإنما دخل فيه كل شيء مخلوق : وهي الحادثات جميعها .

هذا مع أن أهل السنة يقولون ان العبد له مشيئة وقدرة وإرادة وهو فاعل لفعله حقيقة ، وينهون عن إطلاق « الجبر » فان لفظ « الجبر » يشعر أن الله أجبر العبد على خلاف مراد العبد ، كما تجبر المرأة على النكاح ؛ وليس كذلك ؛ بل العبد مختار يفعل باختياره ومشيئته ورضاه ومحبته ليس مجبوراً عديم الارادة ، والله خالق هذا

كله ؛ فان هذه الأمور من المحدثات الممكنات ، فالدلالة على أن الله خالقها كالدلالة على أنه خالق غيرها من المحدثات وليس هـذا موضع الـكلام على هذا فان ذلك له موضع آخر .

وإنما الغرض هنـا أن الأئمة ردوا على من جعـل أقوال العباد وأفعالهم خارجة عـن خلق الله وجعلوا ذلك بمنزلة من جعـل السماء والأرض ليس مخلوقة لله . هذا مع أن أولئك المبتدعين كانوا يقولون إنها محدثة ليست قديمة ، فـكيف إذا قيل : إنها قديمة ؟! فان ذلك يصير ضلالين بل ثلاث ضلالات .

(أحدها) جعـل المحدث المصنوع صفـة لله قديمة مضاهـاة للنصارى ونحوهم .

و (الثاني) اخراج مخلوق الله ومقدوره من خلقه وقدرته كما قالته القدرية مضاهاة للمجوس ونحوهم .

و (الثالث) إخراج فعل العبد ومقدوره وكسبه عن أن يكون مقدوراً له وكسباً وفعلا مضاهاة للجبرية القدرية المشركية ، فهـذا كان وجه كلام أولئك الأئمة فى هذا .

ثم لما حدثت بدعة « اللفظية » احتج أئمة ذلك العصر فى جملة

ما احتجوا به بكلام أولئك السلف مثل البخاري الامام صاحب « الصحيح » ، ومثل أبي بكر المروذي الامام صاحب الامام أحمد بن حنبل ، وخلق كثير فى زمنه ، ومثل أبي بكر الخلال ونحوه . فاستدل هؤلاء الأئمة وغيرهم على بطلان قول من يقول : ان فعل العبد أو صفاته المتعلقة بصفات الله غير مخلوقة بما دل على أن أفعال العباد وصفاتهم مخلوقة . فروى البخاري عن أبي قدامة عن يحيى بن سعيد القطان قال ما زلت أسمع أصحابنا يقولون : أفعال العباد مخلوقة . وروى المروذي صاحب الامام أحمد والخلال ما تقدم ذكره من كلام الأئمة من النص على خلق كلام الآدميين وأفعالهم .

وسيأتي إن شاء الله نصوص الامام أحمد فى ذلك فان القصد هنا التنبيه على الأصل الذي تشعب منه تفرق الأمة فى هذا الموضع وهو « مسألة اللفظ » .

فصل

و « مسألة اللفظ بالقرآن » قد اضطرب فيها أقوام لهم علم وفضل ودين وعقل ، وجرت بسببها مخاصات ومهاجرات بين أهل الحديث والسنة حتى قال ابن قتيبة كلاماً معناه لم يختلف أهل الحديث فى شيء من

مذاهبهم إلا فى « مسألة اللفظ » . وبين أن سبب ذلك لما وقع فيها من الغموض ، والنزاع بينهم فى كثير من المواضع لفظي ، ولم يكن بين الناس نزاع في أن كلام العباد الذي لم ينزله الله تعالى أنه محدث مخلوق ، وإن كان الكلام فى « حروف الهجاء » وفى « أسماء المحدثات » فيه نزاع هو الذي أوقع هؤلاء الجهال فى ما ارتكبوه من المحال ، كما سننبه عليه إن شاء الله تعالى .

.
.

ولا يتسع هذا الجواب لشرح « مسألة اللفظ » مبسوطاً ؛ ولكن ننبه عليه مختصراً فنقول : ان الله تعالى أرسل رسله وأنزل عليهم كتبه وأمرهم أن يبلغوا الى الناس ما أنزل الله عليهم من وحيه وكلامه ، فمن الناس من آمن بالله ورسله وصدقهم فيما جاءوا به من عند الله ، وأطاعهم فيما أمروا به . وهؤلاء هم المؤمنون في كل وقت وزمان ، وهم أهل الجنة والسعادة ، كما قال تعالى : (سابقوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله) وقال تعالى : (ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

ومن الناس من كفر بهم وكذب : مثل الأمم الذين قص الله علينا أخبارهم من قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة وفرعون

ومشركي العرب وكل من لم يؤمن بأصل الرسالة مـن الهند والبراهمة وغيرهم والترك والسودان وغيرهم من الأمم الأميين الذين لا كتاب لهم ــ سواء كانوا مكذبين للرسل أو معرضين عن اتباعهم؛ فان الكفر عدم الايمان بالله ورسله ، سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معـه تكذيب بل شك وريب ؛ أو إعراض عن هـذا كله حسداً أو كبراً ، أو اتباعاً لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة ، وإن كان الـكافر المـكذب أعظم كفراً وكذلك الجاحد المـكذب حسداً مع استيقان صدق الرسل، والسور المـكية كلها خطاب مع هؤلاء .

ولهذا يقول سبحانه : (كذبت قوم نوح المرسلين) لأنهم كذبوا جميع الرسل ولم يؤمنوا بأصل الرسالة ، وقد قال تعالى لما أهبط أباهم آدم : (قال : اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ، فاما يأتينكم منى هدى ، فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لما حشرتني أعمى وقـد كنت بصيراً ، قال كذلك أتتك آياتنـا فنسيتهـا ، وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) .

فأخبر أنه إذا أتاهم هدى منه ، وهو ما أنزله على رسله من الذكر فمن اتبعه اهتدى وسعد فى الدنيا والآخرة ، ومن أعرض عنه شقي وعمي

ولهذا قال فى أوائل البقرة فى نعت المؤمنين : (أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون) كما قال هنا : (فلا يضل ولا يشقى) ؛ فان الهدى ضد الضلال ، والفلاح ضد الشقاء ، وقال تعالى : (يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

ومن الناس من آمن ببعض ما جاءت به الرسل وكفر ببعض ، كمن آمن ببعض المرسلين دون بعض ، واليهود والنصارى حيث آمنوا بموسى ، أو موسى والمسيح معه دون محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ولهذا يخاطب الله فى القرآن الأميين الذين لم يتبعوا رسولا وأهل الكتاب المصدقين بعض الرسل ، كما فى قوله : (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين : أأسلمتم ؟) وفي قوله : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين) .

وكمن آمن ببعض صفات الرسالة وكفر ببعض : من الصابئين الفلاسفة ونحوهم : الذين قد يقرون بأصل الرسالة ؛ لكن يجعلون الرسول بمنزلة الملك العادل : الذي قد وضع قانوناً لقومه ، أو يقولون : ان الرسالة للعامة دون الخاصة ، أو في الامور العملية دون العلمية ، أو فى الامور التى يشترك فيها الناس دون الخصائص التى يمتاز بها الكمل ،

ويقرون برسالة محمد صلى الله عليـه وسلم من حيث الجملة ، ويعظمونه ، ويقولون : اتفق فلاسفة العالم على انه لم يرد إلى الارض ناموس أعظم من ناموســه ؛ لكنهم مع هــذا يكفرون ببعض ماجاء بــه : مثل ان يسوغوا اتباع غير دينه من اليهودية والنصرانية ، وقد يسوغون الشرك ايضاً للعامة أو للخاصة : مثل أن يسوغوا دعوة الكواكب وعبادتهـا والسجود لها ، وقد يكذبون فى الباطن باشياء مما أخبر بها ، ويزعمون أن ما اخبر به من أمور الايمان بالله واليوم الآخر إنما هي أمثال مضروبة لتفهيم العامة مالا يجوز إظهاره وإبانة حقيقته ؛ وذلك انهـم يجوزون كذبه لمصلحة العامة بزعمهم .

وقد يزعمون أن حقيقة العلم بالله تؤخذ من غير ما جاء به الرسول ، وان من الناس من يكون أعلم بالله منه أو أفضل منه ، ونحو ذلك من المقالات ، وهذا الضرب ما زال موجوداً لا سيما مع القرامطة الباطنية : من الاسماعيلية والنصيرية والملوك العبيدية : الذين كانوا يدعون الخلافة ، ومع الخرمية ، والمزدكية ، وأمثالهـم من الطوائف ، وهؤلاء خواصهم اكفر من اليهود والنصارى ومن الغالية الذين يقولون بالهية علي ونحوه من البشر أو نبوته ، وهم منافقون زنادقة ؛ لكن فى كثير من اتباعهم من يظن أنه مؤمن بالكتب والرسل لما لبسوا عليه أصل قولهم ، أو وافقهم فى قول بعضهم دون بعض ، واكثر هؤلاء يميلون إلى الرافضة ، ومنهم

من ينتسب إلى التصوف ، ومنهم من ينتسب إلى الكلام ، ومنهم من يدخل مع الفقهاء فى مذاهبهم . وهذا الضرب يكثر فى الدول الجاهلية البعيدين عن معرفة الاسلام والتزامه ، كما كانوا كثيرين في دولة الديلم والعبيديين ونحوهم ، وكما يكثرون فى دولة الجهال من الترك ونحوهم من الجهال الذين آمنوا بالرسالة من حيث الجملة من غير علم بتفاصيل ما جاء به الرسول ، لأن الجهال من الترك وغيرهم بهذا الضرب أشبه منهم بغيرهم ؛ فان هؤلاء لا يوجبون اتباع الرسول على جميع أهل الأرض ؛ لكنهم قديرون اتباعه أحسن من اتباع غيره فيتبعونه على سبيل الاستحباب أو يتبعون بعض ما جاء به ، أو لا يتبعونه بحال . وهم في ذلك مقرون له ولأتباعه .

والمؤمن ببعض الرسالة دون بعض كافر أيضاً ، كما قال تعالى : (ان الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقاً ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهيناً ، والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفوراً رحيما) وقال تعالى — يخاطب أهل الكتاب — : (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ،

وهو محرم عليكم إخراجهم ، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم الاخزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون) وقال تعالى : (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ؟ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً ، وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً) وقال تعالى : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً) .

فذم الذين أوتوا قسطاً من الكتاب لما آمنوا بما خرج عن الرسالة وفضلوا الخارجين عن الرسالة على المؤمنين بها ، كما يفضل ذلك بعض من يفضل الصابئة من الفلاسفة والدول الجاهلية — جاهلية الترك والديلم والعرب والفرس وغيرهم — على المؤمنين بالله وكتابه ورسوله . وكما ذم المدعين الايمان بالكتب كلها وهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسنة ، ويتحاكمون إلى بعض الطواغيت المعظمة من دون الله كما يصيب ذلك كثيراً ممن يدعي الاسلام وينتحله في تحاكمهم إلى مقالات الصابئة الفلاسفة أو غيرهم ، أو إلى سياسة بعض الملوك الخارجين عن شريعة

الاسلام من ملوك الترك وغيرهم ، وإذا قيل لهم : تعالوا إلى كتاب الله وسنة رسوله أعرضوا عن ذلك إعراضاً ، وإذا أصابتهم مصيبة فى عقولهم ودينهم ودنياهم بالشبهات والشهوات أو في نفوسهم وأموالهم عقوبة على نفاقهم قالوا إنما أردنا أن نحسن بتحقيق العلم بالذوق ونوفق بين « الدلائل الشرعية » و « القواطع العقلية » التى هي في الحقيقة ظنون وشبهات ، أو « الذوقية » التى هي في الحقيقة أوهام وخيالات (أولئك الذين يعلم الله مافى قلوبهم ، فأعرض عنهم ، وعظهم ، وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغاً) إلى قوله : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما) وقال تعالى : (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين ، وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون) إلى قوله : (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا : سمعنا وأطعنا) الآية ، وقال تعالى : (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه ، وهو الحق مصدقا لما معهم) .

وقد ذم الله سبحانه أهل التفرق والاختلاف فى الكتاب الذين يؤمن كل منهم ببعضه دون بعض كما قال تعالى : (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم

بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) وقال تعالى : (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء) وقال تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) وقال تعالى : (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) قال ابن عباس : تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة . وقال تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لايعلمون ، منيبين اليه ، واتقوه ، واقيموا الصلاة ، ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون) وقال تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه . الله يجتبي اليه من يشاء ، ويهدي اليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم ، وان الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب ، فلذلك فادع واستقم كما أمرت ، ولا تتبع اهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ،

وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم) .

فأمر الله نبيه أن يؤمن بجميع الكتب المنزلة ، وان يعدل بين الناس كلهم فيعطي كل ذي حق حقه ، ويمنع كل مبطل عن باطله ؛ فان القسط والعدل فى جميع أمور الدين والدنيا فيما جاء به ، وهو المقصود بارسال الرسل ، وإنزال الكتب ، كما قال تعالى : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) وقال تعالى : (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ورسله ، لا نفرق بين احد من رسله ، وقالوا : سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا واليك المصير) الخ السورة .

وهاتان الآيتان قد ثبت في الصحيح « أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطيها من كنز تحت العرش ، وانه لم يقرأ بشيء منهما إلا أعطيه » وقد ثبت فى الصحيح « أنه من قرأهما في ليلة كفتاه » وقال تعالى : (قولوا آمنا بالله ، وما أنزل الينا ، وما انزل إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون ، فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) .

فصـــــل

فلما كان فى الأمم كفار ومنافقون يكفرون ببعض الرسـالة دون بعض إما فى القدر وإما في الوصف ، كما أن فيهم كفار ومنافقون يكفرون بأصل الرسالة ، وكان فى الـكفار بأصل الرسالة من قال: ان الرسول شاعر ، وساحر ، وكاهن ، ومعلم ، ومجنون ، ومفترى ، كما كان رئيس قريش وفيلسوفها وحكيمها الوليد بن المغيرة الوحيـد المذكور فى قوله تعالى : (ذرنى ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا ممـدوداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ؛ إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال : ان هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر) .

فانه صنع صنع الفيلسوف المخـالف للرسل فى تفكيره أولاً : الذي هو طلب الانتقال من تصور طرفى القضية إلى المبادىء الموجبة للتصديق ليظفر بالحد الأوسط ، ثم قـدر ثانياً ، والتقـدير هو « القياس » وهو الانتقال من المبادىء إلى المطلوب بالقياس المنطقي الشمولي ؛ ولعمري

إنه لصواب إذا صحت مقدماته ، وإن كانت النتيجة فى الأغلب أموراً كلية ذهنية ، ثبوتها فى الأذهان لا فى الأعيان ، كالعلوم الرياضية من الأعداد والمقادير ؛ فان العدد المجرد عن المعدود والمقدار المجرد عن الأجسام إنما يوجد فى الذهن ، لكن أَنَّى وأكثر مقدماته فى الالهيات دعاوي يدعى فيها بعموم؟ وأن القضية من المسلمات بلا حجة ، ومتى لم يكن فى القياس قضية كلية معلومة لم تفد المطلوب وهم يلبسون المهملات التى هي فى معنى الجزئيات بالكليات العامة المسلمات أو يدعي فيها العموم بنوع من قياس التمثيل .

ومعلوم أنه لا بد فى كل قياس من « قضية كلية » وعامة « القضايا الكلية » التى لهم فيها المطالب الالهية لا يعلم كونها كلية عامة ؛ إذ عمومها لا يعلم إلا بمجرد قياس التمثيل الذي قد يكون من أفسد القياس المقتضى لتشبيه الله بخلقه ، كما يقولون : الواحد لا يصدر عنه إلا واحد ، وليس معهم إلا تشبيه خالق السموات والأرض ورب العالمين بالطبائع ، كطبيعة الماء والنار ، مع أن الواحد الذي يثبتونه فى الالهيات ، وفى المنطق أيضاً الذين يجعلون قضية الأنواع مركبة منه وهو « الجنس » و « الفصل » لا حقيقة لها ولا توجد إلا فى الأذهان لا فى الأعيان ، وقد بسطنا الكلام على ذلك فى مواضع .

وبينا أن ما يثبتونه من العقليات التى هي « الجواهر العقلية » المجردة

عن المـادة ، وهي العقـل والنفس ، والمـادة والصورة الـتى ليست بجسم ولا عرض لا حقيقة لها فى الخارج ، وإنما تقدر في الأذهان ، لا فى الأعيان ، وكذلك ما يثبتونه من الواحد الذي يصفون به واجب الوجود ومن الواحد الذي يجعلون الأنواع تتركب منه إنما يوجد فى الأذهـان لا فى الأعيان « والقيـاس العقلي » الذي يحتجون به لا بد فيه مـن قضيـة كلية .

والقياس نوعان « قياس الشمول » و « قياس التمثيل » .

والناس متنازعون فى مسمى « القياس » فقيل هو حقيقة فى التمثيل مجاز فى الشمول ، كما ذكر ذلك أبو حامد ، وأبو محمد القدسي وغيرهما وقيل : هو حقيقة فى عكس ذلك ، كما قاله ابن حـزم وغيره من نفـاة قيـاس التمثيل ، وقيل : بل اسم القيـاس يتناولهما وهـذا قول جمهور الناس .

واسم « القياس العقلي » يدخل فيه هذا وهذا ؛ لكن من النـاس من ظن ان « قيـاس التمثيل » لا يفيد اليقـين ، ولا يستعمل في العقليات كما ذهب إليه أبو المعالي ، وأبو حامد ، والرازي ، وأبو محمد ، والآمدي وآخرون من أهل المنطق . وأما الجمهور فعندهم كلا القياسين سواء ، وهذا هو الصواب : فان مآل القياسين إلى شيء واحد وإنمـا يختلف بترتيب

الدليل ؛ فان القائل إذا قال : النبيذ المتنازع فيه حرام ؛ لأنه مسكر ، فكان حراما قياساً على خمر العنب ، فلا بد له أن يثبت أن السكر هو مناط التحريم ، وهو الذي يسمى في قياس التمثيل « مناطا » و « علة » و « أمارة » و « مشتركا » و « و[illegible] » ونحو ذلك .

ولا بد فى القياس الصحيح من أن يقيم دليلا على أن السكر مناط التحريم بحيث إذا وجد السكر وجد التحريم ، فاذا صاغ الدليل بقياس الشمول ، فان النبيذ مسكر وكل مسكر حرام ، فالسكر فى هذا النظم هو الحد الأوسط المكرر ، وهو العلة فى قياس التمثيل ، ولا بد له فى هذا القياس من أن يثبت هذه القضية الكلية الكبرى ، وهي قوله : كل مسكر حرام ، فما به ثبتت هذه القضية في هذا النظم يثبت به أنه مناط التحريم في ذلك النظم لا فرق بينهما .

وإذا قال القائل : إثبات تأثير الوصف وكونه مناط الحكم هو عمدة القياس ، وهو جواب « سؤال المطالبة » وبيان كون الوصف بالشمول هو مناط الحكم وهذا لا يثبت إلا بأدلة ظنية .

قيل له : وإثبات عموم القضية الكبرى فى قياس الشمول هو عمدة القياس ؛ فان الصغرى في الغالب تكون معلومة ، كما يكون ثبوت الوصف في الفرع معلوما ، وإذا كان ثبوت الوصف فى الفرع قد يحتاج الى دليل ، كما قيل تحتاج

المقدمة الصغرى الى دليل ، وإثبات المقدمة الكبرى لا يتأتى إلا بأدلة ظنية ، ونفس ما به يثبت عموم القضية يثبت تأثير الوصف المشترك لا فرق بينهما أصلا ، واستعمال كلا القياسين فى الأمور الالهية لا يكون إلا على وجه الأولى والأحرى .

وبهـذه « الطريقة » جاء القرآن ، وهى طريقة سلف الأمـة وأئمتها ، فان الله سبحانه لا يماثله شيء مـن الموجودات في « قياس التمثيل » ولا أن يدخل فى « قياس شمول » تتماثل أفراده ، بل ماثبت لغيره من الـكمال الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه فهو أحق به ، وما نزه عنه غيره من النقائص فهو أحق بالتنزيه منه ، كما قال تعالى : (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ، ولله المثل الأعلى) وقال تعالى : (ضرب لـكم مثلا من أنفسكم هل لـكم مما ملـكت ايمانـكم مـن شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم؟) .

وقد بسطنا الـكلام على هذا فى غير هـذا الموضع ، وبينا أن ما يستفاد بـ « القيـاس الشمولي » فى عامة الأمور قـد يستفاد بدون ذلك فتعلم أحكام الجزئيات الداخلة في القياس بدون معرفة حـكم القضية الـكلية ، كما إذا قيل : الـكل أعظم من الجزء ، والضدان لا يجتمعان فما من كل معين وضدين معنيين إلا وإذا علم أن هذا جزء هـذا وان هذا ضد هذا علم أن هذا أعظم من هذا وان هـذا لا يجامع هذا

بدون أن يخطر بالبال قضية كلية ان كل ضدين لا يجتمعان وان كلّ كلّ فهو أعظم من جزء . وكذلك إذا قيل النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ، فما من نقيضين يعرف أنهما نقيضان إلا ويعرف أنهما لا يجتمعان ولا يرتفعان بدون أن يستحظر أن كل نقيضين لا يجتمعان . [ولا يرتفعان] .

فعامة المطالب يستغنى فيها عن القياس المنطقي المتضمن للكبرى الذي لا بد فيه من قضية كلية . [و] الأمور المعينات لا تعلم بمجرد القياس العقلي ، وإنما يعلم بالقياس القدر المشترك بينها وبين غيرها وهم يسلمون ذلك ، وبينا أن الأدلة الدالة على الصانع هي آيات تدل بنفسها على نفسه المقدسة ، وبينا الفرق بين دلالة الآيات ودلالة القياس ، وان الأدلة أكمل وأنفع ، وطريقة القياس تابعة لها ودونها في المنفعة والكمال ، والقرآن جاء بهذه وهذه ، ومعرفة الالهيات ، والنبوات وغيرها ، فتلك الطريقة أكمل وأتم .

وهؤلاء يزعمون أنه لا ينال مطلوب فطري إلا بطريقة القياس الذي لا بد فيه من قضية كلية ، والقضية الكلية لا تفيد إلا أمراً كلياً عقلياً ، لا تفيد معرفة شيء معين ، وكل موجود فهو معين ، فكيف يقول عاقل مع هذا أنه لا ينال علم إلا بهذه الطريق ؟! ثم انهم في ضلالهم يظنون ان علم الأنبياء ، بل وعلم الرب سبحانه إنما حصل

بواسطة القياس المنطقي ، وان النبي له قوة حدسية يظفر بالحد الأوسط في القياس المنطقي بدون معلم فيكون أكمل من غيره فيجعلون علمه بالغيب من هذا الباب ولم يدرك بمثل هذا القياس علوم طبيعية أو حسابية ونحو ذلك ، فمن أين أنه لا ينال علم إلا به ؟ ومن أين أنه لا مواد يقينية إلا ما يدعيه المدعي مما عنده من الحدسيات المعتادة الظاهرة والباطنة ، والبديهيات المعتادة ، والمتواترات ، والمجربات المعتادة . والحدسيات المعتادة ، والحس الباطن ، والظاهر ، والتجربة ، ونحو ذلك لا يعلم بمجرده إلا أمر معين جزئي ، وذلك لا يصلح أن يكون مقدمة في القياس ، ولكن يعلم في العموم إما بواسطة قياس تمثيل ، وإما بعلم ضروري يحدثه الله فى القلب ابتداء ، وإذا أحدث علماً ضرورياً عاماً لأفراد فاحداث العلم ببعض تلك الأفراد سهل فقل أن يستفاد بطريقهم علم بنتيجة إلا والعلم بالنتيجة فيه ممكن بالطريق الذي به عرفت المقدمات أو أسهل فلا يكون في قياسهم الا زيادة تطويل وتهويل وتضليل .

وقد بسطنا الكلام على « المنطق اليونانى » بما فيه من حق وباطل ونافع وضار في غير هذا الموضع . ونفي العلم إلا بهذا القياس ، ونفي كون القياس يقينياً إلا بهذه المقدمات قول بلا علم ، وتكذيب بما لم يحط المكذب بعلمه ؛ ولهذا كانت الطريقة النبوية السلفية أن يستعمل فى العلوم الالهية « قياس الأولى » كما قال الله تعالى : (ولله

المثل الأعلى) إذ لا يدخل الخالق والمخلوق تحت قضية كليـة تستوي أفرادها ، ولا يتماثلان فى شيء من الأشياء بل يعلم ان كل كمال — لانقص فيه بوجه — ثبت للمخلوق فالخالق أولى به ، وكل نقص وجب نفيه عن المخلوق فالخالق أولى بنفيه عنه ، وأمثال هذه « الأقيسة العقلية » التى من نوع الأمثال المضروبة في القرآن ، ولله المثل الأعلى ، وقد بسطنا هذا فى غير هذا الموضع .

فلما كان الكفار بالرسالة على ما ذكر جاء في الكفار ببعضها من شاركهم فى بعض ذلك : فأنكرت الجهمية أن يكون الله يتكلم أو يقول أو يحب أو يبغض، وأنـكروا سائر صفاته التى جاءت بها الرسل ، فأنـكروا بعض حقيقة الرسالة التى هي كلام الله ، وأنـكروا بعض ما فى الرسالة من صفات الله .

وأول من أظهر ذلك في الاسلام — وإن كان ذلك موجوداً قبل الاسلام في أمم أخرى — الجعـد بن درهم شيخ الجهم بن صفوان ، وكان على ما قيل من أهل حران ، وكان فيهم أئمـة الفلاسفة ، ومنهم تعلم أبو نصر الفارابى كثيراً مما تعلم من الفلسفة على ماذكره عبد اللطيف ابن يوسف البغدادي ، فضحى بالجعد خالد بن عبد الله القسري بواسط على عهد علماء التابعين وغيرهم من علماء المسلمين ، وهم بقايا التابعين في وقته : مثل الحسن البصري وغيره الذين حمدوه على ما فعل، وشكروا ذلك فقال : أيهـا الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم ؛ فانى مضح بالجعد

ابن درهم ؛ انه زعم أن الله لم يتخـذ ابراهيم خليلا ، ولم يكلم موسى تكليماً ـــ تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ـــ ثم نزل فذبحه .

وبنوا ذلك على قاعدة مبتدعة الصابئين المكذبين ببعض ما جاءت به الرسل الذين لا يصفون الرب إلا بالصفات السلبية أو الاضافية أو المركبة منها ، وهم فى هذا التعطيل موافقون فى الحقيقـة لفرعون رئيس الكفار الذي جحد الصانع بالكلية ؛ فان جحود صفاتـه مستلزم لجحود ذاته ؛ ولهذا وافقوا فرعون فى تكذيبه لموسي بأن ربه فوق السموات حيث قال : (ياهامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الاسباب : اسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ، وإني لأظنه كاذبا). بخلاف محمد صلى الله عليـه وسـلم الذي صدق موسى لما عرج به إلى ربه ، وأخبر أنه وجد موسى هناك ، وأنه جعل يختلف بين ربه وبين موسى ، فمحمد صـلى الله عليـه وسلم صدق موسى في أن ربه فوق السموات ، وفرعون كذبـه فى ذلك . والناس إما محمدي موسوي ، واما فرعونى ؛ إذ فرعون كذب موسى فى أن الله فوق ، وكذبـه فى أن الله كلمه ، كما أنـكر وجود الصانع ، ومحمد صدق موسى فى هذا كله .

وهؤلاء الصابئة المحضة من المتفلسفة يقولون : ان الله ليس له كلام فى الحقيقة ؛ لكن كلامـه ـــ عند من أظهر الاقرار بالرسل منهم ـــ ما يفيض على نفوس الأنبياء ، وهو أنه محدث فى نفوسهم من غير أن

يكون في الخارج عن نفوسهم لله عندهم كلام ، وهكذا كان الجهم يقول أولا : ان الله لا كلام له ، ثم احتاج أن يطلق أن له كلاماً لأجل المسلمين فيقول : هو مجاز ؛ ولهذا كان الامام أحمد وغيره من الأئمة يعلمون مقصودهم ، وأن غرضهم التعطيل ، وأنهم زنادقة و « الزنديق » المنافق .

ولهذا تجد مصنفات الأئمة يصفونهم فيها بالزندقة ، كما صنف الامام أحمد « الرد على الزنادقة والجهمية » وكما ترجم البخاري آخر كتاب الصحيح بـ « كتاب التوحيد والرد على الزنادقة والجهمية » وكان عبد الله ابن المبارك يقول : انا لنحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية .

وتقول الصابئة المحضة — الذين آمنوا فى الظاهر وآمنوا فى الباطن ببعض الكتاب — كلام الله اسم لما يفيض على قلب النبي من « العقل الفعال » أو غيره و « ملائكة الله » اسم لما يتشكل فى نفسه من الصور النورانية وقد يقولون : إن جبريل هو « العقل الفعال » أو هو ما يتمثل فى نفسه من الصور الخيالية كما يراه النائم ؛ ولهذا يقول هؤلاء : ان خاصة النبي التخييل ، وأن الأنبياء أظهروا خلاف ما أبطنوه لمصلحة العامة ، ولم يفيدوا بكلامهم علماً ؛ لكن تخييلا ينتفع به العامة ، ويجعلون هذا من أفضل الأمور ، ويمدحون الأنبياء بذلك ، ويعظمونهم

وقد بسطنا الكلام على هذا فى مواضع أخر .

وعندهم ليس خارجاً عن نفس النبي كلام ولا ملك كما يزعمه من يزعمه من المتفلسفة والصابئة المشركين ، وزعموا أنهم مؤمنون وقالوا انهم يجمعون بين النبوة والفلسفة كما يفعل الفارابي وابن سينا وغيرهما من المتفلسفة والقرامطة الباطنية من الاسماعيلية ونحوهم الذين اخذوا معاني المتفلسفة الروم والفرس فأخرجوها فى قالب التشيع والرفض . والامامية والزيدية وغيرهم من الشيعة يعلمون أنهم كفار .

ومثل ابن سبعين وأمثاله ممن أظهر التصوف على طريقة هؤلاء فهو يأخذ معانيهم يكسوها عبارات الصوفية ، والصوفية العارفون يعلمون أنهم كفار ، وان شيوخ الصوفية الكبار كالفضيل بن عياض ، وابراهيم ابن أدهم ، وأبى سليمان الدارانى ، وعمرو بن عثمان الشبلي ، والجنيد ابن محمد ، وسهل بن عبد الله التستري ، وأبى عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي ونحوهم — رضي الله عنهم — كانوا من أعظم الناس تكفيراً لهؤلاء ؛ فان قول هؤلاء الزنادقة — وإن كان فيه إيمان من وجه آخر — فهؤلاء موافقون فى الحقيقة لمقدمهم الوحيد الذي قال : (إن هذا إلا قول البشر) لكن ذاك كفر به كله ظاهراً وباطناً ، وهؤلاء قد يؤمنون به ظاهراً ، وقد يؤمنون باطناً ببعض صفاته : من أنه مطاع عظيم ، وإنه رئيس النوع الانسانى ، وأن هذا الكلام الذي

جاء به كلام عظيم القدر ، صادر عن نفس صافية كاملة العلم والعمل ، لها ثلاث خصائص تتفرد بها عن غيرها .

خصيصة قوة الحدس والعلم : وخصيصة قوة التأثير في العالم السفلي بنفسه ، وخصيصة قوة التخيل المطابق للحقائق بحيث يسمع فى نفسه الأصوات ، ويرى من الصور ما يكون خيـالا للحقـائق ، وانه يجوز إضافة كلامه إلى الله ، وتسميته كلام الله حيث هو أمر به أمراً خيالياً . وفي الحقيقة عندهم ما يفيض على سائر النفوس الصافية من العلوم والكلمات هي أيضاً كلام الله مثل ما أنه كلام الله ؛ لـكن هو أشرف وخطابه دل على أنه رسول الخلق تجب عليهم طاعته ، التى أخبرت بها الرسل لـكن يطلقون عليه انه متكلم ؛ ولهذا يقولون : ان « النبوة » مكتسبة فطمع غير واحد منهم أن يصير نبياً كما طمع السهروردي وابن سبعين وغيرهما من الملحدين .

وقد بينا أصول أقوالهم وفسادها في غير هذا الموضع مثل كلامنا على إبطال قولهم : ان معجزات الأنبياء قوى نفسانية .

وأما « المعتزلة » ونحوهم فيوافقونهم في أن الله لا يتكلم فى الحقيقة التى يعلم الناس أن صاحبها يتكلم [بل كلامه] منفصل عنه ، ويزعمون ان ذلك حقيقة ، وليس كلامه عندهم إلا أنه خلق في الهـواء أو غيره

أصواتاً يسمعها من يشاء من ملائكته وأنبيائه من غير أن يقوم بنفسه كلام لا معنى ولا حروف ، وهم يتنازعون فى ذلك المخلوق هل هو جسم أو عرض أو لا يوصف بواحد منها .

ولما ظهر هؤلاء تكلم السلف من التابعين وتابعيهم فى تكفيرهم والرد عليهم بما هو مشهور عند السلف ، واطلع الأئمة الحذاق من العلماء على أن حقيقة قول هؤلاء هو التعطيل والزندقة ، وان كان عوامهم لا يفهمون ذلك ، كما اطلعوا على أن حقيقة قول القرامطة والاسماعيلية هو التعطيل والزندقة ، وإن كان عوامهم إنما يدينون بالرفض ، وجرت فتنة الجهمية ، كما امتحنت الأئمة ، وأقام « الامام أحمد » إمام السنة ، وصديق الأمة فى وقته ، وخليفة المرسلين ، ووارث النبيين ، فثبت الله به الاسلام والقرآن ، وحفظ به على الأمة العلم والايمان ، ودفع به أهل الكفر والنفاق والطغيان الذين آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض .

فاستقر أهل السنة وجماهير الأمة واهل الجماعة واعلام الملة فى شرقها وغربها على الايمان الذي جاءت به الرسل عن الله وجاء به خاتم النبيين مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ،وهو ان القرآن والتوراة والانجيل كلام الله ، وان كلام الله لا يكون مخلوقا منفصلا عنه ، كما لا يكون كلام المتكلم منفصلا عنه : فان هذا جحود لكلامه الذي

هو رسالته ، ودفع لحقيقة ما أنبأت به الرسل وعلمته أممهم ، والحاد فى أسماء الله وآياته وتمثيل له بالمعدوم والموات ؛ فان الحياة والعلم والقدرة والكلام ونحو ذلك صفات كمال ، والرب تعالى أحق بكل كمال ، فيمتنع أن يثبت للمخلوق كمال إلا والخالق أحق به ، كما يمتنع أن يتنزه المخلوق عن نقص إلا والخالق أحق بتنزهه منه ، كيف وهو خالق الكمال للكاملين .

و « أيضا » فمن لم يتصف بصفات الكمال من الحياة والعلم والسمع والبصر والقدرة والكلام وغير ذلك فاما أن يكون قابلا للاتصاف بذلك ولم يتصف به ، أو غير قابل للاتصاف به . فان قبله ولم يتصف به كان موصوفا بصفات النقص : كالموت والجهل والعمى والصمم والعجز والبكم باتفاق العقلاء ؛ فانهم متفقون على ان القابل لهذا ولهذا متى لم يتصف بأحدهما اتصف بالآخر ، وان قيل : إنه لايقبل الاتصاف بهذه الصفات كان أنقص من القابل الذي لم يتصف بها . فالحيوان الذي يكون تارة سميعاً وتارة أصم ، وتارة بصيراً وتارة أعمى ، وتارة متكلما وتارة أخرس ، أكمل من الجماد الذي لا يقبل أن يكون لا هذا ولا هذا .

فمن لم يصفه بصفات الكمال لزمه إما أن يصفه بهذه النقائص ، أو يكون أنقص ممن وصف بهذه النقائص . وذلك أن « المتفلسفة »

اصطلحوا على تقسيم « المتقابلين بالنفي والاثبات » إلى النقيضين ، وإلى ما يسمونه « العدم والملكة » فـ « العدم » عندهم سلب الشيء عما من شأنه أن يكون متصفاً به كالعمى والخرس ؛ فانه عدم البصر والكلام عما من شأنه أن يكون بصيراً متكلماً . فأما الجماد فلا يسمونه لا بهذا ولا بهذا .

« وشبهتهم » لبست على طائفة من أهل النظر ، فظنوا أنه إذا لم يوصف بصفات الكمال من الحياة والعلم والسمع والبصر والكلام لم يلزم أن يتصف بصفات النقص لأنهما متقابلان تقابل « العدم والملكة » ، لا تقابل النقيضين .

فيقال لهم : هذا أولاً اصطلاح لكم ، وإلا فغيركم يسمى الجماد ميتاً ومواتاً ونحو ذلك ، كما فى مثل قوله : (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، أموات غير أحياء) .

ويقال لهم : « ثانياً » النظر فى المعاني العقلية ، ومعلوم أن عدم هذه الصفات يستلزم النقص الثابت بعدمها .

ويقال لهم « ثالثاً » : إذا قلتم لا يتصف بواحد منها لكونه لا يقبل ذلك ، فهذا النقص أعظم من نقص العمى والصمم والبكم ؛ فانما لا يقبل

الاتصاف بصفات الكمال أنقص ممن هو قابل لها يمكن اتصافه بها ؛ فانه منه بدأ ؛ لا كما يقوله الصابئة ومن وافقهم من الجهمية : انه ابتدأ من نفس النبي أو من « العقل الفعال » أو من « الهواء » بل هو تنزيل من حكيم حميد ، وانه إليه يعود إذا أسري به من المصاحف والصدور .

وصار « الامام أحمد » علماً لأهل السنة الجائين بعده من جميع الطوائف : كلهم يوافقه فى جمل أقواله ، وأصول مذاهبه ؛ لأنه حفظ على الأمة الايمان الموروث ، والأصول النبوية — ممن أراد أن يحرفها ويبدلها — ولم يشرع ديناً لم يأذن الله به ، والذي قاله هو الذي يقوله سائر الأئمة الأعيان ، حتى إن أعيان أقواله منصوصة عن أعيانهم ؛ لكن جمع متفرقها ، وجاهد مخالفها ، وأظهر دلالة الكتاب والسنة عليها ، ومقالاته ومقالات الأئمة قبله وبعده فى الجهمية كثيرة مشهورة .

و « الجهمية » هم نفاة صفات الله ، المتبعون للصابئة الضالة . وصارت فروع التجهم تجول في نفوس كثير من الناس . فقال بعض من كان معروفاً بالسنة والحديث : ولا نقول مخلوق ، ولا غير مخلوق بل نقف ، وباطن أكثرهم موافق للمخلوقية ولكن كان المؤمنون أشد رهبة فى صدورهم من الله .

و « طائفة أخرى » قالت : نقول كلام الله الذي لم ينزله غير مخلوق ، وأما القرآن الذي أنزله على رسوله وتلاه جبريل ومحمد والمؤمنون فهو مخلوق ، وهؤلاء هم « اللفظية » . فصارت الأمة تفزع إلى إمامها إذ ذاك ، فيقول لهم أحمد : افترقت الجهمية على « ثلاث فرق » فرقة تقول : القرآن مخلوق ، وفرقة تقول كلام الله وتسكت ، وفرقة تقول : ألفاظنا وتلاوتنا للقرآن مخلوقة . فان حقيقة قول هؤلاء ان القرآن الذي نزل به جبريل على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم هو قرآن مخلوق لم يتكلم الله به ، وكان لهؤلاء شبهة كون أفعالنا وأصواتنا مخلوقة ونحن إنما نقرأه بحركاتنا وأصواتنا ، وربما قال بعضهم ما عندنا إلا ألفاظنا وتلاوتنا ، وما فى الأرض قرآن إلا هذا ، وهذا مخلوق .

فقابلهم قوم أرادوا تقويم السنة فوقعوا فى البدعة ، وردوا باطلا بباطل ، وقابلوا الفاسد بالفاسد ، فقالوا : تلاوتنا للقرآن غير مخلوقة ، وألفاظنا به غير مخلوقة ؛ لأن هذا هو القرآن ، والقرآن غير مخلوق ، ولم يفرقوا بين الاسم المطلق والاسم المقيد فى الدلالة ، وبين حال المسمى إذا كان مجرداً وحاله إذا كان مقروناً مقيداً . فأنكر الامام أحمد أيضاً على من قال : ان تلاوة العباد وقراءتهم وألفاظهم وأصواتهم غير مخلوقة ، وأمر بهجران هؤلاء ، كما جهم الأولين وبدعهم . والنقل عنه

بذلك من رواية ابنه عبد الله وصالح والمروذي وفوران وأبي طالب وأبى بكر بن صدقة وخلق كثير من أصحابه وأتباعه .

وقد قام أخص أتباعه « أبو بكر المروذي » بعد مماته فى ذلك ، وجمع كلامه وكلام الأئمة من أصحابه وغيرهم : مثل عبد الوهاب الوراق ، والأثرم ، وأبى داود السجستانى ، والفضل بن زياد ، ومثنى بن جامع الأنباري ، ومحمد بن اسحـاق الصنعانى ، ومحمد بن سهل بن عسكر ، وغير هؤلاء من علماء الاسلام . وبـين بدعة هؤلاء الذين يقولون إن تلاوة العباد وألفاظهم بالقرآن غير مخلوقة .

وقد ذكر ذلك الخلال في « كتاب السنة » وبسط القول فى ذلك . قال الخلال : أخبرنى أبو بكر المروذي ، قال : بلغ أبا عبد الله عن أبى طالب أنه كتب الى اهل نصيبين : ان لفظي بالقرآن غير مخلوق ، قال أبو بكر : فجاءنا صالح بن أحمد ، فقال : قوموا الى أبى ، فجئنا فدخلنا على أبى عبد الله ، فاذا هو غضبـان شديد الغضب ، قد تبين الغضب فى وجهه ، فقال : اذهب فجئني بأبى طالب ، فجئت به ، فقعد بـين يدي أبى عبد الله ، وهو يرعد ، فقال : كتبت إلى أهل نصيبين تخبرهم عني أني قلت : لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟ ! ! فقال : إنما حكيت عن نفسي ، قال : فلا يحل هذا عنك ولا عن نفسي ، فما سمعت عالماً قال هذا . قال أبو عبد الله : القرآن كلام الله غير مخلوق كيف تصرف . فقيل لأبى طالب : اخرج وأخبر

أن أبا عبد الله قد نهى أن يقال لفظي بالقرآن غير مخلوق . فخرج أبو طالب فلقي جماعة من المحدثين فأخبرهم : أن ابا عبد الله نهاه أن يقول لفظي بالقرآن غير مخلوق .

ومع هـذا فـكل واحدة من « الطائفتين » الذين يقولون لفظنا بالقرآن غير مخلوق والذين يقولون لفظنا وتلاوتنا مخلوقـة ينتحل أبا عبد الله وتحكى قولها عنه وتزعم أنه كان على مقالتها ، لأنه إمام مقبول عند الجميع ؛ ولأن الحق الذي مع كل طائفة يقوله أحمد ، والبـاطل الذي تنكره كل طائفـة على الأخرى يرده أحمـد . فمحمد بن داود المصيصي أحد علماء الحديث وأحد شيوخ أبي داود ، وجماعة فى زمانه كأبى حاتم الرازي وغيره يقولون : لفظنا بالقرآن غير مخلوق ، وتبعهم طائفة على ذلك : كأبى عبد الله بن حامد ، وأبي نصر السجزي ، وأبي عبد الله بن منده ، وشيخ الاسلام أبي اسماعيل الانصاري ، وأبى العلاء الهمـداني ، وأبي الفرج المقدسي ، وغير هؤلاء يقولون : ان ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة ، ويروون ذلك عن أحمد ، وأنه رجع إلى ذلك ، كما ذكره أبو نصر في كتابه « الابانة » وهي روايات ضعيفة بأسانيد مجهولة لا تعارض ما تواتر عنه عند خواص أصحابه ، وأهل بيته ، والعلماء الثقات لاسيما وقد علم أنه فى حياته خطأ أبا طالب في النقل عنه حتى رده أحمد عن ذلك وغضب عليه غضباً شديداً .

وقد رأيت بعض هؤلاء طعن فى تلك النقول الثابتة عنـه · ومنهم من حرفها لفظاً ، وأما تحريف معانيها فذهب إليه طوائف فأما الذين ثبتوا النقل عنه ووافقوه على إنكاره الأمرين وهم جمهور أهل السنـة ومن انتسب إليهم من أهل الكلام كأبى الحسن الأشعري وأمثـاله فانه ذكر في « مقالات أهـل السنة والحديث » انهم ينكرون على من قال : لفظي بالقرآن مخلوق ، ومن قال : لفظي به غير مخلوق ، وأنه يقول بذلك .

لكن من هؤلاء من تأول كلام أحمـد وغيره فى ذلك بأنه منع أن يقال : ان القرآن يلفظ به ، وهـذا قاله الأشعرى وابن البـاقلاني والقاضي أبو يعلى وأتباعه ، كأبى الحسن بن الزاغونى وأمثاله .

ثم هؤلاء الذين تأولوا كلامه على ذلك منهم من قال : المعنى الذي أنكره أحمد على من قال لفظي بالقرآن مخلوق كما فعل ذلك الاشعري وأتباعه . ومنهم من قال : بل المعنى الذي أنكره أحمـد على من قال لفظي به غير مخلوق كما فعل ذلك القـاضي وابن الزاغونى وأمثالهما ؛ فان أحمد وسائر الأئمة ينكرون أن يكون شيء من كلام الله مخلوقا حروفه أو معانيه ، أو أن يكون معنى التوراة هو معنى القرآن ، وأن كلام الله إذا عبر عنه بالعربية يكون قرآناً ، وإذا عبر عنه بالعبرانية يكون هو التوراة ، وينكرون أن يكون القرآن المنزل ليس هو كلام الله ، أو ان يطلق

القول على ما هو كلام الله بأنه مخلوق ، وأحمد والأئمة ينكرون على من يجعل شيئاً من أفعال العباد أو اصواتهم غير مخلوق ؛ فضلا عن أن يكون قديماً ! وكلام أحمد فى « مسألة التلاوة والايمان والقرآن » من نمط واحد منع إطلاق القول بأن ذلك مخلوق ؛ لأنه يتضمن القول بأن من صفات الله ما هو مخلوق ، ولما فيه من الذريعة ، ومنع أيضاً إطلاق القول بأنه غير مخلوق لما فى ذلك من البدعة والضلال .

ولما كان أحمد قد صار هو إمام السنة كان من جاء بعده ممن ينتسب إلى السنة ينتحله إماماً كما ذكر ذلك الأشعرى فى « كتاب الابانة » وغيره فقال إن قال قائل : قد انكرتم قول « الجهمية » و « المعتزلة » و « الخوارج » و « الروافض » و « المرجئة » فعرفونا قولكم الذي به تقولون وديانتكم التى بها تدينون .

قيل له : قولنا الذي نقول به وديانتنا التى ندين بها التمسك بكتاب ربنا وسنة نبينا ، وما روي عن الصحابة والتابعين ، وبما كان يقول به أبو عبد الله « احمد بن حنبل » قائلون ، ولما خالفه مجانبون : فانه الامام الكامل ، والرئيس الفاضل الذي أبان الله به الحق ، وأوضح به المنهاج ، وقمع به بدع المبتدعين ، وزيغ الزائغين ، وشك الشاكين ، وذكر جملا من المقالات .

فلهذا صار من بعده متنازمين فى هذا الباب . « فالطائفة » الذين يقولون لفظنا وتلاوتنا غير مخلوقة ينتسبون إليه ، ويزعمون ان هـذا آخر قوليه ، أو يطعنون فيا يناقض ذلك عنه ، أو يتأولون كلامـه بما لم يرده .

و « الطائفة » الذين يقولون ان التلاوة مخلوقة ، والقرآن المنزل الذي نزل بـه جبريل مخـلوق ، وان الله لم يتكلم بحروف القرآن : يقولون : ان هـذا قول أحمد ، وأنهم موافقوه ، كما فعل ذلـك أبو الحسن الأشعري . فيا ذكره عن أحمد ، وفسر به كلامه ، وذكر انه موافقه ، وكما ذكر القاضي أبو بكر الباقلانى فى تنزيه أصحابه من مخالفة السنـة وأئمتها كالامام أحمد ، وكما فعله أبو نعيم الاصبهانى فى كتـابه المعروف فى ذلك ، وكما فعله أبو ذر الهروي ، والقاضي عبد الوهـاب المالـكي ، وكما فعله أبو بكر البيهقي فى الاعتقاد فى مناقب الامام أحمد . وروى عنـه أنه قال لفظي بالقرآن مخلوق وتأول ما استفاض عنـه من الانـكار على من قال لفظي بالقرآن [غير] مخلوق على أنه أراد الجهمي المحض الذي يزعم أن القرآن الذي لم ينزل مخلوق .

وكذلك أيضـا افترى بعض الناس عـلى البخاري الامام صاحب « الصحيح » أنـه كان يقول : لفظي بالقرآن مخلوق ، وجعـلوه من « اللفظية » حتى وقع بينه وبين أصحابه : مثل محمد بن يحيى الذهـلي .

وأبي زرعة ، وأبى حاتم ، وغيرهم بسبب ذلك ، وكان فى القضية أهواء وظنون ، حتى صنف «كتاب خلق الأفعال» وذكر فيه ما رواه عن أبي قدامة ، عن يحيى بن سعيد القطان أنه قال : ما زلت أسمع أصحابنا يقولون : أفعال العباد مخلوقة . وذكر فيه ما يوافق ما ذكره في آخر كتابه «الصحيح» من أن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وان الله يتكلم بصوت ، وينادي بصوت . وساق فى ذلك من الأحاديث الصحيحة والآثار ما ليس هذا موضع بسطه ، وبين الفرق بين الصوت الذي ينادي الله به وبين الصوت الذي يسمع من العباد ، وان الصوت الذي تكلم الله به ليس هو الصوت المسموع من القارىء ، وبين دلائل ذلك ، وأن أفعال العباد وأصواتهم مخلوقة ، والله تعالى بفعله وكلامه غير مخلوق .

وقال فى قوله : (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) إن حدثه ليس كحدث المخلوقين . وذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ان الله يحدث من أمره ما شاء ، وإن مما أحدث أن لا تكلموا فى الصلاة » وذكر من علماء السلف : ان خلق الرب للعالم ليس هو المخلوق : بل فعله القائم به غير مخلوق ، وذكر عن نعيم بن حماد الخزاعى: ان الفعل من لوازم الحياة ، وان الحي لا يكون إلا فعالا . إلى غير ذلك من المعاني التى تدل على علمه وعلم السلف بالحق الموافق لصحيح المنقول وصريح المعقول .

وذكر أن كل واحدة من طائفتي « اللفظية المثبتة والنافية » تنتحل أبا عبد الله ، وأن أحمد بن حنبل كثير مما ينقل عنه كذب ، وأنهم لم يفهموا بعض كلامه لدقته وغموضه ، وأن الذي قاله وقاله الامام أحمد هو قول الأئمة والعلماء ، وهو الذي دل عليه الكتاب والسنة .

ورأيت بخط القاضي أبي يعلى — رحمه الله — على ظهر « كتاب العدة » بخطه ، قال : نقلت من آخر « كتاب الرسالة » للبخاري فى ان القراءة غير المقروء . وقال : وقع عندي عن أحمد بن حنبل على اثنين وعشرين وجها كلها يخالف بعضها بعضا ، والصحيح عندي أنه قال ما سمعت عالما يقول : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، قال وافترق اصحاب أحمد ابن حنبل على نحو من خمسين . قال أبو عبد الله البخاري قال ابن حنبل « اللفظي » الذي يقول : القرآن بألفاظنا مخلوق .

وكان « ايضاً » قد نبغ فى أواخر عصر أبي عبد الله من الكلابية ونحوهم — أتباع أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب البصري : الذي صنف مصنفات رد فيها على الجهمية والمعتزلة وغيرهم ، وهو من متكلمة الصفاتية ، وطريقته يميل فيها الى مذهب أهل الحديث والسنة ؛ لكن فيها نوع من البدعة ؛ لكونه أثبت قيام الصفات بذات الله ولم يثبت قيام الامور الاختيارية بذاته ؛ ولكن له في الرد على الجهمية — نفاة الصفات والعلو — من الدلائل والحجج وبسط القول ما بين به فضله

في هذا الباب ، وافساده لمذاهب نفاة الصفات بأنواع من الأدلة والخطاب ، وصار ماذكره معونة ونصيراً وتخليصاً من شبههم لكثير من أولى الألباب ، حتى صار قدوة وإماما لمن جاء بعده من هـــذا الصنف الذين أثبتوا الصفات ، وناقضوا نفاتها ؛ وإن كانوا قد شركوهم في بعض أصولهـــم الفاسدة : التى أوجبت فساد بعض ماقالوه من جهـة المعقول ، ومخالفته لسنة الرسول .

وكان ممن اتبعه الحارث المحاسبي ، وابو العبـاس القلانسي ، ثم أبو الحسن الاشعري ، وأبو الحسن بن مهدي الطبري ، وأبو العباس الضبعي ، وأبو سليمان الدمشقي ، وأبو حاتم البستى ، وغير هؤلاء : المثبتين للصفات ، المنتسبين إلى السنة والحديث ، المتلقبين بنظار أهل الحديث .

وسلك طريقة ابن كلاب ــ في الفرق بين « الصفات اللازمة » كالحياة و « الصفات الاختيارية » وان الرب يقوم بــه الأول دون الثانى ــ كثير من المتأخرين : من أصحاب مالك ، والشافعي ، وأحمد : كالتميميين أبى الحسن التميمي ، وابنه أبى الفضل التميمي ، وابن ابنه رزق الله التميمي ، وعلى عقيدة الفضل التى ذكر أنها عقيدة أحمـــد اعتمد أبو بكر البيهقي فيما ذكره من مناقب أحمد من الاعتقاد .

وكذلك سلك طريقة ابن كلاب هذه أبو الحسن بن سالم واتباعــه

« السالمية » والقاضي أبو يعلى وأتباعه : كابن عقيل ، وأبى الحسن بن الزاغونى ، وهي طريقة ابي المعالي الجويني، وأبي الوليد الباجي، والقاضي أبى بكر بن العربى وغيرهم ؛ لكنهم افترقوا في القرآن ، وفى بعض المسائل على قولين — بعد اشتراكهم فى الفرق الذي قرره ابن كلاب — كما قد بسط كلام هؤلاء فى مواضع أخر .

والامام أحمد بن حنبل وغيره من أئمة السنة كانوا يحذرون عن هذا الأصل الذي احدثه ابن كلاب . ويحذرون عن أصحابه . وهذا هو سبب تحذير الامام أحمد عن الحارث المحاسبي ونحوه من الكلابية .

ولما ظهر هؤلاء ظهر حينئذ من المنتسبين إلى إثبات الصفات من يقول : إن الله لم يتكلم بصوت ، فانكر أحمد ذلك ، وجهم من يقوله ، وقال : هؤلاء الزنادقة إنما يدورون على التعطيل ، وروى الآثار في أن الله يتكلم بصوت ، وكذلك انكر على من يقول إن الحروف مخلوقة ، قال عبد الله بن احمد بن حنبل فى « كتاب السنة » : قلت لأبى : إن ههنا من يقول إن الله لا يتكلم بصوت ، فقال : يابني ! هؤلاء جهمية زنادقة ، إنما يدورون على التعطيل ، وذكر الآثار فى خلاف قولهم .

وكذلك البخاري صاحب « الصحيح » وسائر الأئمة أنكروا ذلك أيضاً ، وروى البخاري في آخر « الصحيح » وفي « كتاب خلق الأفعال » ما جاء في ذلك من الآثار ، وبين الفرق بين صوت الله الذي يتكلم به وبين أصوات العباد بالقرآن ، موافقة منه للامام أحمد وغيره من الأئمة ، حيث بين ان الله يتكلم بصوت كما جاءت به الآثار ، وان ذلك ليس صوت العبد بالقراءة ؛ بل ذلك هو صوت العبد . كما قد نص على ذلك كله في مواضع ، وعامة أئمة السنة والحديث على هذا الاثبات والتفريق : لا يوافقون قول من يزعم ان الكلام ليس فيه حرف ولا صوت ، ولا يوافقون قول من يزعم ان الصوت المسموع من القراء وألفاظهم قديمة ، ولا يقولون : ان القرآن ليس إلا الحروف والأصوات .

وقد كتبت كلام « الامام أحمد » ونصوصه ، وكلام الأئمة قبله وبعده فى غير هذا الموضع ؛ فان جواب هذه « المسألة » لا يحتمل البسط الكثير ؛ ولم يكن فى كلام الامام أحمد ولا الأئمة ان الصوت الذي تكلم الله به قديم ؛ بل يقولون لم يزل الله متكلما ، وقد يقولون لم يزل الله متكلما إذا شاء بما شاء ، كما يقول ذلك الامام أحمد ، وابن المبارك ، وغيرهما .

وكذلك قد تنازع الناس في زمنهم وبعده — من أصحابهم وغيرهم — فى معنى كون القرآن غير مخلوق هل المراد به ان نفس الكلام قديم

أزلي كالعلم ؟ أو أن الله لم يزل موصوفا بانه متكلم يتكلم إذا شاء ؟ على قولين . ذكرهما الحارث المحاسبي عن أهل السنة ، وأبو بكر عبد العزيز فى «كتاب الشافى» عن أصحاب الامام أحمد، وذكرهما أبو عبد الله ابن حامد فى كتابه «أصول الدين» . والنزاع فى ذلك بين سائر طوائف السنة والحديث ، وهذا مبنى على أصل «الصفات الفعلية الاختيارية» والنزاع فيه بين جميع الطوائف من أهل الحديث والسنة والفقه والتصوف ومن دخل معهم من أهل المذاهب الأربعة وبين سائر الفرق ، حتى بين الفلاسفة أيضاً ، وقد حققت ذلك في غير هذا الموضع .

وهذا منشأ نزاع الذين وافقوا السلف على ان القرآن كلام الله غير مخلوق ؛ فان هؤلاء تنازعوا فى أن الرب هل يتكلم بمشيئته وقدرته ؟ على قولين . فالذين وافقوا ابن كلاب قالوا : انه لا يتكلم بمشيئته وقدرته ؛ بل كلامه لازم لذاته كحياته . ثم من هؤلاء من عرف ان الحروف والأصوات لا تكون قديمة العين فلم يمكنه أن يقول: القديم هو الحروف والأصوات ؛ لأنها لا تكون إلا متعاقبة ، والصوت لا يبقى زمانين ، فضلا من أن يكون قديماً . فقال: القديم هو معنى واحد، لامتناع معانى لا نهاية لها ، وامتناع التخصيص بعدد دون عدد . فقالوا : هو معنى واحد ، وقالوا : ان الله لا يتكلم بالكلام العربى والعبري ، وقالوا : ان معنى التوراة والانجيل والقرآن وسائر كلام الله معنى واحد،

ومعنى آية الكرسي وآية الدين معنى واحد . إلى غير ذلك من اللوازم التى يقول جمهور العقلاء إنها معلومة الفساد بضرورة العقل ، ومن هؤلاء من عرف ان الله تكلم بالقرآن العربي والتوراة العبرية ، وانه نادى موسى بصوت وينادي عباده بصوت ، وان القرآن كلام الله حروفه ومعانيه ؛ لكن اعتقدوا مع ذلك انه قديم العين ، وان الله لم يتكلم بمشيئته وقدرته . فالتزموا انه حروف واصوات قديمة الأعيان لم تزل ولا تزال ، وقالوا : إن الباء لم تسبق السين ، والسين لم تسبق الميم ، وان جميع الحروف مقترنة بعضها ببعض اقتراناً قديماً أزلياً لم يزل ولا يزال ، وقالوا : هي مترتبة فى حقيقتها وماهيتها غير مترتبة في وجودها . وقال كثير منهم : انها مع ذلك شيء واحد ، الى غير ذلك من « اللوازم » التى يقول جمهور العقلاء انها معلومة الفساد بضرورة العقل .

ومن هؤلاء من يقول : هو قديم ، ولا يفهم معنى القديم . فاذا سئل عن ذلك قال : هي قديمة فى العلم ، ولا يعلم ان المخلوقات كالسماء والأرض بهذه المثابة مع أنها مخلوقة ، ومنهم من يقول : قديم بمعنى أنه متقدم على غيره ، ولا يعرف ان الذين قالوا : انه مخلوق لاينازعون في أنه قديم بهذا المعنى ، ومنهم من يقول : ان مرادنا بأنه قديم أنه غير مخلوق ، ولا يفهم انه مع ذلك يكون أزليا لم يزل ، وهؤلاء سمعوا

ممن يوافقهم على أنه غير مخلوق : قالوا هو قديم . فوافقوا على أنه قديم . ولم يتصوروا ما يقولونه .

كما أن من الناس من قال : هو غير مخلوق ، وأراد بذلك أنه غير مكذوب ، وهذا مما لم يتنازع فيه الناس ، كما لم يتنازعوا فى أنه قديم بمعنى أنه متقدم على غيره .

و « القول الثانى » قول من يقول إن الله يتكلم بمشيئته وقدرته مع أن كلامه غير مخلوق . وهذا قول جماهير أهل السنة والنظر ، وأئمة السنة والحديث ، لكن من هؤلاء من اعتقد أن الله لم يكن يمكنه أن يتكلم فى الأزل بمشيئته ، كما لم يكن يمكنه عندهم ان يفعل فى الأزل شيئاً ، فالتزموا أنه تكلم بمشيئته بعد أن لم يكن متكلما ، كما أنه فعل بعد أن لم يكن فاعلا ، وهذا قول كثير من أهل الكلام والحديث والسنة .

وأما السلف والأئمة فقالوا : ان الله يتكلم بمشيئته وقدرته ، وإن كان مع ذلك قديم النوع ــ بمعنى أنه لم يزل متكلما إذا شاء ؛ فان الكلام صفة كمال ، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم ، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن لا يكون متكلما بمشيئته وقدرته ، ومن لا يزال متكلما بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام ممكنا له بعد ان يكون ممتنعاً منه ، او قدر أن ذلك ممكن ، فكيف إذا

كان ممتنعا ؟ لامتناع ان يصير الرب قادراً بعد ان لم يكن ، وأن يكون التكلم والفعل ممكنا بعد أن كان غير ممكن ؟ كما قد بسط هذا فى مواضع آخر.

وكانت « اللفظية الخلقية » من أهل الحديث يقولون : نقول : ان ألفاظنا بالقرآن مخلوقة ، وان التلاوة غير المتلو . والقراءة غير المقرؤ . و « اللفظية المثبتة » يقولون : نقول : ان الفاظنا بالقرآن غير مخلوقة ، والتلاوة هي المتلو ، والقراءة هي المقروء .

وأما المنصوص الصريح عن الامام أحمد ، وأعيان أصحابه ، وسائر أئمة السنة والحديث فلا يقولون مخلوقة ولا غير مخلوقة ، ولا يقولون التلاوة هي المتلو مطلقاً ، ولا غير المتلو مطلقاً كما لا يقولون : الاسم هو المسمى ، ولا غير المسمى.

وذلك أن « التلاوة ، والقراءة » كاللفظ قد يراد به مصدر تلى يتلو تلاوة ، وقرأ يقرأ قراءة ، ولفظ يلفظ لفظا ، ومسمى المصدر هو فعل العبد وحركاته ، وهذا المراد باسم التلاوة والقراءة ، واللفظ مخلوق ، وليس ذلك هو القول المسموع : الذي هو المتلو. وقد يراد باللفظ الملفوظ ، وبالتلاوة المتلو ، وبالقراءة المقروء ، وهو القول المسموع ، وذلك هو المتلو ، ومعلوم ان القرآن المتلو : الذي يتلوه العبد ، ويلفظ

به غير مخلوق ، وقد يراد بذلك مجموع الأمرين . فلا يجوز إطلاق الخلق على الجميع ولا نفي الخلق عن الجميع .

وصار « ابن كلاب » يريد بالتلاوة القرآن العربى ، وبالمتلو المعنى القائم بالذات ، وهؤلاء إذا قالوا : التلاوة غير المتلو ، وهي مخلوقة : كان مرادهم ان الله لم يتكلم بالقرآن العربى ، بل عندهم أن القرآن العربى مخلوق . وهذا لم يقله أحد من أئمة السنة والحديث . ويظن هؤلاء أنهم يوافقون البخاري او غيره ممن قد يفرق بين التلاوة والمتلو ، وليس الأمر كذلك .

ومن الآخرين من يقول : « التلاوة » هي المتلو ، ويريد بذلك ان نفس ما تكلم الله به من الحروف والأصوات هو الأصوات المسموعة من القراء ، حتى يجعل الصوت المسموع من العبد هو صوت الرب ، وهؤلاء يقولون : نفس صوت المخلوق وصفته هي عين صفة الخالق ، وهؤلاء « اتحادية ، حلولية فى الصفات » يشبهون النصارى من بعض الوجوه ، وهذا لم يقله أحد من أئمة السنة .

ويظن هؤلاء أنهم يوافقون أحمد واسحق وغيرهما ممن ينكر على « اللفظية » وليس الأمر كذلك ؛ فلهذا كان المنصوص عن الامام احمد وأئمة السنة والحديث انه لا يقال : ألفاظنا بالقرآن مخلوقة ، ولا غير

مخلوقة . ولا ان التلاوة هي المتلو مطلقاً ، ولا غير المتلو مطلقاً ؛ فان اسم القول والكلام قد يتناول هذا وهذا ؛ ولهذا يجعل الكلام قسيما للعمل ليس قسماً منه فى مثل قوله تعالى : (إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) . وقد يجعل قسما منه كما فى قوله : (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) . قال طائفة من السلف عن قول لا إله إلا الله ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل والنهار فقال رجل لو أن لي مثل مالفلان لعملت فيه مثل ما يعمل » ولهذا تنازع أصحاب أحمد فيمن حلف لا يعمل اليوم عملا هل يحنث بالكلام ؟ على قولين . ذكرهما القاضي أبو يعلى وغيره .

ولم تكن « اللفظية الخلقية » ينكرون كون القرآن كلام الله حروفه ومعانيه وان الله يتكلم بصوت ؛ بل قد يقولون : القرآن كله كلام الله حروفه ومعانيه ؛ فان الله يتكلم بصوت ، كما نص عليه أحمد والبخاري وغيرهما من الأئمة ، وكما جاءت به الآثار ؛ ولكن يقولون المنزل إلى الأرض من الحروف والمعاني ليس هو نفس كلام الله الذي ليس بمخلوق ؛ بل ربما سموها حكاية عن كلام الله ، كما يقوله ابن كلاب ، أو عبارة عن كلام الله كما يقوله الأشعري ، وربما سموها كلام الله ؛ لأن المعنى مفهوم عندهم .

ولكن لما حدث أبو محمد بن كلاب وناظر المعتزلة بطريق قياسية سلم لهم فيها أصولا ـــ هم واضعوها : من امتناع تكلمه تعـالى بالحروف ، وامتناع قيام « الصفات الاختيارية » بذاته مما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال والـكلام وغـير ذلك ؛ لأن ذلك يستلزم أنه لم يخـل من الحوادث ، وما لم يخل من الحوادث فهو حادث ـــ اضطره ذلك إلى ان يقول : ليس كلام الله إلا مجرد المعنى ، وان الحروف ليست من كلام الله ، وتابعه على ذلك أبو الحسن الأشعري ؛ وإن تنازعا فى ان الرب كان في الأزل آمراً ناهياً ، أو صار آمراً ناهياً بعد أن لم يكن . وفى ان « الـكلام » هـل هو صفة واحدة كما يقوله الأشعري ، أو خمس صفات كما يقوله ابن كلاب .

وصار هؤلاء مخالفين لأئمة السنة والحديث في شيئين .

(أحدهما) ان نصف القرآن من كلام الله ، والنصف الآخر ليس كلام الله عندهم ؛ بل خلقه الله فى الهواء ، أو في اللوح المحفوظ ، أو أحدثه جبريل ، أو محمد صلى الله عليه وسلم . وهؤلاء فى كونهم جعلوا نصف القرآن مخلوقاً موافقين لمن قال بخلقه ؛ لكن هؤلاء يقولون : ان هذا النصف المخلوق كلام الله ، وأولئك يقولون : هـو مخلوق منفصل عن الله ، وهو كلامه ؛ لكن أولئك لا يجعلون لله كلاماً متصلا به قائماً بنفسه ، ولا معـانى ولا حروفا . وهؤلاء يقولون : لله كلام قائم به

متصل به هو معنى . فصار أولئك أشد بدعة في نفيهم حقيقة الكلام عن الله ، وفى جعلهم كلام الله مخلوقاً . وهؤلاء أشد بدعة في إخراجهم ما هو من كلام الله عن أن يكون من كلام الله ، وصاروا فى هذا موافقين الوحيد في بعض قوله لا فى كله ، وهو قولهم : ان نصف القرآن ليس قول الله ؛ بل قول البشر .

وربما استدل بعضهم بأنه مضاف إلى الرسول فيكون هو أحدث حروفه ولم يتأمل هذا القائل فيرى أنه أضافه تارة إلى رسول هو جبريل ، وتارة إلى رسول هو محمد بقوله في الآية الأولى : (انه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين) فهذا جبريل [وقال فى الآية الأخرى] : (انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ماتذكرون) وهذا محمد ، فلو كانت إضافته إليه لأنه ابتدأ حروفه وأحدثها لم يصلح أن يضاف إلى كل منهما ؛ لا متناع أن يكون كل منهما هو أحدث حروفه ؛ ولأنه قال : (انه لقول رسول) وهذا إخبار عن القرآن الذي هو بالمعنى أحق عندهم وعند أهل السنة أيضاً ، فلو كان الرسول ابتدأه لكان القرآن من عنده لا من عند الله ، وإنما أضافه الله إلى الرسول لأنه بلغه وأداه وجاء به من عند الله ؛ ولهذا قال : (لقول رسول) ولم يقل لقول ملك ولا نبى ؛ بل جاء باسم الرسول ليتبين

أنه واسطة فيه وسفير ، والكلام كلام لمن اتصف به مبتدئا منشئاً ؛ لا لمن تكلم به مبلغاً مؤدياً ، كما يقال مثل دلك فى جميع كلام الناس فكيف بكلام الله ؟ وهذا على القول المشهور فى التفسير المطابق لظاهر القرآن : ان الرسول في أحد الموضعين محمد صلى الله عليه وسلم ، وفى الآخر جبريل عليه السلام .

وأما على قول طائفة جعلته في الموضعين جبريل فيكون الجواب هو الثاني ، والاثبات في الحقيقة حجة لمن يقول إنما يتكلم بكلام الله ويقول قوله ؛ لأنه جعل الرسول يقول قول الله الذي أرسله بــه ، والمعنى يراد من هذا قطعاً كما أريد منه اللفظ أيضا

وأيضا فان هؤلاء جعلوا الكلام الذي يتصف الله به معنى واحداً وهو الأمر والنهي والخبر والاستخبار ، وانه إن عبر عنه بالعربية كان هو القرآن ، وان عبر عنه بالعبرية كان هو التوراة ، وإن عبر عنــه بالسريانية كان هو الانجيل ، وهذا مما أجمع جمهور العقــلاء على ان فساده معلوم بالضرورة .

و « المعنى الثانى » الذي خالفوا فيه أهل السنة والجماعة قولهم إن القرآن المنزل إلى الأرض ليس هو كلام الله لا حروفه ولا معــانيه بل هو مخلوق عندهم . ويقولون : هو عبارة عن المعنى القائم بالنفس ؛ لأن

العبارة لا تشبه المعبر عنه ؛ بخلاف الحكاية والمحكى ، وهذا فيه من زيادة البدع ما لم يكن في قول « اللفظية » من أهل الحديث الذين أنكر عليهم أئمة السنة وقالوا هم « جهمية » إذ جعلوا الحروف من إحداث الرسول ، وليست مما تكلم الله به بحال ، وقالوا : انه ليس لله في الأرض كلام ، ولم يكن أيضاً في « اللفظية » القدماء الذين يقولون : لفظنا بالقرآن غير مخلوق من يقول إن صوت العبد غير مخلوق ، أو أن الصوت القديم يسمع من العبد ، أو ان هذا الصوت صوت الله ، أو يسمع معه صوت الله ؛ وإنما أحدث هذا أيضاً المتطرفون منهم ، كما أحدث المتطرفون من أولئك ان حروف القرآن ليست كلام الله ؛ فان هاتين « البدعتين » الشنيعتين لم تكونا بعد ظهرتا في أولئك المنحرفين الذين أنكر الامام أحمد وغيره قولهم من الطائفتين ، وان القرآن ليس إلا مجرد معنى قائم بالنفس ، وذلك المعنى إليه يعود كلام الله من التوراة والانجيل والقرآن .

و « الأخرى » قد رأت حروف القرآن من كلام الله ، وان القرآن كلام الله حروفه ومعانيه ، وان المعنى الواحد يمتنع أن يكون هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار ، وانه يمتنع أن يكون مدلول التوراة والانجيل والقرآن واحداً ، وعلموا أنا إذا ترجمنا التوراة بالعربية لم يصر معناها معنى القرآن ، وان هذه الأقوال معلومة الفساد

بالضرورة ، عارضها بعضها ؛ لأن القرآن حرف وصوت ، واعتقد بعضهم انــه ليس القرآن والكلام إلا مجرد الحروف والأصوات ، وأولئــك يقولون ليس الكلام إلا مجرد المعنى القائم بالنفس .

وكلا هذين السلبين الجحودين الحادثين خلاف ما كان عليه الأئمة كالامام أحمد وغيره من الأئمة ، وأعيان العلمــاء من سائر الطوائف . فان الكلام عندهم إسم للحروف والمعــانى جميعاً ، كما ان « الانسان » الناطق المتكلم اسم للجسد والروح جميعاً ، ومــن قال : ان الانسان ليس إلا هــذه الجملة المشــاهدة فهو بمنزلة من قال ليس الكلام إلا الأصوات المقطعة ، ومن قال : ان الانسان ليس إلا لطيفة وراء هذا الجسد فهو بمنزلة مــن قال : ان الكلام ليس إلا معنى وراء هــذه الحروف والأصوات ، وكلاهما جحد لبعض حقائق مسميات الاسماء وإنكار لحدود ما أنزل الله على رسوله .

فصـــــل

ثم إن فروخ « اللفظية النافية » الذين يقولون بأن حروف القرآن ليست من كلام الله تروي عن منازعيها أنهم يقولون : القرآن ليس هو إلا الأصوات المسموعة من العبد ، وإلا المداد المكتوب في الورق

وان هذه الاصوات وهذا المداد قديمان ، وهذا القول ماقاله أحد ممن يقول ان القرآن ليس إلا الحروف والأصوات ؛ بل أنكروا ذلك وردوه ، وكذبوا من نقل عنهم : أن المداد قديم ، ولكن هذا القول قد يقوله الجهال المتطرفون ، كما يحكى عن أعيانهم مثل سكان بعض الجبال : ان الورق والجلد والوتد وما أحاط به من الحائط كلام الله ، أو ما يشبه هذا اللغو من القول الذي لا يقوله مسلم ولا عاقل .

وفروخ « اللفظية المثبتة » الذين يقولون ان القرآن ليس إلا الحروف والصوت : تحكى عن منازعيها : ان القرآن ليس محفوظاً فى القلوب ، ولا متلوا بالألسن ، ولا مكتوبا فى المصاحف ، وهذا أيضاً ليس قولاً لأولئك ؛ بل هم متفقون على أن القرآن محفوظ فى القلوب متلو بالألسنة ، مكتوب فى المصاحف ، لكن جهالهم وغاليتهم إذا تدبروا حقيقة قول مقتصديهم — ان القرآن العربي لم يتكلم الله به ، وانه ليس إلا معنى واحد قائم بالذات ، وأصوات العباد ومداد المصحف يدل على ذلك المعنى ، وانه ليس لله فى الأرض كلام فى الحقيقة ، وليس فى الأرض إلا ما هو دال على كلام الله ، ولم يقل إلا ما هو دال على كلام الله ، وكلام الله إن عبر عنه بالعربية كان قرآنا ، وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة ، وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلا ، وهو معنى واحد لا يتعدد ، ولا يتبعض ، ولا يتكلم الرب بمشيئته وقدرته ؛ إلى

امثال ذلك من حقائق قول المقتصدين ـــ أسقطوا حرمة المصحف ، وربما داسوه ووطؤه ، وربما كتبوه بالعذرة أو غيرها .

وهؤلاء أشد كفراً ونفاقا ممن يقول الجلد والورق كلام الله ؛ فان اولئك آمنوا بالحق وبزيادة من الباطل ، وهؤلاء كذبوا بالكتاب وبما أرسل الله به رسله ، فسوف يعلمون ؛ إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون .

وأما أهل العلم بالمقالة وأهل الايمان بالشريعة فيعظمون المصحف ويعرفون حرمته ويوجبون له ما أوجبته الشريعة من الأحكام ، فانه كان في قولهم نوع من الخطأ والبدعة ، وفى مذهبهم من التجهم والضلال ما أنكروا به بعض صفات الله وبعض صفات كلامه ورسله ، وجحدوا بعض ما أنزل الله على رسله ، وصاروا مخانيثا للجهمية الذكور المنكرين لجميع الصفات ، لكنهم مع ذلك متأولون قاصدون الحق .

وهم مع تجهمهم هذا يقولون : ان القرآن مكتوب فى المصحف مثل ما أن الله مكتوب فى المصحف ، وانه متلو بالألسن مثل ما أن الله مذكور بالألسن ، ومحفوظ في القلوب مثل ما أن الله معلوم بالقلوب ، وهذا القول فيه نوع من الضلال والنفاق والجهل بحدود ما أنزل الله على رسوله [ما فيه] ، وهو الذي أوقع الجهال في الاستخفاف بحرمة

آيات الله وأسمائه حتى ألحدوا فى أسمائه وآياته .

كما ان اطلاق الأولين : أنه ليس للقرآن حقيقة إلا الحروف والأصوات ، ولا يفرق بين صوت الله المسموع منه وصوت القارىء ، وإن القرآن قديم أوقع الجهال منهم والكاذبين عليهم فى نقلهم عنهم : أن أصوات العباد والمداد الذي فى المصحف قديم ، وان الحروف التى هي كلام الله هي المداد ، وان كانوا لم يقولوا ذلك ؛ بل أنكروه ؛ كما فرق الله بين الكلمات والمداد فى قوله : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي). فان هؤلاء غلطوا « غلطين » غلطاً فى مذهبهم وغلطا في الشريعة .

أما الغلط في « تصوير مذهبهم » فكان الواجب أن يقولوا : ان القرآن في المصحف مثل ما ان العلم والمعاني في الورق ، فكما يقال : العلم فى هذا الكتاب يقال : الكلام فى هذا الكتاب ؛ لأن الكلام عندهم هو المعنى القائم بالذات فيصور له المثل بالعلم القائم بالذات لا بالذات نفسها .

وأما الغلط فى « الشريعة » فيقال لهم : ان القرآن فى المصاحف مثل ما أن اسم الله فى المصاحف ؛ فان القرآن كلام : فهو محفوظ بالقلوب كما يحفظ الكلام بالقلوب ، وهو مذكور بالألسنة كما يذكر

الكلام بالألسنة ، وهو مكتوب في المصاحف والأوراق كما ان الكلام يكتب فى المصاحف والأوراق ، والكلام الذي هو اللفظ يطابق المعنى ويدل عليه ، والمعنى يطابق الحقائق الموجودة . فمن قال : ان القرآن محفوظ كما ان الله معلوم ، وهو متلو كما ان الله مذكور ، ومكتوب كما ان الرسول مكتوب ، فقد أخطأ القياس والتمثيل بدرجتين :

فانه جعل وجود الموجودات القائمة بأنفسها بمنزلة وجود العبارة الدالة على المعنى المطابق لها ، والمسلمون يعلمون الفرق بين قوله تعالى: (انه لقرآن كريم ، في كتاب مكنون) وبين قوله تعالى : (وانه لفي زبر الأولين) . فان القرآن لم ينزل على احد قبل محمد : لا لفظه ، ولا جميع معانيه ، ولكن أنزل الله ذكره والخبر عنه ، كما أنزل ذكر محمد والخبر عنه ، فذكر القرآن في زبر الأولين كما أن ذكر محمد فى زبر الأولين ، وهو مكتوب عندهم فى التوراة والانجيل . فالله ورسوله معلوم بالقلوب ، مذكور بالألسن ، مكتوب فى المصحف ، كما ان القرآن معلوم لمن قبلنا مذكور لهم مكتوب عندهم ، وإنما ذاك ذكره والخبر عنه ، وأما نحن فنفس القرآن أنزل الينا ونفس القرآن مكتوب فى مصاحفنا ، كما أن نفس القرآن فى الكتاب المكنون وهو فى الصحف المطهرة .

ولهذا يجب الفرق بين قوله تعالى : (وكل شيء فعلوه في الزبر)

وبين قوله تعالى : (وكتاب مسطور ، في رق منشور) ؛ فان الأعمال في الزبر كالرسول وكالقرآن في زبر الأولين ، وأما « الكتاب المسطور في الرق المنشور » فهو كما يكتب الكلام نفسه والصحيفة ، فأين هذا من هذا ؟

وذلك أن كل شيء فله « أربع مراتب » في الوجود : وجود فى الأعيان ، ووجود فى الأذهان ، ووجود في اللسان ، ووجود في البنان : وجود عيني ، وعلمي ، ولفظي ، ورسمي . ولهذا كان أول ما أنزل الله من القرآن : (إقرأ باسم ربك الذي خلق) وذكر فيها انه سبحانه معطي الوجودين فقال : (إقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق) فهذا الوجود العيني ، ثم قال : (إقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم) فذكر أنه أعطى الوجود العلمي الذهني ، وذكر التعليم بالقلم ؛ لأنه مستلزم لتعليم اللفظ والعبارة ، وتعليم اللفظ والعبارة مستلزم لتعليم المعنى ، فدل بذكره آخر المراتب على أولها [لأنه] لو ذكر أولها أو أطلق التعليم لم يدل ذلك على العموم والاستغراق .

وإذا كان كذلك فالقرآن كلام ، والكلام له « المرتبة الثالثة » ليس بينه وبين الورق مرتبة أخرى متوسطة ؛ بل نفس الكلام يثبت فى الكتاب ، كما قال الله تعالى : (انه لقرآن كريم ، في كتاب

مكنون) وقال تعالى : (بل هو قرآن مجيد ، في لوح محفوظ) وقال : (يتلو صحفاً مطهرة ، فيها كتب قيمة) وقال : (كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره ، فى صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة) وقال : (ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس) .

وقد يقال : إنه مكتوب فيها ، كما يطلق القول : أنه فيها ، كما قال تعالى : (والطور ، وكتاب مسطور ، فى رق منشور) وأما الرب سبحانه أو رسوله أو غير ذلك من الأعيان فانما فى الصحف اسمه ، وهو من الكلام ؛ ولهذا قال : (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل) وإنما فى التوراة كتابته وذكره وصفته واسمه وهي « المرتبة الرابعة » منه ، فكيف يجوز تشبيه كون القرآن أو الكلام فى الصحف أو الورق بكون الله أو رسوله أو السماء أو الأرض فى الصحف أو الورق ؟!

ولو قال قائل : الله أو رسوله فى الصحف أو الورق لأنكر ذلك ؛ إلا مع قرائن تبين المراد ، كما فى قوله : (وكل شيء فعلوه فى الزبر) وفى قوله : (وانه لفي زبر الأولين) فان المراد بذلك ذكره وكتابته . و « الزبر » جمع زبور ، والزبور فعول بمعنى مفعول أي مزبور أي : مكتوب فلفظ الزبور يدل على الكتابة ، وهذا مثل ما فى الحديث المعروف عن ميسرة الفجر : « قال قلت : يا رسول الله !

متى كنت نبياً — وفي رواية متى كتبت نبياً — ؟ قال : وآدم بين الروح والجسد » رواه أحمد . فهذا الكون هو كتابته وتقديره ، وهو « المرتبة الرابعة » كما تقدم.

فان هذه المرتبة تتقدم وجود المخلوقات عند الله ، وعند من شاء من خلقه ؛ وإن كانت قد تتأخر أيضاً ؛ فـ « إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » رواه مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم : ولهذا قال ابن عباس فى قوله : (انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) : ان الله يأمر الملائكة بأن تنسخ من اللوح المحفوظ ما كتبه من القدر ، ويأمر الحفظة أن تكتب أعمال بني آدم فتقابل بين النسختين فتكونان سواء . ثم يقول ابن عباس : الستم قوماً عرباً ؟ وهل تكون النسخة إلا من أصل ؟ .

والتقدير والكتابة تكون تفصيلا بعد جملة . فالله تعالى لما قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة لم يظهر ذلك التقدير للملائكة . ولما خلق آدم قبل أن ينفخ فيه الروح أظهر لهم ما قدره ، كما يظهر لهم ذلك من كل مولود ، كما فى الصحيح عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يجمع خلق أحدكم فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم

يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل الله إليه الملك فينفخ فيـه الروح . ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد » وفى طريق آخر وفى رواية « ثم يبعث إليه الملك ، فيؤمر بأربع كلمات ، فيقـال : اكتب رزقه ، وعمله ، وأجله ، وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح » .

فأخبر صلى الله عليه وسلم فى هـذا الحديث الصحيح : ان الملك يؤمر بكتابة رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد ،بعد خلق جسد ابن آدم وقبل نفخ الروح فيه . فكان ما كتبه الله مـن نبوة محمد صلى الله عليه وسـلم الذي هو سيد ولد آدم بعد خلق جسد آدم وقبل نفخ الروح فيه من هـذا الجنس ، كما فى الحديث الآخـر الذي في المسند وغيره عـن العرباض بن سارية عـن النبي صلى الله عليـه وسلم قال : « اني عند الله مكتوب خاتم النبيين ، وان آدم لمنجدل فى طينته » وهذا وأمثاله من وجود الأعيان في الصحف .

وأما وجود الكلام فى الصحف فنوع آخر ؛ ولهذا حكى ابن قتيبة من مذهب أهل الحديث والسنة : ان القرآن في المصحف حقيقة لا مجازاً ، كما يقوله بعض المتكلمة ، وإحدى « الجهميات » التى أنـكرهـا أحمد وأعظمها قول من زعم ان القرآن ليس في الصدور ولا فى المصاحف ، وان من قال ذلك فقد قال بقول النصارى . كما حكي له ذلك عن موسى

ابن عقبة الصوري — احد كتبة الحديث إذ ذاك ؛ ليس هـو صاحب المغازي ؛ فان ذلك قديم من أصحاب التابعين — فأعظم ذلـك احمد ، وذكر النصوص والآثار الواردة وذلك مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « استذكروا القرآن فلهو اشد تفصياً مـن صدور الرجال من النعـم من عقلها » ، ومثل قوله : « الجوف الذي ليس فيه شيء مـن القرآن كالبيت الخرب » وغير ذلك .

وليس الغرض هنا الا التنبيه اللطيف .

ومن قال : ان هذا شبه قول النصارى فلم يعرف قول النصارى ، ولا قول المسلمين ، أو علم وجحد ؛ وذلك ان النصارى تقـول : ان الكلمة وهي جوهر إله عندهم ورب معبود تدرع الناسوت واتحد بـه كاتحـاد الماء واللبن ، أو حل فيه حلول الماء في الظرف ، او اختلط به اختـلاط النـار والحديد ، والمسلمون لا يقولون ان القرآن جوهر قائم بنفسه معبود ، وإنما هـو كلام الله الذي تكلم به ، ولا يقولون اتحد بالبشر .

واما اطلاق حلوله في المصاحف والصدور فكثير مـن المنتسبين الى السنة الخراسانيين وغيرهم يطلق ذلك ومنهم من العراقيين وغيرهم من ينفي ذلك ويقول : هو فيه عـلى وجه الظهور لا على وجـه الحلول .

ومنهم من لا يثبته ولا ينفيه ، بل يقول : القرآن في القلوب والمصاحف لا يقال هو حال ولا غير حال ؛ لما في النفي والاثبات من إيهام معنى فاسد ، وكما يقول ذلك طوائف من الشاميين وغيرهم ، ولا نزاع بينهم : ان كلام الله لا يفارق ذات الله ، وانه لا يباينه كلامه ولا شيء من صفاته ؛ بل ليس شيء من صفة موصوف تباين موصوفها وتنتقل الى غيره ، فكيف يتوهم عاقل ان كلام الله يباينه وينتقل الى غيره ؟

ولهذا قال الامام احمد : كلام الله من الله ، ليس ببائن منه وقد جاء في الأحاديث والآثار : « انه منه بدأ ، ومنه خرج » ومعنى ذلك انه هو المتكلم به لم يخرج من غيره ، ولا يقتضي ذلك انه باينه وانتقل عنه ، فقد قال سبحانه في حق المخلوقين : (كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون إلا كذباً) ومعلوم ان كلام المخلوق لا يباين محله ، وقد علم الناس جميعهم أن نقل الكلام وتحويله هو معنى تبليغه ، كما قال : (بلغ ما أنزل إليك من ربك) ، وقال تعالى : (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه) وقال تعالى : (ليعلم ان قد ابلغوا رسالات ربهم) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه الى من لم يسمعه ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو افقه منه » ، وقال : « بلغوا عني ولو آية » .

والكلام في الورق ليس هو فيه كما تكون الصفة بالموصوف

والعرض بالجوهر . بحيث تصير صفة له ، ولا هو فيه كما يكون الجسم في الحيز الذي انتقل اليه من حيز آخر ، ولا هو فيه كمجرد الدليل المحض بمنزلة العالم الذي هو دليل على الصانع ؛ بل هو قسم آخر معقول بنفسه . ولا يجب ان يكون لكل موجود نظير يطابقه من كل وجه ؛ بل النـاس بفطرهم يفهمون معنى كلام المتكلم فى الصحيفة ، ويعلمون ان كلامه الذي قام به لم يفارق ذاته ويحل فى غيره ، ويعلمون أن ما فى الصحيفة ليس مجرد دليل على معنى فى نفسه ابتداء ، بل ما فى الصيحفة مطابق للفظه ، ولفظه مطابق لمعناه ، ومعناه مطابق للخارج ، وقد يعلم مافي نفسه بأدلة طبعية ، وبحركات ارادية لم يقصد بها الدلالة ، ولا يقول أحد ان ذلك الكلام للمتكلم مثل كلامه المسموع منه ، فلو كان الكلام إنما سمي بذلك لمجرد الدلالة لشاركه كل دليل . وسنتكلم انشاء الله تعالى على ذلك .

ولو كان ما في المصحف وجب احترامه لمجرد الدلالة وجب احترام كل دليل ؛ بل الدال على الصانع وصفاته أعظم من الدال على كلامه ، وليست له حرمة كحرمة المصحف . والدال على المعنى القائم بنفس الانسان قد يعلم تارة بغير اختياره ، وقد يعلم بأصوات طبعية ، كالبكاء ، وقد يعلم بحركات لم يقصد بها الدلالة ، وقد يعلم بحركات يقصد بها الدلالة كالاشارة ، وقد يعلم باللفظ الذي تقصد به الدلالة .

فصـــل

وصار هؤلاء الذين غلطوا مذهب « اللفظية » وزادوا فيه شراً كثيراً إذ قالوا : « القراءة » غير المقروء و « التلاوة » غير المتلو و « الكتابة » غير المكتوب إنما يعنون بالقراءة أصوات القارئين و بـ« الكتابة » مداد الكاتبين ؛ ويعنون أن هذا غير المعنى القائم بالذات الذي هو كلام الله ، وإنما هو دلالة عليه . وعبارة عنه ؛ وليس عندهم الا قراءة ومقروء ، فلم يبق إلا صوت ، ومداد ، ومعنى قائم بالذات ؛ ليس ثم قرآن غير ذلك .

وأسقطوا حروف كلام الله التى تكلم بها ، وحقيقة معاني القرآن التى فى نفس الله تعالى ، وأسقطوا أيضاً معانى القرآن التى فى نفوس القارئين والمستمعين ؛ فانه لا ريب أن القرآن الذي نقرأه فيه حروف ومعانى حروف منطوقة ومسطورة ؛ فاذا لم يكن عندهم إلا صوت العبد وحبر المصحف فأين المعانى ؟ وأين حروف القرآن التى أنزلها الله ؟ وإن كانت عندهم مخلوقة . وكيف يتصور ان لا يكون لجميع ما أنزل الله تعالى من الكتب إلا معنى واحد يكون أمراً ونهياً ووعداً ووعيداً ،

وتكون هذه أوصافه لا أقسامه ؟ فان هؤلاء يقولون : ان معانى جميع كلام الله معنى واحد ، فمعنى : (تبت يدا أبى لهب) هو معنى (قل: هو الله أحد) ومعنى التوراة هو معنى القرآن والانجيل. ثم قد يجعلون معانى الكلام كلها الخبر ، وقد يجعلون معنى الخبر العلم ، ويجعلون العلم بهذا غير العلم بهذا .

ولهذا كان أكثر العقلاء يقولون : فساد هذا معلوم بالاضطرار ، ويقولون : الامر والنهي والخبر صفات اضافية للكلام ، وليست هي أنواع الكلام وأقسامه ، وكلام الله شأنه اعظم من شأن كلام المخلوقين ، والكلام الذي فى المصحف هو من هذا القسم الاخير دون الأقسام المتقدمة ، فكيف إذا كان لذلك اللفظ من الخصائص ماقيل فيه : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) .

لكن من الاشياء ما يدل على غيره بقصد منه [ومنها ما يدل على] غيره [بغيره قصد منه] للدلالة كالجامدات فان فيها مقاصد غير دلالتها على [الخالق] ومن الأشياء مالا يقصد به إلا الدلالة . بحيث إذا ذكر ما يقصد بذكره ذكر مدلوله كالاسم مع مسماه ، فالمقصود من الاسم هو المسمى ؛ فلهذا إذا ذكر الاسم كان المقصود به المسمى ، وكذلك « اللفظ » مع المعنى الذي هو مدلوله وكذلك « الخط » مع اللفظ ، فالمقصود من الخط

إنما هو اللفظ ، والمقصود من الحروف المرسومة هو الحروف المنطوقة ؛ ولهذا كان لفظ الحرف مقولا عليهما جميعاً . فاذا قيـــل : الـكلام من الكتاب عرف ان المقصود ممـــا في الكـتاب هو الكلام دون غـيره ، ولهذا كان لهذا من الاختصاص بالحرمة ما ليس لمـــا يقصد منه الدلالة وغير الدلالة والله اعلم .

فصـــــل

وصار أولئك الذين غلطوا مذهب « اللفظية المثبتة » الذي يقولون: لفظنا بالقرآن غـير مخـلوق ، ويقولون : « التـــلاوة » هي المتلو ، و « الكتابة » هي المـكتوب ، وما عندهم من القرآن إلا ما توهموا من الحروف والأصوات يلتزم أحدهم : ان الصوت القديم يسمع من القارىء ، ويوهمون المخالف لهم ان عين الصوت المسموع من العبد هو عين الصوت الذي تكلم الله به ، وينكرون معانى حقائق القرآن ان تكون من كلام الله ولا يجعـلون المعنى من كلام الله ، وكان السلف يقولون : القرآن كلام الله غـير مخـلوق ، والقرآن حيث تصرف فهـــو كلام الله غير مخلوق .

و « اللفظية المبتدعة المثبتة » الذين انكر عليهم الامام احمد وغيره

إنما قالوا لفظنا به غير مخلوق ؛ ولم يقولوا قديم . فجاءت المغلطة لمذهبهم ، فقالوا : لفظنا به قديم ، ولفظنا به أصواتنا ، فأصواتنا به قديمة . والامام احمد وسائر الأئمة من أصحابه الذين صحبوه وغيرهم ومن بعدهم من الأئمة ينكرون هذه « المراتب الأربع » فانهم ينكرون أن يقال : لفظي به غير مخلوق ، فكيف لفظي به قديم ؟ فكيف صوتي به غير مخلوق ؟ فكيف صوتي به قديم ؟ أو بعض الصوت المسموع قديم ؟ ونحو ذلك .

فصــــــل

ومن تأمل نصوص « الامام أحمد » في هــذا الباب وجدها من أسد الكلام وأتم البيان ، ووجــد كل طائفة منتسبة إلى السنة قــد تمسكت منها بما تمسكت ، ثم قد يخفى عليهـــا من السنة فى موضع آخر ما ظهر لبعضها فتنكره .

ومنشأ النزاع بين أهــل الأرض ، والاضطراب العظيم الذي لا يكاد ينضبط في هذا الباب يعود الى « أصلين » .

« مسألة » تكلم الله بالقرآن وسائر كلامه .

و « مسألة » تكلم العباد بكلام الله .

وسبب ذلك ان التكلم والتكليم له مراتب ودرجات ، وكذلك تبليغ المبلغ لكلام غيره له وجوه وصفات ، ومن الناس من يدرك من هذه الدرجات والصفات بعضها ، وربما لم يدرك إلا أدناها ، ثم يكذب بأعلاها ، فيصيرون مؤمنين ببعض الرسالة ، كافرين ببعضها ، ويصير كل من الطائفتين مصدقة بما أدركته ، مكذبة بما مع الآخرين من الحق .

وقد بين الله فى كتابه وسنة رسوله ذلك فقال تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء) وقال تعالى : (إنا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى ابراهيم ، واسماعيل ، واسحق ويعقوب ، والاسباط ، وعيسى ، وأيوب ، ويونس ، وهارون ، وسليمان ، وآتينا داود زبورا ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما) ، وقال : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ، ورفع بعضهم درجات ، وآتينا عيسى بن مريم البينات ، وأيدناه بروح القدس) .

ففي هذه الآية خص بالتكليم بعضهم ، وقد صرح فى الآية الأخرى بأنه كلم موسى تكليما ، واستفاضت الآثار بتخصيص موسى بالتكليم ، فهذا التكليم الذي خص به موسى على نوح وعيسى ونحوهما ليس هو

التكليم العام الذي قال فيه : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء) فان هذه الآية قد جمع فيها جميع درجات التكليم ، كما ذكر ذلك السلف .

فروينا في كتاب « الابانة » لأبي نصر السجزي ، وكتاب البيهقي ، وغيرهما عن عقبة ، قال : سئل ابن شهاب عن هذه الآية : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء ، إنه علي حكيم) قال ابن شهاب : نزلت هذه الآية تعم من أوحى الله إليه من البشر . فكلام الله الذي كلم به موسى من وراء حجاب ، والوحي ما يوحي الله إلى النبي من أنبيائه عليهم السلام ، ليثبت الله عز وجل ما أراد من وحيه فى قلب النبي ، ويكتبه ، وهو كلام الله ، ووحيه ، ومنه ما يكون بين الله وبين رسله ، ومنه ما يتكلم به الأنبياء ولا يكتبونه لأحد ، ولا يأمرون بكتابته . ولكنهم يحدثون به الناس حديثاً ، ويبينونه لهم ؛ لأن الله أمرهم أن يبينوه للناس ، ويبلغوهم إياه ، ومن الوحي ما يرسل الله به من يشاء ممن اصطفاه من ملائكته فيكلمون به انبياءه من الناس ، ومن الوحى ما يرسل الله به من يشاء من الملائكة فيوحيه وحيا فى قلب من يشاء من رسله .

قلت : فالأول الوحي وهو الاعلام السريع الخفي : إما فى اليقظة

وإما فى المنام ، فان رؤيا الأنبياء وحي ، ورؤيا المؤمنين جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة ، كما ثبت ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحاح ، وقال عبادة بن الصامت — ويروى مرفوعا — : رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده في المنام » وكذلك فى « اليقظة » فقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « قد كان فى الأمم قبلكم محدثون ، فان يكن فى أمتى فعمر » وفى رواية فى الصحيح « مكلمون » وقد قال تعالى : (وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولي) وقال تعالى : (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) . بل قد قال تعالى : (وأوحى في كل سماء أمرها) وقال تعالى : (وأوحى ربك إلى النحل)

فهذا الوحي يكون لغير الأنبياء ، ويكون يقظة ، ومناما . وقد يكون بصوت هاتف ، يكون الصوت فى نفس الانسان ، ليس خارجا عن نفسه يقظة ومناما ، كما قد يكون النور الذي يراه ايضاً فى نفسه .

فهذه « الدرجة » من الوحي التى تكون في نفسه من غير ان يسمع صوت ملك فى أدنى المراتب وآخرها ، وهي أولها باعتبار السالك ، وهي التى أدركتها عقول الالهيين من فلاسفة الاسلام الذين فيهم اسلام وصبوء ، فآمنوا ببعض صفات الأنبياء والرسل — وهو قدر مشترك بينهم وبين غيرهم — ولكن كفروا بالبعض ، فتجد بعض

هؤلاء يزعم أن النبوة مكتسبة ، أو أنه قد استغنى عــن الرسول ، أو ان غير الرسول قد يكون أفضل منه . وقــد يزعمون : ان كلام الله لموسى كان من هذا النمط ، وأنه إنما كلمه من سماء عقله ، وان الصوت الذي سمعه كان في نفسه ، أو أنه سمع المعنى فائضاً من العقل الفعال ، أو أن احدهم قد يصل إلى مقام موسى .

ومنهم من يزعم أنه يرتفع فوق موسى ، ويقولون : إن موسى سمع الكلام بواسطة ما فى نفسه من الأصوات ونحن نسمعه مجرداً عن ذلك . ومن هؤلاء من يزعم ان جبريل الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم هو الخيال النورانى : الذي يتمثل فى نفسه ، كما يتمثل فى نفس النائم ، ويزعمون ان القرآن أخــذه محمد عن هــذا الخيال المسمى بجبريل عندهم ؛ ولهــذا قال ابن عربى صــاحب « الفصوص » و « الفتوحات المكية » : انه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منــه الملك : الذي يوحي بــه إلى الرسول . وزعم ان مقــام « النبوة » دون الولاية ، وفوق « الرسالة » فان محمدا ـــ بزعمهم الكاذب ـــ يأخذ عن هذا الخيال النفسانى ـــ الذي سماه ملكا ـــ وهو يأخــذ عن العقل المجرد الذي أخذ منــه هذا الخيــال .

ثم هؤلاء لا يثبتون لله كلاماً اتصف به فى الحقيقة ولا يثبتون انه قصد إفهام أحد بعينه ؛ بل قد يقولون لا يعلم أحداً بعينه ؛ إذ علمــه

وقصده عندهم إذا اثبتوه لم يثبتوه إلا كلياً لا يعين احداً ، بناء على أنه يعلم الـكليات ولا يعلم الجزئيات إلا على وجه كلي . وقد يقرب أو يقرب من مذهبهم من قال باسترسال علمه عـــلى أعيان الأعراض ، وهـــذا الكلام ـــ مع أنه كفر باتفاق المسلمين ـــ فقد وقع فى كثير منه من له فضل فى الكلام والتصوف ونحو ذلك ، ولولا أنى أكره التعيين فى هذا الجواب لعينت أكابر من المتأخرين .

وقد يكون الصوت الذي يسمعه خارجاً عن نفسه من جهـة الحق تعالى على لسان ملك من ملائـكته أو غير ملك ، وهو الذي أدركتـه الجهمية من المعتزلة ونحوهم ، واعتقدوا انه ليس لله تكليم إلا ذلــك ، وهو لا يخرج عن قسم الوحي الذي هو احد أقسام التكليم ، أو قسيم التكليم بالرسول . وهو « القسم الثانى » حيث قال تعالى : (أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء) فهذا إيحاء الرسول ؛ وهو غير الوحي الأول من الله الذي هو احد اقسام التكليم العام .

وإيحاء الرسول ايضاً « انواع » ففي الصحيحين عن عائشـة رضي الله عنها : « ان الحارث بن هشام سـأل النبي صـلى الله عليه وسـلم كيف يأتيك الوحي ؟ قال : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهـو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فاعي ما يقول » قالت عائشة رضي الله عنها : ولقد رأيته

ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا .

فأخبر صلى الله عليه وسلم : ان نزول الملك عليه تارة يكون في الباطن بصوت مثل صلصلة الجرس . وتارة يكون متمثلا بصورةِ رجل يكلمه ، كما كان جبريل يأتى فى صورة دحية الكلبي ، وكما تمثل لمريم بشراً سويا ، وكما جاءت الملائكة لابراهيم وللوط فى صورة الآدميين ، كما اخبر الله بذلك فى غير موضع وقد سمى الله كلا النوعين إلقاء الملك ، وخطابه وحيا ؛ لما فى ذلك من الخفاء ؛ فانه إذا رآه يحتاج أن يعلم انه ملك ، وإذا جاء فى مثل صلصلة الجرس يحتاج إلى فهم ما في الصوت .

و« القسم الثالث » التكليم من وراء حجاب ، كما كلم موسى عليه السلام ؛ ولهذا سمى الله هذا « نداء » و « نجاء » فقال تعالى : (وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا) وقال تعالى : (فلما أتاها نودي ياموسى ! إنى أنا ربك ، فاخلع نعليك ؛ إنك بالواد المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى) وهذا التكليم مختص ببعض الرسل ، كما قال تعالى : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله) وقال تعالى : (ولما جاء موسى لميقاتنا ، وكلمه ربه) وقال بعد ذكر إيحائه إلى الأنبياء : (وكلم الله موسى تكليما) فمن جعل هذا من جنس الوحي الأول — كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة

ومن تكلم فى التصوف على طريقهم كما فى « مشكاة الأنوار » وكما فى « كتاب خلع النعلين» وكما في كلام الاتحادية كصاحب «الفصوص» وأمثاله ــ فضلاله ومخالفتــه للـكتاب والسنة والاجمـاع ؛ بل وصريح المعقول مـن أبين الأمور .

وكذلك مــن زعم : أن تكليم الله لموسى إنمــا هو من جنس الالهام والوحي ؛ وان الواحد منا قـد يسمع كلام الله كما سمعـه موسى ــ كما يوجد مثل ذلك فى كلام طـائفة من فروخ الجهمية الكلابية ونحوهم ــ فهذا أيضاً من أعظم الناس ضلالا .

وقد دل كتـاب الله على أن اسم الوحي والكلام فى كتـاب الله فيهما عموم وخصوص . فاذا كان أحدهما عاماً اندرج فيــه الآخر ، كما اندرج الوحي فى التكليم العام في هـذه الآية ، واندرج التكليم فى الوحي العــام حيث قال تعـالى : (فاستمع لما يوحى) وامـا التكليم الخاص الـكامل فلا يدخل فيه الوحي الخاص الخفي : الذي يشترك فيه الأنبياء وغيرهم ، كما أن الوحي المشترك الخاص لا يدخل فيــه التـكليم الخاص الـكامل ؛ كما قال تعـالى لزكريا : (آيتك أن لا تكلم النـاس ثلاث ليال سويا) ثم قال تعالى : (فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم) « فالايحاء » ليس بتكليم ، ولا يناقض الـكلام ، وقوله تعالى في الآية الأخرى : (ان لاتكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً) ان جعل

معنى الاستثناء منقطعاً اتفق معنى التكليم فى الآيتين ، وان جعل متصلا كان التكليم مثل التكليم فى سورة الشورى ، وهو التكليم العام ؛ وقد تبين أنه إنما كلم موسى تكليما خاصاً كاملا بقوله : (منهم من كلم الله) مع العلم بأن الجميع أوحى إليهم ، وكلمهم التكليم العام ، وبأنه فرق بين تكليمه وبين الايحاء إلى النبيين ، وكذا التكليم بالمصدر وبأنه جعل التكليم من وراء حجاب قسما غير إيحائه ، وبما تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من تكليمه الخاص لموسى منه إليه ، وقد ثبت انه كلمه بصوت سمعه موسى ، كما جاءت الآثار بذلك عن سلف الأمة وأئمتها موافقة لما دل عليه الكتاب والسنة .

وغلطت هنا « الطائفة الثالثة » الكلابية . فاعتقدت أنه إنما أوحى إلى موسى عليه السلام معنى مجردا عن صوت .

واختلفت هل يسمع ذلك ؟ فقال بعضهم يسمع ذلك المعنى بلطيفة خلقها فيه ، قالوا : ان السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، واللمس معان تتعلق بكل موجود ، كما قال ذلك الأشعري ، وطائفة ، وقال بعضهم لم يسمع موسى كلام الله ، فانه عنده معنى ، والمعنى لا يسمع ، كما قال ذلك القاضي أبو بكر وطائفة .

وهذا الذي أثبتوه في جنس الوحي العام الذي فرق الله عز وجل

بينه وبين تكليمه لموسى عليه السلام حيث قال : (إنا أوحينا إليك ، كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) إلى قوله : (وكلم الله موسى، تكليما) وفرق بين إيحائه وبين تكليمه من وراء حجاب حيث قال : (إلا وحياً ، أو من وراء حجاب) وحيث فرق بين الرسول المكلم وغيره بقوله تعالى : (منهم من كلم الله) .

لكن هؤلاء يثبتون ان لله كلاما هو معنى قائم بنفسه هو متكلم به ، وبهذا صاروا خيراً ممن لا يثبت له كلاما إلا ما أوحى فى نفس النبي من المعنى ؛ أو ما سمعه من الصوت المحدث ، ولكن لفرط ردهم على هؤلاء زعموا : أنه لا يكون كلاما لله بحال إلا ما قام به ؛ فانه لا يقوم به إلا المعنى . فانكروا أن تكون الحروف كلام الله ، وأن يكون القرآن العربي كلام الله .

وجاءت « الطائفة الرابعة » فردوا على هؤلاء دعواهم ان يكون الكلام مجرد ، المعنى فزعم بعضهم أن الكلام ليس إلا الحرف أو الصوت فقط وإن المعانى المجردة لا تسمى كلاما أصلا ؛ وليس كذلك ؛ بل الكلام المطلق اسم للمعاني والحروف جميعاً ، وقد يسمى أحدهما كلاماً مع التقييد كما يقول النحاة : « الكلام » اسم ، وفعل ، وحرف . فالمقسوم هنا اللفظ ، وكما قال الحسن البصري : ما زال أهل العلم يعودون بالتكلم على التفكر ، وبالتفكر على التدبر . ويناطقون القلوب حتى نطقت . وكما قال

الجنيد : « التوحيد » قول القلب « والتوكل » عمل القلب . فجعلوا للقلب نطقاً ، وقوة ، كما جعل النبي صلى الله عليه وسلم للنفس حديثاً في قوله : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ــ ثم قال ــ : ما لم تتكلم به ، أو تعمل به » .

فعلم ان « الكلام المطلق » هو ما كان بالحروف المطابقة للمعنى ، وإن كان مع التقييد قد يقع بغير ذلك ، حتى إنهم قد يسمون كل إفهام ودلالة يقصدها الدال قولا ، سواء كانت باللفظ او الاشارة ، او العقد ــ عقد الاصابع ــ وقد يسمون أيضا الدلالة قولا ، وإن لم تكن بقصد من الدال مثل دلالة الجامدات كما يقولون : قالت : « اتساع بطنه » .

امتلأ الحوض وقال قطنى   قطنى رويداً قد ملأت بطني

وقالت له العينان سمعا وطاعة

ويسمى هذا لسان الحال ودلالة الحال ومنه قولهم : سل الأرض من فجر أنهارك ، وسقى ثمارك ، وغرس أشجارك ؟ فان لم تجبك حوارا أجابتك اعتباراً . ومنه قولهم :

تخبرني العينان ما القلب كاتم   ولا خير في الحيا والنظر الشزر

ومنه قولهم :

سألت الدار تخبرني عن الأحباب ما فعلوا
فقالت لي أناخ القوم أياما وقد رحلوا

وقد يسمى شهادة ، وقد زعم طائفة ان ما ذكر فى القرآن من تسبيح المخلوقات هو من هذا الباب ، وهو دلالتها على الخالق تعالى ؛ ولكن الصواب ان ثم تسبيحاً آخر زائدا على ما فيها من الدلالة كما قد سبق فى موضع آخر ؛ لكن هذا كله يكون مع التقييد والقرينة ؛ ولهذا يصح سلب الكلام والقول عن هذه الأشياء كما قال تعالى : (الم يروا انه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا) وقال تعالى : (أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً) وقال الخليل عليه السلام : (فاسألوهم ان كانوا ينطقون) وقال تعالى : (هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون) وقال تعالى : (لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) وقال تعالى : (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) وهذا معلوم بالضرورة والتواتر ، وهو سلب القول والكلام عن الحي الساكت والعاجز ، فكيف عن الموات ؟ !

وقد علم ان الله تعالى موصوف بغاية صفات الكمال ، وان الرسل قد أثبتوا أنه متكلم بالكلام الكامل التام فى غاية الكمال ، فمن لم يجعل كلامه إلا مجرد معنى ، أو مجرد حروف ، أو مجرد حروف وأصوات ، فما قدر الله حق قدره ، ومن لم يجعل كلامه إلا ما يقوم

بغيره فقد سلبه الكمال، وشبهه بالموات . وكذلك من لم يجعله يتكلم بمشيئته ، أو جعله يتكلم بمشيئته وقدرته ولكن جعل الكلام من جملة المخلوقات وجعله يوصف بمخلوقاته ، أو جعله يتكلم بعد أن لم يكن متكلما فكل من هذه الأقوال وإن كان فيه إثبات بعض الحق ففيه رد لبعض الحق ونقص لما يستحقه الله من الكمال .

فصل

وكل من هؤلاء أدرك من درجات الكلام وأنواعه بعض الحق .

وكذلك « الأصل الثاني » وهو تكلمنا بكلام الله ؛ فان الكتاب والسنة والاجماع دل على أن هذا الذي يقرأه المسلمون هو كلام الله لا كلام غيره ، ولو قال أحد : إن حرفا منه ، او معنى ليس هو من كلام الله ، أو أنه كلام غير الله وسمع ذلك منه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ او أحد من أصحابه لعلم بالاضطرار انهم كانوا يقابلونه بما يقابلون أهل الجحود والضلال ؛ بل قد أجمع الخلائق على نحو ذلك في كل كلام . فجميع الخلق الذين يعلمون ان قوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

من شعر لبيد يعلمون ان هذا كلام لبيد وأن قوله :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

هو من كلام امرىء القيس ، مع علمهم انهم إنما سمعوها من غيره بصوت ذلك الغير ، فجاء المؤمنون ببعض الحق دون بعض فقالوا : ليس هذا ، أو لا نسمع إلا صوت العبد ولفظه : ثم قال « النفاة » : ولفظ العبد محدث ، وليس هو كلام الله ، فهذا المسموع محدث ، وليس هو كلام الله . وقالت « المثبتة » : بل هذا كلام الله وليس إلا لفظه أو صوته فيكون لفظه او [صوته] كلام الله ، وكلام الله غير مخلوق ، أو قديم ، فيكون لفظه او صوته غير مخلوق أو قديم .

وكل من الفريقين قد علم الناس بالضرورة من دين الأمة ؛ بل وبالعقل انه مخطىء فى بعض ماقاله ، مبتدع فيه ؛ ولهذا أنكر الأئمة ذلك ، وإذا رجع أحدهم الى فطرته وجد الفرق بين أن يشير إلى الكلام المسموع فيقال : هذا كلام زيد ، وبين أن يقول هذا صوت زيد ، ويجد فطرته تصدق بالأول وتكذب بالثاني ، قال الله تعالى : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » .

وكل أحد يعلم بفطرته ما دل عليه الكتاب والسنة من أن الكلام

كلام الباري والصوت صوت القاري ؛ ولهـذا قال « الامام أحمد » لأبي طالب لما قرأ عليه : (قل هو الله أحد) وقال له : هـذا غير مخلوق فحكى عنه أنه قال : لفظي بالقرآن غـير مخلوق ، قال له : أنا قلت لك لفظي غير مخلوق ؟ قال : لا . ولكن قرأت عليك : (قل هو الله أحد) فقلت : هذا غير مخلوق .

فبين أحمد الفرق بين أن يقول : هذا الكلام غير مخلوق ، أو يقول : لفظ هذا المتكلم غير مخلوق ؛ لأن قوله لفظي « مجمل » يدخل فيه فعله ، ويدخل فيـه صوته . فاذا قيـل : لفظي ، أو تلاوتى ، أو قراءتى غير مخلوقة ، أو هي المتلو اشعر ذلك ان فعـل العبد وصوته قديم ، وان ما قام به مـن المعنى والصوت هـو عين ما قام بالله من المعنى والصوت ، وإذا قال : لفظي بالقرآن ، أو تلاوتى للقـرآن ، أو لفظ القرآن ، أو تلاوته مخلوقة ، أو التلاوة غير المتلو ، أو القراءة غير المقروء أفهم ذلك أن حروف القرآن ليست من كلام الله بحـال ، وان نصف القرآن كلام الله ونصفه كلام غيره ، وأفهـم ذلك ان قراءة الله للقرآن مباينة لمقروئه ، وتلاوته للقرآن مباينة لمتـلوه ، وان قراءة العبد للقرآن مباينة لمقروء العبد ، وتلاوته له مبـاينة لمتلوه ، وأفهم ذلك أنما نزل إلينا ليس هو كلام الله ؛ لأن المقروء والمتلو هو كلام الله ، والمغايرة عند هؤلاء تقتضي المباينة ، فما باين كلامه لم يكن كلاماً له فلا يكون هذا الذي أنزله كلامه .

ولما كان الكلام إنما يكون بحركة وفعل تنشأ عنه حروف ومعان صار الكلام يدخل فى اسم الفعل والعمل : تارة باعتبار الحركة والفعل، ويخرج عنه تارة باعتبار الحروف والمعاني ؛ ولهذا يجيء في الكتاب والسنة قسما منه تارة كما فى قوله تعالى : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة) وقسيماً له أخرى كما في قوله تعالى : (إليه يصعد الكلم الطيب . والعمل الصالح يرفعه) .

ولهذا تنازع العلماء فيما إذا حلف لا يعمل عملاً في هذا المكان ولم يكن له نية ولا سبب يفيد ، هل يحنث بالكلام؟ على قولين في مذهب الامام أحمد وغيره ، وذكروهما روايتين عن أحمد ؛ ولهذا قال أبو محمد ابن قتيبة في كتابه الذي ألفه في بيان « اللفظ » ان القراءة قرآن وعمل لا يتميز أحدهما عن الآخر ، فمن قال : انها قرآن فهو صادق ، ومن حلف انها عمل فهو بار ، وخطأ من أطلق : ان القراءة مخلوقة ، وخطأ من زعم انها غير مخلوقة ، ونسبهما جميعاً الى قلة العلم ، وقصور الفهم ؛ فان هذه المسألة خفيت على الطائفتين لغموضها ؛ فان احدى الطائفتين وجدت القراءة تسمى قرآنا فنفت الخلق عنها ، والأخرى وجدت القراءة فعلا يثاب صاحبه عليه فأثبتت حدثه .

قلت : والخطأ في هـذا الأصل في طرفين ، كما أنه في الأصل الأول في طرفين . ففي الأصل الأول من قال : إنه ليس له كلام قائم به ومـن قال : ليس كلامـه إلا معنى مجرد أو صوت مجرد . وفي هذا الأصل من قال : كلامه لا يقوله غيره ، أو لا يسمع مـن غيره ، ومن قال : كلامه إذا أبلغه غيره وأداه فحاله كحاله إذا سمعه منه وتلاه بل كلامه يقوله : رسله وعباده ، ويتكلمون به ، ويتلونه ، ويقرأونه فهو كلامه حيث تصرف ، وحيث تلي ، وحيث كتب ، وكلامه ليس بمخلوق حيث تصرف ؛ وهو مع هـذا فليس حاله إذا قرأه العبـاد وكتبوه كحاله إذا قرأه الله وسمعوه منه ، ولا من يسمعه من القارىء بمنزلة موسى بن عمران الذي سمع كلام رب العالمين منـه ، كما جاء في الحديث : « إذا سمع الخلائق القرآن يوم القيامة مـن الله فكأنهم لم يسمعوه قبل ذلك » بل ولا تلاوة الرسول وسمعه منـه كتلاوة غيره وسمعه منه ؛ بل ولا تلاوة بعض الناس والسماع منه كتلاوة بعض الناس والسماع منه ، وهو كلام الله تعالى الذي ليس بمخلوق في جميع أحواله ، وان اختلفت أحواله .

ومما يجب أن يعرف ان قول الله ورسوله والمؤمنين لما أنزله الله : هذا كلام الله ؛ بل وقول الناس لما يسمعونه من كلام النـاس : هذا كلام فلان ، كقولهم لمثل قوله : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لـكل

امرىء ما نوى » هذا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولمثل قوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

هذا شعر لبيد .

فليس قولهم : هذا هو هذا ؛ لأنه مساو له في النوع ، كما يقال : هذا السواد هو هذا السواد ؛ فان هذا يقولونه لما اتفق من الكلامين ، والعلمين ؛ والقدرتين ، والشخصين . ويقولون في مثل ذلك : وقع الخاطر على الخاطر ، كوقع الحافر على الحافر . وفى الحقيقة فهو إنما هو مثله ، كما قال تعالى : (كذلك قال الذين من قبلهم : مثل قولهم) وهم يقولون : هذا هو هذا مع اتفاقهما في الصفات ، وقد يكون مع اختلافهما اختلافا غير مقصود ، كما أنهم يقولون للعين الواحدة إذا اختلفت صفتها هذه [عين (١)] هذه ، ولا هو أيضاً بمنزلة من تمثل بكلام لغيره سواء كان نظما أو نثراً مثل أن يتمثل الرجل بقول لغيره فيصير متكلما به متشبهاً بالمتكلم به أولاً ، وهذا مثل أن نقول قولاً قاله غيرنا موافقين لذلك القائل في صحة القول .

ولهذا قال الفقهاء : إن من قال ما يوافق لفظ القرآن على وجه

---

(١) بالاصل غير .

الذكر والدعاء مثل أن يقول عند ابتداء الفعل بسم الله ، وعند الأكل الحمد لله ، ونحو ذلك لم يكن قارئاً ، وجاز له ذلك مع الجنابة ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أفضل الكلام بعد القرآن « أربع » وهن من القرآن : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله اكبر » رواه مسلم . فجعلها أفضل الكلام بعد القرآن ، وأخبر أنها من القرآن فهي من القرآن . وإذا قالها على وجه الذكر لم يكن قارئاً .

لكن هذا الوجه قد يضاف فيه الكلام إلى الأول وإن لم يقصد الثاني تبليغ كلامه ؛ لأنه هو الذي أنشأ الحقيقة ابتداء ، والثاني قالها احتذاء فاذا تمثل الرجل بقول الشاعر وإن لم يقصد تبليغ شعره :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

قيل له هذا كلام لبيد ؛ لكن الثاني قد لا يقصد الا أن يتكلم به ابتداء لاعتقاده صحة معناه .

ومن هنا تنازع أهل العلم في « حروف الهجاء » وفى « الأسماء » المنزلة فى القرآن وفى « كلمات » فى القرآن إذا تمثل الرجل بها ولم يقصد بها القراءة ، هل يقال : ليست مخلوقة لأنها من القرآن ؟ أو يقال : إذا لم يقصد بها القرآن وكلام الله فليست من كلام الله فتكون

مخلوقة ، على قولين لأهل السنة .

وأما الانسان إذا قال ما هو كلام لغيره يقصد تبليغه وتأديته ، أو التكلم به معتقداً أنه إنما قصد التكلم بكلام غيره الذي هو الآمر بأمره . المخبر بخبره ، المتكلم ابتداء بحروفه ومعانيه ، فهنا الكلام كلام الأول قطعاً ، ليس كلاماً للثاني بوجه من الوجوه ، وإنما وصل إلى الناس بواسطة الثاني .

وليس للكلام نظير من كل وجه فيشتبه به ، وانما هو أمر معقول بنفسه ، فان كلام زيد المخلوق وإن كان قد عدم مثلا ، وعدم أيضاً ما قام به من الصفة ، فاذا رواه عنه راو آخر ، وقلنا : هذا كلام زيد . فانما نشير إلى الحقيقة التى ابتدأ بها زيد واتصف بها ، وهذه هي تلك بعينها : أعني الحقيقة الصورية ؛ لا المادة ؛ فان الصوت المطلق بالنسبة إلى الحروف الصوتية المقطعة بمنزلة المادة والصورة ، وهو لم يكن كلاما للمتكلم الأول ؛ لأجل الصوت المطلق الذي يشترك فيه صوت الآدميين والبهائم العجم والجمادات ، وإنما هو لأجل الصورة التى ألفها زيد مع تأليفه لمعانيها .

ووجود هذه الصورة فى المادتين ليس بمنزلة وجود الأنواع والأشخاص في الأعيان ، ولا بمنزلة وجود الأعراض في الجواهر ، ولا

هو بمنزلة سائر الصور في موادها الجوهرية ؛ بل هو حقيقة قائمة بنفسها وليس لكل حقيقة نظير مطابق من كل وجه .

وإذا قالوا : هذا شعر لبيد ، فانما يشيرون إلى اللفظ والمعنى جميعاً . ثم مع هذا لو قال القائل : أنا أنشأت لفظ هذا الشعر ، أو هذا اللفظ من انشائي ، أو لفظي بهذا الشعر من إنشائي لكذبه الناس كلهم ، وقالوا له : بل أنت رويته ، وأنشدته . أما أن تكون أحدثت لفظه ، أو هو محدث البارحة بلفظك ؛ أو لفظك به محدث البارحة فكذب ؛ لأن لفظ هذا الشعر موجود من دهر طويل ، وان كنت أنت أديته بحركتك وصوتك ، فالحركة والصوت أمر طبيعي يشركك فيه الحيوان ، ناطقه وأعجمه ، فليس لك فيه حظ من حيث هو كلام ، ولا من حيث هو كلام ذلك الشاعر ؛ إذ كونه كلاما ، أو كلاما لمتكلم هو مما يختص به المتكلم ؛ إنما أديته بآلة يشركك فيها العجماوات ، والجمادات ؛ لكن الحمد لله الذي جعل لك من العقل والتمييز ما تهتدى به ويسير به لسانك ولم يجعل ذلك للعجماوات ؛ فجعل فعلك وصفتك تعينك على عقل الكلام والتكلم به ولم يجعل فعل العجم وصفتها كذلك .

فاذا كان هذا في مخلوق بلغ كلام مخلوق مثله ، فكيف الظن بكلام الخالق جل جلاله الذي فضله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه ؟!

فان له شأناً آخر يختص به لا يشبه بتبليغ سائر الكلام ، كما أنه في نفسه لا يشبه سائر الكلام ، وليس له مثل يقدر عليه أحد من الخلق ؛ بخلاف سائر ما يبلغ من كلام البشر ؛ فان مثله مقدور فلا يجوز اضافة هذا الكلام المسموع الذي هو القرآن إلى غير الله بوجه من الوجوه؛ إلا على سبيل التبليغ ، كقوله تعالى : (انه لقول رسول كريم) ، والله سبحانه قد خاطبنا به بواسطة الرسول كما تقدم .

وقد بسطت الكلام فى هذه المواضع التى هي محارات العقول التى اضطربت فيها الخلائق فى الموضع الذي يليق به ؛ فان هذا جواب فتيا لا يليق به إلا التنبيه على جمل الأمور ، واثبات وجوب نسبة الكلام الى من بدأ منه لفظه ومعناه دون من بلغه عنه وأداه ، وانه كلام المتصف به مبتدئاً حقيقة ، سواء سمع منه أو سمع ممن بلغه وأداه بفعله وصوته ، مع العلم بأن أفعال العباد وصفاتهم مخلوقة وان قول الله ورسوله والمؤمنين : هذا كلام الله ، وما بين اللوحين كلام الله حقيقة لاريب فيه ، وان « القرآن » الذي يقرأه المسلمون ويكتبونه ويحفظونه هو كلام الله تعالى ، وكلام الله حيث تصرف غير مخلوق . وأما ما اقترن بتبليغه وقراءته من أفعال العباد وصفاتهم فانه مخلوق .

لكن هذا الموضع فيه اشتباه واشكال لا تحتمل تحريره وبسطه هذه الفتوى ؛ لأن صاحبها مستوفز عجلان يريد أخذها ؛ ولأن في

ذلك من الدقة والغموض ما يحتاج إلى ذكر النصوص ، وبيان معانيها ، وضرب الامثال التى توضح حقيقة الأمر ، وليس هذا موضعه .

بل الذي يعلم من حيث « الجملة » أن الامام أحمد والأئمة ، الكبار الذين لهم فى الأمة لسان صدق عام لم يتنازعوا في شيء من هذا الباب؛ بل كان بعضهم أعظم علماً به وقياما بواجبه من بعض . وقد غلط فى بعض ذلك من أكابر الناس جماعات . وقد رد الامام أحمد عامة البدع في هذا الباب هو والأئمة .

فأول ما ابتدع الجهمية القول « بخلق القرآن » و « نفي الصفات » فأنكرها من كان فى ذلك الوقت من التابعين ثم تابعي التابعين ومن بعدهم من الأئمة وكفروا قائلها . ثم ابتدع بعض أهل الحديث والكلام الذين ناظروا الجهمية : القول بأن القرآن المنزل مخلوق ، أو انه ليس بكلام الله ، أو أنه ليس فى المصاحف ولا فى الصدور ، وانكر بعضهم أن تكون حروف القرآن كلام الله ، أو أن يكون الله تكلم بالصوت ، وانكر الامام أحمد وأئمة وقته ذلك .

وقابلهم قوم من اهل الكلام والحديث ؛ فزعموا أن ألفاظ العباد وأصوات العباد غير مخلوقة ، أو ادعوا ان بعض أفعال العباد أو صفاتهم غير مخلوقة ، أو أن ما يسمع من الناس من القرآن هو مثل ما يسمع

من الله تعالى من كل وجه ، ونحو ذلك . فأنكر الامام أحمد وعامة أئمة وقته وأصحابه وغيرهم من العلماء ذلك .

وإنكار جميع هذه البدع وردها موجود عن الامام أحمد وغيره من الأئمة في الكتب الثابتة مثل « كتاب السنة » للخلال و « الابانة » لابن بطة و « كتب المحنة » التى رواها حنبل وصالح و « كتاب السنة » لعبد الله بن أحمد و « السنة » للالكائي ، و « السنة » لابن أبى حاتم وما شاء الله من الكتب .

فأما الرد على « الجهمية » القائلين بنفي الصفات وخلق القرآن ففي كلام التابعين وتابعيهم والأئمة المشاهير من ذلك شيء كثير ، وفي « مسألة القرآن » من ذلك آثار كثيرة جداً . مثل ماروى ابن أبي حاتم وابن شاهين واللالكائي وغيرهم من غير وجه عن علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — انه قيل له يوم صفين : حكمت رجلين ، فقال : ما حكمت مخلوقا ، ما حكمت الا القرآن ، وعن عكرمة قال : كان ابن عباس في جنازة ، فلما وضع الميت في لحده قام رجل فقال : اللهم رب القرآن اغفر له ، فوثب إليه ابن عباس فقال له : مه ! القرآن منه . وفي رواية : القرآن كلام الله . وليس بمربوب ، منه خرج ، وإليه يعود . وعن عبد الله بن مسعود قال : من حلف بالقرآن فعليه بكل آية كفارة ، فمن كفر بحرف منه فقد كفر به أجمع .

ومن المستفيض عن سفيان بن عيينة ، عن عمرو بن دينار ، — وربما وقفه بعضهم على سفيان والأول هو المشهور — قال : أدركت مشايخنا والناس منذ سبعين سنة يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ ، وإليه يعود ، ومشايخ عمرو من لقي عمرو من الصحابة والتابعين . وعن علي بن الحسين زين العابدين ، وابنه جعفر ابن محمد : ليس القرآن بخالق ولا مخلوق ، ولكنه كلام الله .

ومثل هذا مأثور عن الحسن البصري ، وأيوب السختياني ، وحماد ابن أبي سليمان ، وابن أبي ليلى ، وأبي حنيفة ، وابن أبي ذئب ، وابن الماجشون ، والأوزاعي ، والشافعي ، وأبي بكر بن عياش ، وهشيم ، وعلي بن عاصم ، وعبد الله بن المبارك ، وأبي اسحق الفزاري ، ووكيع ابن الجراح ، والوليد بن مسلم ، وعبد الرحمن بن مهدي ، ويحي بن سعيد القطان ، ومعاذ بن معاذ ، وأبي يوسف ، ومحمد ، والامام احمد ابن حنبل ، واسحق بن راهويه ، وبشر بن الحارث ، ومعروف الكرخي وأبي عبيد القاسم بن سلام ، وأبي ثور ، والبخاري ، ومسلم ، وأبي زرعة ، وأبي حاتم ، ومن لا يحصى كثرة .

قال أبو القاسم اللالكائي — وقد سمى علماء القرون الفاضلة ومن يليهم الذين نقل عنهم في كتابه أن القرآن كلام الله غير مخلوق » — فهؤلاء خمسمائة وخمسون نفساً من التابعين ، وأتباع التابعين ، والأئمة

المرضيين ـــ سوى الصحابة ـــ على اختلاف الاعصار ومضي السنين والأعوام ، وفيهم نحو من مائة إمام ممن أخذ الناس بقولهم وتمذهبوا بمذاهبهم ، ولو اشتغلت بنقل قول المحدثين لبلغت أسماؤهم ألوفا كثيرة ، فنقلت عن هؤلاء عصراً بعد عصر لا ينكر عليهم المنكر ، ومن انكر قولهم استتابوه ، أو أمروا بقتله ، أو نفيه ، أو صلبه . قال : ولا خلاف بين الأمة أن أول من قال : القرآن مخلوق « الجعد بن درهم » ثم « الجهم بن صفوان » وكلاهما قتله المسلمون ، وممن أفتى بقتل هؤلاء : مالك بن أنس ، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، وسفيان ابن عيينة ، وأبو جعفر المنصور الخليفة ، ومعتمر بن سليمان ، ويحي ابن سعيد القطان ، وعبد الرحمن بن مهدي ، ومعاذ بن معاذ ، ووكيع بن الجراح ، وأبوه ، وعبد الله بن داود الخريبي ، وبشر بن الوليد ـــ صاحب أبي يوسف ـــ وابو مصعب الزهري ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، وأبو ثور ، واحمد بن حنبل ، وغير هؤلاء من الأئمة .

وكذلك ذم « الواقفة » وتضليلهم ـــ الذين لا يقولون مخلوق ولا غير مخلوق ـــ مأثور عن جمهور هؤلاء الأئمة مثل ابن الماجشون وأبي مصعب ، ووكيع بن الجراح ، وابن الوليد ، وأبي [الوليد] الجارودي صاحب الشافعي ، والامام احمد بن حنبل ، وأبي ثور ، واسحق بن راهويه ،

ومن لا يحصى عدده إلا الله .

وأما البدعة الثانية ـــ المتعلقة بالقرآن المنزل تلاوة العباد له ـــ وهي « مسألة اللفظية » فقد أنكر بدعة « اللفظية » الذين يقولون : إن تلاوة القرآن وقراءته واللفظ به مخلوق أئمة زمانهم ، جعلوهم من الجهمية ، وبينوا ان قولهم : يقتضى القول بخلق القرآن ، وفي كثير من كلامهم تكفيرهم .

وكذلك من يقول : ان هذا القرآن ليس هو كلام الله ، وإنما هو حكاية عنه ، أو عبارة عنه ، أو أنه ليس فى المصحف والصدور إلا كما أن الله ورسوله في المصاحف والصدور ، ونحو ذلك ، وهذا محفوظ عن الامام احمد ، واسحق ، وابى عبيد ، وأبى مصعب الزهري وأبى ثور ، وأبى الوليد الجارودي ، ومحمد بن بشار ، ويعقوب بن ابراهيم الدورقي ، ومحمد بن يحي بن أبى عمرو العدنى ، ومحمد بن يحي الذهلي ، ومحمد بن أسلم الطوسي ، وعدد كثير لا يحصيهم إلا الله من أئمة الاسلام وهداته .

وكذلك أنكر بدعة « اللفظية المثبتة » ـ الذين يقولون : ان لفظ العباد ، أو صوت العباد به غير مخلوق ، أو يقولون ، ان التلاوة التى هي فعل العبد وصوته غير مخلوقة ـــ الأئمة الذين بلغتهم هذه

البدعة : مثل الامام أحمد بن حنبل ، وابى عبد الله البخاري صاحب الصحيح ، وأبى بكر المروذي أخص اصحاب الامام أحمد بن حنبل به ، واخذ في ذلك اجوبة علماء الاسلام إذ ذاك : ببغداد ، والبصرة ، والكوفة ، والحرمين ، والشام ، وخراسان ، وغيرهم : مثل عبد الوهاب الوراق ، وأبى بكر الأثرم ، ومحمد بن بشار بنداز ، وأبى الحسين علي ابن مسلم الطوسي ، ويعقوب الدورقى ، ومحمد بن سهل بن عسكر ، ومحمد بن عبد الله المخرمي الحافظ ، ومحمد بن اسحق الصاغاني ، والعباس بن محمد الدوري ، وعلي بن داود القنطري ، ومثنى بن جامع الأنباري ، واسحق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد ، ومحمد بن يحي الأزدي ، والحسن بن عبد العزيز الجروي ، وعبد الكريم بن الهيثم العاقولي ، وأبي موسى بن أبي علقمة النفروني ، وغيره من علماء المدينة ومحمد بن عبد الرحمن المقري ، وأبى الوليد بن أبى الجارود ، وأحمد ابن محمد بن القاسم بن أبى مرة ، وغيرهم من اهل مكة ، واحمد بن سنان الواسطي ، وعلي بن حرب الموصلي ، ومن شاء الله تعالى من أئمة اهل السنة واهل الحديث من اصحاب الامام احمد بن حنبل وغيرهم ينكرون على من يجعل لفظ العبد بالقرآن او صوته به او غير ذلك من صفات العباد المتعلقة بالقرآن غير مخلوقة ، ويأمرون بعقوبته بالهجر وغيره ، وقد جمع بعض كلامهم في ذلك ابو بكر الخلال فى « كتاب السنة »

ومن المشهور في « كتاب صريح السنة » لمحمد بن جرير الطبري وهو متواتر عنه ، لما ذكر الكلام فى أبواب السنة ، قال : واما القول فى « ألفاظ العباد بالقرآن » فلا اثر فيه نعلمه عن صحابي مضى ولا عن تابعي قفا ، إلا عمن فى قوله الشفاء والعفاء ، وفى اتباعه الرشد والهدى ، ومن يقوم لدينا مقام الأئمة الأولى : ابي عبد الله احمد بن محمد بن حنبل ، فان ابا اسماعيل الترمذي حدثني قال سمعت أبا عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل يقول « اللفظية » جهمية ، يقول الله : (حتى يسمع كلام الله) ممن يسمع ؟ قال ابن جرير : وسمعت جماعة من أصحابنا — لا أحفظ اسماءهم — يحكون عنه انه كان يقول : من قال : لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن قال : غير مخلوق فهو مبتدع . قال ابن جرير : ولا قول فى ذلك عندنا يجوز ان نقوله ، غير قوله ، إذ لم يكن لنا إمام نأتم به سواه ، وفيه الكفاية والمقنع ، وهو الامام المتبع .

وقال ابو الفضل صالح بن احمد بن حنبل فى « كتاب المحنة » تناهى إلي ان ابا طالب حكى عن ابي انه يقول : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، فأخبرت ابي بذلك ، فقال : من اخبرك ، فقلت : فلان ، فقال : ابعث إلى ابي طالب ، فوجهت إليه ، فجاء ، وجاء فوران ، فقال له ابي : انا قلت لك : لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟ وغضب ،

وجعل يرتعد ، فقال له : قرأت عليك : (قل هو الله احد) فقلت لي : هذا ليس بمخلوق ، قال له : فلم حكيت عني اني قلت : لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟ وبلغني : انك وضعت ذلك فى كتابك ، وكتبت به إلى قوم ، فان كان فى كتابك فامحه اشد المحو ، واكتب الى القوم الذين كتبت إليهم : أني لم اقل هذا . وغضب ، واقبل عليه ، فقال : تحكى عني مالم اقل لك ؟ فجعل فوران يعتذر له ، وانصرف من عنده وهو مرعوب . فعاد أبو طالب ، فذكر انه حك ذلك من كتابه ، وانه كتب إلى القوم يخبرهم ؟ انه وهم على ابى عبد الله فى الحكاية . قال الفضل بن زياد : كنت انا والبستى عند ابى طالب ، قال : فاخرج إلينا كتابه وقد ضرب على المسألة ، وقال : كان الخطأ من قبلي ، وانا استغفر الله ، وإنما قرأت على ابى عبد الله القرآن ، فقال : هذا غير مخلوق ، كان الوهم من قبلي يا ابا العباس !

وقال الخلال فى : « السنة » حدثنا المروذي ، قال لي أبو عبد الله قد غيض قلبي على ابن شداد . قلت : أي شيء حكى عنك ؟ قال : حكى عني فى اللفظ ، فبلغ ابن شداد ان أبا عبد الله قد أنكر عليه ، فجاءنا حمدون بن شداد بالرقعة فيها مسائل ، فأدخلتها على أبي عبد الله ، فنظر فرأى فيها : ان لفظي بالقرآن غير مخلوق — مع مسائل فيها — فقال أبو عبد الله : فيها كلام ما تكلمت به ، فقام من الدهليز فدخل

فأخرج المحبرة والقلم ، وضرب أبو عبد الله على موضع : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، وكتب أبو عبد الله بخطه بين السطرين : القرآن حيث تصرف غير مخلوق . وقال : ما سمعت أحداً تكلم فى هذا بشيء ، وأنكر على من قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق .

وقال الخلال فى « كتاب السنة » : أخبرني زكريا بن الفرج الوراق ، قال حدثنا أبو محمد فوران ، قال جاءني صالح — وأبو بكر المروذي عندي — فدعاني الى أبي عبد الله ، وقال : انه قد بلغ أبي ان أبا طالب قد حكى عنه أنه يقول : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، فقمت إليه ، فتبعني صالح . فدار صالح من بابه ، فدخلنا على أبي عبد الله ، فاذا أبو عبد الله غضبان شديد الغضب ، بين الغضب فى وجهه ! ! فقال لأبي بكر : اذهب فجئني بأبي طالب ، فجاء أبو طالب وجعلت أسكن أبا عبد الله قبل مجيء أبي طالب ، وأقول : له حرمة ، فقعد بين يديه — وهو متغير اللون — فقال له أبو عبد الله : حكيت عني اني قلت : لفظي بالقرآن غير مخلوق ؟ فقال : إنما حكيت عن نفسي ، فقال : لا تحك هذا عنك ولا عني ، فما سمعت عالماً يقول هذا — أو العلماء شك فوران — وقال له : القرآن كلام الله غير مخلوق حيث تصرف ، فقلت لأبي طالب — وأبو عبد الله يسمع — إن كنت حكيت هذا لأحد فاذهب حتى تخبره ان أبا عبد الله نهى عن

هذا ؟ فخرج أبو طالب فأخبر غير واحد — بنهي أبي عبد الله — منهم أبو بكر بن زنجويه ، والفضل بن زياد القطان ، وحمدان بن علي الوراق ، وأبو عبيد ، وأبو عامر ، وكتب أبو طالب بخطه الى أهل نصيبين — بعد موت أبي عبد الله — يخبرهم أن أبا عبد الله نهى أن يقال : لفظي بالقرآن غير مخلوق ، وجاءني أبو طالب بكتابه وقد ضرب على المسألة من كتابه ، قال زكريا بن الفرج : فمضيت الى عبد الوهاب الوراق ، فأخذ الرقعة فقرأها ، فقال لي : من أخبرك بهذا عن أحمد ، فقلت له : فوران بن محمد ، فقال : الثقة المأمون على أحمد قال زكريا : وكان قبل ذلك قد أخبر أبو بكر المروذي لعبد الوهاب ، فصار عند عبد الوهاب شاهدان . قال زكريا وسمعت عبد الوهاب ، قال : من قال : لفظي بالقرآن غير مخلوق يهجر ولا يكلم ويحذر عنه ، وكان قبل ذلك قال : هو مبتدع .

وروى الخلال عن أبي الحارث قال سمعت رجلا يقول لأبي عبد الله يا أبا عبد الله ! أليس نقول : القرآن كلام الله ليس بمخلوق بمعنى من المعاني ، وعلى كل حال وجهة ؟ فقال أبو عبد الله : نعم .

واستيعاب هذا يطول .

وكذلك في كلام الامام أحمد وأئمة أصحابه وغيرهم من اضافة صوت

العبد بالقرآن اليه ما يطول كما جاء الحديث النبوي بذلك : مثـل قول النبي صـلى الله عليه وسـلم : « زينوا القرآن بأصواتـكم » وقوله : « لله أشد أذنا الى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة الى قينته » فذكر الخلال في (كتاب القرآن) عن اسحاق بن ابراهيم ، قال قال لي أبو عبد الله يوماً — وكنت سألته عنـه — : تدري ما معنى مـن لم يتغن بالقرآن ؟ قلت : لا . قال : هو الرجل يرفع صوته ، فهذا معناه إذا رفع صوته فقد تغنى به ، وعن منصور بن صالح انه قال لأبيـه : يرفـع صوته بالقرآن بالليـل ؟ قال : نعم ! إن شـاء رفعه » ثم ذكر حديث أم هانيء : « كنت أسمع قراءة النبي صلى الله عليه وسـلم ، وأنا على عريش من الليل » وعن صالح بن أحمد أنه قال لأبيـه : « زينوا القرآن بأصواتـكم » فقـال : « التزيين » ان تحسنه . وعن الفضل بن زياد ، قال سمعت أبا عبد الله يسئل عن القراءة : فقـال يحسنه بصوته من غـير تـكلف ، وقال أبو بكـر الأثرم سألت أبا عبد الله عـن القراءة بالألحان ؟ فقال : كل شيء محـدث ؛ فانه لا يعجبني ، الا أن يكون صوت الرجل لا يتكلفه ، . قال القاضي أبو يعلى فيما علقـه بخطه على « جامع الخلال » : هذا يدل من كلامه على أن صوت القاريء ليس هو الصوت القديم ؛ لأنه أضافه الى القاري الذي هو طبعه مـن غير أن يتعـلم الألحان .

وأما ما في كلام أحمد والأئمة من إنكارهم على من يقول ان هذا القرآن مخلوق ، وان القراءة مخلوقة ، وتعظيمهم لقول من يقول : انه ليس فى الصدور قرآن ولا في المصاحف قرآن ، وزعم من زعم ان من قال ذلك فقد قال بقول النصارى والحلولية ، فانكار أحمد وغيره هذه المقالات كثير شائع موجود فى كتب كثيرة ، ولم تكن هذه الفتيا محتاجة الى تقرير هذا الأصل ، فلم يحتج الى تفصيل الكلام فيه ؛ بخلاف الأصل الآخر ، وقد ذكرنا من ذلك ما يسره الله فى غير هذا الموضع ولو ذكرت ما في كلام أحمد وأئمة أصحابه وغيرهم : من الرد على من يقول : لفظ العبد أو صوته غير مخلوق ، او يقول : ان الصوت المسموع من القاري قديم لطال .

وهذا أبو نصر السجزى قد صنف « الابانة » المشهورة ، وهو من أعظم القائلين : بان التلاوة هي المتلو ، واللفظ بالقرآن هو القرآن وهو غير مخلوق ، وأنكر ما سوى ذلك عن أحمد ، ومع هذا فقد قال : فان اعترض خصومنا فقالوا : انتم وإن قلتم : القراءة قرآن وكلام الله فلا تطلقون ان الصوت المسموع من القاري صوت الله ؛ بل تنسبونه الى القاري ، وإذا لم يمكنكم إطلاق ذلك دل على أنه غير القرآن ؟ ! ،

قال أبو نصر : فالجواب ان اعتصامنا فى هذا الباب بظاهر الشرع

وقولنـا فى القراءة والصوت غير مختلف ، وإذا قرأ القـارىء القرآن لا يقول : ان هـذه قراءة الله ، ولا يجيز ذلك بوجه ؛ بـل ينسب القراءة الى القارىء توسعاً لوجود التحويل منه ، وإنمـا يقول ان قراءة القارى قرآن ، وقد ثبت ذلك في الشرع باتفاق الـكل ؛ فان الأشعري مع مخالفته لنا يقول : المسموع مـن القاري قرآن ، وقـد بينا : ان التمييز بين القراءة والقرآن فى هذا الموضع الذي اختلفنا فيه غير ممكن وكذلك يقول : إن الصوت المسموع من قارىء القرآن قراءة وقرآن ، والشرع يوجب ما قلناه لا أعلم خلافا بين المسلمين في ذلك .

فصـــل

وأما نصوص الامام احمد على « خلق كلام الآدميـين » و « خلق أفعال العباد » فموجودة فى مواضـع كثيرة ، كما نص عـلى ذلك سائر الأئمة . وليس بين أهل السنة فى ذلك اختلاف ؛ ولهذا قال يحيى بن سعيد القطان شيخ الامام أحمد : مازلت أسمع اصحابنا يقولون : أفعـال العباد مخلوقة ، وقد سئل الامام احمد عن أفاعيل العباد مخلوقـة هي ؟ فقـال نعم . ونص على كلام الآدميـين فى رواية أحمـد بن الحسن الترمذي ، كما سيأتي ، وفيما خرجه على « الزنادقة والجهميـة » وهو

مروي من طريق ابنه عبد الله (وحاده [1]) ، وقـد ذكره الخلال أيضاً في « كتاب السنة » ونقل منه القاضي ابو يعلى وغيره، وقد حكى اجماع الخلق على ذلك غير واحد منهم أبو نصر السجزي في « الابانة » وهو من أشد الناس إنكاراً على من يقول : ان الفاظ العبـاد بالقرآن مخلوقة ، أو يقول : ان المسموع من القارىء ليس هو القرآن .

قال أبو نصر : وأما نسبة الأصوات الى القراء — فيما ذكرنا في هذا الباب وفى غـيره من كتابنا هذا — ونسبة القراءة اليهـم ، وان فرح بها الزائغون فلا حجة لهم فيها ؛ وذلك انا لم نختلف فى اضافـة الصوت الى الانسان . وانـه إذا صاح ، أو تكلم بكلام النـاس ، أو نادى إنساناً فصوته مخلوق . قال : وهذا لا يشتبه : وإنما وقع الاختلاف فى ان المستمع من قارىء القرآن ماذا يستمع ؟ وسـاق الكلام ، إلى آخره . وذكر فى موضع آخر « الاجماع » أيضا على ذلك .

فصـــــل

وإنما نبهت على أصل مقالة الامام أحمـد وسائر أئمـة السنة وأهل الحديث فى « مسألة تلاوتنا للقرآن » لأنها اصل ما وقع من الاضطراب

---

(١) كذا بالأصل

والتنازع فى هذا الباب مثل « مسألة الايمان » هل هو مخلوق أو غير مخلوق ؟ و « مسألة نور الايمان » و « الهدى » ونحو ذلك من المسائل التى يكثر تنازع أهل الحديث والسنة فيها ، ويتمسك كل فريق ببعض من الحق ، فيصيرون بمنزلة الذين أوتوا نصيبا من الكتاب ، مختلفين فى الكتاب ، كل منهم بمنزلة الذي يؤمن ببعض ويكفر ببعض ، وهم عامتهم في جهل وظلم : جهل بحقيقة الايمان والحق ، وظلم الخلق ، ويقع بسببها بين الأمة من التكفير والتلاعن ما يفرح به الشيطان ، ويغضب له الرحمن ، ويدخل به من فعل ذلك فيما نهى الله عنه من التفرق والاختلاف ، ويخرج عما أمر الله به من الاجتماع والائتلاف .

وأصل ذلك القرب والاتصال الحاصل بين ما أنزله الله تعالى من القرآن والايمان الذي هو من صفاته ، وبين افعال العباد وصفاتهم ؛ فلعسر الفرق والتمييز يميل قوم إلى زيادة فى الاثبات ، وآخرون إلى زيادة فى النفي ؛ ولهذا كان مذهب الامام احمد والأئمة الكبار : النهي عن الاثبات العام ، والنفي العام ؛ بل إما الامساك عنها — وهو الأصلح للعموم وهو جمل الاعتقاد . واما التفصيل المحقق فهو لذى العلم من أهل الايمان ، كما أن الأول لعموم أهل الايمان .

وهذه المسألة لها أصلان .

(احدها) أن « أفعال العباد مخلوقة » ، وقد نص عليها الأئمة أحمد وغيره ، وسائر أئمة أهل السنة والجماعة المخالفين للقدرية ، واتفقت الأمة على أن أفعال العباد محدثة .

و (الاصل الثاني) مسألة « تلاوة القرآن وقراءته واللفظ بـه » هل يقال انه مخلوق أو غير مخلوق ؟ والامام أحمد قد نص على رد المقالتين هو وسائر أئمة السنة من المستقدمين والمستأخرين ؛ لكن كان رده على « اللفظية النافية » أكثر وأشهر وأغلظ لوجهين .

(احدها) ان قولهم يفضي الى زيادة التعطيل والنفي ، وجانب النفي — أبداً — شر من جانب الاثبات ؛ فان الرسل جاءوا بالأثبات المفصل في صفات الله ، و بالنفي المجمل : فوصفوه بالعلم ، والرحمة ، والقدرة والحكمة ، والكلام ، والعلو ، وغير ذلك من الصفات ، وفي النفي : (ليس كمثله شيء) (ولم يكن له كفواً احد) . وأما الخارجون عن حقيقة الرسالة : من الصابئة ، والفلاسفة ، والمشركين ، وغيرهم ، ومن تجهم من اتباع الأنبياء ، فطريقتهم « النفي المفصل » ليس كذا ليس كذا ، وفي الاثبات أمر مجمل ، ولهذا يقال : المعطل أعمى ، والمشبه اعشى . فأهل التشبيه مع ضلالهم خير من أهل التعطيل .

(الوجه الثانى) ان احمد إنما ابتلى بالجهمية المعطلة فهم خصومه ،

فكان همه منصرفا إلى رد مقالاتهم ؛ دون أهل الاثبات ؛ فانه لم يكن في ذلك الوقت والمكان من هو داع إلى زيادة فى الاثبات ؛ كما ظهر من كان يدعو إلى زيادة فى النفي . والانكار يقع بحسب الحاجة ، والبخاري لما ابتلى « باللفظية المثبتة » ظهر انكاره عليهم كما فى تراجم آخر « كتاب الصحيح » وكما فى « كتاب خلق الأفعال » مع انه كذب من نقل عنه أنه قال : لفظي بالقرآن مخلوق من جميع أهل الأمصار ، وأظنه حلف على ذلك ، وهو الصادق البار .

فصل

وقد نص أحمد على نفس هذه « المسألة » فى غير موضع فروى أبو القاسم اللالكائي فى « أصول السنة » قال : أخبرنا الحسن بن عثمان قال ، حدثنا عمرو بن جعفر قال : حدثنا أحمد بن الحسن الترمذي قال : قلت لأحمد بن حنبل : ان الناس قد وقعوا فى القرآن فكيف أقول ؟ فقال أليس أنت مخلوقا ؟ قلت : نعم ! قال : فكلامك منك مخلوق ؟ قلت : نعم ! قال : أفليس القرآن من كلام الله ؟ قلت : نعم ! قال : وكلام الله من الله ؟ قلت : نعم ! قال : فيكون من الله شيء مخلوق ؟!.

بين أحمد للسائل : ان الكلام من المتكلم وقائم به ؛ لا يجوز ان يكون الكلام غير متصل بالمتكلم ، ولا قائم به ؛ يدليل ان كلامك أيها المخلوق منك ؛ لا من غيرك ، فاذا كنت انت مخلوقا وجب ان يكون كلامك ايضاً مخلوقا ، وإذا كان الله تعالى غير مخلوق امتنع ان يكون ماهو منه وبه مخلوقا .

وقصده بذلك الرد على « الجهمية » الذين يزعمون ان كلام الله ليس من الله ولا متصل به . فبين أن هذا الكلام ليس هو معنى كون المتكلم متكلما ، ولا هو حقيقة ذلك ، ولا هو مراد الرسل والمؤمنين ، من الاخبار عن ان الله قال ، ويقول ، وتكلم بالقرآن ، ونادى ، وناجى ، ودعا ، ونحو ذلك مما اخبرت به عن الله رسله ، واتفق عليه المؤمنون به من جميع الأمم ؛ ولهذا قال تعالى : (ولكن حق القول مني) ، وقال : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) ، وقال تعالى : (وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم) ، وقال تعالى : (الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) .

وليس القرآن عينا من الأعيان القائمة بنفسها حتى يقال : هذا مثل قوله : (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه) وإنما هو صفة كالعلم ، والقدرة ، والرحمة ، والغضب ، والارادة ، والنظر ، والسمع ونحو ذلك ؛ وذلك لا يقوم إلا بموصوف ، وكل معنى له اسم

وهو قائم بمحل وجب أن يشتق لمحله منه اسم ، وان لا يشتق لغير محله منه اسم.

فكما ان الحياة ، والعلم ، والقدرة إذا قام بموصوف وجب أن يشتق له منه اسم الحي ، والعالم ، والقادر ؛ ولا يشتق الحي ، والعالم ، والقادر لغير من قام به العلم ، والقدرة ، فكذلك القول ، والكلام ، والحب ، والبغض ، والرضا ، والرحمة ، والغضب ، والارادة ، والمشيئة إذا قام بمحل وجب أن يشتق لذلك الموصوف منه الاسم والفعل ، فيقال : هو الصادق ، والشهيد ، والحكيم ، والودود ، والرحيم ، والآمر ، ولا يشتق لغيره منه اسم .

فلو لم يكن الله سبحانه وتعالى هو القائل بنفسه : (أنا الله لا إله إلا انا) بل أحدث ذلك في غيره لم يكن هو الآمر بهذه الأمور ، ولا المخبر بهذا الخبر ، ولكان ذلك المحل هو الآمر بهذا الأمر ، المخبر بهذا الخبر ، وذلك المحل : اما الهواء ، وإما غيره فيكون ذلك المحل المخلوق هو القائل لموسى : (إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني) ولهذا كان السلف يقولون فى هذه الآية وأمثالها : من قال : إنه مخلوق فقد كفر . ويستعظمون القول بخلق هذه الآية وأمثالها أكثر من غيرها يعظم عليهم أن تقوم دعوى الالهية والربوبية لغير الله تعالى.

ولهذا كان مذهب جماهير « أهل السنة والمعرفة » ــ وهو المشهور عند أصحاب الامام أحمد ، وأبي حنيفة ، وغيرهم : من المالكية ، والشافعية ،

والصوفية ، وأهل الحديث ، وطوائف من أهل الكلام : من الكرامية وغيرهم ــ ان كون الله سبحانه وتعالى خالقا ، ورازقا ، ومحييا ، ومميتاً ، وباعثاً ، ووارثا ، وغير ذلك من صفات فعله ، وهو من صفات ذاته ؛ ليس من يخلق كمن لا يخلق.

ومذهب الجمهور ان الخلق غير المخلوق ، فالخلق فعل الله القائم به والمخلوق هو المخلوقات المنفصلة عنه .

وذهب طوائف من « أهل الكلام » من المعتزلة والأشعرية ومن وافقهم : من الفقهاء الحنبلية ، والشافعية ، والمالكية ، وغيرهم إلى أنه ليس لله صفة ذاتية من أفعاله ، وإنما الخلق هو المخلوق ، أومجرد نسبة وإضافة وهذا اختيار ابن عقيل ، وأول قولي القاضي أبي يعلى ، وهؤلاء عندهم حال الذات التى تخلق وترزق أو لا تخلق ولا ترزق سواء .

وبهذا نقضت المعتزلة على من ناظرها من الصفاتية الأشعرية ونحوهم ؛ لما استدلت الصفاتية بما تقدم من « القاعدة الشريفة » فقالوا : ينتقض عليكم بالخالق ، والرازق وغير ذلك من أسماء الأفعال ؛ فان الخلق والرزق قائم بغيره ، وقد اشتق له منه اسم الخالق والرازق ، ولم يقم به صفة فعل أصلا ، فكذلك الصادق ، والحكيم ، والمتكلم ، والرحيم ، والودود

وهذا النقض لا يلزم جماهير الأمة وعامة أهل السنة والجماعة ؛ فان الباب عندهم واحد ، وليس هذا قولا بقدم مخلوقاته او مفعولاته ، سواء قيل : ان نفس فعله القائم به قديم فقط ، كما يقوله كثير من هؤلاء

ـــ الحنفية ، والمالـكية ، والشافعية ، والحنبلية ، وأهل الحديث ، والـكلام ، والصوفية ـــ او يقولون له عند احداث المخلوقات أحوال ونسب كما يقوله كثير من هؤلاء : الفقهاء ، وأهل الحديث ، والصوفية ، وأهل الـكلام من الطوائف كلها .

وذلك لأن القول فى ذلك كالقول في مشيئته وإرادته ، فانه وإن كان مذهب أهل السنة وسائر الصفاتية انها قديمـة ، فليست مراداته قديمة ، وكذلك صفة الخلق والتكوين ؛ وذلك لأن الشرع والعقـل يدل على ان حال الخالـق ، والرازق ، الفـاطر ، المحيي ، المميت ، الهادي ، النصير ليس حاله فى نفسه كحاله لو لم يبـدع هـذه الأمور ؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى : (أفمن يخلق كمن لا يخلق) . فالفرق بين الخالق وغير الخالق كالفرق بين القادر وغير القادر .

والمخالف يقول إنمـا هو موصوف بالقـدرة الـتى تتناول ما يخلقه وما لا يخلقه ، سواء فى نفسه كان خالقا او لم يكن خالقا ، ليس له من كونه خالقاً « صفة ثبوتية » لا صفة كمال ، ولا صفة وجود مطلق ، كما له بكونه قادرا . ونصوص الكتاب والسنة توجب أن تكون أسماء أفعاله من أسمائه الحسنى التى تقتضي أن يكون بها محموداً مثنى عليه ممجـدا ؛ وذلك يقتضي أنها من صفات الـكمال ،

وليس الغرض هنا ذكر هذه « المسألة » وإنما هي طرد حجـة

الامام حمد وغيره من أئمة السلف الثقات، وسائر الصفاتية ؛ ولهذا قال الامام احمد فى رواية حنبل فى «كتاب المحنة» : لم يزل الله عالما متكلما غفوراً . فبين اتصافه بالعلم — وهو صفة ذاتية محضة — و «بالمغفرة» وهي من «الصفات الفعلية» والكلام الذي يشبه هذا وهذا، وذكر انه لم يزل متصفا بهذه الصفات والاسماء، وقال الامام أحمد فيما خرجه فى «الرد على الزنادقة والجهمية» لما ذكر قول جهم : انه يتكلم ؛ ولكن كلامه مخلوق. قال أحمد قلنا له : وكذلك بنوا آدم كلامهم مخلوق ففي مذهبكم كان الله فى وقت من الأوقات لا يتكلم حتى خلق الكلام، وكذلك بنوا آدم لا يتكلمون حتى خلق لهم كلاما، فقد جمعتم بين كفر وتشبيه، وكذلك ذكروا فى «المحنة» فيما استدل به الامام أحمد فى المناظرة واستدل بقوله : (ولكن حق القول منى) قال : فان يكن القول من غير الله فهو مخلوق .

فصل

وأما قول القائل : إن أحمد إنما قال ذلك خوفا من الناس، فبطلان هذا يعلمه كل عاقل بلغه شيء من اخبار أحمد، وقائل هذا إلى العقوبة البليغة التى يفتري بها على الأئمة أحوج منه إلى جوابه ؛ فان

الامام احمد صار مثلا سائرا يضرب به المثل فى المحنة والصبر على الحق وانه لم تكن تأخذه فى الله لومة لائم ، حتى صار اسم الامام مقروناً باسمه فى لسان كل أحد ، فيقال : قال الامام احمد . هذا مذهب الامام أحمد . لقوله تعالى: (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ، وكانوا بآياتنا يوقنون) ؛ فانه أعطى من الصبر واليقين ما يستحق به الامامة فى الدين .

وقد تداوله « ثلاثة خلفاء » مسلطون من شرق الأرض الى غربها ، ومعهم من العلماء المتكلمين . والقضاة ، والوزراء ، والسعاة والأمراء ، والولاة من لا يحصيهم إلا الله . فبعضهم بالحبس ، وبعضهم بالتهديد الشديد بالقتل وبغيره ، وبالترغيب في الرياسة والمال ما شاء الله ، وبالضرب ، وبعضهم بالتشريد والنفي ، وقد خذله في ذلك عامة أهل الأرض ـــ حتى أصحابه العلماء ، والصالحون والأبرار ، وهو مع ذلك لم يعطهم كلمة واحدة مما طلبوه منه ، وما رجع عما جاء به الكتاب والسنة ، ولا كتم العلم ، ولا استعمل التقية ؛ بل قد أظهر من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآثاره ، ودفع من البدع المخالفة لذلك ما لم يتأت مثله لعالم : من نظرائه ، وإخوانه المتقدمين والمتأخرين ؛ ولهذا قال بعض شيوخ الشام : لم يظهر أحد ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم كما أظهره أحمد بن حنبل ، فكيف يظن به انه كان يخاف فى هذه الكلمة التى لا قدر لها ؟ !

و « أيضاً » فمن أصوله انه لا يقول فى الدين قولا مبتدعا ، وقد جعلوا يطالبونه بما ابتدعوه ، فيقول لهم : كيف أقول ما لم يقل ؟ ! فكيف يكتم كلمة ما قالها أحد قبله من خلق الله .

و « أيضاً » فان أحمد بن الحسن الترمذي من خواص أصحابه وأعيانهم فما الموجب لأن يستعمل التقية معه .

و « أيضاً » فلم يكن به حاجة الى أن يقول : كلام الآدمي مخلوق ، وإنما هو ذكر ذلك مستدلا به ضارباً به المثل ، فكيف يبتدي بكلام هو عنده باطل لم يسأله عنه أحد ؟ !

و « أيضاً » فقد كان يسعه أن يسكت عن هذا ؛ فان الانسان إذا خاف من إظهار قول كتمه . اما اظهاره لقول لم يطلب منه ، وهو باطل عنده ، فهذا لا يفعله أقل الناس عقلا وعلما وديناً .

فمن يسب « الامام أحمد » الذي موقفه من الاسلام وأهله فوق ما يصفه الواصف ؛ ويعرفه العارف ، فقد استوجب من غليظ العقوبة ما يكون نكالا لكل مفتر كاذب راجم بالظن قاذف ، قائل على الله ورسوله والمؤمنين وأئمتهم ما لا يقوله العدو المنافق .

و « أيضاً » فقد ذكر ذلك فيما صنفه من « الرد على الزنادقة

والجهمية » وهو في الحبس ، وكتبه بخطه ، ولم يكن ذلك مما أظهره لأعدائه : الذين يحتاج غيره إلى أن يستعمل معهم التقية .

وهذا القول أقبح من قول الروافض فيما ثبت عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه انه قاله وفعله على وجه التقية ؛ فان الامام أحمد صنف الرد عليهم وبين أنهم زنادقة فأي تقية تكون لهم مع هذا وهو يجاهدهم ببيانه وبنانه ، وقلمه ولسانه ؟ .

فصل

شبهة هؤلاء انهم وجدوا الناس قد تكلموا فى « حروف المعجم » و « أسماء المخلوقات » . فان المنتسبين إلى السنة تكلموا فى حروف المعجم فى غير القرآن والكتب الالهية ، وقال طوائف منهم : كابن حامد ، وأبي نصر السجزي ، والقاضي فى أشهر قوليه ، وابن عقيل وغيرهم : إنها مخلوقة ، وقالوا : الحروف حرفان . وقال طوائف وهم كثير من أهل الشام ، والعراق ، وخراسان : كالقاضي يعقوب البرزيني والشريف أبي الفضائل الزيدى الحرانى ، ويروى ذلك عن الشيخ أبي الحسين بن سمعون ، وهو قول القاضي أبي الحسين ، وحكاه عن أبيه فى آخر قوليه ، وهو قول الشيخ أبي الفرج الأنصاري ، والشيخ عبد

القادر ، وابن الزاغونى وغيرهم : الحرف حرف واحد ، وحروف المعجم غير مخلوقـة حيث تصرفت ؛ لأنهـا من كلام الله ، وحقيقة الحرف واحدة لا تختلف .

وقد نقل عن الامام أحمد رضي الله عنـه الانـكار على من قال : بخلق الحروف ، وانه لما حكى له ان بعض الناس قال : لما خلق الله الحروف سجدت له إلا الألف ، فقال الامام أحمد : هذا كفر . وروى انكار ذلك عن غيره من الأئمة .

والأولون لا ينازعون فى هذا ؛ فانهم ينكرون عـلى من يقول : ان الحروف مخلوقة ؛ فانه إذا قال ذلك دخل فيـه حروف كلام الله تعالى من القرآن وغيره ، وهم يخصون الـكلام فى الحروف الموجودة فى كلام المخلوق ، دون الحروف الموجودة فى كلام الله ، ويقولون : حقيقة الحروف والاسـم وان كانت واحدة فذلك بمنزلة كلمـات موجودة فى القرآن وقد تكلم بها بعض المخلوقين . فالمتـكلم تارة يقصـد ان يتـكلم بـكلام غيره ، وان وافقه فى لفظه بالنسبة الينا ، وهذا لا يتأتى إلا فى الشيء اليسير ، وهو مادون السورة القصـيرة ؛ فان الله قـد تحدى الخلق أن يأتوا بسورة مثله ، وأخبر انهم لن يفعلوا .

قال الأولون : فموافقـة لفظ الـكلام للفظ الـكلام لا يوجب ان

يكون لأحدهما حكم الآخر في النسبة إلى المتكلم المخلوق : بحيث ينسب أحدهما إلى من ينسب اليه الآخر ، فكيف بالنسبة إلى الخالق ؟ بل لما كتب مسيلمة إلى النبي صلى الله عليه وسلم : من مسيلمة رسول الله ، إلى محمد رسول الله ، رد عليه النبي صلى الله عليه وسلم : « من محمد رسول الله ، إلى مسيلمة الكذاب » كان اللفظ برسول الله من المتكلمين سواء : من أحدهما صدق — ومن أعظم الصدق — ، ومن الآخر كذب — ومن أقبح الكذب .

وقد ذكر الله عن الكفار مقالات سوء فى كتابه مثل قولهم : (اتخذ الله ولداً ، مالهم به من علم ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون إلا كذبا) وقولهم : (عزير بن الله) (والمسيح ابن الله) وغير ذلك من الأقوال الباطلة وقد حكاها الله عنهم ، فاذا تكلمنا بما حكاه الله عنهم كنا متكلمين بكلام الله ، ولو حكيناها عنهم ابتداء لكنا قد حكينا كلامهم الكذب المذموم .

ولهذا قال الفقهاء : من ذكر الله أو دعاه جاز له ذلك مع الجنابة وإن وافق لفظ القرآن ، إذا لم يقصد القراءة . وقالوا : لو تكلم بلفظ القرآن فى الصلاة يقصد مجرد خطاب الآدمي بطلت صلاته ؛ لأن ذلك من كلام الآدميين ، والصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الآدميين ، وإن قصد مع تنبيه الغير القراءة صحت صلاته عند الجمهور ، كما لو لم

يقصد إلا القراءة . وعند بعضهم تبطل ، كقول أبي حنيفة . ومن هذا الباب مسألة الفتح على الامام وتنبيه الداخل بآية من القرآن وغير ذلك .

وسبب ذلك ان معنى الكلام داخل في مسماه ليس هو اسماً لمجرد اللفظ والمعنى : هو إنشاء وإخبار ، والانشاء فيه الأمر والنهي ، ومعلوم ان أمر زيد ليس هو أمر عمرو ، ولا حكمه حكمه ، وإن اتفق اللفظ وكذلك اختيار زيد ليس هو اختيار عمرو ، ولا حكمه حكمه ، وإن اتفق اللفظ . فالآمر المطاع الحكيم إذا أمر بأمر كان له حكم خلاف ما إذا أمر به الجاهل العاجز وإن اتفق لفظهما ، وكذلك الشاهد العالم الصادق إذا أخبر بخبر كان حكمه خلاف ما إذا أخبر به الجاهل الكاذب وإن اتفق لفظهما .

وإذا كان كذلك فمن أدخل فى كلام له بعض لفظ أدخله غيره في كلامه لم يوجب ذلك ان يكون هذا اللفظ من كلام ذلك المتكلم ، وإن كان أحد اللفظين شبيهاً بالآخر ، وهو بمنزلة من كتب حروفا تشبه حروف المصحف ، كتبها كلاما آخر لم يكن ذلك مما يوجب أن يكون من حروف المصحف .

وقال الآخرون مجرد الموافقة فى اللفظ لا يوجب أن يجعل حكم

أحد اللفظين حكم الآخر ، لكن إذا كان أحدهما أصلا سابقاً إلى ذلك الكلام ، والآخر إنما احتذى فيه حذوه ومثاله : كان اللفظ والكلام منسوبا إلى الأول ؛ بمنزلة من تمثل بقول لبيد :

الا كل شيء ما خلا الله باطل

أو بقوله :

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

او بمثل من الأمثال السائرة كقوله : « عسى الغوير بؤسا » و « يداك أوكتا ، وفوك نفخ » و« كل الصيد فى جوف الفراء » ونحو ذلك . فهذا الكلام هو تكلم به في المعنى الذي أراده ؛ لا على سبيل التبليغ عن غيره ، ومع هذا فهو منسوب إلى قائله الأول ، فهكذا الحروف الموجودة فى كلام الله وإن أدخلها الناس فى كلامهم الذي هو كلامهم فأصلها مأخوذ من كلام الله تعالى .

قال الأولون : هنا مقامان .

(أحدهما) : ان كل من انطقه الله بهذه الحروف فانما كان ذلك بطريق الاستفادة من كلام الله ، أو ممن استفادها من كلام الله . وهذه الدعوى العامة تحتاج الى دليل ؛ فان تعليم الله لآدم الأسماء أو إنزاله كتبه بهذه الحروف لا يوجب أن يكون لم ينطق غير آدم ممن لم يسمع

الكتب المنزلة بهذه الحروف ، كما كانت العرب تنطق بهذه الحروف والأسماء قبل نزول القرآن ، والله تعالى أنزله بلسانهم الذي كانوا يتكلمون به قبل نزول القرآن .

(المقام الثاني) : انه لو لم يكن أحد نطق بها إلا مستفيداً لها من كلام الله ؛ لكن إذا أنشأ بها كلاما لنفسه ولم يقصد بها قراءة كلام الله لم تكن فى هذه الحال من كلام الله ، كما لو فعل ذلك فى بعض الجمل المركبة وأولى . ويدل على ذلك الأحكام الشرعية .

قال الآخرون ـــ القائلون بأن حروف المعجم غير مخلوقة مطلقاً ـــ ، لنا فى الأسماء الموجودة فى غير القرآن قولان . منهم من يقول بأن جميع الأسماء غير مخلوقة ، كما يقول ذلك فى الحروف . ومنهم من لا يقول ذلك ، وقد حكى القولين ابن حامد وغيره ممن ينتسب الى مذهب الأمام احمد وغيره من القائلين بأن حروف المعجم غير مخلوقة فمن عمم ذلك استدل بقوله تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها) وهذه الحجة مبنية على مقدمتين .

(إحداها) أن مبدأ اللغات توقيفية ، وان المراد بالتوقيف خطاب الله بها ، لا تعريفه بعلم ضروري ، وهذا الموضع قد تنازع فيه الناس من أصحاب الامام أحمد وسائر الفقهاء وأهل الحديث والأصول .

فقال قوم : إنها توقيفية ، وهو قول أبى بكر عبد العزيز ، والشيخ أبي محمد المقدسى ، وطوائف من أصحاب الامام أحمد ؛ وهو قول الأشعري ، وابن فورك ، وغيرهما . وقال قوم : بعضها توقيفي ، وبعضها اصطلاحي . وهذا قول طوائف : منهم ابن عقيل ، وغيره . وقال قوم : يجوز فيها هذا وهذا ، ولا نجزم بشيء . وهذا قول القاضي أبي يعلى ، والقاضي أبي بكر بن الباقلانى ، وغيرهما . ولم يقل : إنها كلها إصطلاحية إلا طوائف من المعتزلة ومن اتبعهم — ورأس هذه المقالة أبو هاشم ابن الجبائى .

والذين قالوا انها « توقيفية » تنازعوا : هل التوقيف بالخطاب ، أو بتعريف ضروري ، أو كليهما ؟ فمن قال : انها توقيفية ، وان التوقيف بالخطاب ، فانه ينبني على ذلك أن يقال : انها غير مخلوقة ؛ لأنها كلها من كلام الله تعالى ؛ لكن نحن نعلم قطعاً ان في أسماء الأعلام ما هو مرتجل وضعه الناس ابتداء فيكون التردد فى أسماء الأجناس .

و « أيضاً » فان تعليم الله لآدم بالخطاب لا يوجب بقاء تلك الأسماء بألفاظها فى ذريته ؛ بل المأثور أن أهل سفينة نوح لما خرجوا من السفينة أعطي كل قوم لغة ، وتبلبلت ألسنتهم . وهذه المسألة فيها تجاذب ، والنزاع فيها بين أصحابنا وسائر أهل السنة يعود الى نزاع

لفظي فيما يتحقق فيه النزاع ، وليس بينهم والحمد لله خلاف محقق معنوي .

وذلك ان الذي قال الحرف حرف واحـد ، وان حروف المعجم ليست مخلوقة ؛ إنما مقصوده بذلك أنها داخـلة فى كلام الله ، وانهـا منتزعة من كلام الله ، وانها مادة لفظ كلام الله ، وذلك غـير مخلوق ، وهذا لا نزاع فيه . فأما حرف مجرد فلا يوجد لا فى القرآن ولا فى غيره ، ولا ينطق بالحرف إلا في ضمن ما يأتلف مـن الأسماء والأفعال وحروف المعانى ، واما الحروف التى ينطق بها مفردة مثـل : الف ، لام ، ميم ، ونحو ذلك فهذه فى الحقيقة أسماء الحروف ، وإنما سميت حروفا باسم مسماها ، كما يسمى ضرب فعل ماض باعتبار مسماه ؛ ولهذا لما سأل الخليل أصحابه كيف تنطقون بالزاء مـن زيد ؟ قالوا : نقول « زا » قال : جئتم بالاسم ؛ وإنما يقال «زه» .

وليس فى القرآن من حروف الهجاء ـــ التى هي أسماء الحروف ـــ إلا نصفها ، وهي أربعة عشر حرفا ، وهي نصف أجنـاس الحروف : نصف المجهورة ، والمهموسة ، والمستعلية ، والمطبقة ، والشديدة ، والرخوة ، وغير ذلك من أجناس الحروف . وهو أشرف النصفين. والنصف الآخر لا يوجد فى القـرآن إلا فى ضمن الأسماء ، أو الأفعـال ، أو حروف المعانى ـــ التى ليست باسم ولا فعل . فلا يجوز أن نعتقد ان حروف المعجم بأسمائها جميعها موجودة فى القرآن ؛ لكن نفس حروف المعجم التى

هي أبعاض الـكلام موجودة في القرآن ؛ بـل قد اجتمعت في آيتين : « إحداهما » في آل عمران و « الثانية » فى سورة الفتح : (ثم أنزل عليكم من بعد الغم) الآية ، و (محمد رسول الله) الآية .

وإذا كان كذلك فمن تكلم بكلام آخر مؤلف مـن حروف الهجَاء فلم ينطق بنفس الحروف التى فى لفظ القرآن ، وإنما نطق بمثلها ، وذلك الذي نطق به قد يكون هو أخذه وإذا ابتدأ من لفظ كلام الله تعـالى وقد لا يكون حقيقة .

قيل : الحرف من حيث هو هو شيء واحد له الحقيقة المطلقة التى لا تأليف فيها لا توجد لا فى كلام الله تعالى ولا فى كلام عباده ، وإنما الموجود الحرف الذي هو جزء من اللفظ أو اسمه إذا لم يوجد إلا حرف؛ ولكن هذا المطلق ؛ بل الأعيـان الموجودة في الخارج قائمـة بأنفسها ، كالانسان لا يوجد مجرداً عن الأعيان فى الأعيان ، لا يوجد مجرداً عن الأعيان إلا فى الذهن ، لا فى الخارج . فكيف بالحرف الذي لا يوجد فى الخارج إلا مؤلفاً ؟ ! فلو قدر أنه يوجد فى الخارج غير مؤلف متعدد الأعيان كما يوجد الانسان لم تكن حقيقته المطلقة من حيث هي هي موجودة إلا فى الأذهان لا في الأعيان .

فتبين ان الحروف تختلف أحكامها باختلاف معانيها واختلاف المتكلم

بها . وهذا أوجب تعظيم حروف القرآن المنطوقة والمسطورة ، وكان لها من الأحكام الشرعية ما امتازت به عما سواها ، واختلاف الأحكام إنما كان لاختلاف صفاتها واحوالها .

فتبين ان الواجب ان يقال ما قاله الأئمة كاحمد وغيره : ان كلام الانسان كله مخلوق حروفه ومعانيه . والقرآن غير مخلوق حروفه ومعانيه . وقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « يقول الله : أنا الرحمن خلقت الرحم ، وشققت لها من اسمي ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها بتته » وروى الربيع بن انس عن المسيح انه قال : « عجبا لهم كيف يكفرون به وهم يتقلبون في نعمائه ويتكلمون باسمائه ؟! » .

وذكر فى معظم حروف المعجم انها مباني اسماء الله الحسنى ، وكتبه المنزلة من السماء ، وهذا مما يحتج به من قال : ليست مخلوقة ، وليس بحجة ؛ فان اسماء الله من كلامه وكلامه غير مخلوق ، وما اشتقه هو من أسمائه فتكلم به فكلامه به غير مخلوق ، وأما إذا اشتقوا اسما أحدثوه فذلك الاسم هم أحدثوه ولا يلزم إذا كان المشتق منه غير مخلوق ، ان يكون المشتق كذلك . وما يروى عن المسيح فلا يعرف ثبوته عنه ، وبتقدير ثبوته فاذا كان قد ألهم عباده أن يتكلموا بالحروف

التى هي مباني أسمائه التى تكلم بهـا لم يلزم أن يكون ما احدثوه هم غير مخلوق .

« وبالجملة » فمن نظر إلى أن حقيقة الحرف التى لا تختلف موجودة فى كلام الله وكلام الله غير مخلوق، قال انها مخلوقة إشارة إلى نفس حقيقة الحرف؛ لا إلى عين جزء اللفظ الذي بـه ينطق الكفار والمشركون ؛ فان ذلك الحرف الذي هو صوت لمقدر أو تقـدير صوت قائم بالـكافر والمشرك لا يقول عاقل : انه غير مخلوق ؛ مع انه ليس مضافا الى الله بوجه من الوجوه ، وإنما يضاف إلى الله ما شاركه في اسمه ممـا كان متعلقاً بالمعنى المضاف إلى الله .

وهذا بخلاف الحروف التى فى كلام الله ؛ فان تلك كلام الله كيف ما تصرفت ، ونحن لما يسر الله كلامه بألسنتنا أمكننا أن نتكلم بكلامه؛ لكن بأدواتنا وأصواتنا ؛ وليس تكلمنا به وسمعه منا كتكلم الله به وسمعه منه كما تقدمت الاشارة إلى هذا ، كما ان الله ليس كمثله شـيء فكذلك سائر ما يضاف اليه ؛ ولكن لما انطقنا الله بأدواتنـا وحركاتنا وأصواتنـا صار بين بعض لفظنا بـه ولفظنا بغـيره نوع من الشبه ؛ فاذا تكلمنا بكلام آخـر فهو يشبه من بعض الوجوه لفظنا وصوتنا بالقرآن لا يشبه تكلم الله به و قراءته إياه فاذا كان وجود هذه الحروف في كلام الآدميين ليس بمنزلة تكلم الله بالقرآن ، وانما يشبه من بعض الوجوه تكلمنا بـه

من جهة ما يضاف الينا لا من جهة ما يضاف إلى الله امتنع حينئـذ أن يقال : عين الحرف الذي هو جزء لفظة من الاسم الذي ينطق به الناس هو عين الحرف الذي هو جزء لفظ من كلام الله تعالى ، وانما يشبهه ويقاربه ، فهو هو باعتبار النوع ؛ وليس هو إياه باعتبار العين والشخص ، خلاف حروف كلام الله القرآن ؛ فانهـا كلام الله حيث تصرفت وفيهـا دقـة وشبهة أشرنا اليهـا فى هـذا الجواب ، وشرحناهـا فى موضعهـا .

فمن قال : ان الحروف حرفان أراد به أنهما عينان وشخصان وهذا حق . ومن قال : الحرف حرف واحد أراد بـه : أن الحقيقة النوعيـة واحدة فى الموضعـين ، وهذا حق . ومن قال : ان حروف الهجاء من من كلام الآدميين غير مخلوقة فقد صدق باعتبار الحقيقة النوعية . ومن قال : انها مخلوقة باعتبار العين الشخصية فقد صدق .

ونظير هذا كثير يوجد في كلام اهل العـلم وأهل السنة من النفي والاثبات ، ويكون النزاع فى معنيين متنوعين نزاعا لفظياً اعتباريا ، وقد قال بعض الفضلاء : اكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الاسماء ؛ لكن وقوع الاشتراك والاجمال يضل به كثير من الخلق ، كما يهتدي به كثير من الخلق ، وهو سبب ضلال هؤلاء الجهال المسؤول عنهم ، فان حجتهم : ان الله علم آدم الاسماء كلها ، وعلمه البيان ، وهو مبنى عـلى

أن « اللغات توقيفيــة » كقول كثير من الفقهاء من أصحابنا وغــيرهم : كابي بكر عبد العزيز ، وأبي محمد المقدسي ، وهو قول الأشعري ، وابن فورك وغيرهما .

لكن « التوقيف » هل المراد به التــكليم ، أو التعريف ، أو كلاهما ؟ هذا فيه نزاع ايضاً ، كما تقدم . فالذين قالوا : إنهــا غــير مخلوقة ، يقولون : إنها « توقيفية » ، وان التعليم هو بالخطاب ، فيكون الله قد تكلم بالأسماء كلهــا ، وكــلام الله غــير مخلوق . قال هؤلاء الجهــال الضالون : وكلام الآدميين ليس إلا ما يأتلف من الحروف والاسماء وتلك غير مخلوقة . فهذا ايضا غير مخلوق .

فبنوا قولهم على ان حروف المعجم غير مخلوقة ، وان الأسماء المؤلفة من الحروف غير مخلوقة ، واعتقدوا مع ذلك ان كلام الآدميين ليس إلا ما يأتلف من الاسماء والحروف وتلك غير مخلوقة ، فقالوا : كلام الآدميين غير مخلوق ؛ لأن مفرداته غير مخلوقة . وإذا ضويقوا . فقد يقولون النظم والتأليف مخلوق ، وأما نفس المنظوم المؤلف فهو قديم ، ثم يحسبون أن المواد المنظومة المؤلفة هي أدخل فى الكلام من نفس التأليف والنظم ، كما ان اجزاء البيت هي أدخل فى مسماه من تأليفــه وإن كان البيت إسما للأجزاء ولتأليفها .

وربما طرد بعضهم هذه « المقالة » فى سائر اصوات الآدميين . ولما ألزمهم من خاطبهم بأصوات العباد : التى ليست بكلام طرد بعضهم ذلك فى الاصوات ، ثم طرد ذلك فى أصوات البهائم : من الحمير وغيرها ، ويلزمهم طرد ذلك فى جميع الأصوات ، حتى أصوات العيدان والمزامير ؛ إذ لا فرق بينها وبين اصوات البهائم .

واعلم ان الجهالة إذا انتهت إلى هذا الحد صارت بمنزلة من يقول : ان الوتد ، والحائط ، والعجل الذي يعمل منه الجلد كلام الله ، او يقول : ان يزيد بن معاوية كان من الأنبياء الكبار ، أو يقول : ان الله ينزل عشية عرفة على جمل أورق يعانق المشاة ويصافح الركبان ، أو يقول : إن ابا بكر وعمر ليسا مدفونين بالحجرة ، أو أنهما فرعون وهامان ، وانهما كانا كافرين عدوين للنبي صلى الله عليه وسلم : مثل أبي جهل وأبي لهب ، أو يقول : ان على بن أبي طالب هو العلي الأعلى رب السموات والأرض ، أو يقول : ان الذي صفعته اليهود وصلبته ووضعت الشوك على رأسه هو الذي خلق السموات والارض ، وان اليدين المسمرتين هما اللتان خلقتا السموات والارض ، او يقول : ان الله قعد فى بيت المقدس يبكي وينوح حتى جاء بعض مشايخ اليهود فبرك عليه ، أو أنه بكى حتى رمدت عيناه وعادته الملائكة ، وانه ندم على الطوفان ، وعض يديه من الندم حتى جرى الدم ، أو يقول : ان

الشيخ فلان والشيخ فلان يخلق ويرزق، وكل رزق لا يرزقنيه مـا أريده ، أو يقول ان عليا هو الذي كان يعلم القرآن للنبي صلى الله عليه وسلم ، أو يقول : ان صانع العالم لما صنعه غلبت عليـه الطبيعة حتى أهلك نفسه ، أو يقول : ان وجوده ووجود هذا وهذا هو عين وجود الحق ، وان الله هو عين السموات والأرض والنبات والحيوان ، وان كل صوت ونطق فى العالم فهو صوته وكلامه ، وكل حركة فى العالم وسكون فهو حركته وسكونه ، وان الحق المنزه هو الخلق المشبه، وانه لو زالت السموات والأرض لزالت حقيقة الله ، وانه من حيث ذاتـه لا اسم له ولا صفة ، وانه لا وجود له إلا في الأعيان الممكنات ، وانه الوجود المطلق الساري في المخـلوقات : الذي لا يتميز ولا ينفصل عن المخلوقات . الى أمثال هـذه المقالات التى يقولهـا الغلاة من المشركين والكتابيين . ومن اشبههم من غالية هذه الامة .

فان المنتسبين إلى السنة والحديث ــ وان كانوا أصلح من غيرهم من أشباههم ، فالسنة فى الاسلام كالاسلام فى الملل . كما انه يوجد فى المنتسبين إلى الاسلام ما يوجد فى غيرهم ، وان كان كل خـير في غـير المسلمين فهو فى المسلمين اكثر ، وكل شر في المسلمين فهو فى غيرهم اكثر ، فكذلك المنتسبة الى السنة ــ قد يوجـد فيهم ما يوجـد فى غيرهم ، وان كان كل خير فى غير أهل السنة فهو فيهم اكـثر . وكل

شر فيهم فهو فى غيرهم أكثر ؛ إذ قد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : « لتتبعن سنن من كان قبلكم : حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا : اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟ » وقال : « لتأخذن مآخذ الأمم قبلكم : شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ، قالوا : فارس والروم ؟ قال : ومن الناس إلا هؤلاء ؟! » .

وإزالة شبهة هؤلاء تحتاج إلى الكلام فى « الحروف ، والأسماء » هل هى مخلوقة أم غير مخلوقة ، وان كنا قد أشرنا إلى ذلك ؛ بل نتكلم على تقدير أنها غير مخلوقة ، ونقول مع هذا : يجب القطع بأن كلام الآدميين مخلوق ، ويطلق القول بذلك إطلاقا لا يحتاج إلى تفصيل : بأن يقال نظمه وتأليفه مخلوق ، وحروفه وأسماؤه غير مخلوقة أو تركيبه مخلوق ومفرداته غير مخلوقة ، فان هذا التفصيل لا يحتاج اليه .

وذلك لأن كلام المتكلم هو عبارة عن الفاظه ومعانيه ، كما قدمناه ، ليس الكلام اسما لمجرد الالفاظ ، ولا لمجرد المعانى .

وعامة ما يوجد فى الكتاب والسنة ، وكلام السلف والأئمة ؛ بل وسائر الأمم عربهم وعجمهم من لفظ الكلام ، والقول ، وهذا كلام فلان ، أو كلام فلان ؛ فانه عند إطلاقه يتناول اللفظ والمعنى جميعا

لشموله لهما ؛ ليس حقيقة فى اللفظ فقط ، كما يقوله قوم ، ولا فى المعنى فقط ، كما يقوله قوم . ولا مشترك بينهما ، كما يقوله قوم . ولا مشترك فى كلام الآدميين وحقيقة فى المعنى فى كلام الله كما يقوله قوم .

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ان الله تجاوز لأمتى عما حدثت به انفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به » وقول معاذ له : « وانا لمؤاخذون بما تتكلم ؟ فقال : ثكلتك أمك يا معاذ ! وهل يكب الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؟! » وقوله : « كلمتان ثقيلتان فى الميزان ، خفيفتان على اللسان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » وقوله : « ان اصدق كلمة قالها الشاعر : كلمة لبيد :

الا كل شيء ما خلا الله باطل »

وقوله : « إنى لأعلم كلمة لا يقولها أحد عند الموت إلا وجد روحه لها روحا » . « فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » وما فى القرآن : مثل قوله : (إليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) وقوله : (وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى) ، ونحو ذلك من أسماء القول والكلام جميعاً ونحوها فانه يدخل فيه اللفظ والمعنى جميعاً عند الاطلاق .

وإذا كان كذلك فالمتكلم بالكلام المبتدىء له ، سواء كان نظما او نثراً لا ريب انه هو الذي ألف معانيه وألف ألفاظه ؛ وأما مفردات « الأسماء والحروف » فلا ريب انه تعلمها من غيره ، سواء كانت مخلوقة أو غير مخلوقة ؛ فان « اللغات » سابقة لكلام عامة المتكلمين ، ونطق الناطقين من البشر ، وهم تلقوا الأسماء ، وحروف الأسماء الموجودة فى لغاتهم عمن قبلهم إلى أن ينتهي الأمر إلى أول متكلم بتلك الأسماء المفردة .

ثم انه مما علم بالاضطرار واتفق عليه اهل الارض جميعهم : ان الكلام هو كلام من ألف معانيه وألفاظه ، وان كان جميع ما فيه من الاسماء والحروف إنما تعلمها من غيره ، فالناس مطبقون على أن هذه القصائد كلام منشئها : مثل شعر امرىء القيس ، والنابغة الذبيانى : كقوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

فجميع الأمم يعلمون ويقولون ان هذا شعر امرىء القيس وكلامه وإن كانت الأسماء المفردة فيه إنما تعلمها من غيره ؛ فان العرب نطقت قبله بلفظ « قفا » وبلفظ «نبك» وبلفظ « من ذكرى » «حبيب» «ومنزل»

وجميع المسلمين إذا سمعوا قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما

الأعمال بالنيات ، وانما لـكل امرىء مانوى » أو « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ انقذه الله منه كما يكره ان يلقى فى النار » وقوله : « من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النـار » قالوا : هـذا كلام رسول الله صلى الله عليـه وسـلم ، وهذا حديثه ، وهذا قوله . مـع علمهم ، أن جميع مفردات هذا الكلام قد كانت موجـودة فى كلام العرب قبله : مثل لفظ « انما » ولفظ « الاعمال » ولفظ « النية » و « النيات » ولفظ « كل امرىء » ولفظ « ما نوى » وغير ذلك .

وهكذا كلام الصحابة والتـابعين وكلام مصنفى الكتب والرسـائل والخطب كلهم يقول : هذه الرسالة كلام فلان ، وهـذه الخطبة كلام فلان ، وهذه المسألة من كلام فلان ، مع علمهم بأنه مسبوق بمفردات الـكلام : اسمائه ، وحروف هجـائه ، وذلك لان الكلام لم يكن كلامـا باعتبار الالفاظ المفردة ، ولا باعتبار أجزائها — وهي حروف الهجاء — ولا كان المقصود بوضع اللفظ للمعنى الدلالة على المعـانى المفردة ، فان المعانى المفردة لا يعلم وضع اللفظ لها إلا بعد العلم بها ، فـلو كان العلم بها لا يستفاد إلا من اللفظ لزم الدور .

ولهذا يقول اهل العربيـة — وهم اخبر بمشبهـات الالفـاظ من

غيرهم — : ان اسم الكلام لا يقال إلا على الجملة المفيدة كالمركبة من اسمين ، او اسم وفعل . وقد ذكر ذلك « سيبويه » حكيم لسان العرب فى (باب الحكاية بالقول) حيث ذكر ان القول يحكى به ما كان كلاما ، ولا يحكى به ما كان قولا ، والقول انما تحكى به الجمل المفيدة . فعلم انها هي الكلام في لغة العرب .

وحيث اطلق الفقهاء اسم « الكلام » على حرفين فصاعدا في (باب الصلاة) فانما غرضهم ما يبطل الصلاة ، سواء كان مفيداً او غير مفيد ، وموضوعا ، أو مهملا ، حتى لو صوت تصويتاً طويلا ، ولحن لحون الغناء ابطل الصلاة ، وان لم يكن ذلك في اللغة كلاما . وهم فيما إذا حلف لا يتكلم أو ليتكلمن لا يعلقون البر والحنث الا بما هو فى عرف الحالف كلام ، وإن كان اخص من الكلام الذى يبطل الصلاة ولهذا لو حلف لا يتكلم واطلق يمينه حنث بكلام المخلوقين ، وهل يحنث بتكلمه بالقرآن ؟ من العلماء من قال : لا يحنث بحال . ومنهم من قال : لا يحنث بتلاوته فى الصلاة . ومنهم من توقف ؛ لان اليمين مرجعها الى عرف الحالف ، فعموم اسم الكلام وخصوصه عندهم بحسب الاحكام المتعلقة به .

والسلف إذا ذموا اهل الكلام وقالوا : علماء الكلام زنادقة . وما ارتدى احد بالكلام فافلح ، فلم يريدوا به مطلق الكلام ،

وإنما هو حقيقة عرفية فيمن يتكلم في الدين بغير طريقة المرسلين .

والخائضون فى « اصول الفقه » وإن قالوا : ان الكلام ما تألف من حرفين فصاعِدا ، او ما انتظم من « الحروف » وهي الاصوات المقطعة المتواضع عليها . وتنازعوا فى الحرف الواحد المؤلف مع غيره هل يسمى كلاما ؟ على قولين ؛ كما قال اكثر متكلميهم : ان الجسم هو المؤلف ، واقل التركيب من جوهرين ، وتنازعوا في الجوهر الواحد المؤلف هل يسمى جسما ؟ على قولين ؛ فهذا اصطلاح خاص لهم .

كما اصطلح (النحاة) على ان (المفرد) مثل الاسم وحرف المعنى يسمى كلمة ، وان كانت الكلمة فى لغة العرب العرباء لا توجد الا اسما للجملة التامة إلا ان يكون شيئاً لا يحضرني الآن .

وإذا كان الناس متفقين على ان الكلام هو كلام من ألف ألفاظه ومعانيه ، وإن كان قد تعلم اسماءه من غيره زالت كل شبهة فى المسألة ، ووجب اطلاق القول بأن كلام الآدميين مخلوق ، كما يطلق القول بأن هذا الشعر من كلام فلان وهذا الكلام كلام فلان ؛ لا كلام الذين تكلموا قبلهم بتلك الاسماء وحروفها ؛ فان كلام الآدميين هو الكلام الذين انشؤه وابتدأوه فألفوا ألفاظه ومعانيه ، وإن كان بعضهم قد تعلم اسماءه وحروفه من بعض ، ولو كانت اسماؤه قد سمعوها من الله تعالى .

واعلم ان هنا امراً عجيباً وهو ان هولاء القوم ضد الذين يجعلون القرآن الذي يقرؤونه كلام الآدميين ، لا كلام الله ، فان اولئك عمدوا إلى كلام الله الذي يتلونه ويبلغونه ويؤدونه — فجعلوه كلام انفسهم ، وهؤلاء عمدوا إلى كلامهم — المتضمن الكفر والفسوق والعصيان والكذب والبطلان — فجعلوه كلام الله الذي ليس بمخلوق . فأولئك لم ينظروا إلا إلى من سمع منه الكلام ، وهؤلاء لم ينظروا إلا إلى من اعتقدوا انه تكلم أولاً بمفردات الكلام .

وأما « الامة الوسط » الباقون على الفطرة ، وجميع بني آدم فيقولون لما بلغه المبلغ عن غيره وأداه ولما قرأه من كلام غيره وتلاه . هذا كلام ذاك ، وإنما بلغته بقواك ، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما خرج على قريش فقرأ عليهم : (الم غلبت الروم فى ادنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون) فقالوا : هذا كلامك ، أم كلام صاحبك ؟ فقال : ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ، ولكن كلام الله .

وهذا كما قال الله تعالى : (فأجره حتى يسمع كلام الله) وفى سنن أبى داود عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم : « انه كان يعرض نفسه على الناس فى الموقف فيقول : ألا رجل يحملنى إلى قومه لأبلغ كلام ربى ؟ فان قريشاً منعونى أن أبلغ كلام ربي » فبين صلى

الله عليه وسلم أنما يبلغه ويتلوه هو كلام الله لا كلامه ، وإن كان يبلغه بأفعاله وصوته كما قال : « زينوا القرآن بأصواتكم » وقال : « لله أشد أذناً إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته »

والأمم متفقون على هذا إذا سمعوا من يروي قصيدة من شعر مثل « قفا نبك » والا « وهل غادر الشعراء » أو « خطبة » مثل خطب علي ، وزياد ، أو « رسالة » كرسالة عبد الحميد ونحوه ، أو سجعا من سجع الكهان ، أو قرآناً مفترى كقرآن مسيلمة الكذاب قالوا : هذا شعر امرىء القيس ، وكلام علي ، وكلام عبد الحميد ، وقرآن مسيلمة ، وهو كلامه ، ولم يجعلوه كلاما للمبلغ المؤدي بالواسطة ، وإن كان بلغه بفعله وصوته ، وإذا انشأ رجل قصيدة ، أو خطبة ، أو رسالة ، أو سجعاً ، أو تكلم بكلام منثور : آمراً أو مخبراً قالوا : هذا كلام فلان ، وقوله ، وإن كان قد تعلم مفرداته من غيره ، وتلقنها من أحد .

فمن قال : ان الكلام هو كلام لمن تعلم منه المفردات فهو أبعد عن العقل والدين ممن قال : ان الكلام لمن بلغه وأداه ، وانما الكلام كلام من اتصل به ، واتصف به ، وألفه ، وأنشأه ، وكان مخبراً بخبره ، وآمراً بأمره ، وناهياً عن نهيه .

فصـــــل

وأما سؤال السائل : هل يجب على ولي الأمر زجرهم وردعهم ؟ فنعم ! يجب ذلك في هؤلاء ، وفى كل من أظهر مقالة تخالف الكتاب والسنة : فان ذلك من « المنـكر » الذي أمر الله بالنهي عنه ، كما قال تعـالى : (ولتكن منـكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنـكر) وهو من « الاثم » الذي قال الله فيـه : (لو لا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت) .

وكل من أثبت لله ما نفاه عن نفسه أو نفى عن الله ما أثبته لنفسه من المعطلة والممثلة فانه قال على الله غير الحق ، وذلك ممـا زجر الله عنه بقوله للنصارى : (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق) وبقوله : (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينـكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) وقال عن الشيطان : (إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ، وان تقولوا عـلى الله ما لا تعلمون) وقال : (قل إنمـا حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم ، والبغي بغير الحق

وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) .

فان من قال غير الحق فقد قال على الله ما لا يعلم ؛ فان الباطل لا يعلم إلا إذا علم بطلانه ، فأما اعتقاد أنه الحق فهو جهل لا علم ، فمن قاله ، فقد قال ما لا يعلم ، وكذلك من تبع فى هذه الأبواب وغيرها من أبواب الدين آباءه وأسلافه من غير اعتصام منه بالكتاب والسنة والاجماع فانه ممن ذمه الله فى كتابه : مثل قوله : (وإذا قيل لهم : تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون) وقوله : (يوم تقلب وجوههم فى النار : يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا ربنا ! انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا ! آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً) .

وكذلك من اتبع الظنون والأهواء معتقداً أنها « عقليات » و « ذوقيات » فهو ممن قال الله فيه : (ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى) وانما يفصل بين الناس فيما تنازعوا فيه الكتاب المنزل من السماء ، والرسول المؤيد بالأنبياء ، كما قال تعالى : (ايتوني بكتاب من قبل هذا او اثارة من علم ان كنتم صادقين) وقال تعالى : (كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين

مبشرين ومنذرين . وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) وقال تعالى : (فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا) وقال تعالى : (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله) ؛ بل على الناس أن يلتزموا الأصول الجامعة الكلية التى اتفق عليها سلف الأمة وأئمتها : فيؤمنون بما وصف الله به نفسه ، وبما وصفه به رسوله : من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل .

وليس لأحد ان يكفر أحداً من المسلمين وان أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة ، وتبين له المحجة ، ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك ؛ بل لا يزول الا بعد اقامة الحجة ، وازالة الشبهة .

فصل

وأما تكفير قائل هذا القول فهو مبنى على أصل لا بد من التنبيه عليه ؛ فانه بسبب عدم ضبطه اضطربت الأمة اضطراباً كثيراً فى تكفير أهل البدع والأهواء ، كما اضطربوا قديماً وحديثاً فى سلب الايمان عن أهل الفجور والكبائر ، وصار كثير من أهل البدع مثل الخوارج ، والروافض ، والقدرية ، والجهمية ، والممثلة : يعتقدون اعتقاداً هو ضلال

يرونه هو الحق ، ويرون كفر من خالفهم فى ذلك ، فيصير فيهم شوب قوي من أهل الكتاب فى كفرهم بالحق وظلمهم للخلق ، ولعل اكثر هؤلاء المكفرين يكفر ب « المقالة » التى لا تفهم حقيقتها ولا تعرف حجتها .

وبازاء هؤلاء المكفرين بالباطل أقوام لا يعرفون اعتقاد أهل السنة والجماعة ، كما يجب ، أو يعرفون بعضه ويجهلون بعضه ، وماعرفوه منه قد لا يبينونه للناس بل يكتمونه ، ولا ينهون عن البدع المخالفة للكتاب والسنة ، ولا يذمون أهل البدع ويعاقبونهم ؛ بل لعلهم يذمون الكلام فى السنة وأصول الدين ذماً مطلقاً ؛ لا يفرقون فيه بين ما دل عليه الكتاب والسنة والاجماع ، وما يقوله أهل البدعة والفرقة ، أو يقرون الجميع على مذاهبهم المختلفة ، كما يقر العلماء فى مواضع الاجتهاد التى يسوغ فيها النزاع ، وهذه الطريقة قد تغلب على كثير من المرجئة ، وبعض المتفقهة ، والمتصوفة ، والمتفلسفة ، كما تغلب الأولى على كثير من أهل الأهواء والكلام ، وكلا هاتين الطريقتين منحرفة خارجة عن الكتاب والسنة .

وإنما الواجب بيان ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه ، وتبليغ ما جاءت به الرسل عن الله ، والوفاء بميثاق الله الذي أخذه على العلماء فيجب أن يعلم ما جاءت به الرسل ، ويؤمن به ، ويبلغه ، ويدعو اليه ،

ويجاهد عليه ، ويزن جميع ما خاض الناس فيه من أقوال وأعمال فى الأصول والفروع الباطنة والظاهرة بكتاب الله وسنة رسوله ، غير متبعين لهوى : من عادة ، أو مذهب ، أو طريقة ، أو رئاسة ، أو سلف ؛ ولا متبعين لظن : من حديث ضعيف ، أو قياس فاسد — سواء كان قياس شمول أو قياس تمثيل — أو تقليد لمن لا يجب اتباع قوله وعمله ؛ فان الله ذم فى كتابه الذين يتبعون الظن وما تهوى الأنفس ويتركون اتباع ما جاءهم من ربهم من الهدى .

فصل

إذا تبين ذلك فاعلم ان « مسائل التكفير ، والتفسيق » هي من مسائل « الأسماء والأحكام » التى يتعلق بها الوعد والوعيد فى الدار الآخرة ، وتتعلق بها الموالاة والمعاداة والقتل والعصمة وغير ذلك فى الدار الدنيا ؛ فان الله سبحانه أوجب الجنة للمؤمنين ، وحرم الجنة على الكافرين ، وهذا من الأحكام الكلية فى كل وقت ومكان ، قال الله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقال تعالى — لما ذكر قول اليهود والنصارى — :

(لن يدخل الجنة الا من كان هوداً او نصارى ، تلك امانيهم ، قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) . فأمر أن يطالبهم بالبرهان على هذا النفي العام ، وما فيه من الاثبات الباطل ، ثم قال : (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

فأخبر سبحانه عمن مضى ممن كان متمسكا بدين حق من اليهود والنصارى والصابئين ، وعن المؤمنين بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم أنه من جمع « الخصال الثلاث » التي هي جماع الصلاح وهي الايمان بالخلق ، والبعث : بالمبدأ والمعاد ؛ الايمان بالله ، واليوم الآخر ، والعمل الصالح ؛ وهو أداء المأمور به ، وترك المنهي عنه . فان له حصول الثواب وهو أجره عند ربه ، واندفاع العقاب . فلا خوف عليه مما أمامه ، ولا يحزن على ما وراءه ؛ ولذلك قال : (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن) اخلاص الدين لله ، وهو عبادته وحده لا شريك له ، وهو حقيقة قوله : (إياك نعبد ، وإياك نستعين) وهو محسن .

فـ « الأول » وهو إسلام الوجه هو النية ، وهذا « الثاني » ـ وهو الاحسان ـ هو العمل . وهذا الذي ذكره في هاتين الآيتين هو الايمان العام ، والاسلام العام ، الذي أوجبه الله على جميع عباده ، من الأولين والآخرين .

وهو « دين الله العام » الذي لا يقبل من أحد سواه ، وبه بعث جميع الرسل ، كما قال تعالى : (ولقد بعثنـا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى : (واسأل من أرسلنا من قبلك مـن رسلنا ، أجعلنا مـن دون الرحمن آلهـة يعبدون ؟) وقال تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم ، وموسى وعيسى ؛ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) وقال تعالى لبني آدم جميعاً : (فاما يأتينكم مني هدى ، فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عـن ذكري فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى) ، وقال في الآية الأخرى (فمن تبع هداي فـلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

فكان من أول البدع والتفرق الذي وقع في هذه الأمة « بدعـة الخوارج » المكفرة بالذنب ، فانهم تكلموا في الفـاسق الملّي ، فزعمت الخوارج والمعتزلة أن الذنوب الكبيرة ، ومنهم من قال : والصغيرة لا تجامع الايمان أبداً ، بل تنافيـه وتفسده كما يفسد الأكل والشرب الصيـام ، قالوا : لأن الايمان هو فعل المأمور ، وترك المحظور ، فمتى بطل بعضـه بطل كله كسائر المركبات .

ثم قالت « الخوارج » : فيكون العاصي كافراً ؛ لأنه ليس إلا مؤمن وكافر ، ثم اعتقدوا أن عثمان وعليا وغيرهما عصوا ، ومن عصى فقد كفر فكفروا هذين الخليفتين وجمهور الأمة. وقالت المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين انه يخرج من الايمان ولا يدخل في الكفر.

وقابلتهم « المرجئة » ، و « الجهمية » ومن اتبعهم من الأشعرية والكرامية. فقالوا : ليس من الايمان فعل الأعمال الواجبة ، ولا ترك المحظورات البدنية ، والايمان لا يقبل الزيادة والنقصان ؛ بل هو شيء واحد ، يستوي فيه جميع المؤمنين : من الملائكة ، والنبيين ، والمقربين ، والمقتصدين ، والظالمين .

ثم قال فقهاء المرجئة : هو التصديق بالقلب واللسان ، وقال أكثر متكلميهم : هو التصديق بالقلب ، وقال بعضهم : التصديق باللسان . قالوا : لأنه لو دخلت فيه الواجبات العملية لخرج منه من لم يأت بها كما قالت الخوارج ، ونكتة هؤلاء جميعهم توهمهم أن من ترك بعض الايمان فقد تركه كله.

وأما «أهل السنة والجماعة » من الصحابة جميعهم والتابعين ، وأئمة أهل السنة وأهل الحديث ، وجماهير الفقهاء والصوفية ، مثل مالك والثوري ، والأوزاعي ، وحماد بن زيد ، والشافعي ، وأحمد بن حنبل

وغيرهم . ومحققي أهل الكلام ، فاتفقوا على أن الايمان والدين قول وعمل . هذا لفظ السلف من الصحابة وغيرهم ، وإن كان قد يعنى بالايمان فى بعض المواضع ما يغاير العمل ؛ لكن الأعمال الصالحة كلها تدخل أيضاً في مسمى الدين ، والايمان ، ويدخل في القول قول القلب واللسان ، وفى العمل عمل القلب والجوارح .

وقال المفسرون لمذهبهم : ان له أصولا وفروعا ، وهو مشتمل على أركان وواجبات ـ ليست بأركان ـ ومستحبات ، بمنزلة اسم الحج والصلاة وغيرهما من العبادات ؛ فان اسم الحج يتناول كل ما يشرع فيه من فعل وترك ، مثل الاحرام وترك محظوراته ، والوقوف بعرفة ومزدلفة ومنى ، والطواف ببيت الله الحرام ، وبين الجبلين المكتنفين به ، وهما الصفا والمروة .

ثم الحج مع هذا مشتمل على أركان متى تركت لم يصح الحج ، كالوقوف بعرفة . وعلى ترك محظور متى فعله فسد الحج ، وهو الوطء ، ومشتمل على واجبات : من فعل وترك ، يأثم بتركها عمدا ، ويجب مع تركها ـ لعذر او غيره ـ الجبران بدم ، كالاحرام من المواقيت المكانية والجمع بين الليل والنهار بعرفة ، وكرمي الجمار ونحو ذلك ، وكترك اللباس المعتاد ، والتطيب والصيد وغير ذلك . ومشتمل على مستحبات من فعل وترك يكمل الحج بها ؛ فلا يأثم بتركها ، ولا يجب دم ، مثل رفع الصوت بالاهلال والاكثار منه ، وسوق الهدي ، وذكر الله ،

ودعائه في الطواف ، والوقوف وغـــيرهما . وقلة الـكلام إلا في أمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، أو ذكر الله تعالى ، فمن فعل الواجب ، وترك المحظور ، فقد أتم الحج والعمرة لله ، وهو مقتصد من أصحاب اليمين فى هذا العمل .

لكن من أتى بالمستحب فهو أكمل منه وأتم منه حجا ، وهو سابق مقرب ، ومن ترك المأمور ، وفعل المحظور ، لكنه أتى بركنه ، وترك مفسده فهو حاج حجا ناقصا ، يثاب على ما فعله من الحج ، ويعاقب على ما تركه ، وقد سقط عنه اصل الفرض بذلك ، مع عقوبته على ما تركه ومن أخل بركن الحج او فعل مفسده فحجه فاسد لا يسقط به فرض ؛ بل عليه اعادته ، مع أنه قد يتنازع في إثابته على ما فعله ، وإن لم يسقط به الفرض ، والأشبه أنه يثاب عليه .

فصار « الحج ثلاثة أقسام » كاملا بالمستحبات ، وتاما بالواجبات فقط ، وناقصا عن الواجب .

والفقهاء يقسمون الوضوء والغسل الى كامل ومجزىء ؛ لـكن يريدون بالـكامل ما أتى بمفروضه ومسنونه ، وبالمجزىء ما اقتصر على واجبه . فهذا فى « الأعمال المشروعة » . وكذلك في « الأعيان المشهودة » فان الشجرة مثلا اسم لمجموع الجذع والورق والأغصان ، وهي بعد ذهاب الورق

شجرة ، وبعد ذهاب الأغصان شجرة ؛ لـكن كاملة وناقصـة ، فليفعل مثل ذلك في مسمى الايمان والدين ، أن « الايمان ثلاث درجات » : إيمان السابقين المقربين . وهو ما أتى فيه بالواجبـات والمستحبات : مـن فعل وترك . وإيمان المقتصدين أصحاب اليمين . وهو ما أتى فيه بالواجبات من فعل وترك . وإيمان الظالمين . وهو ما يترك فيه بعض الواجبـات ، او يفعل فيه بعض المحظورات .

ولهذا قال علماء السنة فى وصفهم « اعتقاد أهل السنة والجماعة » : انهم لا يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنب ، اشارة الى بدعة الخوارج المـكفرة بمطلق الذنوب ، فأما أصل الايمان الذي هو الاقرار بما جاءت به الرسل عن الله تصديقاً به وانقياداً له ؛ فهذا أصل الايمان الذي من لم يأت به فليس بمؤمن ؛ ولهذا تواتر فى الأحاديث « أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من ايمان » « مثقال حبة من إيمان » . وفي رواية الصحيح أيضاً « مثقال حبة من خير » « مثقال ذرة من خير » وقال صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة « الايمان بضع وستون ـــ أو بضعة وستون ، أو بضع وسبعون شعبة ـــ أعلاها قول لا إله الا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحيـاء شعبة من الايمان » فعلم ان الايمان يقبل التبعيض والتجزئة ، وان قليله يخرج الله به من النار من دخلها ، ليس هو كما يقوله الخارجون عن مقالة أهل

السنة : انه لا يقبل التبعيض والتجزئة ؛ بـل هو شيء واحد : اما ان يحصل كله ، أو لا يحصل منه شيء .

ومما يتصل بـه أن يعرف ان الايمان هو مـن الأسماء الكتابية ، القرآنية ، النبوية ، الدينية ، الشرعيـة ؛ فيتنوع مسماهـا قدراً ووصفاً بتنوع الكتب الالهية ؛ فمنه ما هو متفق عليه بين جميع المؤمنين ، من الأولين والآخرين ، وجميع الكتب الالهية : مثل الاقرار بالله ، واليوم الآخر ، وعبادة الله وحده لا شريك له ، والصدق والعدل . واعلم ان عامة السور المكية التي أنزلها الله بمكة هي فى هذا الايمان العام المشترك بين الأنبياء جميعهم ، والمؤمنين جميعهم . وهـذا القدر المشترك هو فى بعض الملل أعظم قدراً ووصفاً ، فان ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من أسمـاء الله وصفاته ، ووصف اليوم الآخر اكمـل مما جاء به سائر الأنبيـاء .

ومنه ما تختلف فيه الشرائع والمناهج ، كالقبلة والمنسك ، ومقادير العبادات ، وأوقاتها وصفاتها ، والسنن والأحكام وغير ذلك ، فسمى الايمان والدين فى أول الاسلام ليس هو مسماه في آخر زمان النبوة ؛ بل مسماه فى الآخر اكمل ، كما قال تعالى : (اليوم اكملت لكم دينكم) وقال في السورة : (ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله) ؛ ولهذا قال الامام أحمد كان بدء الايمان فى أول الاسلام ناقصاً فجعل يتم ، وهكذا

مسمى الايمان والدين ، قد شرع فى حق الأشخاص بحسب ما أمر الله به كلا منهم ، وبحسب ما فعله مما أمر الله به .

ولهذا كان المؤمنون من الأولين والآخرين ؛ من الذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين ، والمؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، مشتركين فى الايمان بالله ، واليوم الآخر ، والعمل الصالح ، كما دل عليه القرآن .

مع أن اليهود كان يجب عليهم الأقرار بما لا يجب علينا الاقرار به ؛ مثل إقرارهم بواجبات التوراة ، ومحرماتها ، مثل السبت ، وشحم الثرب والكليتين . ولا يجب عليهم التصديق المفصل بما لم ينزل عليهم من أسماء الله وصفاته ، وصفات اليوم الآخر . ونحن يجب علينا من الايمان بذلك ما لم يجب عليهم ، ويجب علينا من الاقرار بالصلوات الخمس ، والزكاة المفروضة ، وحج البيت ، وغير ذلك مما هو داخل فى إيماننا وليس داخلا فى إيمانهم ؛ فان الاقرار بهذه الأشياء داخل فى الايمان باتفاق الأمة . وكذلك الاقرار بأعيان الأنبياء كان الاقرار بأعيانهم داخلا فى إيمان من قبلنا ، ونحن إنما يدخل فى إيماننا الاقرار بهم من حيث الجملة .

والمنازعون لأهل السنة منهم من يقول : الايمان فى الشرع مبقى على ما كان عليه فى اللغة ، وهو التصديق . ومنهم من يقول : هو

منقول الى معنى آخر. وهو أداء الواجبات .

وأما أهل السنة فقد يقول بعضهم : هو منقول كالأسماء الشرعية : من الصلاة ، والزكاة . وقد يقول بعضهم : بل هو متروك على ما كان وزادت عليه الشريعة أشياء . ومنهم من يقول : بل هو باق على أصله من التصديق مع دخول الأعمال فيه ، فان الأعمال داخلة فى التصديق ، فالمؤمن يصدق قوله بعمله ، كما قال الحسن البصري : ليس الايمان بالتمني ولا بالتحلي ؛ ولكن ما وقر فى القلب ، وصدقه العمل . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : «والفرج يصدق ذلك أو يكذبه» . ومنهم من يقول : ليس الايمان فى اللغة هو التصديق ؛ بل هو الاقرار ، وهو فى الشرع الاقرار أيضاً ، والاقرار يتناول القول والعمل .

وليس هذا موضع بسط ذلك ، فقد بسطته في غير هذا الموضع .

وإذا عرف مسمى الايمان ، فعند ذكر استحقاق الجنة والنجاة من النار ، وذم من ترك بعضه ونحو ذلك — يراد به الايمان الواجب ، كقوله : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون) وقوله (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً) الآية . وقوله : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله

ورسوله ، وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه وقوله فى الجنة : (أعدت للذين آمنوا بالله ورسله) .

وقوله صلى الله عليه وسلم « لا يزني الزاني حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » فنفى عنه الايمان الواجب الذي يستحق به الجنة ، ولا يستلزم ذلك نفي أصل الايمان ، وسائر أجزائه وشعبه . وهذا معنى قولهم : نفي كمال الإيمان لا حقيقته ، أي الكمال الواجب ، ليس هو الكمال المستحب ، المذكور فى قول الفقهاء : الغسل كامل ومجزىء .

ومن هذا الباب : قوله صلى الله عليه وسلم : « من غشنا فليس منا » ليس المراد به أنه كافر . كما تأولته الخوارج ، ولا أنه ليس من خيارنا . كما تأولته المرجئة ؛ ولكن المضمر يطابق المظهر ، والمظهر هو المؤمنون المستحقون للثواب ، السالمون من العذاب ، والغاش ليس منا لأنه متعرض لسخط الله وعذابه .

وإذا تبين هذا فمن ترك بعض الايمان الواجب لعجزه عنه ، إما لعدم تمكنه من العلم : مثل أن لا تبلغه الرسالة ، أو لعدم تمكنه من العمل ، لم يكن مأموراً بما يعجز عنه ، ولم يكن ذلك من الايمان

والدين الواجب فى حقه ، وإن كان من الدين والايمـان الواجـب فى الأصل ؛ بمنزلة صلاة المريض ، والخائف والمستحاضة وسائر اهل الاعذار الذين يعجزون عن إتمام الصلاة ، فان صلاتهم صحيحة بحسب ما قدروا عليه ، وبه أمروا إذ ذاك ، وإن كانت صلاة القادر على الاتمام أكمل وأفضل ؛ كما قال النبي صلى الله عليـه وسلم : « المؤمن القوى خـير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير » رواه مسلم عـن أبى هريرة فى حديث حسن السيـاق . وقوله : « صلاة القـاعد على النصف من صلاة القائم ، وصلاة النائم على النصف من صلاة القاعد » ولو أمكنــه العلم به دون العمل لوجب الايمـان به ، علماً واعتقاداً دون العمل .

فصــــل

فهذا أصل مختصر في « مسألة الاسماء » ، وأما « مسألة الاحكام » وحكمه في الدار الآخرة فالذي عليـه الصحابة ومـن اتبعهم باحسان ، وسائر أهل السنة والجماعـة . أنه لا يخلد فى النـار من معه شيء من الايمان ؛ بل يخرج منها من معه مثقال حبة ، أو مثقال ذرة من إيمان .

وأما « الخوارج » ومن وافقهم من المعتزلة فيوجبون خلود مـن

دخل النار ، وعندهم من دخلها خلد فيها ، ولا يجتمع فى حق الشخص الواحد العذاب والثواب ، وأهل السنة والجماعة ، وسائر من اتبعهم متفقون على اجتماع الأمرين ، فى حق خلق كثير . كما جاءت به السنن المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

و « أيضاً » : فأهل السنة والجماعة لا يوجبون العذاب فى حق كل من أتى كبيرة ، ولا يشهدون لمسلم بعينه بالنار لأجل كبيرة واحدة عملها ؛ بل يجوز عندهم ان صاحب الكبيرة يدخله الله الجنة بلا عذاب اما لحسنات تمحوا كبيرته منه أو من غيره ؛ واما لمصائب كفرتها عنه ، واما لدعاء مستجاب منه أو من غيره فيه ، وإما لغير ذلك .

و « الوعيدية » من الخوارج والمعتزلة : يوجبون العذاب فى حق اهل الكبائر ؛ لشمول نصوص الوعيد لهم . مثل قوله : (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) ، وتجعل المعتزلة إنفاذ الوعيد أحد « الأصول الخمسة » التى يكفرون من خالفها ، ويخالفون أهل السنة والجماعة فى وجوب نفوذ الوعيد فيهم ، وفى تخليدهم ؛ ولهذا منعت الخوارج والمعتزلة أن يكون لنبينا صلى الله عليه وسلم شفاعة فى أهل الكبائر فى اخراج أهل الكبائر من النار . وهذا مردود بما تواتر عنه من السنن فى ذلك ، كقوله صلى الله عليه وسلم :

« شفاعتى لأهل الكبائر من امتى » وأحاديثه فى إخراجه من النار من قد دخلها .

وليس الغرض هنا تحرير هذه الأصول ، وإنما الغرض التنبيه عليها ، وكان ما أوقعهم في ذلك أنهم سمعوا نصوص الوعيد فرأوها عامة ، فقالوا : يجب أن يدخل فيها كل من شملته ، وهو خبر ، وخبر الله صدق ، فلو أخلف وعيده كان كاخلاف وعده ، والكذب على الله محال ، فعارضهم غالية المرجئة بنصوص الوعد ، فانها قد تتناول كثيراً من أهل الكبائر ، فعاد كل فريق الى اصله الفاسد .

فقال الأولون : نصوص الوعد لا تتناول الا مؤمنا ، وهؤلاء ليسوا مؤمنين . وقال الآخرون : نصوص الوعيد لا تتناول الا كافراً ، وكل من القولين خطأ . فان النصوص — مثل قوله : (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما) — لم يشترط فيها الكفر ؛ بل هى فى حق المتدين بالاسلام . وقوله : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » لم يشترط فيه فعل الواجبات ؛ بل قد ثبت فى الصحاح « وان زنى ، وان سرق ، وان شرب الخمر » .

فهنا اضطرب الناس ، فأنكر قوم من المرجئة العموم ، وقالوا : ليس فى اللغة عموم ، وهم الواقفية في العموم من المرجئة ، وبعض

الأشعرية والشيعية ، وانما التزموا ذلك لئلا يدخل جميع المؤمنين فى نصوص الوعيد .

وقالت المقتصدة : بل العموم صحيح ، والصيغ صيغ عموم ؛ لكن العام يقبل التخصيص ؛ وهذا مذهب جميع الخلائق ، من الأولين والآخرين ، الا هذه الشرذمة . قالوا : فمن عفى عنه كان مستثنى من العموم . وقال قوم آخرون : بل اخلاف الوعيد ليس بكذب ، وان العرب لا تعد عاراً أو شناراً أن يوعد الرجل شراً ثم لا ينجزه ، كما تعد عاراً أو شناراً ان يعد خيراً ثم لا ينجزه ، وهذا قول طوائف من المتقدمين والمتأخرين ، وقد احتجوا بقول كعب بن زهير يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم :

نبئت أن رسول الله أوعدني
والعفو عند رسول الله مأمول

قالوا : فهذا وعيد خاص ، وقد رجا فيه العفو ، مخاطباً للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فعلم ان العفو عن المتوعد جائز ، وان لم يكن من باب تخصيص العام .

والتحقيق أن يقال : الكتاب والسنة مشتمل على نصوص الوعد

والوعيد ، كما ذلك مشتمل على نصوص الأمر والنهي ، وكل من النصوص يفسر الآخر ويبينه ، فكما أن نصوص الوعد على الأعمال الصالحة مشروطة بعدم الكفر المحبط ؛ لأن القرآن قد دل على أن من ارتد فقد حبط عمله ، فكذلك نصوص الوعيد للكفار والفساق مشروطة بعدم التوبة ؛ لأن القرآن قد دل على أن الله يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب ، وهذا متفق عليه بين المسلمين ، فكذلك في موارد النزاع .

فان الله قد بين بنصوص معروفة ان الحسنات يذهبن السيئات ، وان من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، وانه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ، وان مصائب الدنيا تكفر الذنوب ، وانه يقبل شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر ، وانه لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، كما بين ان الصدقة يبطلها المن والأذى ، وان الربا يبطل العمل ، وانه إنما يتقبل الله من المتقين ؛ أي في ذلك العمل ونحو ذلك .

فجعل للسيئات ما يوجب رفع عقابها ، كما جعل للحسنات ما قد يبطل ثوابها ، لكن ليس شيء يبطل جميع السيئات إلا التوبة ، كما انه ليس شيء يبطل جميع الحسنات الا الردة .

وبهذا تبين انا نشهد بأن (الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ؛

إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) على الاطلاق والعموم ، ولا نشهد لمعين أنه فى النار ؛ لأنا لا نعلم لحوق الوعيد له بعينه ؛ لأن لحوق الوعيد بالمعين مشروط بشروط وانتفاء موانع ، ونحن لا نعلم ثبوت الشروط وانتفاء الموانع فى حقه ، وفائدة الوعيد بيان أن هذا الذنب سبب مقتض لهذا العذاب ، والسبب قد يقف تأثيره على وجود شرطه ، وانتفاء مانعه .

يبين هذا : انه قد ثبت : « أن النبي صلى الله عليه وسلم لعن الخمر ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وشاربها وساقيها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وآكل ثمنها » . وثبت عنه فى صحيح البخاري عن عمر أن رجلا كان يكثر شرب الخمر ، فلعنه رجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تلعنه ؛ فانه يحب الله ورسوله » فنهى عن لعن هذا المعين ، وهو مدمن خمر ؛ لأنه يحب الله ورسوله ، وقد لعن شارب الخمر على العموم .

فصل

إذا ظهرت هذه المقدمات فى اسم المؤمن والكافر ، والفاسق الملي وفى حكم الوعد والوعيد ، والفرق بين المطلق والمعين ، وما وقع فى

ذلك من الاضطراب ، فـ« مسألة تكفير أهل البدع والأهواء » متفرعة على هذا الأصل .

ونحن نبدأ بمذهب أئمة السنة فيها قبل التنبيه على الحجة. فنقول:

المشهور من مذهب الامام أحمد ، وعامة أئمة السنة تكفير الجهمية وهم المعطلة لصفات الرحمن ؛ فان قولهم صريح في مناقضة ما جاءت به الرسل من الكتاب ، وحقيقة قولهم جحود الصانع ، ففيه جحود الرب ، وجحود ما أخبر به عن نفسه على لسان رسله ؛ ولهذا قال عبد الله بن المبارك : انا لنحكي كلام اليهود والنصارى ، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية ، وقال غير واحد من الأئمة انهم اكفر من اليهود والنصارى ، يعنون من هذه الجهة ، ولهذا كفروا من يقول : ان القرآن مخلوق ، وان الله لا يرى فى الآخرة ، وان الله ليس على العرش ، وان الله ليس له علم ، ولا قدرة ولا رحمة ، ولا غضب ، ونحو ذلك من صفاته .

واما « المرجئة » : فلا تختلف نصوصه انه لا يكفرهم ؛ فان بدعتهم من جنس اختلاف الفقهاء فى الفروع ، وكثير من كلامهم يعود النزاع فيه الى نزاع في الألفاظ والأسماء ؛ ولهذا يسمى الكلام فى مسائلهم « باب الأسماء » وهذا من نزاع الفقهاء ، لكن يتعلق بأصل

الدين ؛ فكان المنازع فيه مبتدعاً .

وكذلك « الشيعة » المفضلون لعلي على أبي بكر ، لا يختلف قوله انهم لا يكفرون ؛ فان ذلك قول طائفة من الفقهاء أيضاً ، وإن كانوا يبدعون .

وأما « القدرية » المقرون بالعلم ، و « الروافض » الذين ليسوا من الغالية ، والجهمية ، والخوارج : فيذكر عنه في تكفيرهم روايتان هذا حقيقة قوله المطلق ، مع أن الغالب عليه التوقف عن تكفير القدرية المقرين بالعلم ، والخوارج ، مع قوله : ما أعلم قوماً شراً من الخوارج ..

ثم طائفة من أصحابه يحكون عنه في تكفير أهل البدع مطلقاً روايتين ، حتى يجعلوا المرجئة داخلين فى ذلك ، وليس الأمر كذلك وعنه فى تكفير من لا يكفِّر روايتان ، أصحهما لا يكفر . وربما جعل بعضهم الخلاف فى تكفير من لا يكفِّر مطلقاً ، وهو خطأ محض . والجهمية — عند كثير من السلف : مثل عبد الله بن المبارك ، ويوسف ابن أسباط ، وطائفة من أصحاب الامام أحمد وغيرهم — ليسوا من الثنتين والسبعين فرقة ، التى افترقت عليها هذه الأمة ؛ بل أصول هذه عند هؤلاء : هم الخوارج والشيعة ، والمرجئة والقدرية ، وهذا المأثور

عن أحمد ، وهو المأثور عن عامة أئمة السنة ، والحديث انهم كانوا يقولون : من قال : القرآن مخلوق فهو كافر ، ومن قال : ان الله لا يرى فى الآخرة فهو كافر ، ونحو ذلك .

ثم حكى أبو نصر السجزي عنهم فى هذا قولين : « أحدهما » أنه كفر ينقل عن الملة . قال : وهو قول الاكثرين . و « الثاني » انه كفر لا ينقل . ولذلك قال الخطابي : ان هذا قالوه على سبيل التغليظ ، وكذلك تنازع المتأخرون من أصحابنا فى تخليد المكفر من هؤلاء ؛ فأطلق أكثرهم عليه التخليد ، كما نقل ذلك عن طائفة من متقدمي علماء الحديث ؛ كأبي حاتم ، وأبي زرعة وغيرهم ، وامتنع بعضهم من القول بالتخليد .

وسبب هذا التنازع تعارض الأدلة ، فانهم يرون أدلة توجب إلحاق أحكام الكفر بهم ، ثم انهم يرون من الأعيان ، الذين قالوا تلك المقالات من قام به من الايمان ما يمتنع ان يكون كافراً ، فيتعارض عندهم الدليلان ، وحقيقة الأمر انهم أصابهم في ألفاظ العموم فى كلام الأئمة ما أصاب الأولين فى ألفاظ العموم فى نصوص الشارع ، كلما رأوهم قالوا : من قال كذا فهو كافر ، اعتقد المستمع ان هذا اللفظ شامل لكل من قاله ، ولم يتدبروا ان التكفير له شروط وموانع قد تنتفي في حق المعين ، وان تكفير المطلق لا يستلزم تكفير المعين ،

إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع ، يبين هذا أن الامام أحمد وعامة الأئمة : الذين أطلقوا هـذه العمومات ، لم يكفروا أكثر مـن تـكلم بهذا الـكلام بعينه .

فان الامام أحمد ـــ مثـلا ـــ قد باشر « الجهمية » الذين دعوه الى خلق القرآن ، ونفي الصفات ، وامتحنوه وسائر علماء وقته ، وفتنوا المؤمنين والمؤمنات الذين لم يوافقوهم على التجهم بالضرب والحبس ، والقتل والعزل عن الولايات ، وقطع الأرزاق ، ورد الشهادة ، وترك تخليصهم من أيدي العدو ، بحيث كان كثير من أولي الأمر إذ ذاك من الجهمية من الولاة والقضاة وغيرهم : يكفرون كل من لم يكن جهمياً موافقاً لهم على نفي الصفات ، مثل القول بخلق القرآن ، ويحكمون فيـه بحكمهم في الـكافر ، فلا يولونه ولاية ، ولا يفتكونه من عدو ، ولا يعطونه شيئاً من بيت المال ، ولا يقبلون له شهادة ، ولا فتيا ، ولا رواية ويمتحنون الناس عند الولاية والشهادة ، والافتكاك مـن الأسر وغير ذلك . فمن أقر بخـلق القرآن حكموا له بالايمـان ، ومـن لم يقر به لم يحكموا له بحكم أهـل الايمان ، ومـن كان داعياً الى غير التجهم قتلوه أو ضربوه وحبسوه .

ومعلوم ان هذا من أغلظ التجهم ، فان الدعاء إلى المقالة أعظم من

قولها ، وإثابة قائلها وعقوبة تاركها أعظم من مجرد الدعاء إليها ، والعقوبة بالقتل لقائلها أعظم من العقوبة بالضرب .

ثم إن الامام أحمد دعا للخليفة وغيره . ممن ضربه وحبسه ، واستغفر لهم ، وحللهم مما فعلوه به من الظلم والدعاء إلى القول الذي هو كفر ، ولو كانوا مرتدين عن الاسلام لم يجز الاستغفار لهم ؛ فان الاستغفار للكفار لايجوز بالكتاب والسنة والاجماع ، وهذه الأقوال والأعمال منه ومن غيره من الأئمة صريحة في أنهم لم يكفروا المعينين من الجهمية ، الذين كانوا يقولون : القرآن مخلوق ، وان الله لا يرى فى الآخرة ، وقد نقل عن أحمد ما يدل على أنه كفر به قوماً معينين فأما أن يذكر عنه في المسألة روايتان ففيه نظر ، أو يحمل الأمر على التفصيل . فيقال : من كفر بعينه ؛ فلقيام الدليل على أنه وجدت فيه شروط التكفير ، وانتفت موانعه ، ومن لم يكفره بعينه ؛ فلنتفاء ذلك في حقه ، هذا مع اطلاق قوله بالتكفير على سبيل العموم .

والدليل على هذا الأصل : الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والاعتبار .

اما الكتاب : فقوله سبحانه وتعالى : (ولا جناح عليكم فيما اخطأتم به) وقوله تعالى : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو اخطأنا) .

وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « ان الله تعالى قال : قد فعلت » لما دعا النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بهذا الدعاء . وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش » و « انه لم يقرأ بحرف منها الا أعطيه » .

وإذا ثبت بالكتاب المفسر بالسنة ان الله قد غفر لهذه الأمة الخطأ والنسيان فهذا عام عموما محفوظاً ، وليس فى الدلالة الشرعية مايوجب ان الله يعذب من هذه الأمة مخطئاً على خطئه ، وان عذب المخطيء من غير هذه الأمة .

و « أيضاً » قد ثبت فى الصحيح من حديث أبى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إن رجلا لم يعمل خيراً قط فقال لأهله : إذا مات فأحرقوه ، ثم اذروا نصفه في البر ، ونصفه في البحر فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابا لا يعذبه احداً من العالمين ، فلما مات الرجل فعلوا به كما أمرهم ، فأمر الله البر فجمع ما فيه،وأمر البحر فجمع ما فيه، فاذا هو قائم بين يديه . ثم قال : لم فعلت هذا ؟ قال من خشيتك يارب وأنت أعلم ؛ فغفر الله له ».

وهذا الحديث متواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، رواه أصحاب الحديث والأسانيد من حديث أبي سعيد ، وحذيفة وعقبة بن عمرو ، وغيرهم عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه متعددة ، يعلم أهل الحديث انها تفيدهم العلم اليقيني ، وإن لم يحصل ذلك لغيرهم ممن لم يشركهم فى أسباب العلم . فهذا الرجل كان قد وقع له الشك والجهل فى قدرة الله تعالى على إعادة ابن آدم ، بعد ما أحرق وذري ، وعلى أنه يعيد الميت ويحشره إذا فعل به ذلك ، وهذان أصلان عظيمان :

« أحدهما » متعلق بالله تعالى ، وهو الايمان بأنه على كل شيء قدير .

و « الثاني » متعلق باليوم الآخر . وهو الايمان بأن الله يعيد هذا الميت ، ويجزيه على أعماله ، ومع هذا فلما كان مؤمناً بالله في الجملة ، ومؤمناً باليوم الآخر فى الجملة ، وهو أن الله يثيب ويعاقب بعد الموت ، وقد عمل عملا صالحاً — وهو خوفه من الله أن يعاقبه على ذنوبه — غفر الله له بما كان منه من الايمان بالله ، واليوم الآخر والعمل الصالح .

وأيضاً : فقد ثبت فى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم « ان الله يخرج من النار من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان »

وفي رواية : « مثقال دينار من خير ، ثم يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » وفى رواية « من خير » « ويخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، أو خير » وهذا وأمثاله من النصوص المستفيضة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، يدل انه لايخلد فى النار من معــه شيء من الايمــان والخير وإن كان قليلا ، وان الايمان مما يتبعض ويتجزأ . ومعلوم قطعاً أن كثيراً من هؤلاء المخطئين معهم مقدار ماً من الايمان بالله ورسوله ، إذ الكلام فيمن يكون كذلك .

وايضاً فان السلف اخطأ كثير منهم فى كثير من هــذه المسائل ، واتفقوا على عدم التكفير بذلك ، مثل ما أنكر بعض الصحابة أن يكون الميت يسمع نداء الحي ، وأنكر بعضهم ان يكون المعراج يقظة ، وأنكر بعضهم رؤية محمد ربه ، ولبعضهم في الخلافة ، والتفضيل كلام معروف ، وكذلك لبعضهم فى قتــال بعض ، ولعن بعض ، وإطلاق تكفير بعض ، أقوال معروفة .

وكان القاضي شريح ينكر قراءة من قرأ :(بل عجبتُ) ويقول : إن الله لا يعجب ؛ فبلغ ذلك إبراهيم النخعي فقال : إنما شريح شــاعر يعجبه علمه . كان عبد الله أفقه منــه ، فكان يقول : (بل عجبت) فهذا قد أنكر قراءة ثابتة ، وأنكر صفة دل عليها الكتاب والسنــة ، واتفقت الأمة على انه إمام من الأئمة ، وكــذلك بعض السلف أنكر

بعضهم حروف القرآن ، مثل إنكار بعضهم قوله : (أفلم ييأس الذين آمنوا) وقال : انما هي : أو لم يتبين الذين آمنوا ، وإنكار الآخر قراءة قوله : (وقضى ربك الا تعبدوا إلا إياه) وقال : إنما هي : ووصى ربك . وبعضهم كان حذف المعوذتين ، وآخر يكتب سورة القنوت . وهذا خطأ معلوم بالاجماع والنقل المتواتر ، ومع هذا فلما لم يكن قد تواتر النقل عندهم بذلك لم يكفروا ، وإن كان يكفر بذلك من قامت عليه الحجة بالنقل المتواتر .

وأيضاً فان الكتاب والسنة قد دل على ان الله لا يعذب أحداً ، إلا بعد إبلاغ الرسالة ، فمن لم تبلغه جملة لم يعذبه رأساً ، ومن بلغته جملة دون بعض التفصيل لم يعذبه الا على إنكار ما قامت عليه الحجة الرسالية .

وذلك مثل قوله تعالى : (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وقوله : (يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم أياتي) الآية . وقوله : (أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) وقولهم : (وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ؟) الآية . وقوله : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقوله : (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا) وقوله : (كلما ألقي فيها فوج سألهم

خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ قالوا : بلى ! قد جاءنا نذير ، فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء) وقوله : (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى) وقوله : (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، فيقولوا : ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) ونحو هذا فى القرآن فى مواضع متعددة .

فمن كان قد آمن بالله ورسوله ، ولم يعلم بعض ما جاء به الرسول ، فلم يؤمن به تفصيلا ؛ اما انه لم يسمعه . أو سمعه من طريق لا يجب التصديق بها ، أو اعتقد معنى آخر لنوع من التأويل الذي يعذر به . فهذا قد جعل فيه من الايمان بالله وبرسوله ما يوجب ان يثيبه الله عليه ، وما لم يؤمن به فلم تقم عليه به الحجة التى يكفر مخالفها .

وأيضاً فقد ثبت بالكتاب والسنة والاجماع ان من الخطأ فى الدين مالا يكفر مخالفه ؛ بل ولا يفسق ؛ بل ولا يأثم ؛ مثل الخطأ فى الفروع العملية ؛ وإن كان بعض المتكلمة والمتفقهة يعتقد ان المخطىء فيها آثم ، وبعض المتكلمة والمتفقهة يعتقد ان كل مجتهد فيها مصيب ، فهذان القولان شاذان ، ومع ذلك فلم يقل أحد بتكفير المجتهدين المتنازعين فيها ، ومع ذلك فبعض هذه المسائل قد ثبت خطأ المنازع

فيها بالنصوص والاجماع القديم ، مثل استحلال بعض السلف والخلف لبعض أنواع الربا ، واستحلال آخرين لبعض أنواع الخمر ، واستحلال آخرين للقتال فى الفتنة .

وأهل السنة والجماعة متفقون على أن المعروفين بالخير ، كالصحابة المعروفين ، وغيرهم من أهل الجمل وصفين من الجانبين ، لا يفسق أحد منهم ، فضلا عن أن يكفر ، حتى عدى ذلك من عداه من الفقهاء الى سائر أهل البغي ، فانهم مع إيجابهم لقتالهم منعوا أن يحكم بفسقهم لأجل التأويل ، كما يقول هؤلاء الأئمة : إن شارب النبيذ المتنازع فيه متأولا لا يجلد ولا يفسق . وقد قال تعالى : (وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث ، إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً) وقال تعالى : (ماقطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على اصولها فباذن الله) .

وثبت فى الصحاح من حديث عمرو بن العاص وأبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله اجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر » . وثبت فى الصحيح عن بريدة ابن الحصيب ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا حاصرت أهل حصن فسألوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك وحكم أصحابك ، فانك لاتدري ما حكم الله فيهم »

وأدلة هذا الاصل كثيرة لها موضع آخر .

وقد ثبت بالكتاب والسنة والاجماع أن من بلغته رسالة النبي صلى الله عليــه وسلم فلم يؤمن به فهو كافر ، لا يقبل منه الاعتذار بالاجتهاد ، لظهور أدلة الرسالة ، واعلام النبوة ؛ ولأن العذر بالخطأ حكم شرعي ، فكما ان الذنوب تنقسم الى كبائر وصغائر ، والواجبات تنقسم إلى اركان وواجبات ليست أركاناً : فكذلك الخطأ ينقسم إلى مغفور وغير مغفور ، والنصوص إنما أوجبت رفع المؤاخذة بالخطأ لهــذه الأمــة ، وإذا كان كــذلك فالمخطىء فى بعض هــذه المسائل : اما ان يلحق بالكفار ، من المشركين وأهل الكتاب مع مباينته لهم فى عامة اصول الايمــان . وإما ان يلحق بالمخطئين فى مسائل الايجاب والتحريم ، مــع أنهــا ايضا من أصول الايمان .

فان الايمان بوجوب الواجبــات الظاهرة المتواترة ، وتحريم المحرمات الظاهرة المتواترة : هو من أعظم أصول الايمان ، وقواعد الدين والجاحد لها كافر بالاتفــاق ، مع ان المجتهد فى بعضهــا ليس بــكافر بالاتفــاق مع خطئه .

وإذا كان لابد من الحاقه بأحد الصنفين : فمعلوم ان المخطئين من المؤمنين بالله ورسوله ، أشد شبها منــه بالمشركين وأهــل الكتاب ،

فوجب ان يلحق بهم ، وعلى هذا مضى عمل الأمة قديماً وحديثاً ، في ان عامة المخطئين من هؤلاء تجري عليهم احكام الاسلام التى تجري على غيرهم ، هذا مع العلم بأن كثيراً من المبتدعة منافقون النفاق الاكبر ، وأولئك كفار فى الدرك الأسفل من النار ، فما اكثر ما يوجد في الرافضة والجهمية ونحوهم زنادقة منافقون ، بل اصل هذه البدع هو من المنافقين الزنادقة ، ممن يكون اصل زندقته عن الصابئين والمشركين ، هؤلاء كفار فى الباطن ، ومن علم حاله فهو كافر فى الظاهر ايضاً .

وأصل ضلال هؤلاء الاعراض عما جاء به الرسول من الكتاب والحكمة ، وابتغاء الهدى في خلاف ذلك ، فمن كان هذا أصله فهو بعد بلاغ الرسالة كافر لا ريب فيه ، مثل من يرى ان الرسالة للعامة دون الخاصة ، كما يقوله قوم من المتفلسفة ، وغالية المتكلمة والمتصوفة ، أو يرى أنه رسول الى بعض الناس دون بعض ، كما يقوله كثير من اليهود والنصارى .

فهذا الكلام يمهد أصلين عظيمين :

« احدهما » ان العلم والايمان والهدى فيما جاء به الرسول ، وان خلاف ذلك كفر على الاطلاق ، فنفي الصفات كفر ، والتكذيب بأن الله يرى فى الآخرة ، أو أنه على العرش ، أو أن القرآن كلامه ، أو

أنه كلم موسى ، أو أنه اتخذ ابراهيم خليلا كفر ، وكذلك ما كان في معنى ذلك ، وهذا معنى كلام أئمة السنة وأهل الحديث .

و « الأصل الثانى » ان التكفير العام — كالوعيد العام — يجب القول باطلاقه وعمومه .

واما الحكم على المعين بأنه كافر ، أو مشهود له بالنار : فهذا يقف على الدليل المعين ، فان الحكم يقف على ثبوت شروطه ، وانتفاء موانعه .

ومما ينبغي ان يعلم فى هذا الموضع ان الشريعة قد تأمرنا باقامة الحد على شخص في الدنيا ؛ إما بقتل أو جلد أو غير ذلك ، ويكون في الآخرة غير معذب ، مثل قتال البغاة والمتأولين ، مع بقائهم على العدالة ، ومثل اقامة الحد على من تاب بعد القدرة عليه توبة صحيحة ، فانا نقيم الحد عليه مع ذلك كما أقامه النبي صلى الله عليه وسلم على ماعز ابن مالك ، وعلى الغامدية ، مع قوله : « لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له » ومثل اقامة الحد على من شرب النبيذ المتنازع فيه متأولا ، مع العلم بأنه باق على العدالة .

بخلاف من لا تأويل له ، فانه لما شرب الخمر بعض الصحابة

واعتقدوا انها تحل للخاصة تأول قوله: (ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ، إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا) اتفق الصحابة مثل عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب وغيرهما ، على انهم ان أقروا بالتحريم جلدوا وإن أصروا على الاستحلال قتلوا .

وكذلك نعلم ان خلقاً لا يعاقبون في الدنيا مع أنهم كفار في الآخرة، مثل أهل الذمة المقرين بالجزية على كفرهم . ومثل المنافقين المظهرين الاسلام ، فانهم تجري عليهم أحكام الاسلام ، وهم في الآخرة كافرون ، كما دل عليه القرآن في آيات متعددة ، كقوله : (ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيراً) الآية . وقوله : (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرنا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ! ولكنكم فتنتم انفسكم ، وتربصتم ، وارتبتم ، وغرتكم الأماني ، حتى جاء أمر الله ، وغركم بالله الغرور ، فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ، ولا من الذين كفروا) الآية .

وهذا لأن الجزاء في الحقيقة انما هو في الدار الآخرة ، التي هي دار الثواب والعقاب . وأما الدنيا فانما يشرع فيها من العقاب ما يدفع

به الظلم والعدوان ، كما قال تعالى : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين) وقال تعالى : (انما السبيل على الذين يظلمون الناس ، ويبغون في الأرض بغير الحق) وهذا لأن المقصود بارسال الرسل ، وإنزال الكتب ، هو إقامة القسط ، كما قال تعالى : (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ؛ ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ، ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، ان الله قوي عزيز) .

وإذا كان الأمر كذلك فعقوبة الدنيا غير مستلزمة لعقوبة الآخرة ، ولا بالعكس . ولهذا اكثر السلف يأمرون بقتل الداعي الى البدعة ، الذي يضل الناس لأجل افساده فى الدين ، سواء قالوا : هو كافر ، أو ليس بكافر .

وإذا عرف هذا فتكفير « المعين » من هؤلاء الجهال وأمثالهم — بحيث يحكم عليه بأنه من الكفار — لا يجوز الاقدام عليه ، الا بعد ان تقوم على أحدهم الحجة الرسالية ، التى يتبين بها أنهم مخالفون للرسل ، وان كانت هذه المقالة لا ريب انها كفر .

وهكذا الكلام فى تكفير جميع « المعينين » مع ان بعض هذه

البدعة أشد من بعض ، وبعض المبتدعة يكون فيــه من الايمان ما ليس في بعض ، فليس لأحد أن يكفر احداً من المسلمين ، وان اخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة ، وتبين له المحجة .

ومن ثبت إيمانه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك ؛ بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة ، وإزالة الشبهة .

وهذا الجواب لا يحتمل اكثر من هذا . والله المسؤول أن يوفقنا وسائر اخواننا لما يحبه ويرضاه ، والله سبحانه أعلم .

وسئل شيخ الاسلام

رحمه الله

فى رجل قال : ان الله لم يكلم موسى تكليما ، وانما خلق الكلام والصوت فى الشجرة ، وموسى عليه السلام سمع من الشجرة لا من الله ، وان الله عز وجل لم يكلم جبريل بالقرآن وإنما أخـــذه من اللوح المحفوظ . فهل هو على الصواب أم لا ؟

فأجاب : الحمد لله ، ليس هذا على الصواب ؛ بل هـــذا ضال مفتر كاذب باتفاق سلف الامة وأئمتها ؛ بل هو كافر يجب ان يستتاب فـان تاب والا قتل ، واذا قال : لا أكذب بلفظ القرآن ـــ وهو قوله : (وكلم الله موسى تكليما) ـــ بـل أقر بأن هـــذا اللفظ حق ، لكن أنفي معناه وحقيقته ؛ فان هؤلاء هم الجهمية الذين اتفق السلف والأئمة على أنهم من شراهل الأهواء والبدع ، حتى أخرجهم كثير من الأئمـة عن الثنتين والسبعين فرقة .

وأول من قال هذه المقالة فى الاسلام كان يقال له الجعد بن درهم ،

فضحى به خالد بن عبد الله القسري يوم اضحى ؛ فانـه خطب الناس فقال فى خطبته : ضحوا ايهـا الناس ! تقبل الله ضحاياكم ، فانى مضح بالجعد بن درهم ، انه زعم أن الله لم يتخـذ ابراهيم خليلا ، ولم يـكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً . ثم نزل فذبحه . وكان ذلك فى زمن التابعين فشكروا ذلك ، وأخذ هذه المقالة عنه جهم ابن صفوان ، وقتله بخراسان سلمة بن أحوز ، واليه نسبت هذه المقالة التى تسمى « مقالة الجهمية » وهي نفي صفات الله تعالى ، فانهم يقولون: ان الله لا يرى فى الآخرة ، ولا يكلم عباده ، وانـه ليس له علـم ولا حياة ولا قدرة ونحو ذلك من الصفات ، ويقولون : القرآن مخلوق .

ووافق الجهم على ذلك « المعتزلة » أصحاب عمرو بن عبيد ، وضموا اليها بدعا أخرى فى القدر وغـيره ؛ لكن المعتزلة يقولون ان الله كلـم موسى حقيقة وتكلم حقيقة ؛ لكن حقيقة ذلك عندهم انـه خلق كلاما فى غيره ، إما فى شجرة وإما فى هواء ، واما في غير ذلك ، من غير أن يقوم بذات الله عندهم كلام ولا علم ، ولا قدرة ولا رحمة ، ولا مشيئة ولا حياة ، ولا شيء من الصفات .

والجهمية تـارة يبوحون بحقيقة القول ، فيقولون : ان الله لم يكلم موسى تكليما ، ولا يتكلم . وتارة لا يظهرون هذا اللفظ ؛ لما فيه من الشناعة المخالفة لدين الاســلام واليهود والنصارى ، فيقرون باللفظ ،

ولكن يقرنونه بأنه خلق فى غيره كلاما .

وأئمة الدين كلهم متفقون على ماجاء بـــه الكتاب والسنة ، واتفق عليه سلف الأمة ، من أن الله كلـــم موسى تكليما ، وان القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة ، كما تواترت به الاحاديث عن النبي صـــلى الله عليـــه وســـلم ، وأن لله علمـــاً وقدرة ونحو ذلك .

ونصوص الأئمة فى ذلك مشهورة متواترة ، حتى أن أبا القاسم الطبري الحافظ لما ذكر في كتابه فى « شرح أصول السنة » مقالات السلف والأئمة فى الاصول : ذكر من قال : القرآن كلام الله غير مخـــلوق . وقال : فهؤلاء خمسمائة وخمسون نفسا او اكثر من التابعين والأئمة المرضيين سوى الصحابة ، على اختلاف الاعصار ومضي السنين والاعوام ، وفيهم نحو من مائة امام ممن اخذ الناس بقولهم ، وتدينوا بمذاهبهم . ولو اشتغلت بنقل قول أهل الحديث لبلغت أسماؤهم ألوفا ؛ لكني اختصرت فنقلت عـــن هؤلاء عصراً بعد عصر لا ينكر عليهم منكر ، ومن أنـــكر قولهم استتابوه أو أمروا بقتله او نفيه او صلبه ، قال : ولا خلاف بين الأمـــة أن أول من قال القرآن مخلوق جعد بن درهم في سني نيف وعشرين ومائـــة ، ثم جهم بن صفوان ، فاما جعد فقتله خالد بن عبد الله القسري . وأما جهم فقتل بمرو فى خلافة هشام بن عبد الملك .

وروى باسناده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه من وجهين أنهم قالوا له يوم صفين : حكمت رجلين ؟ فقال : ما حكمت مخلوقا ما حكمت إلا القرآن ، وعن عكرمة قال كان ابن عباس في جنازة ، فلما وضع الميت فى لحده قام رجل وقال : اللهم رب القرآن اغفر له ، فوثب اليه ابن عباس فقال : مه ؟ ! القرآن منه . وعن عبد الله بن مسعود قال : من حلف بالقرآن فعليه بكل آية يمين . وهذا ثابت عن ابن مسعود ، وعن سفيان بن عيينة قال : سمعت عمرو بن دينار يقول: أدركت مشايخنا والناس منذ سبعين سنة يقولون : القرآن كلام الله ، منه بدا واليه يعود ، وفي لفظ يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق ، وقال حرب الكرماني ثنا اسحق بن ابراهيم يعنى ابن راهويه عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال : ادركت الناس منذ سبعين سنة ادركت اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فمن دونهم يقولون : الله الخالق وما سواه مخلوق ، إلا القرآن فانه كلام الله ، منه خرج واليه يعود .

وهذا قد رواه عن ابن عيينة اسحق ، واسحق اما أن يكون سمعه منه أو من بعض اصحابه عنه ، وعن جعفر بن محمد الصادق — وهو مشهور عنه — أنهم سألوه عن القرآن أخالق هو أم مخلوق ؟ فقال : ليس بخالق ولا مخلوق ولكنه كلام الله .

وهكذا روى عن الحسن البصري ، وأيوب السختياني ، وسليمان

التيمي ، وخلق من التابعين . وعن مالك بن أنس ، والليث بن سعد وسفيان الثوري ، وابن أبي ليلى ، وأبي حنيفة ، والشافعي ، واحمد بن حنبل ، واسحق بن راهويه ، وأمثال هؤلاء من الأئمة ، وكلام هؤلاء الأئمة واتباعهم في ذلك كثير مشهور ، بل اشتهر عن أئمة السلف تكفير من قال : القرآن مخلوق ، وانه يستتاب فان تاب والا قتل ، كما ذكروا ذلك عن مالك بن أنس وغيره ، ولذلك قال الشافعي لحفص الفرد – وكان من اصحاب ضرار بن عمرو ممن يقول : القرآن مخلوق ، فلما ناظر الشافعي ، وقال له : القرآن مخلوق ، قال له الشافعي – كفرت بالله العظيم : ذكره ابن أبى حاتم فى الرد على الجهمية ، قال : كان في كتابى عن الربيع بن سليمان قال : حضرت الشافعي ، أو حدثني ابو شعيب ، الا أنى أعلم أنه حضر عبد الله بن عبد الحكم ، ويوسف بن عمرو بن يزيد ، فسأل حفص عبد الله قال : ما تقول فى القرآن ؟ فأبى أن يجيبه ، فسأل يوسف بن عمرو فلم يجبه ، وكلاهما أشار إلى الشافعي فسأل الشافعي فاحتج عليه وطالت فيه المناظرة ، فقام الشافعي بالحجة بان القرآن كلام الله غير مخلوق ، وكفر حفصا الفرد . قال الربيع : فلقيت حفصا فى المسجد بعد هذا فقال : أراد الشافعي قتلي .

وأما مالك بن أنس فنقل عنه من غير وجه الرد على من يقول القرآن مخلوق واستتابته ، وهذا المشهور عنه متفق عليه بين أصحابه .

وأما أبو حنيفة وأصحابه فقد ذكر أبو جعفر الطحاوي في الاعتقاد الذي قال في أوله: «ذكر بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة»: أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، وأبي يوسف يعقوب بن ابراهيم الأنصاري، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني قال فيه: «وان القرآن كلام الله، منه بدأ بلا كيفية قولا، وأنزله على نبيه وحيا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقا، وأثبتوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه فزعم انه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمه الله وعابه وأوعده عذابه وتوعده حيث قال: (سأصليه سقر) فلما أوعد الله سقر لمن قال: (ان هذا إلا قول البشر) علمنا انه قول خالق البشر ولا يشبه قول البشر».

وأما أحمد بن حنبل فكلامه في مثل هذا مشهور متواتر، وهو الذي اشتهر بمحنة هؤلاء الجهمية، فانهم أظهروا القول بانكار صفات الله تعالى، وحقائق اسمائه، وان القرآن مخلوق. حتى صار حقيقة قولهم تعطيل الخالق سبحانه وتعالى، ودعوا الناس الى ذلك، وعاقبوا من لم يجبهم إما بالقتل وإما بقطع الرزق وإما بالعزل عن الولاية، وإما بالحبس او بالضرب، وكفروا من خالفهم، فثبت الله تعالى الامام احمد حتى أخمد الله به باطلهم، ونصر أهل الايمان والسنة عليهم، وأذلهم بعد العز، وأخملهم بعد الشهرة، واشتهر عند خواص الأمة وعوامها ان القرآن كلام

الله غير مخلوق ، واطلاق القول ان من قال انه مخلوق فقد كفر .

وأما اطلاق القول بان الله لم يكلم موسى فهذه مناقضة لنص القرآن ، فهو أعظم من القول بان القرآن مخلوق ، وهذا بلا ريب يستتاب فان تاب وإلا قتل ، فانه أنكر نص القرآن ، وبذلك أفتى الأئمة والسلف في مثله ، والذي يقول القرآن مخلوق هو في المعنى موافق له ، فلذلك كفره السلف .

قال البخاري في كتاب « خلق الأفعال » قال سفيان الثوري : من قال القرآن مخلوق فهو كافر ، قال : وقال عبد الله بن المبارك : من قال (إني أنا الله لا إله إلا أنا) مخلوق ، فهو كافر ، ولا ينبغي لمخلوق أن يقول ذلك ، قال وقال ابن المبارك : لا نقول كما قالت الجهمية انه في الأرض ههنا ، بل على العرش استوى ، وقيل له : كيف نعرف ربنا ؟ قال فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه .

وقال : من قال « لا إله إلا الله » مخلوق فهو كافر ، وانا نحكي كلام اليهود والنصارى ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية . قال وقال علي بن عاصم : ما الذين قالوا ان لله ولداً أكفر من الذين قالوا ان الله لا يتكلم .

قال البخاري : وكان اسماعيل بن أبي ادريس يسميهم زنادقة العراق ،

وقيل له : سمعت أحداً يقول القرآن مخلوق ؟ فقال : هؤلاء الزنادقة . قال : وقال أبو الوليد سمعت يحيى بن سعيد — وذكر له أن قوماً يقولون القرآن مخلوق — فقال كيف يصنعون بـ (قل هو الله أحد) كيف يصنعون بقوله : (انى انا الله لا إله الا انا) ؟ قال : وقال ابو عبيد القاسم بن سلام نظرت فى كلام اليهود والمجوس فما رأيت قوماً أضل فى كفرهم منهم ، وانى لأستجهل من لا يكفرهم الا من لا يعرف كفرهم . قال : وقال سليمان بن داود الهاشمي : من قال القرآن مخلوق فهو كافر ، وان كان القرآن مخلوقاً كما زعموا فلم صار فرعون اولى بان يخلد فى النار إذ قال (أنا ربكم الأعلى) ؟ وزعموا ان هذا مخلوق والذي قال : (انني أنا الله لا إله إلا انا فاعبدنى) هذا أيضاً قد ادعى ما ادعى فرعون ، فلم صار فرعون اولى أن يخلد فى النار من هذا ؟ وكلاهما عنده مخلوق . فأخبر بذلك ابو عبيد فاستحسنه وأعجبه .

ومعنى كلام هؤلاء السلف رضي الله عنهم : ان من قال ان كلام الله مخلوق خلقه فى الشجرة أو غيرها — كما قال هذا الجهمي المعتزلي المسؤول عنه — كان حقيقة قوله : ان الشجرة هي التى قالت لموسى (انني انا الله لا إله إلا انا فاعبدنى) ومن قال : هذا مخلوق قال ذلك . فهذا المخلوق عنده كفرعون الذي قال : (أنا ربكم الأعلى) كلاهما مخلوق وكلاهما قال ذلك . فان كان قول فرعون كفراً فقول هؤلاء أيضاً كفر .

ولا ريب أن قول هؤلاء يؤول الى قول فرعون ؛ وان كانوا لايفهمون ذلك ؛ فان فرعون كذب موسى فيما أخبر به : من أن ربه هو الاعلى وانه كلمه كما قال تعالى : (وقال فرعون ياهامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع الى إله موسى واني لأظنــه كاذبا) وهو قد كذب موسى فى ان الله كلمه .

ولكن هؤلاء يقولون إذا خلق كلاماً فى غيره صار هو المتكلم به وذلك باطل وضلال من وجوه كثيرة :

(أحدها) ان الله سبحانه انطق الأشياء كلها نطقاً معتاداً ونطقــاً خارجا عن المعتاد ، قال تعــالى : (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنــا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) وقال تعــالى : (حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذي انطق كل شيء) وقال تعالى : (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) وقد قال تعالى : (إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق) ، وقد ثبت ان الحصى كان يسبح في يد النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن الحجر كان يسلم عليه وامثال ذلك من انطاق الجمادات ؛ فلو كان إذا خلق كلاما في غــيره كان هو المتكلم به كان هذا كله كلام الله تعالى ، ويكون قد كلم من سمع هذا الــكلام كما كلم موسى بن عمران ، بل قد ثبت ان الله خالق

أفعال العباد . فكل ناطق فالله خالق نطقه وكلامه فلو كان متكلما بما خلقه من الكلام لكان كل كلام في الوجود كلامه حتى كلام إبليس والكفار وغيرهم ، وهذا تقوله غلاة الجهمية كابن عربى وأمثاله يقولون :

وكل كلام فى الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه

وهكذا أشباه هؤلاء من غلاة المشبهة الذين يقولون : ان كلام الآدميين غير مخلوق ؛ فان كل واحدة من الطائفتين يجعلون كلام المخلوق بمنزلة كلام الخالق فاولئك يجعلون الجميع مخلوقا وان الجميع كلام الله ، وهؤلاء يجعلون الجميع كلام الله وهو غير مخلوق ، ولهذا كان قد حصل اتصال بين شيخ الجهمية الحلولية وشيخ المشبهة الحلولية .

وبسبب هذه البدع وأمثالها من المنكرات المخالفة الدين الاسلام سلط الله أعداء الدين فان الله يقول (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز ، الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور) ، وأي معروف أعظم من الايمان بالله واسمائه وآياته ؟ واي منكر اعظم من الالحاد في اسماء الله وآياته ؟

(الوجه الثاني) أن يقال لهؤلاء الضالين : ما خلقه الله في غيره

من الكلام وسائر الصفات فانما يعود حكمه على ذلك المحل لا على غيره فاذا خلق الله فى بعض الاجسام حركة أو طعما أو لوناً او ريحاً كان ذلك الجسم هو المتحرك المتلون المتروح المطعوم ، وإذا خلق بمحل حياة أو علماً او قدرة أو إرادة او كلاما كان ذلك المحل هو الحي العالم القادر المريد المتكلم . فاذا خلق كلاما في الشجرة أو في غيرها من الأجسام كان ذلك الجسم هو المتكلم بذلك الكلام ، كما لو خلق فيه إرادة أو حياة أو علماً ، ولا يكون الله هو المتكلم به ، كما إذا خلق فيه حياة أو قدرة أو سمعاً أو بصراً كان ذلك المحل هو الحي به والقادر به والسميع به والبصير به . فكما أنه سبحانه لا يجوز أن يكون متصفاً بما خلقه من الصفات المشروطة بالحياة وغير المشروطة بالحياة ، فلا يكون هو المتحرك بما خلقه فى غيره من الحركات ، ولا المصوت بما خلقه فى غيره من الأصوات ، ولا سمعه ولا بصره وقدرته ما خلقه فى غيره من السمع والبصر والقدرة ، فكذلك لا يكون كلامه ما خلقه فى غيره من الكلام ولا يكون متكلماً بذلك الكلام .

(الوجه الثالث) ان الاسم المشتق من معنى لا يتحقق بدون ذلك المعنى ، فاسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وأفعال التفضيل يمتنع ثبوت معناها دون معنى المصدر التى هي مشتقة منه ، والناس

متفقون على انه لا يكون متحرك ولا متكلم الا بحركة وكلام ، فلا يكون مريد إلا بارادة ، وكذلك لا يكون عالم الا بعلم ولا قادر الا بقدرة ونحو ذلك .

ثم هذه الأسماء المشتقة من المصدر انما يسمى بها من قام به مسمى المصدر ، فانما يسمى بالحي من قامت به الحياة ، وبالمتحرك من قامت به الحركة ، وبالعالم من قام به العلم ، وبالقادر من قامت به القدرة . فأما من لم يقم به مسمى المصدر فيمتنع أن يسمى باسم الفاعل ونحوه من الصفات . وهذا معلوم بالاعتبار في جميع النظائر .

وذلك لأن اسم الفاعل ونحوه من المشتقات هو مركب يدل على الذات وعلى الصفة . والمركب يمتنع تحققه بدون تحقق مفرداته . وهذا كما انه ثابت فى الأسماء المشتقة ، فكذلك في الأفعال : مثل تكلم وكلم ويتكلم ويكلم وعلم ويعلم وسمع ويسمع ورأى ويرى ونحو ذلك ، سواء قيل : ان الفعل المشتق من المصدر ، أو المصدر مشتق من الفعل ، لا نزاع بين الناس ان فاعل الفعل هو فاعل المصدر . فاذا قيل كلم أو علم أو تكلم أو تعلم ففاعل التكليم والتعليم هو المكلم والمعلم ، وكذلك التعلم والتكلم ، والفاعل هو الذي قام به المصدر الذي هو التكليم والتعليم والتكلم والتعلم فاذا قيل : تكلم فلان أو كلم فلان فلاناً ففلان هو المتكلم والمكلم ، فقوله تعالى : (وكلم الله موسى

تكليماً) وقوله : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ، ورفع بعضهم درجات) وقوله : (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) يقتضي ان الله هو المكلم ، فكما يمتنع ان يقال : هو متكلم بكلام قائم بغيره يمتنع أن يقال كلم بكلام قائم بغيره .

فهذه خمسة أوجه :

(أحدها) انه يلزم الجهمية على قولهم ان يكون كل كلام خلقه الله كلاماً له : إذ لا معنى لكون القرآن كلام الله إلا كونه خلقه ، وكل من فعل كلاماً ولو في غيره كان متكلماً به عندهم ، وليس للكلام عندهم مدلول يقوم بذات الرب تعالى لو كان مدلول «قائماً» يدل لكونه خلق صوتاً في محل والدليل يجب طرده فيجب ان يكون كل صوت يخلقه له كذلك ، وهم يجوزون أن يكون الصوت المخلوق على جميع الصفات ، فلا يبقى فرق بين الصوت الذي هو كلام الله تعالى على قولهم والصوت الذي هو ليس بكلام .

(الثاني) ان الصفة إذا قامت بمحل كالعلم والقدرة والكلام والحركة عاد حكمها الى ذلك المحل ولا يعود حكمها الى غيره .

(الثالث) ان يشتق منه المصدر واسم الفاعل والصفة المشبهة به

ونحو ذلك ولا يشتق ذلك لغيره . وهذا كله بين ظاهر وهو ما يبين قول السلف والأئمة ان من قال ان الله خلق كلاماً فى غيره لزمه أن يكون حكم التكلم عائداً الى ذلك المحل لا الى الله .

(الرابع) ان الله أكد تكليم موسى بالمصدر فقال (تكليماً) قال غير واحد من العلماء : التوكيد بالمصدر ينفي المجاز ، لئلا يظن انه ارسل إليه رسولا أو كتب إليه كتاباً بل كلمه منه إليه .

(والخامس) ان الله فضل موسى بتكليمه إياه على غيره ممن لم يكلمه وقال : (وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا) الآية ، فكان تكليم موسى من وراء الحجاب ، وقال : (يا موسى اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي) وقال (انا أوحينا إليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده — الى قوله — وكلم الله موسى تكليماً) والوحي هو ما نزله الله على قلوب الأنبياء بلا واسطة ، فلو كان تكليمه لموسى إنما هو صوت خلقه في الهواء لكان وحي الأنبياء أفضل منه ؛ لأن اولئك عرفوا المعنى المقصود بلا واسطة . وموسى إنما عرفه بواسطة ، ولهذا كان غلاة الجهمية من الاتحادية ونحوهم يدعون أن ما يحصل لهم من الالهام أفضل مما حصل لموسى ابن عمران ، وهذا من أعظم الكفر باتفاق المسلمين .

ولما فهم السلف حقيقة مذهب هؤلاء وانه يقتضي تعطيل الرسالة فان الرسل إنما بعثوا ليبلغوا كلام الله ؛ بل يقتضي تعطيل التوحيد ، فان من لا يتكلم ولا يقوم به علم ولا حياة هو كالموات ، بل من لا تقوم به الصفات فهو عدم محض اذ ذات لا صفة لها إنما يمكن تقديرها فى الذهن لا في الخارج كتقدير وجود مطلق لا يتعين ولا يتخصص .

فكان قول هؤلاء مضاهياً لقول « المتفلسفة الدهرية » الذين يجعلون وجود الرب وجوداً مطلقاً بشرط الاطلاق لا صفة له . وقد علم ان المطلق بشرط الاطلاق لا يوجد إلا في الذهن . وهؤلاء الدهرية ينكرون أيضاً حقيقة تكليمه لموسي ويقولون إنما هو فيض فاض عليه من العقل الفعال ، وهكذا يقولون في الوحي إلى جميع الأنبياء ، وحقيقة قولهم : ان القرآن قول البشر لكنه صدر عن نفس صافية شريفة . وإذا كانت المعتزلة خيراً من هؤلاء وقد كفر السلف من يقول بقولهم فكيف هؤلاء ؟!

وكلام السلف والأئمة فى مثل هؤلاء لا يحصى قال حرب بن اسماعيل الكرماني : سمعت اسحاق بن راهويه يقول : ليس بين أهل العلم اختلاف أن القرآن كلام الله وليس بمخلوق ، وكيف يكون شيء من الرب عز ذكره مخلوقا ؟ ولو كان كما قالوا لزمهم أن يقولوا: علم الله وقدرته ومشيئته مخلوقة . فان قالوا ذلك لزمهم أن يقولوا كان الله

ـ تبارك اسمه ـ ولا علم ولا قدرة ولا مشيئة ، وهو الكفر المحض الواضح ؛ لم يزل الله عالماً متكلما له المشيئة والقـدرة في خلقه ، والقرآن كلام الله وليس بمخلوق ، فمن زعم أنه مخلوق فهو كافر .

وقال وكيع بن الجراح : من زعم أن القرآن مخلوق فقـد زعم أن شيئاً من الله مخلوق . فقيل له : من أين قلت هـذا ؟ قال لان الله يقول (ولكن حق القول مني) ولا يكون من الله شيء مخلوق . وهذا القول قاله غير واحد من السلف .

وقال أحمد بن حنبل : كلام الله من الله ليس ببائن منه ، وهذا معنى قول السلف : القرآن كلام الله منه بدا ومنه خرج وإليه ، يعود كما في الحديث الذي رواه أحمد وغيره عن جبير بن نفير قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « انكم لن ترجعوا إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه » يعني القرآن وقد روي أيضاً عن أبي أمـامة مرفوعا . وقال أبو بكر الصديق لاصحاب مسيلمة الكذاب لما سمع قرآن مسيلمة « ويحكم ! أين يذهب بعقولكم ؟ إن هـذا كلاما لم يخرج من إل » أي من رب .

وليس معنى قول السلف والأئمة : إنه منه خرج ومنـه بدا ، انه فارق ذاته وحل بغيره فان كلام المخلوق إذا تكلم به لا يفـارق ذاته

ويحل بغيره ، فكيف يكون كلام الله ؟ قال تعالى : (كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون إلا كذبا) فقد أخبر أن الكلمة تخرج من أفواههم ، ومع هذا فلم تفارق ذاتهم .

و « أيضاً » فالصفة لا تفارق الموصوف وتحل بغيره ، لا صفة الخالق ولا صفة المخلوق ، والناس إذا سمعوا كلام النبي صلى الله عليه وسلم ثم بلغوه عنه كان الكلام الذي بلغوه كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بلغوه بحركاتهم وأصواتهم فالقرآن أولى بذلك ، فالكلام كلام الباري والصوت صوت القارىء قال تعالى : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) وقال صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم »

ولكن مقصود السلف الرد على هؤلاء الجهمية فانهم زعموا ان القرآن خلقه الله في غيره فيكون قد ابتدأ وخرج من ذلك المحل الذي خلق فيه لا من الله ، كما يقولون : كلامه لموسى خرج من الشجرة فبين السلف والأئمة ان القرآن من الله بدأ وخرج ، وذكروا قوله (ولكن حق القول مني) فأخبر ان القول منه لا من غيره من المخلوقات .

و « من » هي لابتداء الغاية ، فان كان المجرور بها عينا يقوم بنفسه لم

يكن صفة لله كقوله : (وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعاً منه) وقوله فى المسيح : (وروح منه) وكذلك ما يقوم بالاعيان كقوله : (وما بكم من نعمة فمن الله) .

واما إذا كان المجرور بها صفة ولم يذكر لها محل كان صفة لله كقوله (ولكن حق القول منى) . وكذلك قد اخبر فى غير موضع من القرآن ان القرآن نزل منه وانه نزل به جبريل منه رداً على هذا المبتدع المفتري وأمثاله ممن يقول : انه لم ينزل منه ، قال تعالى : (أفغير الله أبتغي حكماً ، وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلا ؟ ! والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق) وقال تعالى : (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) وروح القدس هو جبريل ، كما قال فى الآية الأخرى (نزل به الروح الامين على قلبك) وقال (من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله) وقال هنا (نزله روح القدس من ربك) فبين ان جبريل نزله من الله لا من هواء ولا من لوح ولا غير ذلك ، وكذلك سائر آيات القرآن كقوله : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وقوله (حم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) وقوله (حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم) وقوله (ألم ، تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) وقوله (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك) .

فقد بين فى غير موضع أنه منزل من الله ، فمن قال : انـه منزل من بعض المخلوقات كاللوح والهواء فهو مفتر على الله ، مكـذب لكتاب الله ، متبع لغير سبيل المؤمنين . ألا ترى ان الله فرق بين ما نزل منه وما نزله من بعض المخـلوقات كالمطر بأن قال : (أنزل من السماء مـاء) ؟ فذكر المطر في غير موضع وأخبر أنه نزله من السماء ، والقرآن أخـبر أنه منزل منه ، وأخبر بتنزيل مطلق في مثل قوله (وأنزلنـا الحديد) لأن الحديد ينزل من رؤوس الجبال لا ينزل من السماء ، وكذلك الحيوان ؛ فان الذكر ينزل الماء في الاناث . فلم يقل فيه من السماء ، ولو كان جبريل أخذ القرآن من اللوح المحفوظ لـكان اليهود اكرم على الله من أمـة محمد ، لأنه قد ثبت بالنقل الصحيح ان الله كتب لموسى التوراة بيـده وأنزلها مكتوبة . فيكون بنو اسرائيل قد قرأوا الألواح التى كتبها الله ، وأما المسلمون فأخذوه عن محمد صلى الله عليه وسلم ، ومحمد أخذه عن جبريل وجبريل عن اللوح ، فيكون بنو اسرائيل بمنزلة جبريل ، وتكون منزلة بني اسرائيل أرفع من منزلة محمد صلى الله عليه وسلم على قول هؤلاء الجهمية ، والله سبحانه جعل من فضائل أمة محمد صلى الله عليـه وآله وسلم انه أنزل عليهم كتابا لا يغسله الماء وانه أنزله عليهم تلاوة لا كتابة ، وفرقه عليهم لأجل ذلك . فقال : (وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) وقال تعالى : (وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا) .

ثم ان كان جبريل لم يسمعه من الله وانما وجده مكتوباً كانت العبارة عبارة جبريل ، وكان القرآن كلام جبريل ترجم به عن الله ، كما يترجم عن الأخرس الذي كتب كلاما ولم يقدر ان يتكلم به . وهذا خلاف دين المسلمين .

وإن احتج محتج بقوله : (انه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين) قيل له فقد قال في الآية الأخرى : (انه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) فالرسول في هذه الآية محمد صلى الله عليه وسلم والرسول في الأخرى جبريل ، فلو اريد به ان الرسول احدث عبارته لتناقض الخبران . فعلم انه أضافه اليه إضافة تبليغ لا إضافة إحداث ولهذا قال :(لقول رسول) ولم يقل ملك ولا نبي ، ولا ريب ان الرسول بلغه ، كما قال تعالى : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك) فكان النبي صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس في الموسم ويقول : « ألا رجل يحملني الى قومه لأبلغ كلام ربي ، فان قريشاً قد منعوني أن ابلغ كلام ربي ؟ » ولما أنزل الله : (الم غلبت الروم) خرج ابو بكر الصديق فقرأها على على الناس فقالوا : هذا كلامك أم كلام صاحبك ؟ فقال : ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ولكنه كلام الله .

وان احتج بقوله (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) قيل له

هذه الآية حجة عليك ، فانه لما قال (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث) علم ان الذكر منه محدث ومنه ما ليس بمحدث ؛ لأن النكرة اذا وصفت ميز بها بين الموصوف وغيره ، كما لو قال : ما يأتيني من رجل مسلم إلا اكرمته ، وما آكل إلا طعاما حلالا ونحو ذلك ، ويعلم ان المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي ولكنه الذي أنزل جديداً ، فان الله كان ينزل القرآن شيئاً بعد شيء ، فالمنزل أولاً هو قديم بالنسبة الى المنزل آخراً . وكل ما تقدم على غيره فهو قديم في لغة العرب ، كما قال : (كالعرجون القديم) وقال : (تالله انك لفي ضلالك القديم) وقال : (واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) وقال : (أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون) وكذلك قوله : (جعلناه قرآناً عربيا) لم يقل جعلناه فقط حتى يظن انه بمعنى خلقناه ؛ ولكن قال : (جعلناه قرآناً عربيا) أي صيرناه عربيا لانه قد كان قادراً على ان ينزله عجمياً ، فلما أنزله عربيا كان قد جعله عربياً دون عجمي . وهذه المسئلة من اصول أهل الايمان والسنة التي فارقوا بها الجهمية من المعتزلة والفلاسفة ونحوهم ، والكلام عليها مبسوط في غير هذا الموضع والله أعلم .

وسئل شيخ الاسلام

رحمه الله

عمن قال : ان الله لم يكلم موسى تكليما ، فقال له آخر : بل كلمه تكليما ، فقال : ان قلت كلمه فالكلام لا يكون إلا بحرف وصوت ، والحرف والصوت محدث ، ومن قال : ان الله كلم موسى بحرف وصوت فهو كافر ، فهل هو كما قال او لا ؟

فأجاب : الحمد لله ، اما من قال ان الله لم يكلم موسى تكليما فهذا ان كان لم يسمع القرآن فانه يعرف ان هذا نص القرآن ، فان أنكره بعد ذلك استتيب فان تاب والا قتل ، ولا يقبل منه ان كان كلامه بعد ان يجحد نص القرآن ، بل لو قال : ان معنى كلامي انه خلق صوتا فى الهواء فأسمعه موسى كان كلامه أيضاً كفراً ، وهو قول الجهمية الذين كفرهم السلف وقالوا : يستتابون فان تابوا والا قتلوا ؛ لكن من كان مؤمناً بالله ورسوله مطلقا ولم يبلغه من العلم ما يبين له الصواب فانه لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التى من خالفها كفر . إذ كثير من الناس

يخطيء فيما يتأوله من القرآن ويجهل كثيراً مما يرد من معاني الكتاب والسنة ، والخطأ والنسيان مرفوعان عن هذه الأمة ، والكفر لا يكون إلا بعد البيان .

والأئمة الذين امروا بقتل مثل هـؤلاء الذين ينكرون رؤية الله فى الآخرة ويقولون : القرآن مخلوق ونحو ذلك ، قيـل انهم امروا بقتلهم لكفرهم ، وقيل لأنهم إذا دعوا الناس إلى بدعتهم أضلوا الناس فقتلوا لاجل الفساد فى الارض وحفظا لدين الناس ان يضلوهم .

وبالجملة فقد اتفق سلف الامة وأئمتها على ان الجهمية من شر طوائف أهل البدع ، حتى أخرجهم كثير عن الثنتين والسبعين فرقة .

ومن الجهمية : المتفلسفة والمعتزلة الذين يقولون : ان كلام الله مخلوق وان الله إنما كلم موسى بكلام مخلوق خلقه في الهواء ، وانه لا يرى فى الآخرة . وانه ليس مباينا لخلقه ، وأمثال هذه المقالات التى تستلزم تعطيل الخالق وتكذيب رسله وإبطال دينه .

وأما قول الجهمي : ان قلت كلمه فالكلام لا يكون إلا بحـرف وصوت ، والحرف والصوت محدث ، ومن قال ان الله كلم موسى بحرف وصوت فهو كافر . فيقال لهذا الملحد : أنت تقول انه كلمه بحرف وصوت

لكن تقول بحرف وصوت خلقه في الهواء. وتقول : انه لا يجوز أن تقوم به الحروف والاصوات لانها لا تقوم الا بمتحيز ، والباري ليس بمتحيز ، ومن قال انه متحيز فقد كفر . ومن المعلوم ان من جحد ما نطق به الكتاب والسنة كان أولى بالكفر ممن أقر بما جاء به الكتاب والسنة.

وان قال الجاحد لنص الكتاب والسنة ان العقل معه قال له الموافق للنصوص : بل العقل معي وهو موافق للكتاب والسنة ، فهذا يقول إن معه السمع والعقل ، وذاك انما يحتج لقوله بما يدعيه من العقل الذي يبين منازعه فساده ، ولو قدر أن العقل معه .

« والكفر » هو من الأحكام الشرعية وليس كل من خالف شيئا علم بنظر العقل يكون كافراً ، ولو قدر انه جحد بعض صرائح العقول لم يحكم بكفره حتى يكون قوله كفراً فى الشريعة .

وأما من خالف ما علم أن الرسول جاء به فهو كافر بلا نزاع : وذلك أنه ليس فى الكتاب والسنة ولا فى قول أحد من سلف الامة وأئمتها الاخبار عن الله بانه متحيز أو انه ليس بمتحيز ، ولا فى الكتاب والسنة ان من قال هذا وهذا يكفر . وهذا اللفظ مبتدع والكفر لا يتعلق بمجرد اسماء مبتدعة لا أصل لها فى الكتاب والسنة ؛ بل يستفسر هذا القائل إذا قال : إن الله متحيز أو ليس بمتحيز ، فان قال : أعني بقولي انه متحيز

انه دخل فى المخلوقات وإن المخلوقات قد حازته وأحاطت به فهذا باطل .
وان قال اعني به انه منحاز عن المخلوقات مباين لها ، فهذا حق .

وكـذلك قوله : ليس بمتحيز ، ان أراد به ان المخـلوق لا يحوز الخالق فقد أصاب ، وان قال ان الخالق لا يباين المخلوق وينفصل عنه فقد أخطأ .

وإذا عرف ذلك فالناس فى الجواب عن حجته الداحضة ــ وهي قوله « لو قلت انه كلمه فالكلام لا يكون الا بحرف وصوت والحرف والصوت محدث » ــ ثلاثة أصناف : صنف منعوه المقدمة الأولى ، وصنف منعوه المقدمة الثانية ، وصنف لم يمنعوه المقدمتين ، بل استفسروه ، وبينـوا أن ذلك لا يمنع ان يكون الله كلم موسى تكليما .

ف « الصنف الأول » ابو محمد عبد الله بن سعيد بن كلاب وابو الحسن علي بن اسماعيل الأشعري ومن اتبعهما قالوا : لا نسلم ان الـكلام لا يكون إلا بحرف وصوت بل الـكلام معنى قائم بذات المتـكلم والحروف والاصوات عبارة عنه ، وذلك المعنى القائم بذات الله تعالى يتضمن الامر بكل ما أمر به والخبر عن كل ما أخبر عنه ، ان عبر عنه بالسريانية كان انجيلا ، وقالوا : انه اسم الـكلام حقيقة ، فيكون اسم الـكلام مشتركا او مجازاً في كلام الخالق ، وحقيقة فى كلام المخلوق .

و « الصنف الثاني » سلموا لهم ان الكلام لا يكون إلا بحرف وصوت ، ومنعوهم المقدمة الثانية ، وهو ان الحرف والصوت لا يكون إلا محدثا .

وصنف قالوا : إن المحدث كالحادث سواء كان قائما بنفسه او بغيره ، وهو يتكلم بكلام لا يكون قديما ، وهو بحرف وصوت ، وهذا قول من يقول القرآن قديم وهو بحرف وصوت كأبي الحسن بن سالم وأتباعه السالمية وطوائف ممن اتبعه ، وقال هؤلاء في الحرف والصوت نظير ما قاله الذين قبلهم في المعانى .

وقالوا كلام لا بحرف ولا صوت لا يعقل ، ومعنى يكون أمراً ونهياً وخبراً ممتنع فى صريح العقل ، ومن ادعى ان معنى التوراة والانجيل والقرآن واحد وإنما اختلفت العبارات الدالة عليه — فقوله معلوم الفساد بالاضطرار عقلا وشرعا ، وإخراج الحروف عن مسمى الكلام مما يعلم فساده بالاضطرار من جميع اللغات ، وإن جاز أن يقال : ان الحروف والأصوات المخلوقة فى غير كلام الله حقيقة أمكن حينئذ أن يكون كلم موسى بكلام مخلوق فى غيره ..

وقالوا لاخوانهم الأولين : اذا قلتم ان الكلام هو مجرد المعنى

وقد خلق عبارة بيان [1] فان قلتم ان تلك العبارة كلامه حقيقة بطلت حجتكم على المعتزلة ؛ فان أعظم حجتكم عليهم قولكم انه يمتنع أن يكون متكلماً بكلام يخلقه فى غيره ، كما يمتنع أن يعلم بعلم قائم بغيره ، وأن يقدر بقدرة قائمة بغيره ، وأن يريد بارادة قائمة بغيره ، وإن قلتم هي كلام مجازاً لزم أن يكون الكلام حقيقة فى المعنى مجازاً فى اللفظ ، وهذا مما يعلم فساده بالاضطرار من جميع اللغات .

و « الصنف الثالث » : الذين لم يمنعوا المقدمتين ولكن استفسروهم وبينوا ان هذا لا يستلزم صحة قولكم ، بل قالوا : إن قلتم : ان الحرف والصوت محدث بمعنى انه يجب أن يكون مخلوقاً منه منفصلا عنه ، فهذا دليل على فساد قولكم وتناقضه ، وهذا قول ممنوع ، وإن قلتم : بمعنى انه لا يكون قديماً فهو مسلم لكن هذه التسمية محدثة .

وهؤلاء « صنفان » : صنف قالوا : ان المحدث هو المخلوق المنفصل عنه فاذا قلنا : الحرف والصوت لا يكون إلا محدثاً كان بمنزلة قولنا لا يكون إلا مخلوقاً ، وحينئذ فيكون هذا المعتزلي أبطل قوله

---

(1) بياض بالاصل .

بقوله حيث زعم انه يتكلم بحرف وصوت مخلوق ، ثم استدل على ذلك بما يقتضي انه يتكلم لا يتكلم بكلام مخلوق فيه تلبيس .

ونحن لا نقول كلم موسى بكلام قديم ولا بكلام مخلوق ، بل هو سبحانه يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء ، كما انه سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، وانه سبحانه استوى الى السماء وهي دخان ، وانه سبحانه يأتي فى ظلل من الغمام والملائكة ، كما قال (وجاء ربك والملك صفاً صفاً) وقال : (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة او يأتي ربك او يأتى بعض آيات ربك) وقال تعالى : (إنما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) وقال تعالى : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) وأمثال ذلك فى القرآن والحديث كثير .

يبين الله سبحانه أنه إذا شاء فعل ما أخبر عنه من تكليمه وأفعاله القائمة بنفسه ، وما كان قائماً بنفسه هو كلامه لا كلام غيره . والمخلوق لا يكون قائماً بالخالق ، ولا يكون الرب محلا للمخلوقات ، بل هو سبحانه يقوم به ما شاء من كلماته وأفعاله ، وليس من ذلك شيء مخلوقاً ، إنما المخلوق ما كان بائناً عنه . وكلام الله من الله ليس ببائن منه ، ولهذا قال السلف : القرآن كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ

وإليه يعود ، فقالوا : منه بدأ أي هو المتكلم به ، لا أنه خلقه فى بعض الأجسام المخلوقة .

وهذا « الجواب » هو جواب أئمة أهل الحديث والتصوف والفقه وطوائف من أهل الكلام من أئمتهم : من الهشامية ، والكرامية ، وغيرهم .

وأتباع الأئمة الأربعة : أصحاب أبى حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد : منهم من يختار جواب الصنف الأول ، وهم الذين يرتضون قول ابن كلاب فى القرآن . وهم طوائف من متأخري أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبى حنيفة ، ومنهم من يختار جواب الصنف الثانى ، وهم الطوائف الذين ينكرون قول ابن كلاب ويقولون ان القرآن قديم : كالسالمية ، وطوائف من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وأبى حنيفة ، ومنهم من يختار جواب الطائفة الثالثة ، وهم الذين ينكرون قول الطائفتين المتقدمتين الكلابية والسالمية .

ثم من هؤلاء من يقول بقول الكرامية — والكرامية ينتسبون الى أبى حنيفة — ومنهم من لا يختار قول الكرامية أيضاً لما فيه من تناقض آخر ؛ بل يقول بقول أئمة الحديث : كالبخاري ، وعثمان بن سعيد الدارمي ، ومحمد بن اسحاق بن خزيمة ، ومن قبلهم من السلف :

كأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، ومحمد بن كعب القرظي ، والزهري، وعبد الله بن المبارك ، وأحمد بن حنبل ، واسحاق ابن راهويه ، وما نقل من ذلك عن الصحابة والتابعين ، وفى ذلك آثار كثيرة معروفة فى كتب السنن والآثار تضيق عنها هذه الورقة .

وبين الأصناف الثلاثة منازعات ودقائق تضيق عنها هذه الورقة ، وقد بسطنا الكلام عليها فى مواضع وبينا حقيقة كل قول ، وما هو القول الصواب فى صريح المعقول وصحيح المنقول؛ لكن هؤلاء الطوائف كلهم متفقون على تضليل من يقول ان كلام الله مخلوق . والأمة متفقة على ان من قال ان كلام الله مخلوق لم يكلم موسى تكليماً يستتاب فان تاب والا يقتل .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً .

وسئل أيضاً رحمه الله

عمن قال : كلم الله موسى تكليماً ، وسمعته أذناه ، ووعاه قلبه ، وإن الله كتب التوراة بيده ، وناوله إياه من يده إلى يده ، وقال آخر : لم يكلمه إلا بواسطة .

فأجاب : القائل الذي قال : إن الله كلم موسى تكليماً — كما أخبر فى كتابه — مصيب ، وأما الذي قال : كلم الله موسى بواسطة فهذا ضال مخطيء ؛ بل قد نص الأئمة على أن من قال ذلك فانه يستتاب فان تاب وإلا قتل ؛ فان هذا الكلام إنكار لما قد علم بالاضطرار من دين الاسلام ، ولما ثبت بالكتاب والسنة والاجماع .

قال الله تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب) الآية ففرق بين تكليمه من وراء حجاب — كما كلم موسى — وبين تكليمه بواسطة رسول ، كما أوحى إلى غير موسى ، قال الله تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) إلى قوله : (وكلم الله موسى تكليماً) .

والأحاديث بذلك كثيرة في الصحيحين والسنن وفي الحديث المحفوظ عن النبي صلى الله عليـه وسلم حديث « التقى آدم وموسى ، قال آدم : أنت موسى الذي كلمك الله تكليمـاً ، لم يجعـل بينك وبينه رسولاً من خلقه ».

وسلف الأمة وأئمتها كفروا الجهمية ، الذين قالوا : إن الله خلق كلاماً فى بعض الأجسام ، سمعه موسى ، وفسر التكليم بذلك . وأما قوله : « إن الله كتب التوراة بيده » فهذا قد روى فى الصحيحين ، فمن أنـكر ذلك فهو مخطىء ضال ، وإذا أنـكره بعد معرفة الحديث الصحيح يستحق العقوبة . وأما قوله « ناولها بيده إلى يده » فهـذا مأثور عن طائفة من التابعين ، وهو هكذا عند أهل الكتاب ؛ لكن لا أعلم غير هذا اللفظ مأثوراً عن النبي صـلى الله عليه وسلم ، فالمتكلم به إن أراد ما يخالف ذلك فقد أخطأ . والله أعلم .

ما تقول السادة الاعلام

أئمة الدين — رضي الله عنهم أجمعين — هل هذا القرآن الذي تتلوه القائم بنا حين التلاوة هو كلام الله الذي قام به حين تكلم به وكان صفة له أم لا ؟ وإذا كان كلامه فهل إذا تلوناه وقام بنا يطلق عليه كلام الله وصفته ؟ أم يطلق عليه كلام الله دون صفته ؟ أم فى ذلك تفصيل يجب بيانه ؟ وهل إذا قام بنا كان منتقلا عن الله بعد أن قام به ؟ أم يكون قائماً بنا وبه معاً ؟ أم الذي قام بنا يكون عبارة عن كلام الله ، أو حكاية عنه ، ويكون إطلاق كلام الله عليه مجازاً ؟ وهل يكون صفة لنا محدثة قامت بمحدث ؛ إذ القديم لا يقوم بمحدث ، والمحدث لا يكون قديماً ، وهل « التلاوة » هي نفس المتلو أم لا ؟ ؟ أفتونا مأجورين .

فأجاب شيخ الاسلام تقي الدين أبو العباس ابن تيمية قدس الله روحه : الحمد لله رب العالمين .

هذه « المسألة » جوابها يحتمل البسط ، ويمكن فيه الاختصار ، ثم بسط الجواب بعض البسط ؛ فأما الجواب المختصر فانه يقال : جواب

هذه المسألة مبني عـلى « مقدمة » وهي أن يعرف الانسان معنى قول القائل لما بلغه عن غيره : هذا كلام ذلك الغير ؛ فان المحدث إذا حدث عن النبي صلى الله عليـه وسلم بقوله : « إنما الأعمال بالنيات، وإنما لـكل امرىء ما نوى » أو قوله : « الحلال بين ، والحرام بين ، وبين ذلك أمور مشتبهة لا يعلمها كثير من الناس » أو قوله : « من عمـل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » ونحو ذلك .

فانه من المعلوم أن هذا كلام النبي صـلى الله عليه وسـلم تكلم به بلفظه ومعناه ، فهو الذي أخبر بمعناه ، وهو الذي ألف حروفه وتكلم بها بصوته . ثم المبلغ بذلك عنه بلغ كلامه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسـلم « نضر الله أمرءا سمع منا حديثاً فبلغـه كما سمعه ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » فدعى بالنضرة لمن سمع منه حديثاً فبلغه كما سمعه . فبين أن الحديث المسموع منه هو الحديث المبلغ عنه ، مع العلم بأن المبلغ عنه بلغه بأفعاله وأصواته ، وان الصوت المسموع منه هو صوته لا صوت النبي صـلى الله عليـه وسلم . وإن كان النبي صلى الله عليـه وسـلم تـكلم بذلك الحـديث بصوته المختص به ، فالمبـلغ عنه هو حديثه الذي سمـع منه ، وليس الصوت المسموع صوته .

فاذا قال القائل : هل هذا الحديث الذي قرأه المحدث القـائم به

حين القراءة هو كلام النبي صلى الله عليه وسلم الذي قام به حين تكلم به وكان صفة له أم لا ؟ قيل له : ان كنت تريـد أن نفس الحديث من حيث هو هو كلام النبي صلى الله عليـه وسلم ، الذي قام بـه حين تكلم به كان صفة له ؛ فنعم ! هـذا الحديث من حيث هو هو كلام النبي صـلى الله عليـه وسلم ، وإن كنت تريد أن ما اختص بالقـارىء من حركاته وأصواته هو القائم بالرسول ، فليس كذلك .

وكذلك إن أردت ان نفس ما اختص بـه الرسول من حركاتـه وأصواته ، والصفات القائـمة بنفسه هي بعينهـا انتقلت عن الرسول ، وقامت بالقارىء فليس كذلك .

وقول القائل : هذا هو هذا وليس هو إياه ، وهـذا هو عين هذا وليس هو عينه : لفظ فيـه إجمال ، فان من نقل لفظ غيره ، كما سمعه وكتبه فى كتاب ، فانه يقول : هذا كلام فلان بعينه ، وهذا نفس كلامه ، وهذا عين كلامه . ومراده ان نفس ما قاله هو الذي بلغه عنه ، وهو المكتوب فى الكتاب ، لم يزد فيه ولم ينقص منه .

فاذا قال القائل : لما سمع من القارىء ، هذا عين كلام الله ، أو هذا كلام الله بعينه ، أو هذا نفس كلام الله ، أو قال لما بين لوحي المصحف : هذا كلام الله بعينه . وهـذا عين كلام الله كان صـادقا ،

ومن أنكر ذلك بهذا الاعتبار كان مقتضى قوله : أن القرآن زيد فيه ونقص ؛ ولهذا كان النـاس مطبقين على أن مابين اللوحين كلام الله ؛ والانكار على من نفي ذلك .

وقد يقال لـكلام المتكلم المسموع منه : هذا كلام زيد بعينـه ؛ وهذا عين كلام زيد ، وهذا نفس كلام زيد ، بمعنى أنه مسموع منه بلا واسطة ؛ بحيث يسمع صفة ذلك المتكلم المختص به بذلك ، كما قال أيوب السختياني . كان الحسن يتكلم بكلام فيأتى مثل الدر ؛ فتكلم به بعده قوم فجاء مثل البعر . والمتكلم بالـكلام من البشر له صوت يخصـه ، ونغمة تخصه ، كما له سجية تخصه ، كما قال تعالى : (واختلاف ألسنتكم وألوانـكم) . وله أيضاً ـــ ان كان أمراً أو نهيـاً أو خبراً ـــ من الحال والصفة والكيفية ما يختص به ، فاذا سمع كلامه بالصفة المختصة به وقيل : هـذا كلامه بعينه ، وهذا عين كلامه ، ونفس كلامه ، وادخلت الصفة المختصة به فى مسمى العين والنفس ، لم يصدق هذا عليه ، إذا كان مرويا .

لكن لما كان الناس فى زماننا يعلمون ان أحداً لا يسمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم منه : لم يسبق هذا المعنى إلى ذهن أحد ، بل كل أحد يعلم انا إذا قلنا سمعنا كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا كلام النبي صلى الله عليه وسـلم بعينه ، وهذا عين كلامه ، فانما المراد بـه

المعنى الأول ، وهو كونه مسموعا من المبلغ عنه ، لا أنه مسموع منه ، ولا أن تكلمه الذى يختص بالـكلام وجد .

وإذا كان هذا في كلام النبي صلى الله عليـه وسلم : فـكلام الله سبحانه أولى بذلك ، فان الناس يعلمون ان احداً منهم لم يسمعـه من الله ، كما سمع موسى كلام الله من الله ؛ بل يعلمون أن كلام الله إنما سمع من المبلغين له ، كما قال تعالى : (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) وقال تعـالى : (ليعلم أن قد ابلغوا رسـالات ربهم) وقال نوح : (ولكني رسول مـن رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى)

وفى سنن أبى داود عن جابر ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول بالموقف : « الا رجل يحملني إلى قومـه لأبلغ كلام ربى ؟ فان قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربى »

فلما كان هذا مستقراً في قلوب المستمعين علموا أن قوله تعـالى : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) انما هو سماعه من المبلغين له ، لا سماعه منه ، وان هذا السماع ليس كسماع موسى كلام الله من الله ؛ فان موسى سمعه منه بلا واسطة ، ونحن إذا سمعنا كلام النبي صـلى الله عليه وسلم من الصحابة لم يكن كسمع الصحابة

من النبي صلى الله عليه وسلم ، مع أنهم يبلغون حديثه كما سمعوه ، مع العلم بأنهم لم يحكوا صوت النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا هي اصواتهم صوته ، ولا مثل صوته ، مع أنهم بلغوا حديثه كما سمعوه . فالقرآن أولى أن يكون جبريل بلغه كما سمعه ، والرسول بلغه كما سمعه ، والأمة بلغته كما سمعته ، وان يكون ما بلغته هو ما سمعته ، وهو كلام الله عز وجل في الحالين ؛ مع أن الرسول بشر من جنس البشر ، والله تعالى : (ليس كمثله شيء) .

والتفاوت الذي بين صفات الخالق والمخلوق أعظم من التفاوت بين أدنى المخلوقات وأعلاها ، فاذا كان سمع التابعين لكلام النبي صلى الله عليه وسلم من الصحابة ليس كسمع الصحابة من النبي صلى الله عليه وسلم : فسماع كلام الله من الله أبعد من مماثلة سماع شيء لشيء من المخلوقات .

والقائل إذا قال لما سمعه من المبلغ عن الرسول هذا كلام الرسول أو هذا كلام صواب ، أو حق أو صحيح ، أو هذا حديث رسول الله أداه كما سمعه ، أو هذا نفس كلام الرسول أو عينه ، فانما قصد إلى مجرد الكلام ، وهو ما يوجد حال سماعه من المبلغ ، والمبلغ عنه لم يشر إلى ما يختص بأحدهما ؛ فلم يشر إلى مجرد صوت المبلغ ، ولا مجرد صوت المبلغ عنه ، ولا إلى حركة أحد منهما ؛ بل هناك أمر يتحد فى الحالين

وهذا أمر يتعدد يختص كل منها منه بما يخصه .

فاذا قيل : هذا هو كلامه كانت الاشارة إلى المتحد المتفق عليه بينهما . وإذا قيل : هذا صوته كانت الاشارة إلى المختص المتعدد ، فيقال : هذا صوت غليظ ، أو رقيق ، أو حسن ، أو ليس حسناً ؛ كما فى الحديث الذي فى سنن ابن ماجه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « لله أشد أذنا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته » وفى الحديث المشهور : « زينوا القرآن بأصواتكم » قال أحمد : يحسنه بصوته ما استطاع . فبين الامام أحمد أن الصوت صوت القارىء ، مع أن الكلام كلام الباري . وهذا كما انه معلوم من تبليغ كلام الله ورسوله ، فكذلك فى تبليغ كلام كل أحد ، فاذا سمع الناس منشداً ينشد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

قالوا : هذا شعر لبيد لفظه ومعناه ، وهذا كلام لبيد ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » .

ولو قال المنشد : هذا شعري أو كلامي لكذبه الناس ، كما يكذبونه لو قال : هذا صوت لبيد ، وإذا قال : هذا لفظ لبيد بالمعنى المعروف ــ

وهو أن هذا الكلام الملفوظ هو كلامه بنظمه وتأليفه ـ لصدقه الناس .
وإن قال : هذا لفظه بمعنى ان هذا بلفظه كذبه الناس ؛ فان « اللفظ »
يراد به المصدر ، ويراد به الملفوظ ، وكذلك « التلاوة » و « القراءة »
يراد بذلك المصدر ويراد به الكلام نفسه الذي يقرأ ويتلى .

وأصل هذا أن تعلم الجامع والفارق بين سماع الكلام من المتكلم
به ، ومن المبلغ له عن المتكلم به ، وانه كلامه فى الحالين ؛ لكن هو
فى أحدهما مسموع منه سماعا مطلقاً بغير واسطة ، وفى الأخرى مسموع
منه سماعا مقيداً بواسطة التبليغ ، كما انك تارة ترى الشمس والقمر
والكواكب بطريق المباشرة ، فلا تحتاج فى ذلك إلى واسطة ، وتارة
تراها فى ماء أو مرآة ونحو ذلك ؛ تراها بواسطة ذلك الجسم الشفاف ،
فهي المقصودة بالرؤية فى الموضعين ؛ لكن فى احدى الحالتين رايتها
نفسها بالمباشرة رؤية مطلقة ، وفي الاخرى رايتها رؤية
مقيدة بواسطة .

وإذا قلت : المرئي مثالها أو خيالها أو نحو ذلك . قيل : انت
تجد الفرق بين رؤيتك خيال الشيء الذي هو ظله وتمثاله الذي هو
صورته المصورة ، وبين رؤيته فى الماء والمرآة ؛ إذا كان المرئى هنا ،
وإن كان لابد فيه من توسط خيال فالمقصود بالرؤية هو الحقيقة ؛ ولكن
تختلف باختلاف المرآة ، فيرى كبيراً ان كانت المرآة كبيرة ، وصغيراً

إن كانت المرآة صغيرة ، ومستطيلا ان كانت المرآة مستطيلة . وهذا الكلام المروي عن الغير المقصود منه هو نفس كلام ذلك الغير ، وان كان لا بد من توسط صوت هذا المبلغ ؛ ولهذا يختلف باختلاف صوت المبلغ ؛ فتارة يكون رقيقاً ، وتارة غليظا ، وتارة مجهوراً به ، وتارة مخافتاً به .

فان قلت : فهذا المسموع مثل كلام المروي عنه ، أو حكاية كلام المروي عنه ، كما أطلق ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم ، كان اطلاق هذا خطأ ، كما أنك إذا قلت لما تراه فى الماء والمرآة هذا مثل الشمس ، أو هذا يحكي الشمس : كان إطلاق ذلك خطأ ، قال تعالى : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) الآية ، فقد بين عجز الخلائق عن الاتيان بمثله ، مع أنهم قادرون على تبليغه وتلاوته ؛ فعلم ان هذا المسموع لا يقال انه مثل كلام الله ، كما سماه كلامه ؛ لكنه كلامه بواسطة المبلغ لا بطريق المباشرة .

والله سبحانه قد فرق بين التكليمين . فقال تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء) ففرق بين تكليمه من وراء حجاب — كما كلمه موسى — وبين تكليمه بارساله رسولا يوحي باذنه ؛ ذاك تكليم بلا

واسطة ، وهذا تكليمه بواسطة .

وان قلت : لما يبلغه المبلغ عن غيره هـذا حكاية كلام ذلك كان الاطلاق خطأ ، فان لفظ « الحكاية » إذا أطلق يراد بـه أنه أتى بكلام يشبه كلامه ، كما يقال : هذا يحاكي هذا ، وهذا قد حكى هذا ؛ لكن قد يقال : فلان قد حكى هذا الـكلام عن فلان . كما يقال : رواه عنه ، وبلغه عنه ، ونقله عنه ، وحدث به عنه ؛ ولهذا يجيء فى الحديث عن النبي صلى الله عليه وسـلم فيما يروي عن ربـه . فكلما بلغه النبي صلى الله عليه وسـلم عن الله فقد حكاه عنه ، ورواه عنه .

فالقائل إذا قال للقارىء هذا يحكي كلام الله ، أو يحكي القرآن ، فقد يفهم منه أنه يأتى بكلام يحاكي به كلام الله ، وهذا كفر . وإن أراد انه بلغه وتلاه فالمعنى صحيح ؛ لكن ينبغي تعبيره بما لا يدل على معنى باطل ، فيقول : قرأه وتلاه ، وبلغه وأداه ؛ ولهذا اذا قيل : يحكى القراءات السبع ، ويرويها ، وينقلها ، لم ينكر ذلك ؛ لأنه لا يفهم منه إلا تبليغها ؛ لا أنه يأتى بمثلها .

فصـــــــل

إذا تبين ذلك . فيقال : هـذا القرآن الذي نقرأه ونبلغه ونسمعه هو كلام الله الذي تكلم به ، ونزل به منه روح القدس ، كما قال تعالى : (فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيـم ، انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ، وإذا بدلنا آية مكان آية ـــ والله أعلم بما ينزل ـــ قالوا : إنمـا أنت مفـتر بل اكثرهم لا يعلمون ، قل نزله روح القدس من ربـك بالحق ؛ ليثبت الذين آمنوا وهـــدى وبشرى للمسلمين ، ولقد نعلم انهم يقولون : انما يعلمه بشر؛ لسان الذي يلحدون اليـه أعجمي وهـذا لسان عربى مبين) فهذا الكلام فى القرآن الذي قالوا : إنما يعلمه إياه بشر ، وقد أبطل الله ذلك بقوله : (لسان الذي يلحدون اليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبـين) فدل عـلى ان المراد به نفس القرآن العربى ، الذي يمتنـع أن يعلمه إياه ، ذلك الأعجمي ، الذي ألحدوا إليه . وقد قيل : انه رجـل بمكة مولى لابن الحضرمي ، والمعـاني المجردة لا يمتنع تعلمهـا من الأعجمي ، بخلاف هـذا القرآن العربى ، فدل ان هذا القرآن نزله روح القدس من الله تبارك وتعالى .

ومثله قوله تعالى فى الآية الأخرى : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق) وهذا الكلام صفة الله تعالى ، وأما ما اختص قيامه بنا ؛ من حركاتنا وأصواتنا ، وفهمنا وغير ذلك من صفاتنا ، فلم يقم منه شيء بذات الله سبحانه ، كما ان ما اختص الرب تعالى بقيامه به لم ينتقل عنه ، ولم يقم بغيره لا هو ولا مثله : فان المخلوق إذا سمع من المخلوق كلامه وبلغه عنه كان ما بلغه هو كلامه ، كما تقدم قول النبي صلى الله عليه وسلم : « نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه » مع أن ما قام بالنبي صلى الله عليه وسلم ـــ بباطنه من العلم والارادة وغيرها ، وبظاهره من الحركة والصوت وغيرها ـــ لم ينتقل عنه ، ولم يقم بغيره ؛ بل جميع صفات المخلوقين لا تفارق ذواتهم وتنتقل عنهم ، فكيف يجوز ان يقال : ان صفة الخالق فارقت ذاته فانتقلت عنه ؟

والمتعلم إذا أخذ علم المعلم ونقله عنه لم يفارق ذات الأول ، وينتقل عنها إلى الثانى ؛ بل نفس الحقيقة العلمية حصلت له مثل ما حصلت لمعلمه أو ليس مثله بل يشبهه ؛ ولهذا يشبه العلم بضوء السراج ، كل أحد يقتبس منه وهو لم ينقص . ومن المعلوم أن من أوقد من مصباح غيره فانه لم ينتقل إلى سراجه شيء من جرم تلك النار ، ولا شيء من صفاتها القائمة بها ؛ بل جعل الله بسبب ملاصقة النار ذلك ناراً مثل تلك

فالحقيقة النارية موجودة ، وإن كانت هذه العين ليست تلك ؛ لكن النار والعلم ليس هو مثل الكلام الذي يبلغ عن الغير ؛ بل هو مثل ان يسمع بعض الناس كلام غيره ، وشعر غيره ، فيقول من جنس ما قال ، ويقول كما قال غيره مثله . كما يقال : وقع الخاطر على الخاطر كوقع الحافر على الحافر ، وليس هذا من التبليغ والرواية فى شيء ، فان قول القائل :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

هو كلام لبيد كيف ما أنشده الناس وكتبوه ؛ فهذا الشعر الذي ينشده هو شعر لبيد بعينه . فاذا قيل : الشعر الذي قام بنا هو الذي قام بلبيد . قيل : ان أريد بذلك ان الشعر من حيث هو هو إن أريد أن نفس ما قام بذاته فارق ذاته وانتقل إلينا ؛ فليس كذلك ، وكذلك ان أريد ان عين الصفة المختصة بذلك الشخص كحركته وصوته هي عين الصفة المختصة بنا ، كحركتنا وصوتنا فليس كذلك .

فقولك : هذا هو هذا لفظ فيه إجمال يبينه السياق . فاذا قلت : هذا الكلام هو ذاك ، أو هذا الشعر هو ذاك ، كنت صادقا . وإذا قلت هذا الصوت هو ذاك كان كذبا .

والناس لا يقصدون إذا قالوا : هذا شعر لبيد إلا القدر المتحد ،

وهي الحقيقة من حيث هي ، مع قصر النظر عما اختص به احدها .

فان قيل : القدر المتحد كلي مطلق ، والكليات إنما توجد فى الأذهان لا فى الأعيان . قيل : ذكر هذا هنا غلط ، فان هذا إنما يقال لو كان رجل قد قال شعر لبيد من غير أن يعلم بشعره . فنقول : هذان شيئان اشتركا في النوع الكلي ، وامتاز أحدهما عن الآخر بما يخصه ، والكلي إنما يوجد كلياً فى الذهن لا فى الخارج ، وأما هنا فنفس شعره كان له وجود فى الخارج ، والمقصود من الحقيقة الكلامية — مع قطع النظر عن صوت زيد وصوت عمرو — موجود لما تكلم به لبيد ، وموجود إذا أنشده غير لبيد ، وتلك الحقيقة المتحدة موجودة هنا وهنا ؛ ليست مثل وجود الا نسانية فى زيد وعمرو وخالد ؛ فان إنسانية زيد ليست إنسانية عمرو بل مثلها ، والمشترك بينهما لا يوجد فى الخارج ، وهنا نفس الكلام الذي تكلم به لبيد تكلم به المنشد عنه ، ولا يقال : انه أنشأ مثله ، ولا أنشد مثله ، بل يقال : أنشد شعره بعينه .

لكن الشعر عرض ، والعرض لا يقوم إلا بغيره ؛ فلا بد أن يقوم اما بلبيد وإما بغيره ، والقائم به وإن كان [ليس] مثل القائم بغيره ؛ لكن المقصود بهما واحد . فالتماثل والتغاير في الوسيلة ، والاتحاد فى الحقيقة المقصودة ، وتلك الحقيقة هي انشاء لبيد لا انشاء غيره ، والعقلاء

يعلمون انه ليس نفس الصوت المسموع من لبيد هو نفس الصوت المسموع من المنشد ؛ لكن نفس المقصود بالصوت هو الكلام ؛ فان الصوت واسطة فى تبليغه ؛ ولهذا ما كان فى الصوت من مدح وذم كان للمبلغ ، وما كان في الكلام من مدح وذم كان للمتكلم المبلغ عنه فى لفظه ونظمه ومعناه .

وإذا عرف هذا : فقول القائل : هذا القرآن الذي يتلوه ، القائم بنا حين التلاوة هو كلام الله الذي قام به حين تكلم به ، وكان صفة له أم لا ؟ قيل له : اما الكلام فهو كلام الله لا كلامنا ولا غيرنا ، وهو مسموع من المبلغ لا من الله ـــ كما تقدم ـــ وهو مسموع بواسطة سماعا مقيداً ، لا سماعاً من الله مطلقاً ـــ كما تقدم ـــ وليس شيء مما قام بذاته فارقه وانتقل إلينا ، ولا شيء مما يختص بذواتنا ـــ كحركاتنا وأصواتنا فهو منا ـــ قائماً به .

وأما قوله : هذا القرآن الذي نتلوه القائم بنا، حين التلاوة هو كلام الله الذي قام به حين تكلم به ؟ فلفظ القيام فيه إجمال ، فان أراد ان نفس صفة الرب تكون صفة لغيره ، أو صفة العبد تكون صفة للرب ، فليس كذلك . وإن أراد ان نفس ما ليس بمخلوق صار مخلوقاً ، أو ما هو مخلوق صار غير مخلوق ، فليس الأمر كذلك . وإن أراد أن ما اختص الرب بقيامه به شاركه فيه غيره ، فليس الأمر كذلك . وإن

أراد أن نفس الكلام كلامه لا كلام غيره فى الحالين — كما تقدم تقريره — فالأمر كذلك .

وقد علم ان الحال إذا سمع من الله ليس كالحال إذا سمع من خلقه ، وذلك فرق بين الحالين ، وإن كان الكلام واحداً . فاذا كان هذا الفرق ثابتاً في كلام المخلوق مسموعا ومبلغاً عنه فثبوته فى كلام الله أولى وأحرى ، فان الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله ، ولا يمكن أن يكون تكلمه به وسماعه مما يعرف له نظير ولا مثال ، ولا يقاس ذلك بتكلم النبي صلى الله عليه وسلم ، وسماع الكلام منه ؛ فان النبي صلى الله عليه وسلم بشر ، يمكننا أن نعرف صفاته ، والرب تعالى لا مثال له ، وهو أبعد عن مماثلة المخلوقات أعظم من بعد مماثلة أعظم المخلوقات عن مماثلة أدناها .

وقول السائل : إذا تلوناه ، وقام بنا ، يطلق عليه كلام الله وصفته أم يطلق عليه كلام الله دون صفته ؟ أم في ذلك تفصيل يجب بيانه ؟

فيقال : هو كلام الله وصفته ، مسموعا من المبلغ عنه لا منه ؛ فالنفي والاثبات بدون هذا التفصيل يوهم : اما انه كلام الله مسموعا منه ، أو أنه ليس كلام الله . بل كلام المبلغ عنه . وكلا القولين خطأ وقع في كلام طائفتين من الناس . طائفة جعلت هذا كلام المبلغ عنه ؛ لا كلام

الله . وطائفة قالت : هذا كلام الله مسموعا من الله ، ولم تفـرق بيْن الحالين ؛ حتى ادعى بعضها أن الصوت المسموع قديم ، وتلك لم تجعـله كلام الله ؛ بل كلام الناس . فهؤلاء يقولون : ليس هذا كلام الله ، وأولئك يقولون : هـذا الصوت المسموع قديم . وكلا القولين خطأ وضلال ؛ لـكن هو كلامه مقيداً بواسطة المبـلغ القارىء ، ليس هو كلامه وصفته مطلقاً عن التقييد مسموعا منه ، وكلام المتـكلم يضاف إليه مطلقاً إذا سمع منـه ، ومقيداً إذا سمع من المبـلغ عنه ، كما أن رؤيته تقـال : مطلقة إذا رؤي مباشرة . وتقـال : مقيدة إذا رؤي في ماء أو مرآة .

وأما قوله : إذا قام بنا هل كان منتقلا عن الله بعد أن قام به أم يكون قائماً بنا وبه معاً ؟ أم الذي قام بنا يكون عبارة عن كلام الله أو حكاية عنه ؟ ويكون إطلاق كلام الله عليه مجازاً ؟

فيقال : ان صفة المخلوق لا تفارق ذاته ، وتنتقل عنه وتقوم بغيره ، فكيف يجوز أن يقال : ان صفة الرب سبحانه فارقت ذاته ، وانتقلت عنه وقامت بغيره . وقد بينا ان المتـكلم منا إذا أرسل غيره بكلام فانه ما قام به ؛ بل لم يفـارق ذاته وينتقل إلى غـيره ؛ فكلام الله أولى وأحرى ؛ بل كلامه سبحانه قائم به ، كما يقوم به لو تكلم به ولم يرسل به رسولاً ، فارساله رسولاً به يفيد إبلاغـه الى الخلق . وانزاله إليهـم

لا يوجب نقصاً فى حق الرب ، ولا زوال اتصافه به ، ولا خروجه عن أن يكون كلامه ؛ بل نعلم أن الرب كما أنه قد يتكلم به ، ولا يرسل به رسولاً قد يتكلم به ويرسل به رسولا ، فهو — سبحانه — فى الحالين كلامه ؛ بل إرسال الرسول به نفع الخلق ، وهداهم ، ولم يجب به نقصان صفة مولاهم .

وقوله : أم يكون قائماً بنا وبه ؟ فيقال : معنى القائم لفظ مجمل ؛ فان أريد أن نفس الكلام من حيث هو هو تكلم هو به ، وتكلمنا به مبلغين له عنه ، فكذلك هو . وان أريد ان ما اختص بـه يقوم بنا ، أو ما اختص بنا يقوم به ، فهـذا ممتنع . وإن أريد بالقيـام انا بلغنا كلامه ، أو قرأنا كلامه . أو تلونا كلامه ، فهذا صحيح . فكذلك إن أريد ان هذا الكلام ، كلامه مسموعا من المبلغ لا منه . وإن أريد بالقيـام أن الشيء الذي اختص به هو بعينه قام بغـيره مختصاً به فهذا ممتنع . وإن قيل : الصفة الواحدة تقوم بموضعين . قيل : هـذا أيضاً مجمل ؛ فان أريد أن الشيء المختص بمحل يقوم بمحل آخر فهذا ممتنع ، وأن أريد أن الكلام الذي يسمى صفة واحدة يقوم بالمتكلم به ويبلغه عنه غيره كان هذا صحيحاً .

فهذه المواضع يجب أن تفسر الألفاظ المجملة بالألفاظ المفسرة المبينة ، وكل لفظ يحتمل حقـاً وباطلا فلا يطلق إلا مبيناً به المراد الحق دون

الباطل ؛ فقد قيل أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء . وكثير من نزاع الناس فى هذا الباب هو من جهة الألفاظ المجملة ، التى يفهم منها هذا معنى يثبته ، ويفهم منها [الآخر] معنى ينفيه . ثم النفاة يجمعون بين حق وباطل ، والمثبتة يجمعون بين حق وباطل .

وأما قوله : أم الذي يقوم بنا يكون عبارة عن كلام الله أو حكاية عنه . ويكون إطلاق كلام الله عليه مجازاً ؟ فيقال : العبارة عن كلام الغيب يقال لمن فى نفسه معنى ثم يعبر عنه غيره ، كما يعبر عما فى نفس الأخرس من فهم مراده ، والذين قالوا : « القرآن عبارة عن كلام الله » قصدوا هذا ، وهذا باطل ؛ بل القرآن العربي تكلم الله به ؛ وجبريل بلغه عنه .

واما « الحكاية » فيراد بها ما يماثل الشيء ، كما يقال : هذا يحاكي فلاناً إذا كان يأتي بمثل قوله أو عمله ، وهذا ممتنع في القرآن ؛ فان الله تعالى يقول : (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) الآية . وقد يقال فلان حكى فلان عنه ، أي بلغه عنه ، ونقله عنه ؛ ويجيء فى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فيما يحكى عن ربه . ويقال : ان النبى صلى الله عليه وسلم روى عن ربه . وحكى عن ربه . فاذا قيل : انه حكى عن الله بمعنى أنه بلغ عن الله فهذا صحيح .

وأما قول القائل : هل يكون كلام الله مجازاً ؟ فيقـال : علامة المجاز صحـة نفيه ونحن نعلم بالاضطرار ان فلاناً لو قال بحضرة الرسول ليس هذا كلام الله لـكان عنده لم يكن متكلماً بالحقيقة اللغوية .

وأيضاً : فهذا موجود فى كل من بلغ كلام غيره ، انه يقال هذا كلام المبلغ عنه لا كلام المبلغ ، والله أعلم .

ما تقول السادة أئمة الدين

في رجلين قال أحدهما : القرآن المسموع كلام الله . وقال الآخر : هو كلام جبرئيل ، كما قال تعالى : (إنه لقول رسول كريم) فهل أصاب أم أخطأ ؟ وما الجواب عما احتج به ؟ وهل هذا القول قاله أحد من الشيوخ والأئمة أم لا ؟ أفتونا مأجورين ؟ .

فأجاب شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحه : الحمد لله رب العالمين ؛ بل القرآن كلام الله تعالى ، وليس كلام جبرئيل . ولا كلام محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم باحسان ، وأئمة المسلمين وأصحابهم ، الذين يفتى بقولهم في الاسلام كأبي حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، وأحمد ، وغيرهم .

وجبريل سمعه من الله ، وسمعه محمد من جبريل ، كما قال تعالى (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) . وروح القدس هو جبريل ، وقال تعالى : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) وقال تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) وقال تعالى : (حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم) فهو منزل من الله ، كما قال

تعالى : (نزل به الروح الأمين . على قلبك لتـكون من المنذرين . بلسان عربي مبين) .

وأما قوله تعالى : (إنه لقول رسول كريم) فانه أضافه اليـه لأنه بلغه واداه لا لـكونه احدث منه شيئاً وابتداه ؛ فانه سبحـانه قال في إحدى الآيتين : (إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليـلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين) فالرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم . وقال في الآية الأخـرى : (إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين) فالرسول هنا جبريل . والله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن النـاس ؛ فلو كانت إضافته إلى أحدهما لـكونه الف النظم العربي ، وأحدث منه شيئاً غـير ذلك تناقض الكلام ؛ فانه ان كان نظم احـدهما لم يكن نظم الآخر .

وأيضاً فانه قال : (لقـول رسول) ولم يقل لقول ملك ولا نبي ، ولفظ الرسول يشعر بأنه مبلـغ له عـن مرسله ، لا أنه أنشـأ من عنده شيئاً .

وأيضاً فقوله : (إنه لقول رسول كريم) ضمير يعود إلى القرآن

والقرآن يتناول معانيه ولفظه ، ومجموع هذا ليس قولا لغير الله باجماع المسلمين ، واطلاق القول بأن القرآن كلام جبريل أو محمد أو غيرهما من المخلوقين كفر لم يقله أحد من أئمة المسلمين ؛ بل عظم الله الانكار على من يقول إنه قول البشر ، فقال تعالى : (ذرني ومن خلقت وحيداً) الى قوله : (انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال ان هذا الا سحر يؤثر ان هذا الا قول البشر سأصليه سقر ، وما ادراك ما سقر) . فمن قال : ان القرآن قول البشر فقد كفر ؛ وكذلك من قال انه قول ملك ؛ وانما يقول انه قول جبريل احد رجلين :

اما رجل من الملاحدة والفلاسفة . الذين يقولون : إنه فيض فاض على نفس النبي من العقل الفعال ، ويقولون : انه جبريل . ويقولون : إن جبريل هو الخيال الذي يتمثل في نفس النبي صلى الله عليه وسلم . يقولون : انه تلقاه معان مجردة ، ثم انه تشكل في نفسه حروفاً كما يتشكل في نفس النائم ، كما يقول ذلك ابن عربي صاحب « الفصوص » وغيره من الملاحدة ؛ ولهذا يدعى انه يأخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك . الذى يوحى به إلى الرسول ، فان « المعدن » عنده هو العقل ، و « الملك » هو الخيال الذي في نفسه ، والنبي عندهم يأخذ من هذا الخيال .

وهـذا الكلام من أظهر الكفر باجماع المسلمين واليهود والنصارى ، وهو مما يعلم فساده بالاضطرار من دين المسلمين .

أو رجل ينتسب إلى مـذهب الأشعري ، ويظن ان هـذا قول الأشعـري ؛ بنـاء عـلى ان الـكلام العـربى لم يتكلم الله به عنده وانمـا كلامه معنى واحد قائم بـذات الرب : هـو الأمر والخبر ؛ ان عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وان عـبر عنه بالعبرانية كان توراة ، وان عبر عنه بالسريانية كان انجيلا ، وهـذا القول وان كان قول ابن كلاب والقلانسى ، والأشعري ونحوهم ، فـلم يقولوا : إن الكلام العربى كلام جبريل ، ومن حكى هذا عن الأشعري نفسه فهو مجازف ، وانما قال طائفة من المنتسبين اليه ـــ كما قالت طائفة أخرى ـــ انه نظم محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ولكن المشهور عنـه ان الكلام العربى مخلوق ، ولا يطلق عليه القول بأنه كلام الله ؛ لـكن اذا كان مخلوقا فقد يكون خلقه فى الهواء ، أو في جسم ؛ لـكن القول اذا كان ضعيفاً ظهر الفساد فى لوازمه .

وهذا القول أيضاً لم يقله أحد من الصحابة والتابعين ، وأئمة المسلمين واصحابهم ، الذين يفتى بقولهم ؛ بل كان الشيخ ابو حامـد الاسفرائيني يقول : مذهبي ، ومذهب الشافعى ، واحمد بن حنبل ، وسائر علمـاء الأمصار فى القرآن مخالف لهذا القول ، وكذلك أبو محمد الجوينى والدابي

المعالي قال : مذهب الشافعي واصحابه فى الـكلام ليس هو قول الأشعري ، وعامة العقلاء يقولون : إن فساد هذا القول معلوم بالأضطرار ، فانا نعلم ان التوراة إذا عربت لم تكن هي القرآن ، ونعلم ان آية الـكرسي ليست هي معنى آية الدين .

والله تعالى قد فرق فى كتابه بين تـكليمه لموسى وايحائه إلى غيره بقوله تعالى : (إنا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) إلى قـوله : (وكلم الله موسى تكليماً) وقال تعـالى : (وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء) ففرق بين التكليم الذي حصل لموسى ، وبين الايحاء المشترك ، وموسى سمع كلام الله من الله بلا واسطة ، كما قال تعالى : (فاستمع لما يوحى إنني انا الله لا إله إلا أنا) .

والرسول إذا بلغه إلى الناس وبلغه الناس عنه كان مسموعا سماعا مقيداً بواسطة المبلغ ، كما قال تعـالى : (وان أحد مـن المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) فهو مسموع مبلغ عنه بواسطة المخلوق ؛ بخلاف سماع موسى صـلى الله عليه وسلم ، وان كان العبد يسمع كلام الرسول من المبلغين عنه ، فليس ذلك كالسماع منه ، فأمر الله تعالى أعظم .

ولهذا اتفق سلف الأمة وأئمتها على ان القرآن الذي يقرأه المسلمون كلام الله تعالى ، ولم يقل أحد منهم ان اصوات العبـاد ولا مداد المصاحف قديم ، مع اتفاقهم على ان المثبت بين لوحي المصحف كلام الله ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » فالكلام الذي يقرؤه المسلمون كلام الله ، والأصوات التى يقرؤون بها أصواتهم . والله أعلم .

وسئل رحمه الله

ما تقول السادة العلماء الجهابذة ، — أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين — فيمن يقول : الكلام غير المتكلم ، والقول غير القائل ، والقرآن والمقروء والقارىء كل واحد منها له معنى ؟ بينوا لنا ذلك بياناً شافياً ؛ ليصل الى ذهن الحاذق والبليد ، أثابكم الله بمنه ؟.

فاجاب — رضي الله عنه — :

الحمد لله ، من قال : ان الكلام غير المتكلم ، والقول غير القائل وأراد انه مباين له ومنفصل عنه فهذا خطأ وضلال ، وهو قول من يقول : ان القرآن مخلوق ، فانهم يزعمون ان الله لا يقوم به صفة من الصفات ، لا القرآن ولا غيره ، ويوهمون الناس بقولهم العلم غير العالم والقدرة غير القادر ، والكلام غير المتكلم ، ثم يقولون : وما كان غير الله فهو مخلوق ، وهذا تلبيس منهم .

فان لفظ « الغير » يراد به ما يجوز مباينته للآخر ومفارقته له ، وعلى هذا فلا يجوز أن يقال علم الله غيره ، ولا يقال ان الواحد

من العشرة غيرها ، وأمثال ذلك ، وقد يراد بلفظ « الغير » ما ليس هو الآخر ، وعلى هذا فتكون الصفة غير الموصوف ، لكن على هذا المعنى لا يكون ما هو غير ذات الله الموصوفة بصفاته مخلوقا ؛ لأن صفاته ليست هي الذات ؛ لكن قائمة بالذات ، والله سبحانه وتعالى هو الذات المقدسة الموصوفة بصفات كماله ، وليس الاسم اسماً لذات لا صفات لها ؛ بل يمتنع وجود ذات لا صفات لها .

والصواب فى مثل هذا أن يقال : الكلام صفة المتكلم ، والقول صفة القائل ، وكلام الله ليس بايناً منه ؛ بل أسمعه لجبريل ، ونزل به على محمد صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون انه منزل من ربك بالحق) ولا يجوز ان يقال : ان كلام الله فارق ذاته ، وانتقل إلى غيره . بل يقال كما قال السلف : انه كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ واليه يعود . فقولهم : « منه بدأ » رد على من قال : انه مخلوق في بعض الاجسام ، ومن ذلك المخلوق ابتدأ . فبينوا ان الله هو المتكلم به « منه بدأ » لا من بعض المخلوقات « واليه يعود » أي فلا يبقى في الصدور منه آية ، ولا في المصاحف حرف ، وأما القرآن فهو كلام الله .

فمن قال : ان القرآن الذي هو كلام الله غير الله فخطؤه وتلبيسه كخطأ من قال ان الكلام غير المتكلم . وكذلك من قال ان كلام

الله له مقروء غير القرآن الذي تكلم به فخطؤه ظاهر ، وكذلك من من قال : ان القرآن الذي يقرؤه المسلمون غير المقروء الذي يقرؤه المسلمون فقد اخطأ .

وإن اراد بـ « القرآن » مصدر قرأ يقرأ قراءة وقرآناً ، وقال : أردت أن القراءة غير المقروء ؛ فلفظ القراءة مجمل ، قد يراد بالقراءة القرآن ، وقد يراد بالقراءة المصدر فمن جعل « القراءة » التى هي المصدر غير المقروء ، كما يجعل التكلم الذي هو فعله غير الكلام الذي هو يقوله ، وأراد بالغير أنه ليس هو إياه فقد صدق ، فان الكلام الذي يتكلم به الانسان يتضمن فعلا كالحركة ، ويتضمن ما يقترن بالفعل من الحروف والمعانى ؛ ولهذا يجعل القول قسيما للفعل تارة ، وقسما منه أخرى .

فالأول كما يقول : الايمان قول وعمل . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « ان الله تجاوز لامتى ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل به » ومنه قوله تعالى : (اليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه) . ومنه قوله تعالى : (وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل) وأمثال ذلك مما يفرق بين القول والعمل . وأما دخول القول فى العمل ففي مثل قوله تعالى : (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) . وقد فسروه بقول لا إله إلا الله ، ولما

سئل صلى الله عليـه وسلم أي الأعمال أفضل ؟ قال : « الايمان بالله »
مع قوله : « الايمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله ؛
وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » ونظائر ذلك متعددة .

وقد تنوزع فيمن حلف لا يعمل عملا إذا قال قولا كالقراءة ونحوها
هل يحنث ؟ على قولين فى مذهب احمد وغيره ، بناء على هذا .

فهذه الألفاظ التى فيها اجمال واشتباه إذا فصلت معانيها ، والا وقع
فيها نزاع واضطراب . والله سبحانه وتعالى أعلم .

وسئل

هل نفس المصحف هو نفس القرآن ، أم كتابته ؟ وما في صدور القراء هل هو نفس القرآن أو حفظه ؟

فأجاب : الواجب ان يطلق ما أطلقه الكتاب والسنة ، كقوله تعالى : (بل هو قرآن مجيد . في لوح محفوظ) وقوله : (انه لقرآن كريم ، فى كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون) وقوله : (والطور ، وكتاب مسطور ، فى رق منشور) وقوله : (يتلو صحفاً مطهرة ، فيها كتب قيمة) وقوله تعالى : (كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره ، فى صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدي سفرة ، كرام بررة) .

وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يسافر بالقرآن إلى أرض العدو » وقوله : « استذكروا القرآن ، فلهو أشد تفصياً من صدور الرجال من النعم فى عقلها » وكلاهما فى الصحيحين ، وقوله : « الجوف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب » قال الترمذي : حديث صحيح .

فمن قال : القرآن فى المصاحف والصدور فقد صدق ، ومن قال : فيها حفظه وكتابته فقد صدق ، ومن قال : القرآن مكتوب في المصاحف محفوظ في الصدور فقد صدق ، ومن قال : ان المداد أو الورق ، أو صفة العبد أو فعله ، أو حفظه وصوته قديم ، أو غير مخلوق فهو مخطىء ضال ، ومن قال : إنما في المصحف ليس هو كلام الله ، أو ما فى صدور القراء ليس هو كلام الله ، أو قال : إن القرآن العزيز لم يتكلم به الله ، ولكن هو مخلوق ، أو صنفه جبريل أو محمد ، وقال : إن القرآن فى المصاحف كما أن محمداً فى التوراة والانجيل ، فهو أيضاً مخطيء ضال . فان القرآن كلام ، والكلام نفسه يكتب فى المصحف.

بخلاف الأعيان ، فانه إنما يكتب اسمها وذكرها ، فالرسول مكتوب في التوراة والانجيل ذكره ونعته ، كما أن القرآن فى زبر الأولين ، وكما أن أعمالنا فى الزبر . قال تعالى : (وانه لفي زبر الأولين) وقال تعالى : (وكل شيء فعلوه فى الزبر) ومحمد مكتوب فى التوراة والانجيل ، كما أن القرآن في تلك الكتب ، وكما ان أعمالنا في الكتب وأما القرآن فهو نفسه مكتوب في المصاحف ، ليس المكتوب ذكره والخبر عنه ، كما يكتب اسم الله فى الورق ، ومن لم يفرق بين كتابة الأسماء والكلام ، وكتابة المسميات والأعيان — كما جرى لطائفة من الناس — فقد غلط غلطاً سوى فيه بين الحقائق المختلفة . كما قد

يجعل مثل هؤلاء الحقائق المختلفة شيئاً واحداً ، كما قد جعلوا جميع أنواع الكلام معنى واحداً .

وكلام المتكلم يسمع تارة منه ، وتارة من المبلغ . فالنبي صلى الله عليه وسلم لما قال : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر إليه » فهذا الكلام قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم بلفظه ومعناه ؛ فلفظه لفظ الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومعناه معنى الرسول . فاذا بلغه المبلغ عنه بلغ كلام الرسول بلفظه ومعناه ؛ ولكن صوت الصحابي المبلغ ليس هو صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فالقرآن كلام الله لفظه ومعناه ، سمعه منه جبريل ، وبلغه عن الله إلى محمد ؛ ومحمد سمعه من جبريل وبلغه إلى أمته ، فهو كلام الله حيث سمع وكتب وقرىء ، كما قال تعالى : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه) .

وكلام الله تكلم الله به بنفسه ، تكلم به باختياره وقدرته ، ليس مخلوقاً بائناً عنه ؛ بل هو قائم بذاته ، مع أنه تكلم به بقدرته ومشيئته ، ليس قائماً بدون قدرته ومشيئته .

والسلف قالوا : لم يزل الله تعالى متكلماً إذا شاء . فاذا قيل : كلام الله قديم ؛ بمعنى أنه لم يصر متكلماً بعد أن لم يكن متكلماً ، ولا كلامه مخلوق ، ولا معنى واحد قديم قائم بذاته ؛ بل لم يزل متكلماً إذا شاء فهذا كلام صحيح .

ولم يقل أحد من السلف إن نفس الكلام المعين قديماً . وكانوا يقولون : القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدا وإليه يعود . ولم يقل أحد منهم إن القرآن قديم ، ولا قالوا : ان كلامه معنى واحد قائم بذاته ، ولا قالوا : ان حروف القرآن أو حروفه وأصواته قديمة أزلية قائمة بذات الله ، وإن كان جنس الحروف لم يزل الله متكلماً بها إذا شاء ؛ بل قالوا : ان حروف القرآن غير مخلوقة ، وأنكروا على من قال : ان الله خلق الحروف .

وكان أحمد وغيره من السلف ينكرون على من يقول : لفظي بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق . يقولون : من قال هو مخلوق فهو جهمي ، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع ؛ فان « اللفظ » يراد به مصدر لفظ يلفظ لفظاً ، ويراد باللفظ الملفوظ به ، وهو نفس الحروف المنطوقة ، وأما أصوات العباد ومداد المصاحف فلم يتوقف أحد من السلف فى أن ذلك مخلوق ، وقد نص أحمد وغيره على ان صوت القارىء صوت العبد ، وكذلك غير أحمد من الأئمة . وقال أحمد : من

قال لفظي بالقرآن مخلوق يريد به القرآن فهو جهمي ، فالانسان وجميع صفاته مخلوق ، حركاته وأفعاله وأصواته مخلوقة ، وجميع صفاته مخلوقة ؛ فمن قال عن شيء من صفات العبد انها غير مخلوقة أو قديمة فهو مخطىء ضال ، ومن قال عن شيء من كلام الله أو صفاته إنه مخلوق فهو مخطىء ضال .

وأما أصوات العباد بالقرآن والمداد الذي فى المصحف فلم يكن أحد من السلف يتوقف فى ذلك ؛ بل كلهم متفقون ان أصوات العباد مخلوقة ، والمداد كله مخلوق . وكلام الله الذي يكتب بالمداد غير مخلوق ، قال الله تعالى : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً) .

وهذه المسائل قد بسط الكلام عليها ، وذكر أقوال الناس واضطرابهم فيها في مواضع أخر .

وقال قدس الله روحه

فصـــــل

والقرآن الذي بين لوحي المصحف متواتر : فان هذه المصاحف المكتوبة اتفق عليها الصحابة ، ونقلوها قرآنا عن النبي صلى الله عليه وسلم وهي متواترة من عهد الصحابة.، نعلم علماً ضروريا انها ما غيرت ، والقراءة المعروفة عن السلف الموافقة للمصحف تجوز القراءة بها بلا نزاع بين الأئمة ، ولا فرق عند الأئمة بين قراءة أبي جعفر ويعقوب ، وخلف ، وبين قراءة حمزة والكسائي ، وأبى عمرو ونعيم . ولم يقل أحد من سلف الأمة وأئمتها ان القراءة مختصة بالقراء السبعة .

فان هؤلاء : إنما جمع قراءاتهم أبو بكر ابن مجاهد بعد ثلاثمائة سنة من الهجرة ، واتبعه الناس على ذلك ، وقصد ان ينتخب قراءة سبعة من قراء الأمصار ، ولم يقل هو ولا أحد من الأئمة انما خرج عن هذه السبعة فهو باطل ، ولا أن قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » أريد به قراءة هؤلاء السبعة ؛ ولكن

هذه السبعة اشتهرت فى أمصار لا يعرفون غيرها ، كأرض المغرب . فاولئك لا يقرؤون بغيرها ؛ لعدم معرفتهم باشتهار غيرها .

فأما من اشتهرت عندهم هذه كما اشتهر غيرها ؛ مثل أرض العراق وغيرها فلهم أن يقرأوا بهذا وهذا ، والقراءة الشاذة مثل ما خرج عن مصحف عثمان ، كقراءة من قرأ : (الحي القيام) و (صراط من انعمت عليهم) و (إن كانت إلا زقية واحدة) (والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، والذكر والانثى) وأمثال ذلك .

فهذه إذا قرىء بها في الصلاة ففيها قولان مشهوران للعلماء ، هما روايتان عن الامام أحمد .

« أحدهما » تصح الصلاة بها ؛ لأن الصحابة الذين قرأوا بها كانوا يقرؤونها في الصلاة ، ولا ينكر عليهم .

« والثانى » لا ؛ لأنها لم تتواتر إلينا ، وعلى هذا القول فهل يقال : انها كانت قرآنا فنسخ ، ولم يعرف من قرأ [الا بنا] لناسخ ؟ أو لم تنسخ ، ولكن كانت القراءة بها جائزة لمن ثبتت عنده دون من لم تثبت ، أو لغير ذلك ، هذا فيه نزاع مبسوط فى غير هذا الموضع .

وأما من قرأ بقراءة أبي جعفر ويعقوب ونحوهما : فلا تبطل الصلاة بها باتفاق الأئمة ؛ ولكن بعض المتأخرين من المغاربة ذكر في ذلك كلاما وافقه عليه بعض من لم يعرف أصل هذه المسألة .

وقال شيخ الاسلام

ابن تيميه قدس الله روحه

وأما « الحروف » هل هي مخلوقة أو غير مخلوقة ؟ فالخلاف فى ذلك بين الخلف مشهور ، فاما السلف فلم ينقل عن أحد منهم ان حروف القرآن وألفاظه وتلاوته مخلوقة ، ولا ما يدل على ذلك ؛ بل قد ثبت عن غير واحد منهم الرد على من قال : إن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة . وقالوا : هو جهمي . ومنهم من كفره ، وفي لفظ بعضهم تلاوة القرآن ، ولفظ بعضهم الحروف .

وممن ثبت ذلك عنه أحمد بن حنبل ، وأبو الوليد الجارودي صاحب الشافعي ، واسحاق بن راهويه ، والحميدي ، ومحمد بن اسلم الطوسي ، وهشام بن عمار ، واحمد بن صالح المصري . ومن أراد الوقوف على نصوص كلامهم فليطالع الكتب المصنفة فى السنة ؛ مثل « الرد على الجهمية » للامام عبد الرحمن بن أبى حاتم ، وكتاب « الشريعة » للآجرى و « الابانة » لابن بطة ، و « السنة » للالكائى ، و « السنة » للطبرانى

وغير ذلك من الكتب الكثيرة ، ولم ينسب أحد منهم إلى خلاف ذلك ، إلا بعض أهل الغرض نسب البخاري إلى أنه قال ذلك . وقد ثبت عنه بالاسناد المرضي أنه قال : من قال عني أني قلت لفظي بالقرآن مخلوق فقد كذب . وتراجمه في آخر صحيحه تبين ذلك .

وهنا ثلاثة أشياء :

« أحدها » حروف القرآن التى هي لفظه قبل أن ينزل بها جبريل . وبعد ما نزل بها ، فمن قال : إن هذه مخلوقة فقد خالف إجماع السلف ، فانه لم يكن فى زمانهم من يقول هذا ، الا الذين قالوا : ان القرآن مخلوق ، فان اولئك قالوا بالخلق للالفاظ ؛ الفاظ القرآن ، وأما ما سوى ذلك فهم لا يقرون بثبوته ، لا مخلوقا ولا غير مخلوق ، وقد اعترف غير واحد من فحول أهل الكلام بهذا : منهم عبد الكريم الشهرستانى مع خبرته بالملل والنحل ، فانه ذكر ان السلف مطلقاً ذهبوا إلى أن حروف القرآن غير مخلوقة ، وقال : ظهور القول بحدوث القرآن محدث ، وقرر مذهب السلف فى كتابه المسمى بـ « نهاية الكلام » .

« الثاني » أفعال العباد . وهي حركاتهم التى تظهر عليها التلاوة . فلا خلاف بين السلف ان أفعال العباد مخلوقة ؛ ولهذا قيل : إنه بدع

اكثرهم من قال : لفظي بالقرآن مخلوق ؛ لأن ذلك قد يدخل فيه فعله .

« الثالث » التلاوة الظاهرة من العبد عقيب حركة الآية ، فهذه منهم من يصفها بالخلق ، وأول من قال ذلك — فيما بلغنا — حسين الكرابيسي ، وتلميذه داود الاصبهاني، وطائفة ؛ فأنكر ذلك عليهم علماء السنة فى ذلك الوقت ، وقالوا فيهم كلاما غليظا ، وجمهورهم — وهم اللفظية عند السلف — الذين يقولون : لفظنا بالقرآن مخلوق . أو القرآن بالفاظنا مخلوق ، ونحو ذلك .

وعارضهم طائفة من أهل الحديث والسنة كثيرون ، فقالوا : لفظنا بالقرآن غير مخلوق ، والذي استقرت عليه نصوص الامام احمد وطبقته من اهل العلم :أن من قال : لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع ، هذا هو الصواب عند جماهير أهل السنة، ان لا يطلق واحد منها ، كما عليه الامام أحمد وجمهور السلف ؛ لأن كل واحد من الاطلاقين يقتضى إيهاما لخطأ ؛ فان أصوات العباد محدثة بلا شك ، وان كان بعض من نصر السنة ينفي الخلق عن الصوت المسموع من العبد بالقرآن ، وهو مقدار ما يكون من القرآن المبلغ .

فان جمهور أهل السنة انكروا ذلك وعابوه ، جريا على منهاج احمد

وغيره من أئمة الهـدى ، وقال النبي صلى الله عليـه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » .

وأما التلاوة في نفسها التى هي حروف القرآن والفاظه ، فهي غير مخلوقة ، والعبـد إنما يقرأ كلام الله بصوته ، كما انـه إذا قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » فهذا الكلام لفظه ومعناه إنما هو كلام رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ، وهو قد بلغه بحركته وصوته ، كذلك القرآن لفظه ومعناه كلام الله تعالى ؛ ليس للمخلوق فيه إلا تبليغه وتأديته وصوته ، وما يخفى على لبيب الفرق بين التلاوة فى نفسها ؛ قبل ان يتكلم بها الخلق ، وبعد أن يتكلموا بها ، وبين ما للعبد في تـلاوة القرآن من عمل وكسب ، وإنما غلط بعض الموافقين والمخالفين ، فجعلوا البابين بابا واحـداً ، وأرادوا أن يستدلوا عـلى نفس حدوث حروف القرآن بما دل على حدوث أفعال العباد وما تولد عنها ، وهذا من أقبح الغلط ، وليس فى الحجج العقلية ، ولا السمعية ما يدل على حدوث نفس حروف القرآن ، إلا من جنس ما يحتج بـه على حدوث معانيـه . والجواب عن الحجج مثل الجواب عن هـذه لمن استهدى الله فهداه .

وأما ما ذكره من آيات الصفات وأحاديثها : فمذهب سلف الأمـة من الصحابة والتابعين ، وسائر الأئمة المتبوعـين الاقرار والامرار . قال

أبو سليمان الخطابي ، وأبو بكر الخطيب : مذهب السلف في آيات الصفات ، وأحاديث الصفات ، اجراؤها على ظاهرها مع نفي الكيفية ، والتشبيه عنها . وقالا في ذلك : ان الكلام في الصفات فرع على الكلام في الذات ، يحتذى فيه حذوه ، ويتبع فيه مثاله ، فاذا كان إثبات ذاته إثبات وجود لا إثبات كيفية : فكذلك إثبات صفاته إثبات وجود لا إثبات كيفية ، فلا نقول : إن معنى اليد القدرة ، ولا ان معنى السمع العلم ، هذا كلامها .

وقال بعضهم : إذا قال لك الجهمي : كيف ينزل إلى سماء الدنيا ؟ فقل له : كيف هو في نفسه ؟ فان قال : نحن لا نعلم كيفية ذاته . فقل : ونحن لا نعلم كيفية صفاته ، وكيف نعلم كيفية صفة ، ولا نعلم كيفية موصوفها .

ومن فهم من صفات الله تعالى ما هو مستلزم للحدوث ، مجانس لصفات المخلوقين ، ثم أراد ان ينفي ذلك عن الله فقد شبه وعطل ؛ بل الواجب ان لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ، لا نتجاوز القرآن والحديث . وان نعلم مع ذلك ان الله تعالى ليس كمثله شيء ، لا في نفسه ، ولا في أوصافه ، ولا في أفعاله ، وان الخلق لا تطيق عقولهم كنه معرفته ، ولا تقدر ألسنتهم على بلوغ صفته (سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين) وصلى الله على محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

وسئل رحمه الله

عمن يقول : إن الشكل والنقط من كلام الله تبارك وتعالى ، وهل ذلك حق أم باطل ؟ وما الحكم فى الأحرف ؟ هل هي كلام الله أم لا ؟ بينوا لنا ذلك مثابين مأجورين ؟.

فأجاب : الحمد لله رب العالمين . المصاحف التى كتبها الصحابة لم يشكلوا حروفاً ، ولم ينقطوها ؛ فانهم كانوا عرباً لا يلحنون ، ثم بعـد ذلك فى أواخر عصر الصخابة لما نشأ اللحن صاروا ينقطون المصاحف ويشكلونها وذلك جائز عند أكثر العلماء ، وهو إحدى الروايتين عن أحمد ، وكرهه بعضهم ، والصحيح أنه لا يكره ؛ لأن الحاجة داعية إلى ذلك ، ولا نزاع بين العلماء ان [حكم] الشكل والنقط حكم الحروف المكتوبة ؛ فان النقط تميز بين الحروف ، والشكل يبـين الاعراب ، لأنه كلام من تمام الكلام . ويروى عن أبي بكر وعمر أنهما قالا : « إعراب القرآن أحب الينا من حفظ بعض حروفه » فاذا قرأ القارىء (الحمد لله رب العـالمين) كانت الضمة والفتحة والكسرة من تمام لفظ القرآن .

وإذا كان كذلك فالمداد الذي يكتب به الشكل والنقط كالمداد الذي

يكتب به الحروف ، والمداد كله مخلوق ، ليس منه شيء غير مخلوق . والصوت الذي يقرأ به الناس القرآن هو صوت العباد ؛ لكن الكلام كلام الله تعالى ، قال تعالى : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » فالكلام كلام الباري ، والصوت صوت القارىء ، وهذا ليس هو الصوت الذي ينادي الله به عباده ، ويسمعه موسى وغيره ، كما دل على ذلك الكتاب والسنة .

وكلام الله غير مخلوق عند سلف الأمة وأئمتها ، وهو أيضاً يتكلم بمشيئته وقدرته عندهم ، لم يزل متكلما إذا شاء فهو قديم النوع ، وأما نفس « النداء » الذي نادى به موسى ونحو ذلك فحينئذ ناداه به ، كما قال تعالى : (فلما أتاها نودي ياموسى) ، وكذلك نظائره ، فكان السلف يفرقون بين نوع الكلام وبين الكلمة المعينة . قال تعالى : (قل : لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً) . وكلام الله وما يدخل في كلامه من ندائه . وغير ذلك ليس بمخلوق بائن منه ، بل هو منه ، والقرآن سمعه جبرئيل من الله ، ونزل به إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) وقال تعالى : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) وقال تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) ونحو ذلك .

والنبي صلى الله عليه وسلم بلغه إلى الأمة ، والمسلمون يسمعه بعضهم من بعض ، وليس ذلك كسماع موسى كلام الله ، فانه سمعه بلا واسطة والذي يقرؤه المسلمون ويكتبونه فى مصاحفهم هو كلام الله لا كلام غيره وهم يقرؤونه بأصواتهم ، ويكتبونه بمدادهم فى ورقهم . وأفعالهم ، وأصواتهم ، ومدادهم ، مخلوق .

والقرآن الذي يقرؤونه ويكتبونه هو كلام الله تعالى غير مخلوق ، سواء قرؤوه قراءة يثابون عليها ، او لا يثابون عليها ، وسواء كتبوه مشكولا منقوطا او كتبوه غير مشكول ولا منقوط ؛ فان ذلك لا يخرجه عن أن يكون المكتوب هو القرآن ، وهو كلام الله الذي أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، وما بين اللوحين كلام الله ، سواء كان مشكولا منقوطاً ، او كان غير مشكول ولا منقوط ، وكلام الله منزل غير مخلوق ، وأصوات العباد والمداد مخلوقان . والقرآن العربي كلام الله تكلم به ليس بعضه كلام الله وبعضه ليس كلام الله ، وليس لجبريل ولا لمحمد منه إلا التبليغ ، لم يحدث واحد منهما شيئاً من حروفه ؛ بل الجميع كلام الله تبارك وتعالى .

وهذه « المسائل » مبسوطة فى غير هذا الجواب ؛ ولكن هذا قدر ما وسعته هذه الورقة . والله أعلم .

وقال شيخ الاسلام رحمه الله

فصـــــل

الـكلام فى « القرآن » و « الـكلام » هل هو حرف وصوت ، أم ليس بحرف وصوت محدث : حدث فى حدود المائة الثالثة ، وانتشر في المائة الرابعـة ؛ فان أبا سعيد بن كـلاب ثم أبا الحسن الاشعري ونحوهما لما ناظروا المعتزلة فى إثبات الصفات ، وأن القرآن ليس بمخلوق ورأوا أن ذلك لا يتم إلا إذا كان القرآن قديماً ، وأنـه لا يمكن أن يكون قديماً إلا أن يكون معنى قائماً بنفس الله كعلمه ، وزادوا أن الله لا يتكلم بصوت ، ولا لغـة ، لا قديم ولا غير قديم ، لمـا رأوه من امتناع قيـام أمر حادث به ، وخالفوا فى ذلك جمهور المسلمين : من أهل الحديث ، والفقـه ، والـكلام والتصوف ، وإن تنوعت مآخذهم فان الآثار شاهدة بأن الله يتكلم بصوت .

ولهذا جهم الامام أحمد وغيره من أنكر ذلك . قال عبد الله بن أحمـد : قلت لأبى : ان أقواما يقولون : إن الله لا يتكلم بصوت .

فقال : هؤلاء جهمية ؛ إنما يدورون على التعطيل ، وذكر حديث ابن مسعود ، وكذلك رواه غير واحد عن أحمد . وكذلك البخاري ترجم في صحيحه بابا في قوله : (حتى إذا فزع عن قلوبهم) بين فيه الحجة على أن الله يتكلم بصوت . وكذلك المصنفون في السنة من أئمة الحديث وهم كثير ، وكذلك أئمة الصوفية ، كالحارث المحاسبي ، وأبي الحسن بن سالم وغيرهما ، وكذلك الفقهاء من جميع الطوائف : المالكية ، والشافعية والحنفية ، والحنبلية ، المصنفون في أصول الفقه ، يقررون أن الأمر والنهي ، والخبر ، والعموم له صيغ موضوعة في اللغة تدل بمجردها على أنها أمر ونهي ، وخبر ، وعموم ، ويذكرون خلاف الأشعرية في أن الأمر لا صيغة له .

ثم المثبتون للصوت منهم المعتزلة ، الذين يقولون : القرآن مخلوق يقولون كلامه صوت قائم بغيره ، ومنهم الكرامية ، وطوائف من أهل الحديث من الحنبلية ، وغيرهم ، يقولون : يتكلم بصوت قائم به ، لكن ليس الصوت بقديم .

ومنهم طائفة من متكلمة أهل السنة من الحنبلية وغيرهم يقولون : يتكلم بصوت قديم قائم به .

ومنهم طائفة من الفقهاء من الحنفية وغيرهم ، يقولون : يخاطب

بصوت قائم بغيره ، والمعنى قديم قائم به .

فلما أظهرت الأشعرية — كالقاضي أبى بكر بن الباقلانى وغـيره فى أواخر المائة الرابعة — ان الـكلام ليس بحرف ، ولا صوت ، ولا لغة ، وقد تبعهم قوم من الفقهاء من أصحاب مالك ، والشافعي ، وأبى حنيفة ، وقليل من أصحـاب أحمد رأى أهل الحديث ، وجمهور أهل السنة من الفقهاء وأهـل الحديث ما فى ذلك من البدعـة ؛ فأظهروا خلاف ذلك ، وأطلق من أطلق منهم أن كلام الله حرف وصوت [1] .

---

(١) بياض بالاصل مقدار خمسة اسطر تقريبا .

سئل رحمه الله

عن رجلين تباحثا ، فقال أحدهما : القـرآن حرف وصوت . وقال الآخر : ليس هو بحرف ولا صوت ، وقال أحـدهما : النقط التى فى المصحف والشكل من القرآن ، وقال الآخر : ليس ذلك مـن القرآن ، فما الصواب فى ذلك ؟

فأجاب رضي الله عنه : الحمد لله رب العالمين . هـذه « المسألة » يتنازع فيها كثير من الناس ويخلطون فيها الحق بالباطل ، فالذي قال : ان القرآن حرف وصوت إن أراد بذلك ان هـذا القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله الذي نزل به الروح الأمـين على محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين والمرسلين ، وان جبريل سمعه من الله والنبي صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل ، والمسلمون سمعوه مـن النبي صـلى الله عليه وسـلم كما قال تعـالى : (قل نزله روح القدس من ربك بالحق) وقال : (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل مـن ربك بالحق) فقد أصاب فى ذلك ؛ فان هذا مذهب سلف الأمة وأئمتهـا ، والدلائل على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة والاجماع .

ومن قال : إن القـرآن العربي لم يتكلم الله به وإنمـا هو كلام جـبريل أو غـيره عبر به عن المعنى القـائم بذات الله ، كما يقـول ذلك ابن كلاب والأشعري ومن وافقهما فهو قول باطل من وجوه كثيرة .

فان هؤلاء يقولون : انه معنى واحد قائم بالذات ، وان معنى التوراة والانجيل والقرآن واحد ، وانه لا يتعدد ولا يتبعض ، وأنه ان عبر عنه بالعربية كان قرآناً . وبالعبرانيـة كان توراة ، وبالسريانية كان انجيـلا ، فيجعلون معنى آية الكرسي وآية الدين و (قل هو الله أحد) و (تبت يدا أبي لهب) ، والتوراة والانجيل وغيرها معنى واحداً ، وهذا قول فاسد بالعقل والشرع ، وهو قول أحدثه ابن كلاب لم يسبقه إليه غيره من السلف .

وان أراد القـائل بالحرف والصوت أن الاصوات المسموعة من القراء ، والمداد الذي فى المصاحف قديم أزلي ، أخطأ وابتدع ، وقال ما يخـالف العقل والشرع ؛ فان النبي صلى الله عليـه وسلم قال « زينوا القرآن بأصواتكم » فبين أن الصوت صوت القارىء ، والـكلام كلام البارىء ، كما قال تعالى : (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) فالقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الله لا كلام غيره كما ذكر الله ذلك ، وفي السنن عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليـه وسلم كان يعرض نفسـه على النـاس بالموسم فيقول :

« ألا رجل يحملني إلى قومه لأبلغ كلام ربي ، فان قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي » وقالوا لأبي بكر الصديق لما قرأ عليهم : (الم غلبت الروم) أهـذا كلامك أم كلام صاحبك ؟ فقـال : ليس بكلامي ولا كلام صاحبي ؛ ولكنه كلام الله تعالى .

والناس إذا بلغوا كلام النبي صلى الله عليـه وسلم كقوله : « إنما الأعمال بالنيات » فان الحديث الذي يسمعونه حديث النبي صلى الله عليه وسلم تكلم به بصوته وبحروفه ومعانيه ، والمحدث بلغه عنه بصوت نفسه لا بصوت النبي صلى الله عليه وسلم . فالقرآن أولى أن يكون كلام الله إذا بلغته الرسل عنه ، وقرأته الناس باصواتهم .

والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه بصوت نفسـه ، ونادى موسى بصوت نفسه ؛ كما ثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف ، وصوت العبد ليس هو صوت الرب ولا مثل صوته ؛ فان الله ليس كمثله شي : لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله .

وقد نص أئمة الاسلام أحمد ومن قبله من الأئمة على ما نطق به الكتاب والسنة من ان الله ينادي بصوت ، وان القرآن كلامـه تكلم به بحرف وصوت ليس منـه شيء كلاما لغيره ، لا جبريل ولا غـيره ، وان العباد يقرؤونه بأصوات أنفسهم وأفعالهم . فالصوت المسموع من العبد

صوت القاريء والكلام كلام الباريء .

وكثير من الخائضين في هذه المسألة لا يميز بين صوت العبد وصوت الرب ؛ بل يجعل هذا هو هذا فينفيها جميعا أو يثبتها جميعاً ، فاذا نفى الحرف والصوت نفى أن يكون القرآن العربى كلام الله ، وأن يكون مناديا لعباده بصوته ، وأن يكون القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله كما نفى أن يكون صوت العبد صفة لله عز وجل ، ثم جعل كلام الله المتنوع شيئاً واحداً لا فرق بين القديم والحادث ، هو مصيب في هذا الفرق دون ذاك الثانى الذي فيه نوع من الالحاد والتعطيل ، حيث جعل الكلام المتنوع شيئاً واحداً لا حقيقة له عند التحقيق .

وإذا ثبت جعل صوت الرب هو صوت العبد أو سكت عن التمييز بينها مع قوله ان الحروف متعاقبة فى الوجود مقترنة فى الذات قديمة أزلية الأعيان فجعل عين صفة الرب تحل فى العبد أو تتحد بصفته ، فقال بنوع من الحلول والاتحاد يفضي إلى نوع من التعطيل

وقد علم ان عدم الفرق والمباينة بين الخالق وصفاته والمخلوق وصفاته خطأ وضلال لم يذهب اليه أحد من سلف الامة وأئمتها ؛ بل هم متفقون على التمييز بين صوت الرب وصوت العبد ، ومتفقون أن الله تكلم بالقرآن الذي أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم حروفه ومعانيه

وأنه ينادي عبـاده بصوته ، ومتفقون على ان الأصوات المسموعـة من القراء أصوات العباد ، وعلى أنه ليس شيء من أصوات العبـاد ولامداد المصاحف قـديماً ، بل القرآن مكتوب فى مصـاحف المسلمين مقروء بألسنتهم محفوظ بقلوبهم وهو كله كلام الله . والصحابة كتبوا المصاحف لما كتبوها بغير شكل ولا نقط ، لأنهم كانوا عربا لا يلحنون ، ثم لما حدث اللحن نقط الناس المصاحف وشكلوها ، فان كتبت بلا شـكل ولا نقط جاز ، وإن كتبت بنقط وشكل جاز ولم يكره فى أظهر قولي العلماء ، وهو إحدى الروايتين عن أحمد .

وحكم « النقط والشكل » حكم الحروف ، فان الشكل يبين إعراب القرآن كما يبين النقـط الحروف . والمـداد الذي يكتب به الحروف ويكتب به الشكل والنقط مخلوق ، وكلام الله العربى الذي أنزله وكتب في المصاحف بالشكل والنقط وبغير شكل ونقط ليس بمخلوق ، وحكم الاعراب حكم الحروف ؛ لكن الأعراب لا يستقل بنفسه بل هـو تابـع للحروف المرسومة ؛ فلهذا لا يحتاج لتجريدها وإفرادها بالـكلام ؛ بـل القرآن الذي يقرؤه المسلمون هو كلام الله : معانيه وحروفه ، وإعرابه ، والله تكلم بالقرآن العربي الذي أنزله على محمد صـلى الله عليه وسلم والناس يقرءونه بأفعالهم وأصواتهم . والمكتوب فى مصاحف المسلمين هو كلام الله ، وهو القرآن العربي الذي أنزل على نبيه : سواء كتب

بشكل ونقط أو بغير شكل ونقط ، والمداد الذي كتب بـه القرآن ليس بقديم ؛ بل هو مخلوق ، والقرآن الذي كتب في المصحف بالمداد هو كلام الله منزل غير مخلوق ، والمصاحف يجب احترامها باتفاق المسلمين ؛ لأن كلام الله مكتوب فيها ، واحترام النقط والشكل إذا كتب المصحف مشكلا منقوطاً كاحترام الحروف باتفاق علماء المسلمين كما ان حرمة إعراب القرآن كحرمة حروفه المنقوطة باتفاق المسلمين . ولهذا قال أبو بكر وعمر رضي الله عنهما : حفظ إعراب القرآن أحب الينا من حفظ بعض حروفه .

والله تكلم بالقرآن بحروفه ومعانيه ، فجميعه كلام الله ، فلا يقال بعضه كلام الله وبعضه ليس بكلام الله ، وهو سبحانه نادى موسى بصوت سمعه موسى ، فانه قد أخبر انه نادى موسى في غير موضع من القرآن كما قال تعالى : (هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى) والنداء لا يكون إلا صوتا باتفاق أهل اللغة ، وقد قال تعالى : (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داود زبورا ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليما) فقد فرق الله بين إيحائه إلى النبيين وبين تكليمه لموسى ،

فمن قال : ان موسى لم يسمع صوتا ؛ بل الهم معناه لم يفرق بين موسى وغيره ، وقد قال تعالى : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ، ورفع بعضهم درجات) وقال تعالى : (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء) فقد فرق بين الايحاء والتكلم من وراء حجاب كما كلم الله موسى ، فمن سوى بين هذا وهذا كان ضالا .

وقد قال الامام أحمد رضي الله عنه وغيره من الأئمة : لم يزل الله متكلما إذا شاء . وهو يتكلم بمشيئته وقدرته ، يتكلم بشيء بعد شيء ، كما قال تعالى : (فلما أتاها نودي ياموسى) فناداه حين أتاها ولم يناده قبل ذلك ، وقال تعالى : (فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين ؟!) فهو سبحانه ناداهما حين أكلا منها ولم ينادهما قبل ذلك ، وكذلك قال تعالى : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) بعد أن خلق آدم وصوره ، ولم يأمرهم قبل ذلك ، وكذا قوله : (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ، ثم قال له كن فيكون) فأخبر انه قال له كن فيكون بعد أن خلقه من تراب ، ومثل هذا الخبر فى القرآن كثير : يخبر انه تكلم فى وقت معين ، ونادى فى وقت معين . وقد

ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم انه لما خرج إلى الصفا قرأ قوله تعالى : (ان الصفا والمروة من شعائر الله) وقال : « نبدأ بما بدأ الله به » فأخبر ان الله بدأ بالصفا قبل المروة .

والسلف اتفقوا على ان كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود . فظن بعض الناس ان مرادهم انه قديم العين ، ثم قالت طائفة : هو معنى واحد ، هو الأمر بكل مأمور ، والنهي عن كل منهي ، والخبر بكل مخبر ، إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً ، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة ، وإن عبر عنه بالسريانية كان انجيلا . وهذا القول مخالف للشرع والعقل .

وقالت طائفة : هو حروف وأصوات قديمة الاعيان لازمة لذات الله لم تزل لازمة لذاته ، وإن الباء والسين والميم موجودة مقترنة بعضها ببعض معاً أزلا وأبداً لم تزل ولا تزال لم يسبق منها شيء شيئاً . وهذا أيضاً مخالف للشرع والعقل .

وقالت طائفة : ان الله لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، وانه في الازل كان متكلما بالنداء الذي سمعه موسى ، وإنما تجدد استماع موسى لا أنه ناداه حين أتى الوادي المقدس ؛ بل ناداه قبل ذلك بما لا يتناهى ، ولكن تلك الساعة سمع النداء . وهؤلاء وافقوا الذين قالوا ان القرآن

مخلوق فى أصل قولهم . فان أصل قولهم ان الرب لا تقوم به الامور الاختيارية . فلا يقوم به كلام ، ولا فعل باختياره ومشيئته ، وقالوا : هـذه حوادث ، والرب لا تقوم به الحوادث . فخـالفوا صحيح المنقول وصريح المعقول . واعتقدوا انهم بهذا يردون على الفلاسفة ، ويثبتون حدوث العالم ، وأخطأوا فى ذلك ، فلا للاسلام نصروا ، ولا للفلاسفة كسروا ، وادعوا ان الرب لم يكن قادراً فى الازل على كلام يتـكلم به ولا فعل يفعله ، وانه صار قادراً بعد ان لم يكن قادراً بغير أمر حدث ، او يغيرون العبارة فيقولون : لم يزل قادراً ؛ لكن يقولون : ان المقدور كان ممتنعاً ، وان الفعل صار ممكناً له بعد أن صار ممتنعاً عليـه من غير تجدد شيء .

وقد يعبرون عن ذلك بأن يقولوا : كان قادراً في الأزل عـلى ما يمكن ثيبا لا يزال ، لا على مالا يمكن في الأزل ، فيجمعون بين النقيضين . حيث يثبتونه قادراً في حال كون المقدور عليـه ممتنعاً عندهم ، ولم يفرقوا بين نوع الكلام والفعل وبين عينه ، كما لم يفرق الفلاسفة بـين هـذا وهذا ؛ بل الفلاسفة ادعوا ان مفعوله المعين قديم بقدمه ، فضـلوا في ذلك وخالفوا صريح المعقول وصحيح المنقول ؛ فان الادلة لاتدل عـلى قدم شيء بعينه من العالم بل تدل على ان ما سوى الله مخلوق حادث بعد ان لم يكن ؛ إذ هو فاعل بقدرته ومشيئته كما تدل عـلى ذلك الدلائل

القطعية ، والفاعل بمشيئته لا يكون شيء من مفعوله لازما لذاته بصريح العقل واتفاق عامة العقلاء ؛ بل وكل فاعل لا يكون شـيء من مفعوله لازماً لذاته ، ولا يتصور مقارنة مفعوله المعين له ، ولو قدر انـه فاعل بغير ارادة فكيف بالفاعل بالارادة .

وما يذكر بأن المعلول يقارن علته انما يصح فيما كان من العلـل يجري مجرى الشروط فان الشرط لا يجب ان يتقدم على المشروط بل قـد يقارنه كما تقارن الحياة العلم ، وأمـا ما كان فاعـلا سواء سمي علة أو لم يسم علة فلا بد ان يتقدم على الفعل المعين ، والفعل المعين لا يجوز ان يقارنه شيء من مفعولاته ، ولا يعرف العقلاء فاعلا قط يلزمـه مفعول معين . وقول القائل حركت يدي فتحرك الخاتم هو من باب الشرط لامن باب الفاعل ؛ ولأنه لو كان العالم قديماً لكان فاعله موجباً بذاته فى الأزل ولم يتأخر عنه موجبـه ومقتضاه ، ولو كان كذلك لم يحـدث شيء من الحوادث ، وهذا خلاف المشاهدة .

وان كان هو سبحانه لم يزل قادراً على الكلام والفعل ؛ بل لم يزل متكلما إذا شـاء فاعـلا لمـا يشاء ، ولم يزل موصوفاً بصفات الكمال ، منعوتاً بنعوت الجلال والاكرام ، والعالم فيه من الاحكام والاتقان مادل عـلى علم الرب ، وفيه من الاختصاص مادل على مشيئته ، وفيه من الاحسان مادل على رحمته ، وفيه من العواقب الحميـدة مادل على حكمته ، وفيه

من الحوادث مادل على قــدرة الرب تعــالى ، مــع ان الرب مستحق لصفات الـكمال لذاته ؛ فانــه مستحق لـكل كمال ممكن الوجود لا نقص فيــه ، منزه عن كل نقص ، وهو سبحانــه ليس له كفؤ في شــيء من أموره ، فهو موصوف بصفات الكمال على وجه التفصيل منزه فيها عن التشبيه والتمثيل ، ومنزه عن النقائص مطلقاً ؛ فان وصفه بها من اعظم الاباطيل ، وكماله من لوازم ذاته المقدسة لا يستفيده من غيره بل هو المنعم على خلقه بالخلق والانشاء وما جعله فيهــم من صفات الأحيــاء ، وخالق صفات الكمال أحق بها ، ولا كفؤ له فيها

وأصل اضطراب الناس فى « مسألة كلام الله » ان الجهمية والمعتزلة لما ناظرت الفلاسفة فى « مسألة حدوث العالم » اعتقدوا ان ما يقوم به من الصفات والأفعال المتعاقبة لا يكون إلا حادثا بناء على أن مالا يتناهى لا يمكن وجوده ، والتزموا ان الرب كان فى الأزل غــير قادر عــلى الفعل والكلام ؛ بل كان ذلك ممتنعاً عليه . وكان معطلا عن ذلك ، وقد يعبرون عن ذلك بانه كان قادراً فى الأزل على الفعل فيما لا يزال مــــع امتناع الفعل عليه فى الأزل ، فيجمعون بين النقيضين حيث يصفونه بالقــدرة في حال امتناع المقــدور لذاتــه ؛ إذ كان الفعل يستـــلزم أن يكون له أول والأزل لا أول له والجمــع بــين اثبات الأوليــة ونفيها جمـــع بين النقيضين .

ولم يهتدوا إلى الفرق بين ما يستلزم الأولية والحدوث وهو الفعل المعين والمفعول المعين ، وبين ما لا يستلزم ذلك وهو نوع الفعل والكلام ؛ بل هذا يكون دائماً وإن كان كل من آحاده حادثاً ، كما يكون دائما في المستقبل ، وإن كان كل من آحاده فانيا ، بخلاف خالق يلزمه مخلوقه المعين دائماً فان هذا هو الباطل فى صريح العقل وصحيح النقل ؛ ولهذا اتفقت فطر العقلاء على إنكار ذلك لم ينازع فيه إلا شرذمة من المتفلسفة كابن سينا وأمثاله الذين زعموا أن الممكن المفعول قد يكون قديماً واجب الوجود بغيره ، فخالفوا فى ذلك جماهير العقلاء مع مخالفتهم لسلفهم أرسطو وأتباعه ؛ فانهم لم يكونوا يقولون ذلك ، وإن قالوا بقدم الأفلاك ، وأرسطو أول من قال بقدمها من الفلاسفة المشائين ، بناء على إثبات علة غائية لحركة الفلك يتحرك الفلك للتشبه بها ، لم يثبتوا له فاعلا مبدعا ، ولم يثبتوا ممكناً قديما واجبا بغيره ، وهم وإن كانوا أجهل بالله واكفر من متأخريهم فهم يسلمون لجمهور العقلاء ان ما كان ممكنا بذاته فلا يكون إلا محدثاً مسبوقا بالعدم ، فاحتاجوا أن يقولوا كلامه مخلوق منفصل عنه .

وطائفة وافقتهم على امتناع وجود ما لا نهاية له ؛ لكن قالوا تقوم به الأمور الاختيارية فقالوا إنه فى الأزل لم يكن متكلماً بل ولا كان الكلام مقدوراً له ثم صار متكلماً بلا حدوث حادث بكلام يقوم به ، وهو قول الهاشمية والكرامية وغيرهم .

وطائفة قالت إذا كان القرآن غير مخلوق فلا يكون الا قديم العين لازماً لذات الرب ، فلا يتكلم بمشيئته وقدرته ، ثم منهم من قال : هو معنى واحد قديم ، فجعل آية الكرسي وآية الدين وسائر آيات القرآن والتوراة والانجيل وكل كلام يتكلم الله به معنى واحداً لا يتعدد ولا يتبعض ، ومنهم من قال : انه حروف وأصوات مقترنة لازمة للذات .

وهؤلاء أيضاً وافقوا الجهمية والمعتزلة في أصل قولهم انه متكلم بكلام لا يقوم بنفسه ومشيئته وقدرته ، وأنه لا تقوم به الأمور الاختيارية ، وأنه لم يستو على عرشه بعد أن خلق السموات والأرض ، ولا يأتي يوم القيامة ، ولم يناد موسى حين ناداه ، ولا تغضبه المعاصي ولا ترضيه الطاعات ولا تفرحه توبة التائبين . وقالوا في قوله : (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) ونحو ذلك : إنه لا يراها إذا وجدت ؛ بل إما أنه لم يزل رائياً لها ، وإما أنه لم يتجدد شيء موجود بل تعلق معدوم ، إلى أمثال هذه المقالات التى خالفوا فيها نصوص الكتاب والسنة مع مخالفة صريح العقل .

والذي الجأهم لذلك موافقتهم للجهمية على أصل قولهم في أنه سبحانه لا يقدر في الأزل على الفعل والكلام وخالفوا السلف والأئمة فى قولهم : لم يزل الله متكلماً إذا شاء ثم افترقوا أحزاباً أربعة كما تقدم : الخلقية ، والحدوثية ، والاتحادية ، والاقترانية .

وشر من هؤلاء الصابئة والفلاسفة الذين يقولون : إن الله لم يتكلم لا بكلام قائم بذاته ، ولا بكلام يتكلم به بمشيئته وقدرته : لا قديم النوع ، ولا قديم العين ، ولا حادث ، ولا مخلوق ؛ بل كلامه عندهم ما يفيض على نفوس الأنبياء . ويقولون إنه كلم موسى من سماء عقله ، وقد يقولون : انه تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات ؛ فانه إنما يعلمها على وجه كلي ، ويقولون مع ذلك : انه يعلم نفسه ويعلم ما يفعله .

وقولهم يعلم نفسه ومفعولاته حق ، كما قال تعالى : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) ؛ لكن قولهم مع ذلك : انه لا يعلم الأعيان المعينة جهل وتناقض فان نفسه المقدسة معينة ، والأفلاك معينة ، وكل موجود معين . فان لم يعلم المعينات لم يعلم شيئاً من الموجودات ، إذ الكليات إنما تكون كليات فى الأذهان لا في الأعيان ، فمن لم يعلم إلا الكليات لم يعلم شيئاً من الموجودات . تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وهم إنما ألجأهم الى هذا الالحاد فرارهم من تجدد الأحوال للباري تعالى ، مع ان هؤلاء يقولون ان الحوادث تقوم بالقديم ، وان الحوادث لا أول لها ؛ لكن نفوا ذلك عن الباري لاعتقادهم انه لا صفة له ؛ بل هو وجود مطلق ، وقالوا : ان العلم نفس عين العالم ، والقدرة نفس عين القادر ، والعلم والعالم شيء واحد ، والمريد والارادة

شيء واحد ، فجعلوا هذه الصفة هي الأخرى ، وجعلوا الصفات هي الموصوف .

ومنهم من يقول بل العلم كل المعلوم كما يقوله الطوسي صاحب « شرح الاشارات » فانه أنكر على ابن سينا اثباته لعلمه بنفسه وما يصدر عن نفسه ، وابن سينا أقرب الى الصواب لكنه تناقض مع ذلك حيث نفى قيام الصفات به ، وجعل الصفة عين الموصوف وكل صفة هي الأخرى .

ولهذا كان هؤلاء هم أوغل في الاتحاد والالحاد ممن يقول معاني الكلام شيء واحد ؛ لكنهم ألزموا قولهم لأولئك ، فقالوا : إذا جاز أن تكون المعاني المتعددة شيئاً واحداً جاز أن يكون العلم هو القدرة ، والقدرة هي الارادة . فاعترف حذاق أولئك بأن هذا الالزام لا جواب عنه .

ثم قالوا : وإذا جاز أن تكون هذه الصفة هي الأخرى جاز ان تكون الصفة هي الموصوف ، فجاء ابن عربي وابن سبعين والقونوي ونحوهم من الملاحدة فقالوا : إذا جاز أن تكون هذه الصفة هي الأخرى والصفة هي الموصوف جاز أن يكون الموجود الواجب القديم الخالق هو الموجود الممكن المحدث المخلوق ، فقالوا : إن وجود كل مخلوق هو عين وجود الخالق ، وقالوا : الوجود واحد ، ولم يفرقوا بين الواحد بالنوع والواحد

بالعين ، كما لم يفرق أولئك بين الكلام الواحد بالعين والكلام الواحد بالنوع .

وكان منتهى أمر أهل الالحاد فى الكلام الى هذا التعطيل والكفر والاتحاد الذي قاله أهل الوحدة والحلول والاتحاد فى الخالق والمخلوقات ، كما ان الذين لم يفرقوا بين نوع الكلام وعينه وقالوا هو يتكلم بحرف وصوت قديم ، قالوا أولا : انه لا يتكلم بمشيئته وقدرته ، ولا تسبق الباء السين ؛ بل لما نادى موسى فقال (انني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني) (إنى أنا الله رب العالمين) كانت الهمزة والنون وما بينهما موجودات فى الأزل يقارن بعضها بعضاً ، لم تزل ولا تزال لازمة لذات الله تعالى .

ثم قال فريق منهم : ان ذلك القديم هو نفس الأصوات المسموعة من القراء . وقال بعضهم : بل المسموع صوتان قديم ومحدث — وقال بعضهم : أشكال المداد قديمة أزلية . وقال بعضهم : محل المداد قديم أزلي . وحكي عن بعضهم انه قال : المداد قديم أزلي ، وأكثرهم يتكلمون بلفظ القديم ولا يفهمون معناه ؛ بل منهم من يظن ان معناه انه قديم فى علمه ، ومنهم من يظن ان معناه متقدم على غيره ، ومنهم من يظن ان معنى اللفظ انه غير مخلوق ، ومنهم من لا يميز بين ما يقول ، فصار هؤلاء حلولية اتحادية في الصفات ، ومنهم من يقول بالحلول والاتحاد فى

الذات والصفات ، وكان منتهى أمر هؤلاء وهؤلاء الى التعطيل .

والصواب في هذا الباب وغيره مذهب سلف الأمة وأئمتها : انه سبحانه لم يزل متكلماً إذا شاء ، وانه يتكلم بمشيئته وقدرته ، وان كلماته لا نهاية لها ، وانه نادى موسى بصوت سمعه موسى ، وإنما ناداه حين أتى ؛ لم يناده قبل ذلك ، وان صوت الرب لا يماثل أصوات العباد ، كما ان علمه لا يماثل علمهم ، وقدرته لا تماثل قدرتهم ، وانه سبحانه بائن من مخلوقاته بذاته وصفاته ، ليس في مخلوقاته شيء من ذاته وصفاته القائمة بذاته ، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته ، وان أقوال أهل التعطيل والاتحاد ، الذين عطلوا الذات أو الصفات أو الكلام أو الأفعال باطلة ، وأقوال أهل الحلول الذين يقولون بالحلول فى الذات او الصفات باطلة ، وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع وقد بسطناها فى الواجب الكبير والله أعلم بالصواب .

وسئل رحمه الله

عن المصحف العتيق إذا تمزق ما يصنع به ؟ ومن كتب شيئاً من القرآن ثم محاه بماء أو حرقه فهل له حرمة أم لا ؟

فأجاب : الحمد لله . أما المصحف العتيق والذي تخرق ، وصار بحيث لا ينتفع به بالقراءة فيه ، فانه يدفن في مكان يصان فيه ، كما أن كرامة بدن المؤمن دفنه فى موضع يصان فيه ، وإذا كتب شيء من القرآن أو الذكر فى إناء أو لوح ومحى بالماء وغيره ، وشرب ذلك فلا بأس به ، نص عليه أحمد وغيره ، ونقلوا عن ابن عباس — رضي الله عنهما — انه كان يكتب كلمات من القرآن والذكر ، ويأمر بأن تسقى لمن به داء ، وهذا يقتضي أن لذلك بركة .

والماء الذي توضأ به النبي صلى الله عليه وسلم هو أيضاً ماء مبارك ؛ صب منه على جابر وهو مريض . وكان الصحابة يتبركون بـه ، ومع هذا فكان يتوضأ على التراب وغيره ، فما بلغني أن مثل هذا الماء ينهى عن صبه فى التراب ونحوه ، ولا أعلم فى ذلك نهياً ، فان أثر الكتابة لم يبق بعد المحو كتابة ، ولا يحرم على الجنب مسه . ومعلوم أنه ليس

له حرمة كحرمته ما دام القرآن والذكر مكتوبان ، كما أنه لو صيغ فضة أو ذهب أو نحاس على صورة كتابة القرآن والذكر ، أو نقش حجر على ذلك على تلك الصورة ، ثم غيرت تلك الصياغة وتغير الحجر لم يجب لتلك المادة من الحرمة ما كان لها حين الكتابة .

وقد كان العباس بن عبد المطلب يقول فى ماء زمزم : لا أحله لمغتسل ، ولكن لشارب حل وبل . وروى عنه أنه قال : لشارب ومتوضىء ولهذا اختلف العلماء هل يكره الغسل والوضوء من ماء زمزم ، وذكروا فيه روايتين عن أحمد . والشافعي احتج بحديث العباس ، والمرخص احتج بحديث فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم توضأ من ماء زمزم ، والصحابة توضأوا من الماء الذي نبع من بين أصابعه مع بركته ؛ لكن هذا وقت حاجة .

والصحيح : أن النهي من العباس إنما جاء عن الغسل فقط لا عن الوضوء ، والتفريق بين الغسل والوضوء هو لهذا الوجه ، فان الغسل يشبه إزالة النجاسة ؛ ولهذا يجب أن يغسل فى الجنابة ما يجب أن يغسل من النجاسة ؛ وحينئذ فصون هذه المياه المباركة من النجاسات متوجه ، بخلاف صونها من التراب ونحوه من الطاهرات . والله أعلم .

آخر المجلد الثانى عشر

فهرس المجلد الثاني عشر

صفحة	الموضوع
	الخط العربي من الانبار
٧٠ ــ ٨٠	ان قيل الحرف ــ ونحوه ــ من حيث هو هل هو مخلوق أم لا ؟
٧٣ ــ ٧٨	الكلام يضاف الى المبتدى به لا الى المؤدى ويختلف صوته
٧٤ ــ ٧٨	مسألة اللفظ بالقرآن والايمان هل هما مخلوقـــان أم لا ، مجىء القرآن يوم القيامة
٨١ ، ٨٢	القرآن بين أصول الدين بالادلة العقلية بيانا لا يوجد مثـــله فى كلام الناس
٨٢ ، ٨٣	ما فى حجج المعطلة والدهرية من الفساد والتناقض ، سبب ضلالهم
٨٣ ــ ١١٧	الكلام فى الحروف هل هى قديمة أو مخلوقة وما نقل عن السقطى وأحمد والقاضى وابن عقيل وأمثالهم فى ذلك
٨٥	حديث لما خلق الله الحروف سجدت له الا الالف الخ ضعيف
٨٦ ــ ١١٧	قول السلف لم يزل الله متكلما اذا شاء ، وأن القرآن غـير مخلوق الخ ، الرد على الكلابية ، قولهم فى السمع والبصر ، المحاسبى
٩٦ ، ٩٧	كلام الله وسائر صفاته لا تشبه صفات المخلوقين ، الاشتراك فـى المسمى لايقتضى الاشتراك فى شىء موجود فى الخارج
٩٦ ، ٩٧	الفرق بين قسمة الشىء الى كلياته وقسمة الكل الى أجزائه
٩٨ ــ ١٠٠	الكلام كلام البارى والصوت صوت القارىء ، يجب على الانسان فـى « مسألة الكلام » ان يتحرى أصلين ...
١٠٠ ــ ١٠٢	مسألة الشكل والنقط فى المصحف ، وكيفية ذلك
١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٧ ــ ١٠٩	الحرف والكلمة فى لغة العرب وفى الاصطلاح
١٠٥ ، ١٠٦	القديم فى اصطلاح المتكلمين ، ولفظ المحدث فى لغة القرآن
١٠٦	لفظ القضاء والاداء فى لغة الرسول ، والحديث فى ذلـك ، سبب الغلط فى فهم كلام الله ورسوله
١٠٩ ــ ١١١	فصل ولفظ الحرف يراد به حروف المعانى ، لفظ الحرف فـــى اللغة واشتقاقه ، الحروف أقسام
١١١ ، ١١٢	من تفسير (اقرأ) ، العلم له ثلاث مراتب ، لكل شىء أربع وجودات
١١٢ ، ١١٣	هل وجود كل شىء هو عين ماهيته أم لا ، أكثر اختلاف العقلاء مـن جهة اشتراك الاسمين
١١٣	يجب الاقرار بما جاء به الكتاب والسنة لفظا ومعنى ،
١١٤	لا يجب على أحد أن يوافق على اثبات الالفاظ التى لم ترد فى الشرع ولا على نفيها حتى يستفسر عن المراد بها
١١٤ ــ ١١٦	من أسباب الاختلاف : الالفاظ المجملة ، والمعـــانى المشتبهة ، أو الجهل بما جاء به الرسول

صفحة	الموضوع
١٤٠ ــ ١٤٨	ما هى الحوادث عند من استدل على أن الاجسام لا تخلو من الحوادث وأن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ، التحقيق فى ذلك ، هــل السكون أمر وجودى ؟
١٤٢ ــ ١٤٤	مسألة دوام الحوادث فى الماضى والمستقبل
١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٨	جمهور قدماء الفلاسفة لا يقولون بقدم العالم ولا الافــلاك وانما زعم ذلك أرسطو وأتباعه ، ابطال قولهم ، نزاعهم فى قيــام الصفات والحوادث بواجب الوجود
١٤٤ ــ ١٤٧	ابن سينا أثبت ممكنا قديما وخالفه الفلاسفة وجماهير العقلاء
١٤٥ ــ ١٤٨	زعمهم أن المعلول قد يقارن علته ، أرسطو وأتباعه يرون أن الفلــك قديم واجب الوجود بنفسه ، وأن له علة يتشبه بهـــا ، الفلسفة عندهم ، الازل
١٤٩ ــ ١٥٣	فصل واذا عرف الاصل الذى تفرع منه نزاع الناس فــى « مسألة كلام الله » فالقائلون لذلك الاصل تنازعوا فى كلام الله ، قـــول الجهمية والنجارية والضرارية ، قول المعتزلة ، قول الكرامية ، قول الكلابية والاشعرية ، قول السالمية فى كلام الله ، تعليلهم لهــذه الاقوال والرد عليها
١٥٣	نزاعهم فى القرآن هل هو حال فى الصدور والمصحف أم لا
١٥٤ ــ ١٥٧	قول الفلاسفة فى الافلاك والعالم وفى واجب الوجود وكلامه والملائكة، وقول القدرية فى أفعال العباد ، الرد على الجميع
١٥٧ ــ ١٦٢	قول الصنف الثالث : كل ما قارن الحوادث من الممكنات فهو محدث، وقولهم فى كلام الله . هل الصوت الذى تكلم الله به قديم ؟ وهل حروف المعجم قديمة أو مخلوقة ؟
١٥٩ ، ١٦٠	مراد من قال : « ان الله لما خلق الاحرف سجدت له الا الالف » الخ
١٦٢ ــ ٢٣٥	« المسألة المصرية فى القرآن »
١٦٢	« سئل عمن قال اختــلاف المسلمين فى كلام الله عــلى ثلاثة أنحاء الخ » .
١٦٢ ، ١٦٣	الاقوال التى قالها المنتسبون الى الاسلام فى كلام الله تبلغ سبعة أو تزيد (١) قول المتفلسفة ومن وافقهم
١٦٣ ، ١٦٤	(٢) قول الجهمية من المعتزلة وغيرهم ، أول هؤلاء الجعد بن درهم
١٦٥ ، ١٦٦	(٣) قول الكلابية والاشعرية ، الرد عليهم

صفحة　　　　الموضوع

صفحة	الموضوع
١٩٧	قول القائل ما ثم الا المعنى القائم بالذات ، أو هذه الحروف والاصوات؟
١٩٧ ـ ٢٠١	قوله من قال لفظى عين كلام الله فقد انسلخ عن ربقة العقل وغرق فى بحر العماية والجهل ، الكلام كلام من قاله مبتدئا لا كلام من بلغه ، فرق بين أن يسمع من المتكلم به وبين أن يسمع من غيره
٢٠١ ، ٢٠٢	قول القائل : من قال ان مذهب جهم هو مذهب الاشعرى أو قريب منه فهو جاهل الخ .
٢٠٢	الفرق بين مذهب الكلابية والاشعرية وبين مذهب الجهمية والمعتزلة
٢٠٢ ـ ٢٠٦	حقيقة مذهب جهم والقرامطة والمتفلسفة وابن كلاب والاشعرى والقلانسى والجوينى وأتباعه فى مسائل أصول الدين
٢٠٤ ـ ٢٠٦	الاشعرى ابتلى بطائفتين : طائفة تحبه وطائفة تبغضه ، وكل منهما يقول انما صنف هذه المصنفات تقية ، سبب ذلك وحقيقة الامر
٢٠٦ ، ٢٠٧	الامام أحمد يجهم اللفظية ، ويكفر القائلين بخلق القرآن
٢٠٧ ـ ٢٠٩	نسب القول بأن اللفظ بالقرآن غير مخلوق الى أحمد وغيره من العلماء كما غلطوا أبا طالب فى نقله عن أحمد ووقع نزاع بين أصحاب أحمد وغيرهم بعد موته فى ذلك
٢٠٨ ، ٢٠٩	أعظم ما وقعت فتنة « اللفظ » بخراسان وتحاملوا فيها على البخارى ، سبب ذلك
٢٠٩ ـ ٢١٢	الاشعرى ومن تبعه يوافقون أحمد على الانكار على الطائفتين ، لكن يخالفونه فى سبب الكراهة
٢١١ ـ ٢١٣	كلام أئمة المسلمين فى هذه المسألة أشد الكلام مطابقة للعقل والنقل، قد يكون بعض اختلاف الناس فى هذا الباب اختلاف تنوع
٢١٣ ـ ٢١٧	منشأ نزاع المسلمين فى هذا الباب أن المتكلمين قالوا : لا يمكن معرفة اثبات الصانع الا باثبات حدوث العالم ولا يمكن اثبات حدوث العالم الا باثبات حدوث الاجسام والطريق الى ذلك هو الاستدلال بحدوث الاعراض على حدوث ما قامت به الاعراض ، اعتراضات الناس على طريقتهم
٢١٦ ـ ٢١٩	تناقض الفلاسفة القائلين بقدم النفس والعقل وحدوث الاجسام ، هل النفس عرض قائم بجسم الفلك ؟ أو جوهر قائم بنفسه ؟
٢٢٠ ـ ٢٣٤	الطرق العقلية التى يعلم بها حدوث كل ما سوى الله
٢٢٦ ـ ٢٣٤	قول الفلاسفة بقدم العالم أبطل من قول المعتزلة بنفى الصفات وحدوث العالم ايضاح ذلك
٢٢٩ ـ ٢٣٤	ما ذكره الرازى فى الاربعين يبين أصل الفلاسفة فى التوحيد الذى نفوا به الصفات ، الجواب عن ذلك

٢٣٥ ـ ٢٤٥ « سئل عن بيان ما يجب على الانسان أن يعتقده ويصير به مسلما من أن ما في المصاحف هل هو كلام الله القديم او عبارة عنه الخ » .

٢٤٦ ـ ٢٥٨ « التبيان فى نزول القرآن » .

صفحة	الموضوع

صفحة	الموضوع
٣٢٣ ، ٣٢٤	حكم هذا القول ووجوب انكاره
٣٢٤ ـ ٣٢٩	نص الامام أحمد وغيره من الأئمة على أن كلام الآدميين مخلوق وكذلك أفعالهم ، أدلتهم ، الايمان بالقدر
٣٢٦ ، ٣٢٧	حماد بن زيد ، الثورى ، حماد بن سلمة ، المعتمر بن سليمان ، يحيى بن سعيد القطان
٣٢٧ ، ٣٢٨	اختلاف القدرية فيمن خلق أفعال العباد
٣٣٠ ، ٣٣١	صفات الله داخلة فى مسمى أسمائه ، تنوع دلالة الاسم بحسب قيوده ، العلم أعم من القدرة ، والقدرة أعم من المشيئة
٣٣١ ، ٣٣٣	للعبد مشيئة وقدرة وارادة وفعل ، ينهى عن اطلاق لفظ الجبر
٣٣١	القول بقدم أفعال العباد يجمع ثلاث ضلالات
٣٣٣ ، ٣٣٤	فصل « مسألة اللفظ بالقرآن » قد اضطرب فيها أقوام لهم علم ودين وفضل من أهل السنة والحديث ، سبب ذلك
٣٣٤	التنبيه على « مسألة اللفظ »
٣٣٤ ، ٣٣٥	الناس أقسام (١) المؤمنون وهم الذين آمنوا بالله ورسله وصدقوهم فيما أخبروا وأطاعوهم فيما أمروا (٢) من كفر بهم وكذب بأصل رسالتهم مثل ...
٣٣٥ ، ٥٣٦	حد الكفر وأنواعه
٣٣٦ ـ ٣٤٠	(٣) من آمن ببعض ما جاءت به الرسل وكفر ببعض ، أو آمن ببعض صفات الرسالة وكفر ببعض ، حكم هؤلاء
٣٣٩ ، ٣٤٠	تفسير (ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك) الآيات
٣٤٠ ـ ٣٤٢	ذم أهل التفرق والاختلاف فى الكتاب ، الامر بالايمان بالكتب المنزلة والعدل بين الناس
٣٤٣	فصل وكان فى الكفار بأصل الرسالة من قال : ان الرسول ساحر وشاعر ونحو ذلك
٣٤٣ ، ٣٤٤	الوليد فكر تفكير الفلاسفة المخالفين للرسل ، ايضاح ذلك
٣٤٣ ، ٣٤٤	الانتقال من التصور الى التصديق ، القياس ، ومتى يكون صحيحا ، لا بد فى كل قياس من قضية كلية
٣٤٤ ، ٣٤٥	بطلان قولهم الواحد لا يصدر عنه الا واحد ، الجواهر العقلية المجردة عن المادة
٣٤٥	القياس نوعان : قياس الشمول ، وقياس التمثيل، هل مسمى القياس حقيقة فى التمثيل مجاز فى الشمول أو بالعكس ، أو يتناولهما
٣٤٥ ـ ٣٤٧	هل يفيد قياس التمثيل اليقينى ، وهل يستعمل فى العقليات دون قياس الشمول ، مآل القياسين واحد
٣٤٧ ـ ٣٥٠	السلف لا يستعملون القياسين الا على وجه الاولى

صفحة	الموضوع
٢٤٧ ـ ٢٤٩	عامة المطالب لا يحتاج فيها الى القياس المنطقى ، والامور المعينة لا تعلم بمجرد القياس
٢٤٨ ، ٢٤٩	يزعم هؤلاء أن علم الله وعلم أنبيائه انما حصل بواسطة القياس المنطقى ، خاصة النبى عندهم
٣٥٠	الجهمية أنكروا بعض حقيقة الرسالة التى هى كلام الله وأنكروا بعض ما فى الرسالة من صفات الله
٣٥٠ ، ٣٥١	أول من أظهر التعطيل فى الاسلام قتل بفتوى التابعين
٣٥١	الجهمية بنت مقالتها على قاعدة مبتدعة الصابئين ، وهم موافقون لفرعون فى جحد الصانع
٣٥١ ـ ٣٥٤	كلام الله والملائكة . وخاصة النبى عند الصابئة والمتفلسفة ، الجهم كان أولا ينكر أن يكون لله كلام
٣٥٢	الأئمة كانوا يعرفون مقصد الجهمية ويصفونهم بالزندقة
٣٥٣ ، ٣٥٤	مشائخ الصوفية كفروا ابن سبعين وأمثاله ، كلام الله عندهم
٣٥٤ ، ٣٥٥	المعتزلة يوافقونهم فى أن الله لا يتكلم حقيقة ، كلامه عندهم مخلوق ، حكمهم عند السلف
٣٥٥ ـ ٣٥٩	قول أهل السنة والجماعة وجماهير الامة فى القرآن وفى كلام الله وسائر صفاته
٣٥٦ ـ ٣٥٨	اصطلح المتفلسفة على تقسيم المتقابلين الى العدم والملكة ، معنى ذلك، راجت شبهتهم على بعض أهل النظر ، الاجوبة عن هذه الشبهة
٣٥٩ ـ ٣٦٦	اللفظية وبدعتهم ، التلاوة ، والقراءة ، والاصوات ، اختلاف الناس فى هذه المسألة بعد أحمد ، وما نسب الى البخارى فيها
٣٦٦ ـ ٣٦٨	ابن كلاب ومن سلك طريقته فى آخر عصره، افتراقهم فى القرآن وغيره
٣٦٨ ، ٣٦٩	حذر أحمد عن أصل ابن كلاب وعن أصحابه كالحارث ، متى ظهر من قال ان الله لم يتكلم بصوت ، ومن قال : ان الحروف مخلوقة . انكار أحمد وغيره على الجميع
٣٦٩ ، ٣٧٠	نزاع الناس فى زمن أحمد وبعده فى معنى كون القرآن غير مخلوق هل المراد به أن نفس الكلام قديم أزلى كالعلم ، أو أن الله لم يزل موصوفا بأنه يتكلم اذا شاء ، مبنى هذا الخلاف
٣٧١ ، ٣٧٢	بعضهم يقول هو قديم ولا يفهم معنى القديم
٣٧٢ ـ ٣٧٥	قول أهل السنة فى كلام الله ، مسألة اللفظية الخلقيه واللفظيه المثبتة ، والتلاوة ، والقراءة ، وما يريد ابن كلاب بهما أيضا
٣٧٤ ، ٣٧٥	غلط من زعم أن الصوت المسموع من العبد هو صوت الرب
٣٧٦ ـ ٣٨٠	سبب خطأ ابن كلاب والاشعرى، هؤلاء خالفوا أئمة السنة والحديث فى شيئين ،قد يستدلون باضافة الرسول على أنه أحدث حروفه
٣٨٠	فصل ثم ان فروخ اللفظية النافية تفترق هل

صفحة	الموضوع
	منازعيها انهم يقولون القرآن ليس الا الاصوات المسموعة من العبد والمداد المكتوب فى الورق وأنهما قديمان
٣٨١ ، ٣٨٢	فروخ اللفظية المثبتة تفترى أيضا على منازعيها أن القـــرآن ليس محفوظا فى القلوب ولا متلوا بالالسن و لامكتوبا فى المصاحف
٣٨٢ ــ ٣٨٥	مقالة أهل العلم والشريعة فى المصحف وفى العدل بين هذه الطوائف
٣٨٥ ــ ٣٨٩	كل شيء له أربع مراتب ما للقرآن فيها
٣٨٨ ــ ٣٩١	الرد على من زعم أن من قال أن القرآن فى الصدور أو المصاحف فقد أشبه النصارى
٣٩٢ ، ٣٩٣	فصل وصار هؤلاء الذين غلطوا مذهب اللفظية الخ انما يعنـــون بالقراءة أصوات القارئين وبالكتاب مداد الكاتبين ويعنون أن هـــذا غير المعنى القائم بالذات ونما هو دلالة عليه وعبارة عنه
٣٩٤	فصل وصار أولئك الذين غلطوا مذهب اللفظية المثبتة يلزم أحدهم أن الصوت القديم يسمع من القارىء ويوهمون المخالف لهم أن عين الصوت المسموع من العبد هو عين الصوت الذى تكلم الله به الخ
٣٩٥ ــ ٤٠٧	فصل ومن تأمل نصوص أحمد فى هذا الباب وجدها من أسد الكلام وأتم البيان الخ منشأ النزاع بين أهل الارض فى هذا الباب يعــود الى أصلين (١) تكلم الله بكلامه • سبب ذلك أن التكليم والتبليـــغ والوحى مراتب ودرجات
٤٠٧	فصل فى الاصل الثانى وهو تكلمنا بكلام الله
٤٠٧ ــ ٤٠٩	ما يقرأه المسلمون : هو كلام الله ، لا كلام غيره : حروفه ومعانيــه
٤٠٩ ــ ٤١١	التلاوة ، واللفظ ، والقراءة ،
٤١١ ــ ٤١٧	قول القائل هذا كلام الله
٤١٣ ــ ٤١٦	سبب نزاع العلماء فى حروف الهجاء والاسماء المنزلة فى القـــرآن وفى كلمات القرآن اذا تمثل الرجل بها ولم يقصد بها القراءة هــل يقال مخلوقة أو ليست مخلوقة ؟
٤١٧	الأئمة الكبار كأحمد لم يتنازعوا فى شيء من هذا الباب
٤١٧ ، ٤١٨	أول من ابتدع الجهمية ومن ناظرهم . انكار بعضهم أن تـــكون حروف القرآن كلام الله أو أن يتكلم بصوت ، وقابلهم مــن زعم أن ألفاظ العباد وأصواتهم غير مخلوقة الخ
٤١٨ ــ ٤٢٠	الكتب التى يوجد فيها الرد على الجهمية والواقفة
٤٢١	من أنكر بدعة اللفظية ، والقول بأن كلام الله حكاية او عبارة
٤٢١ ــ ٤٢٩	من انكر البدعة الثانية وهى بدعة اللفظية المثبتة
٤٢٩	فصل وأما نصوص أحمد وغيره على خلق كلام الآدميين وخلق أفعال العباد فكثيرة ، بل هو اجماع

صفحة	الموضوع
٤٣٠ ، ٤٣١	فصل وانما نبهت على أصل مقالة أحمد وسائر أئمة السنة وأهل الحديث فى مسألة تلاوتنا للقرآن لانها أصل ما وقع من الاضطراب فى هذا الباب
٤٣١ ، ٤٣٢	هذه المسألة لها أصلان (١) أن أفعال العباد مخلوقة (٢) مسألة تلاوة القرآن وقراءته واللفظ به
٤٣٢ ، ٤٣٣	رد أحمد على اللفظية النافية أكثر وأغلظ لوجهين
٤٣٣ ، ٤٣٤	فصل وقد نص أحمد على أن كلام الله غير مخلوق فى غير موضع
٤٣٤ ـ ٤٣٧	كل صفة قامت بمحل يلزمها أمور ، المعتزلة تريد أن تنقض هذه القاعدة على الصفاتية وأهل السنة بالخالق والرازق ... هذا النقض لا يلزم جماهير الامة وعامة أهل السنة
٤٣٦ ، ٤٣٧	الخلق من صفات الذات وصفات الفعل معا ، وهو غير مخلوق
٤٣٨ ـ ٤٤١	فصل وأما قول القائل ان أحمد انما قال ذلك خوفا من الناس فجوابه ، أو جز كلمة فى أحمد وامامته وصبره فى المحن
٤٤١ ـ ٤٦٤	فصل شبهة هؤلاء أنهم وجدوا الناس قد تكلموا فى خلق حروف المعجم وأسماء المخلوقات وأنها متفقة مع الفاظ وحروف كلام الله ، التحقيق فى ذلك ، وبيان أن كلام الانسان كله مخلوق حروفه ومعانيه ، والقرآن غير مخلوق حروفه ومعانيه
٤٤٥ ـ ٤٤٨ ، ٤٥٢ ـ ٤٥٤ ، ٤٥٨	احتجوا بقوله (وعلم آدم الاسماء كلها)، ماذا علم آدم من الاسماء ؟ وهل اللغات توقيفية ؟
٤٤٨ ، ٤٤٩	ما فى القرآن من حروف المعجم بالنسبة الى أوائل السور وغيرها ، والحكمة فى اختيار بعضها دون بعض
٤٥٤ ، ٤٥٥	من مقالات غلاة المشركين والكتابيين فى الله وفى غيره
٤٥٦ ، ٤٥٧	يطلق القول بأن كلام الآدميين مخلوق ، الكلام عند الاطلاق يتناول اللفظ والمعنى جميعا
٤٥٨ ـ ٤٦٣	الكلام هو كلام من ألف معانيه وألفاظه وان كان جميع ما فيه من الاسماء والحروف انما تعلمها من غيره
٤٥٩ ، ٤٦٠	الكلام فى لغة العرب ، ما يعتبر كلاما فى الصلاة وفى اليمين عند الفقهاء
٤٦٠	علم الكلام المذموم ، الكلام فى اصطلاح الاصوليين وعند النحاة
٤٦٢ ، ٤٦٣	الناس فى الكلام قسمان : قسم جعلوا كلام الله كلام أنفسهم وقسم جعلوا كلامهم هو كلام الله ، والوسط ...
٤٦٤ ، ٤٦٥	فصل وأما سؤال السائل هل يجب على ولى الامر زجرهم وردعهم ؟
٤٦٤	يجب الانكار على كل من أظهر مقالة تخالف الكتاب والسنة ، ويجب الاعتصام بهما

صفحة	الموضوع

